هيرمان بارتزينغر

أبناء بروميثيوس

تاريخ البشرية قبل اختراع الكتابة



ترجمة: د. إلياس حاجوج

هيرمان بارتزينغر

أبناء بروميثيوس

تاريخ البشرية قبل اختراع الكتابة



ترجمة: [illegible] ـاجوج

مراجعة: مصطفى السليمان

GN740 .P34125 2021

Parzinger, Hermann

أبناء بروميثيوس : تاريخ البشرية قبل اختراع الكتابة / تأليف هيرمان بارتزينغر ؛ ترجمة إلياس حاجوج ؛ مراجعة مصطفى السليمان. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2021.

ترجمة كتاب: Die Kinder des Prometheus: Eine Geschichte der Menschheit vor der Erfindung der Schrift

تدمك: 978-9948-33-145-2

1- الأنثروبولوجيا- عصور ما قبل التاريخ. 2- إنسان ما قبل التاريخ. 3- الآثار- عصور ما قبل التاريخ. أ- حاجوج، إلياس. ب- سليمان، مصطفى. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:

Hermann Parzinger

Die Kinder des Prometheus: Eine Geschichte der Menschheit vor der Erfindung der Schrift

---

صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام- وزارة الثقافة والشباب- رقم الطلب MC-03-01-4321572.

طبع في المتحدة للطباعة والنشر- أبوظبي- 80022220






تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

أبناء بروميثيوس

تاريخ البشرية قبل اختراع الكتابة

تخليداً لذكرى

ف. غوردون تشيلد

غيورغ كوساك

هيرمان مولر- كاربه

وكلّ الآخرين الذين

م العلمي.

المحتوى

مقدمة

في البدء كانت الكلمة، وربما أيضاً مجرد صوت نخير، مصحوب بتعبير موافق في الوجه، على أن الكتابة لم تكنْ في البداية بالتأكيد. لنتساءلْ إذن: كيف بدا العالم حينما لم تكنْ هناك كتابة بعد؟ والكلمة تحتاج إلى مُتلَقٍّ - هو الإنسان. من هنا يُفترَض أن يحتلّ عالمُه، عالمُ الإنسان قبل الكتابة، قلبَ هذا الكتاب.

تُعدّ الحضارات الأولى لبلاد ما بين النهرين ومصر أقدم الحضارات، وهي ثقافات نشأت على امتداد أنهار كبيرة - دجلة والفرات والنيل - أي في مناطق شديدة الخصوبة ازداد فيها عدد السكّان بسرعة، وسرعان ما كان عليهم إدارة اقتصادهم بشكل منتج للتمكّن من إطعام البشر الذين يعيشون في مراكز التجمّعات الحضرية الناشئة. وقد تطوّر في هذه المواقع المركزية كلّ من التخصّص وتقسيم العمل والإنتاج الواسع والتجارة البعيدة. ولكن هذا تطلّب قدرة على التخطيط ومؤهلات قيادية، لكي ينمو كلّ شيء وتزدهر هذه المجتمعات وتتمخّض عن ظروف حضرية أولية، بل عن ظروف الدولة المبكّرة. وفي نهاية هذا التطوّر كانت هناك سلطة سياسية ودينية، غالباً ما تجلّت في الأشكال الضخمة من المباني والقبور والفنّ التمثيلي. وتطلّبت هذه السلطة تنظيماً وإدارة لم يكونا ممكنين لولا الكتابة. والحق أننا نتعرّف إلى بدايات الكتابة في أنظمة الإشارات في بلاد ما بين النهرين وفي وادي النيل في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. مع ذلك كانت ثقافات ما قبل التاريخ الأقدم بكثير تتواصل سلفاً عن طريق الإشارات والرموز والصور، التي كثيراً ما يبقى مضمونها الحقيقي خفياً علينا اليوم، بينما استطاع أفراد أجيال عديدة «قراءة» رسائلها وفهمها على مدى فترة طويلة من الزمن.

من هنا يمكن القول إنه إذا قبل المرء - تبعاً لعادة شائعة - أن التاريخ لا يبدأ إلّا مع الكتابة، يكون بذلك قد وضع قاعدة تعسّفية - سواء فيما يخصّ التاريخ أم فيما يخصّ الكتابة. على أن هذا

سيكون مجحفاً بحق الظروف الثقافية ـ التاريخية والتطوّرات الاقتصادية والقضايا الاجتماعية ـ السياسية الفعلية في ذلك الزمن المبكّر. عندما ينشط الإنسان ويعمل بصورة خلّاقة يقرّر مصيره بنفسه دائماً ويشكّل التاريخ. من هذه الناحية نخطئ إن نحن أنكرنا تاريخية حياة أسلافنا الأوائل وزمنهم وفرغنا منهما بوصفهما ماقبل التاريخ. بيد أن هذا يحتاج إلى وسائل وسُبُل خاصة لقراءة المصادر المتاحة من آلاف وعشرات الآلاف من السنين قبل الميلاد، أي إرث الثقافة المادية، بشكل صحيح. وفي هذا الصدد أثبتت الإمكانات المتزايدة لاكتساب المعرفة العلمية أنها مُثرية بشكل غير عادي، ولم يعدْ بإمكان أيّ محاولة لإعادة بناء سليمة لأقدم فترات التاريخ أن تفلح من دونها.

هذا الكتاب هو محاولة لمقاربة الثقافات التي لا عداد لها، والتي أنتجها الإنسان في أفريقيا وفي الشرق الأوسط منذ أن طوّرت القردة الشبيهة بالإنسان (Hominidae) - أسلاف الإنسان الحديث الحالي ـ المشي المنتصب واستخدام اليد القابضة قبل ملايين السنين. ابتداءً من تلك اللحظة تسارعت عملية نشأة الإنسان الثقافية بصورة حثيثة، حتى وإن دام الأمر مئات الآلاف من السنين قبل أن تحدث واحدة من أهم الثورات في تاريخ البشرية ربما حتى الآن: بدايات الاستقرار وبدء الاقتصاد الإنتاجي. وقد نشأت نتيجة هذه الانقلابات مجتمعات معقّدة، انتقل بعض منها لاحقاً إلى ثقافات كتابية؛ على أن هذا يخرج عن موضوع هذا الكتاب.

لم يتكلّمْ غوردون تشيلد في الثلاثينيات دونما سبب عن «ثورة العصر الحجري الحديث»، مع ذلك تبيّن معارف السنوات والعقود الأخيرة في النهاية أن الحديث لا يمكن أن يدور عن «ثورة». فقد كانت تربية الحيوانات المنزلية، شأنها شأن تدجين النباتات، حصيلة آلاف السنين من عمليات التكيّف مع البيئة الطبيعية ومع ما قدّمته هذه الأخيرة من أجل الحياة والبقاء. لا شك في أن القوة الدافعة الخاصة لمواصلة التطوّر انبثقت بشكل أساسي من نزوع الإنسان المستمر إلى تحسين ظروف المعيشة في بيئة تتغيّر المرة تلو الأخرى. ترجع أصول السمات الثقافية للمجتمعات المستقرّة ذات الاقتصاد الريفي جزئياً إلى عهد مُغرق في القدم بشكل مذهل.

إذا أردنا مقاربة الثوابت الأنثروبولوجية الأساسية للإنسان فلا مفر من المقارنة بين مناطق مختلفة جداً. ويمكن أن تظهر في ذلك توازيات وفوارق أساسية، وذلك في سببية الأحداث كما في توثيقها الزمني وامتدادها، إذا ما نظرنا مثلاً في الظروف في الشرق الأوسط أو في وسط أفريقيا.

أما المصادر التي يجب النظر فيها لنستمدّ منها المعارف حول الظروف المعيشية لأسلافنا الأوائل فتتكوّن من الحجر والعظام والخشب والمعدن والفخّار. وتشكّل المستوطنات، التي استقرّ فيها البشر بصورة مؤقتة أو دائمة، فئة مركزية من المكتشفات. لا شك في أن الطريق من

المعسكرات، التي كان الصيادون والجامعون يقصدونها بصورة مؤقتة، مروراً بقرية التجمّعات الاستيطانية ذات الاقتصاد الريفي وصولاً إلى المواقع الحضرية المركزية المبكّرة المحكومة من قبل النخب وذات التحصينات والمباني الضخمة وأحياء الوُرَش، هي طريق طويلة وتعكس التطوّرات الثقافية بطريقة خاصة تماماً.

ولكن الدراسات والتحرّيات في أماكن الدفن أيضاً أثبتت أنها مثمرة بصفة خاصة. وهي تسمح في بعض الأحيان باستنتاجات تتعلّق ببنية المجتمع، لا بل بأفكار وتصوّرات من دفنوا موتاهم. أخيراً سوف نتعرّف على الشواهد المبكّرة على الفنّ، بدءاً بالصور الصخرية، التي لا تزال جودتها الفنّية وقوتها التعبيرية تدهش الناظر إلى اليوم. حتى إنه من الممكن في بعض الأحيان الحديث بشكل مسوَّغ عن بدايات الفردية والملْكية وتصوّرات العالم الآخر، بل عن المقولات الأكثر تجريداً مثل الحكْم والسيادة الإقليمية.

برلين، خريف 2020

هيرمان بارتزينغر

I تطوّر الدماغ البشري وتبعاته الثقافية



فأس يدوية من العصر الحجري القديم

1
بالأيدي القابضة والأدوات الحصوية:
أسلاف الإنسان الأوائل في أفريقيا

لم تُستكمَلْ بعد كتابة تاريخ نشأة الإنسان. يطالعنا العلم المرة تلو الأخرى بمكتشفات جديدة تسمح بتتبّعٍ أدق للمسارات المتعرّجة لعائلة القردة العليا أو القردة الشبيهة بالإنسان، أو ما يُسمّى أسلاف الإنسان (Hominidae)، وصولاً إلى *الإنسان العاقل* (Homo sapiens). وتقدّم دراسات علم الوراثة على الحمض النووي الـ (DNA) القديم معارف هامة في هذا السياق. على أن مسار نشأة الإنسان لا يزداد بذلك وضوحاً وحسب، وإنما يزداد تعقيداً والتباساً أيضاً. ولا يزال أمام الأبحاث في هذا الميدان إنجاز الكثير جداً قبل الوصول إلى برّ الأمان. نعلم أن جينومنا (genome) يتطابق مع جينوم الشيمبانزي بنسبة تصل حتى 95 بالمئة؛ صحيح أن هذا لا يعني أن الإنسان يتحدّر من الشيمبانزي، ولكنه يعني أنه لا بد من وجود أسلاف مشتركين - في مكان ما وفي وقت ما من الماضي البعيد قبل 10 إلى 5 ملايين سنة.

أوسترالوبيثيكوس أفارنسيس

استطاع الإنسان أن يصبح الإنسان لأن أسلافه اهتدوا إلى المشي المنتصب، فيما كبُرَ حجم الدماغ وازدادت عظام الوجه تسطّحاً. كلّ هذا ميّز *أوسترالوبيثيكوس* المنتشر في أفريقيا فقط، والذي يُؤرَّخ أول ظهور له في الوقت الحاضر قبل نحو 7 ملايين سنة (الشكل 1، الخريطة 1). وقد ظهرت أولى المكتشفات في حوض بحيرة تشاد، وجاءت أحدث المكتشفات من بلدة تونغ الجنوب أفريقية وعمرها 5 ملايين سنة. من غير المؤكّد ما إذا تمكّنت سائر أنواع *أوسترالوبيثيكوس* من المشي المنتصب منذ البداية. ربما تمتّع أقدم ممثّلي *أوسترالوبيثيكوس* أفارنسيس تحديداً، قبل ما يزيد

عن 3 ملايين سنة، بطريقة خاصة تماماً من الحركة والتنقل. ويُفترَض أن مجالهم الحيوي كان يتكوّن من غابات غير كثيفة، حيث يغلب الظنّ أنهم أقاموا على الأشجار، لا سيما من أجل النوم، ولكنهم كانوا قادرين سلفاً على المشي على الأرض بانتصاب بين الحين والآخر - طريقة في الحركة والتنقل واصلوا تطويرها فيما بعد.

المشي المنتصب واليد القابضة

على أن المشي المنتصب ليس إنجازاً للكائن البشري، وإنما يمثّل شرطاً هاماً له. إذ يندرج كلّ من المشي المنتصب واليد القابضة متعدّدة الاستخدامات بدايةً ضمن الإرث الحيواني للإنسان. فمع المشي المنتصب حظيت اليدان فجأةً بأهمية جديدة كلياً. وأخذت حساسيتهما تزداد باستمرار. وتحوّلت اليد القابضة إلى عضو للفهم. والحق أن هذه الصلة الوثيقة بين اليد والعقل لا تزال تظهر في حياتنا اليومية من خلال الحركات الإيمائية، التي كثيراً ما ترافق الكلام. بخلاف القدم الأشد مرونة غريزياً تُعدّ اليد عضو العمل. وقد استطاع الإنسان المبكّر عن طريقها أن يستوعب العمل وأن يطوّر، من خلال إشارات اليد والأصابع، نوعاً أولياً من القدرة على التفاهم مع أفراد نوعه. تبيّن المشاهدات عند الأطفال المكفوفين ولادياً أن الكلام باليدين هو مكوّن مكمّل للعملية اللغوية. وقد أمكن للغة المفاهيم أن تنشأ عن طريق تمايز الأصوات المرافقة للغة الجسد. وهذا التعبير اللغوي يدعم أو بالأحرى يحلّ محلّ تعبير الوجه والحركات الإيمائية، إنما من دون إلغاء هذه الأخيرة بشكل كامل بالطبع.

التمثيلي، الذي عزّز بدوره تعبير الوجه والحركات الإيمائية ومكّن في النهاية من النطق اللغوي



الشكل 1: الترتيب الزمني لأسلاف الإنسان؛ لا تزال إعادة البناء الدقيقة لعلاقات القربى بينهم قيد النقاش في الأبحاث

وقد دعمت حساسية اليدين المتنامية عند أسلافنا القدرة البشرية النوعية على الإيضاح التمثيلي، الذي عزّز بدوره تعبير الوجه والحركات الإيمائية ومكّن في النهاية من النطق اللغوي

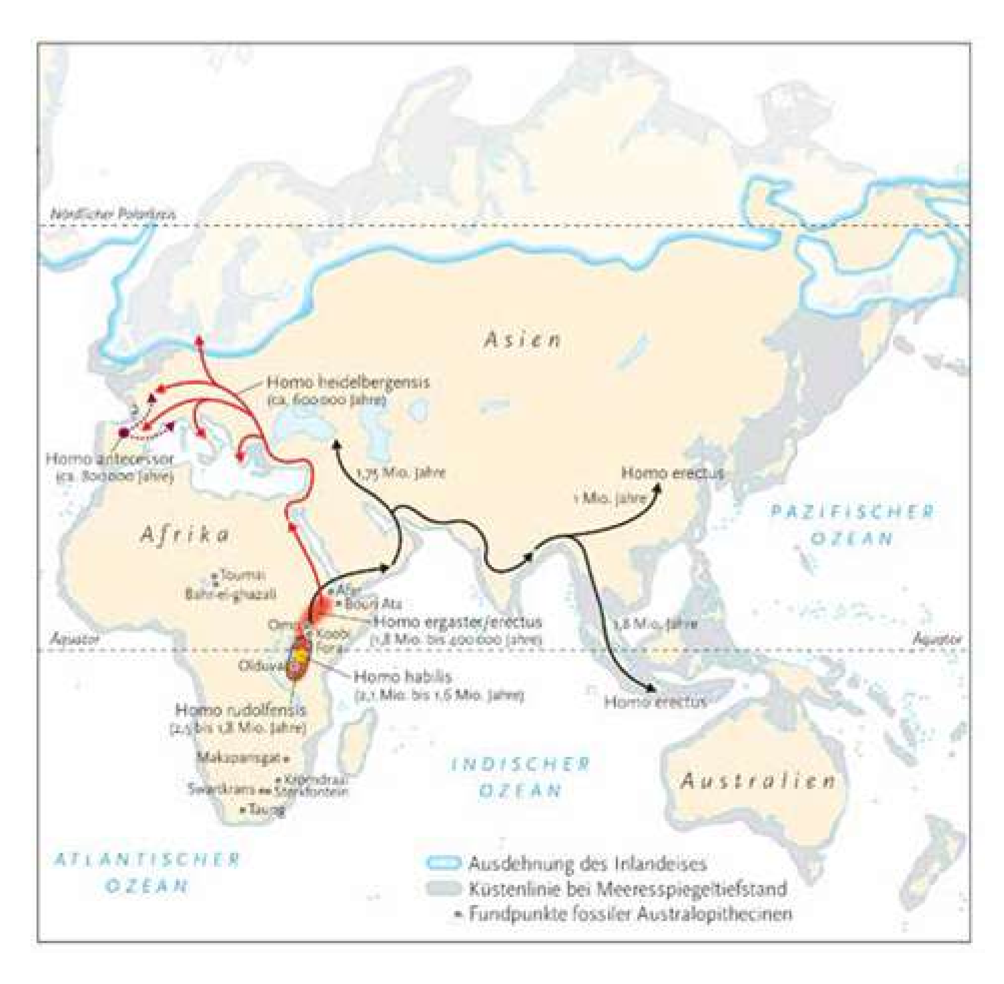
وحتى الموسيقي. تماشت هذه العملية المعقّدة مع تشكّل تدريجي للدماغ، ونشأ في نهاية المطاف ذكاء تحليلي وتفكير كلّاني صالح لحلّ المشكلات. يرتبط كلّ هذا سببياً وصميمياً بالطريق إلى الكائن البشري.

لوسي

تظهر معظم الأدلّة على أسلاف الإنسان الحالي في شرق وجنوب أفريقيا، ويُفترَض أن مشيه المنتصب لم ينشأ إلّا بالتدريج البطيء. والحق أنه لم يتم العثور إلّا على عظام مفردة من أجزاء مختلفة كلياً من الجسم كشواهد على هذا الزمن المبكّر. يتحدّر واحد من أقدم الهياكل المحفوظة بالكامل تقريباً حتى الآن - والمسّمى لوسي - من إثيوبيا، وعمره 3.9 إلى 3.2 مليون سنة. يُقدَّر عمر هذه المرأة بـ 25 سنة وطولها بـ 105 سنتيمترات. كان وزن *أوسترالوبيثيكوس* يتراوح بين 30 و 40 كيلوغراماً، ويُفترَض أن طول الذكور لم يتجاوزْ 1.30 إلى 1.40 متر. بالتالي لم يكونوا أطول بكثير من الشيمبانزي الواقف بانتصاب.

تضخّم جهاز المضغ

قبل نحو 3 ملايين سنة حدث تغيّر مناخي في أجزاء واسعة من شرق وجنوب أفريقيا أدى إلى المزيد من الجفاف، فاختفت الغابات، التي كانت تقدّم الطعام الغضّ من ثمار وأوراق. وانتشرت مكانها بشكل متزايد الأراضي العشبية الشبيهة بالسافانا، التي لم تعدْ تنمو فيها الأشجار إلّا بشكل متفرّق. وتغيّر بذلك العرْض الغذائي أيضاً، الذي طرح، بأعشابه وبذوره وجذوره الأشد صلابةً نسبياً، تحدّيات جديدة على المجموع الحيواني. وكان على *أوسترالوبيثيكوس* أن يتكيّف مع هذا المجال الحيوي؛ بوصفه كائناً نباتياً فقد طوّر جهاز مضغ مثيراً للإعجاب. وأبدت طواحنه سطوح مضغ متضخّمة للغاية، حتى إن عضلات المضغ القوية جداً بدأت بتشكيل أسنان دقيقة وفكّ أصغر. كانت كلّ هذه التغيّرات الأساسية، مع المشي المنتصب وتضخّم جهاز المضغ، حصيلة حدثيات تكيّف طبيعية تدريجية حدثت على مدى مئات آلاف إلى ملايين السنين. والحق أن عالم الحيوان، الذي لا يجوز رسم حدود صارمة له عن الأسلاف فيما يخصّ هذه الحقبة، خضع لعمليات مماثلة أيضاً.



الخريطة 1: أسلاف الإنسان الأوائل في أفريقيا
وانتشار *الإنسان المنتصب* (Homo erectus) أو
بالأحرى *الإنسان العامل* (Homo ergaster) إلى
آسيا وأوروبا

أقدم الأدوات البشرية من وادي أولدوفاي

أما إلى أيّ مدى كان *أوسترالوبيثيكوس* قادراً في حينه على استخدام الأدوات بما يفوق مستوى الشيمبانزي، فهو أمر يتملّص من المعرفة الموثوقة. على أن *أوسترالوبيثيكوس* أفارنسيس (الشكل 1) أقدم بنحو 500000 سنة على أية حال من أقدم الأدوات الحجرية التي نعرفها. ترجع أقدم آثار لهذه الأدوات إلى ما قبل 2.7 مليون سنة تقريباً. وقد تم اكتشافها في وادي أولدوفاي في شرق أفريقيا، لذلك توصَف حقبة أقدم ثقافة مادية للإنسان بمجملها منذ ذلك الحين بـ (أولدوفان). تميل الأبحاث بشكل متزايد في هذه الأثناء إلى الرأي القائل بوجوب أخذ *أوسترالوبيثيكوس* بالحسبان على أنه صانع أدوات من حقبة أولدوفان المبكّرة، حتى وإن لم يكنْ بالإمكان إقامة الدليل الصريح

على ذلك، كما يُناقَش كلّ من إنسان رودولفنسيس (إنسان بحيرة رودولف) والإنسان الماهر (Homo habilis) بوصفهما صانعي أدوات كذلك؛ ولا يزال على الأبحاث المستقبلية أن توضّح هنا الكثير من الأمور.

استخدام الأدوات عند الحيوانات

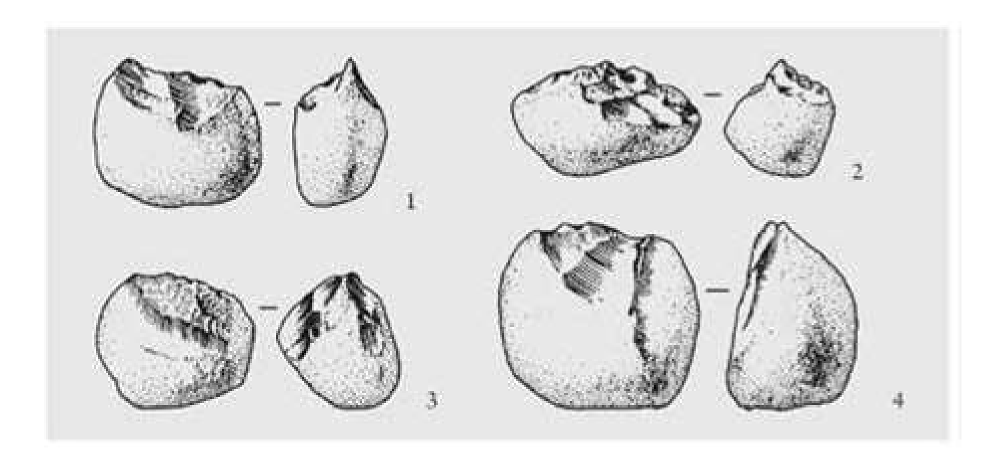
كانت الحيوانات أيضاً، ولا تزال، قادرة على تحقيق مفاعيل تقع خارج نطاق إمكانات جسدها الوظيفية، وذلك عن طريق الاستعمال الهادف لأشياء جامدة. وهي غالباً ما تغيّر في ذلك شكل الشيء المعني أو موضعه، أي أنها تخلق لنفسها أداة. والحق أن اكتشاف <ورشة شيمبانزي> يزيد عمرها على 4000 سنة بالقرب من نولو في حديقة تاي الوطنية، من قبل زملاء معهد ماكس بلانك لعلم الإنسان التطوّري في لايبزيغ، له دلالة خاصة في هذا السياق. وقد استُخدِمَت الحجارة المكشوف عنها هناك في تكسير المكسّرات.

تبيّن مثل هذه المكتشفات أن سمات ثقافية معينة لطالما نسبها المرء للإنسان - وتوقّعها منه - حصراً، مثل انتقاء مواد خام وإعدادها واستخدامها الهادف في أعمال مقرَّرة تماماً في مكان محدَّد، هي من خواص الشيمبانزي أيضاً. وتتّفق مع هذه الصورة مجموعات الشيمبانزي في السنغال، التي تصيد فرائس بالرماح أو تجمع العسل بأدوات أخرى.على أن استخدام الأدوات عند الحيوانات لا يقتصر على القردة الشبيهة بالإنسان بأيّ حال من الأحوال. إذ يمكن أن يُشاهَد عند الفيَلة أيضاً، كما يصحّ الشيء نفسه على الدلافين على سبيل المثال، التي تضع إسفنج البحر المخلوع على خطومها مثل قفّازات قبالة سواحل أستراليا، لكي تقي نفسها من الأذية أثناء بحثها عن الطعام في قاع البحر.

أدوات حقبة أولدوفان

مع ذلك تُعدّ أقدم الأدوات الحجرية على مستوى العالم والمصنوعة من قبل الإنسان في أولدوفاي (الشكل 2)، والتي كانت منتشرة بدايةً في شرق أفريقيا قبل كلّ شيء، أول تعبير عن الثقافة البشرية وعملاً واعياً وهادفاً للإنسان الأول. ترجع حقبة أولدوفان في أفريقيا، والتي توصف أحياناً بـ «العصر الحجري القديم» أيضاً، إلى ما قبل بداية العصر الجليدي، أي قبل نحو 2.7 إلى 1.5 مليون سنة. وقد انتهى الجزء الأقدم منها، أي الأولدوفان المبكّر، قبل نحو 2 مليون سنة. والحق أن الإنسان المبكّر في أولدوفاي خلّف آثاراً وأدوات حجرية لا توجد في الطبيعة ببساطة. فقد صنعها

بشكل مقصود وهادف، وأعطاها أنسب شكل بالنسبة له من جهة؛ ومن جهة أخرى واصل تطوير هذا الشكل واستكماله بناءً على خبراته المكتسَبة أثناء استخدامه لها. ومن الواضح أنه كان مدركاً للصفات الخاصة لمواد خام مختلفة لجهة قابليتها للانقسام. لا شك في أن عملية تصنيع أداة حجرية تكشف عن نوعية جديدة كلياً في قدرة هذا النوع على التخطيط من حيث انتقاء المواد الخام الصالحة كحجر طرق والأداة المراد إنتاجها وتنفيذ سلسلة كاملة من الطرقات. تُعدّ هذه اللحظة الحاسمة، التي يتم فيها تطوير سلاسل الأفعال المعقّدة وتنفيذها بشكل ممنهَج، نقطة تحوّل في تطوّر الإنسان، حيث يتميّز ابتداءً منها عن الحيوانات وعن القردة الشبيه بالإنسان.



الشكل 2: أقدم أدوات البشرية: أدوات حصوية من وادي أولدوفاي في تنزانيا

قدرة على التخطيط وسلاسل الأفعال عند إنتاج الأدوات الحجرية

باستخدام أقدم ما يُسمّى الأدوات الحصوية في الأولدوفان المبكّر (الشكل 2) قام الإنسان المبكّر بقطع أجزاء من قطعة خام بوساطة حجر طرق، بغية إنتاج حواف حادة؛ حيث أدى هذا العمل إما باليد الحرة أو بمساعدة نوع من السندان. وبأقدم الأدوات الحجرية هذه يبدأ التارخ الثقافي للإنسان. وقد استعمل هذه السواطير الحجرية حادة الحواف المصنوعة من قبله لتقطيع أجساد الحيوانات أو لفصل اللحم عن العظم أو لكسر الطعام النباتي صلب القشرة. من الواضح تماماً أنه انتقى لأدواته بشكل هادف ومقصود مثل هذه الحصى، التي توفّر أنسب سطوح الطرق الممكنة. كما تبوح أقدم القطع بالمعرفة المدهشة للإنسان الأول بخواص الانقسام للصخور السيليكية (الحاوية على السليكا). على أنه أبقى على القطع الناتجة عن شطر هذه الحجارة على حالها في البداية بغية إنتاج حواف حادة؛ إذ لم يكنْ يعرف بعد إجراء التنميق والرتوش لمواصلة شحذ وتوطيد هذه

الحواف. إضافة إلى أدوات القطْع ذات الحواف الحادة قام بتصنيع أدوات حصوية ذات حواف منحوتة من أجل الأعمال الأكثر خشونة.

أدوات حصوية حادة الحواف

من المستبعَد أن يكون الإنسان قد استطاع الصيد في ذلك الوقت سلفاً. ويُرجَّح أنه كان آكل جيف في البداية، حيث فضّل أن يأكل ما تتركه الحيوانات المفترسة من فريستها؛ بيد أنه هو نفسه كان يقتل مثل هذه الحيوانات الكبيرة أيضاً، في حال سقطت أو لم تعدْ قادرة على الحركة لسبب من الأسباب. مع ذلك كان استخدام أدوات القطْع أمراً لا غنى عنه في ذلك أيضاً، في حال أراد الإنسان تقطيع هذه الحيوانات النافقة أو المقتولة. إذ لم يكنْ في مقدوره انتزاع الأجزاء اللحمية وتمزيقها بمساعدة فكّه المصمَّم لهرس وطحن الطعام النباتي في الغالب.

آكل جيف بدلاً من صيّاد

يمكن القول إذن إن البشر الأوائل لم يكونوا مهيّئين ليكونوا حيوانات مفترسة. لذلك وجدوا أنفسهم أمام مهمة تقسيم الجثّة إلى قطع صالحة للأكل بطريقة أخرى. ولم تنفتحْ أمامهم فرصة تطوّر جديدة إلّا عندما تعلّموا هذا وباتت لحوم الحيوانات الكبيرة جزءاً متزايد الأهمية من الغذاء البشري.

ولكن مَن صنع أقدم الأدوات الحجرية هذه؟ صحيح أنه من غير المستبعَد - كما قلنا - أن يكون *أوسترالوبيثيكوس* قد استخدم يده في صناعة أقدم الآثار الحجرية العائدة إلى ما قبل 2.7 مليون سنة، ولكن هذا الأمر لا يمكن إثباته بشكل صريح حتى الآن. مع ذلك عندما انبثق الإنسان الماهر عن *أوسترالوبيثيكوس*، دخل الميدان ذلك الممثّل للإنسان الأول، الذي يمكن ربطه بشكل موثوق بالأدوات الحجرية للأولدوفان المبكّر، وذلك بناءً على مكتشفات الطبقة الجيولوجية الموافقة. يُعدّ الإنسان الماهر حتى الآن أقدم ممثّل لنوعنا، والذي ترى الأبحاث أنه كان قادراً على صناعة الأدوات. ولا توجد شواهد على هذا الإنسان المبكّر إلّا في شرق وجنوب أفريقيا، ولكن ليس في أوراسيا. وكان شكل وجهه أكثر تسطّحاً وجمجمته أكبر حجماً قياساً إلى *أوسترالوبيثيكوس*، ولكنه لا يزال قصير القامة (1.20 - 1.40 متر). وفي حين كان *أوسترالوبيثيكوس* نباتياً يُفتَرض بـ *(الإنسان الماهر)* أنه آكل كلّ شيء ويميل إلى أكل اللحوم.

الإنسان الماهر

إن الموقع الفعلي لـ *(الإنسان الماهر)*، الذي ظهر في نطاق التطوّر البشري لأول مرة قبل نحو 2 مليون سنة، لا يخلو من الجدل (الشكل 1). ففي حين يراه البعض أقرب إلى *أوسترالوبيثيكوس*، ينطلق آخرون من أنه عاش إلى جانب *الإنسان المنتصب* بشكل متزامن مدة تصل إلى نصف مليون سنة وأنه بقي أثناءها يشغل بعض الأركان البيئية حتى النهاية. مهما يكن من أمر: لا شك في أن القرائن، التي تسمح بترتيب الإنسان الماهر لجهة موقعه في مسيرة تطوّر الإنسان بطريقة ما بين *أوسترالوبيثيكوس والإنسان المنتصب*، هي قرائن معقولة على الرغم من كلّ الشكوك والفرضيات المختلفة. مع ذلك، وتبعاً للمستوى الراهن للأبحاث، لم يعدْ بالإمكان الانطلاق من أن الإنسان الماهر كان سلفاً مباشراً لـ *(الإنسان المنتصب)*.

2
من آكل الجيف إلى الصيّاد المتخصّص: الطريق الطويلة لـ *(الإنسان المنتصب)*

الإنسان المنتصب

يبلغ عمر أقدم المكتشفات لـ *(الإنسان المنتصب)* والإنسان العامل القريب له نحو 2 مليون سنة. يتعلق الأمر في ذلك بأول شكل للإنسان المبكّر، والذي كان منتشراً سواء في أفريقيا أم في أوروبا وآسيا. وقد تطوّر عن *الإنسان المنتصب* لاحقاً في أوروبا إنسان نياندرتال وفي أفريقيا *الإنسان العاقل*، أي الإنسان الحديث. يُداني *الإنسان المنتصب* في طوله الإنسان الحالي بلا شك، بيد أن حجم دماغه يساوي نصف حجم دماغ الإنسان الحالي ـ كانت الطريق إلى الإنسان الحالي لا تزال طويلة. بالمقارنة مع *أوسترالوبيثيكوس* الأقدم تبدي أشكال *الإنسان المنتصب* طواحن أصغر بوضوح، مما يسمح بالاستنتاج أن طعامه كان يحتوي في الغالب على مكوّنات أشد طراوةً: ثمار وجذور، ولحوم أيضاً. يُفترَض أن تحوّل الإنسان المبكّر من آكل الجيف إلى الصيّاد بشكل نهائي قد تم في حقبة *الإنسان المنتصب*.

إنسان جاوا وإنسان بكين

يتم اليوم إلحاق الكثير من المكتشفات الأحفورية بـ *(الإنسان المنتصب)*، والتي تم تزويدها في السابق بأسماء وأنواع مختلفة. منها إنسان جاوا (*أنثروبيثيكوس*) وكذلك إنسان بكين (*سينانثربوس بكيننسيس*). ولكن المكتشفات العظمية، التي ظهرت في أفريقيا وأوروبا وآسيا وتسمح بإلحاقها بمجموعة *الإنسان المنتصب*، تبدي توزّعاً مورفولوجياً كبيراً إلى حد بدا معه للأبحاث أنه من المفيد التفريق بين سلالات وأنواع فرعية عدة. والحق أن توصيف هذه الأخيرة بشكل كامل

سوف يأخذنا بعيداً في هذا السياق، لا سيما أن الأبحاث لا تزال جارية في هذا الميدان أيضاً وتطالعنا بنتائج جديدة باستمرار. نكتفي هنا بذكر الإنسان العامل، وهو نوع أفريقي يرجع إلى فترة ما قبل 1.9 إلى 1.4 مليون سنة (أي أنه ممثّل لهذه الحقبة بشكل خاص) وبالتالي يُعدّ واحداً من أقدم أنواع *الإنسان المنتصب*.

الاكتشافات الجديدة في دمانيسي وأتابويركا

تسمح المكتشفات الجديدة القادمة من مدينة دْمانيسي في جيورجيا والمؤرَّخة في الفترة نفسها بالكلام في هذه الأثناء عن إنسان جيورجيا هناك، في حين ساعدت اكتشافات مفاجئة في بلدة أتابويركا القشتالية في تحديد الإنسان السلف (Homo antecessor). طبيعي أن نتائج الأبحاث ليست مؤكَّدة ولا غبار عليها دائماً. ولكن المؤكَّد هو أن الفكّ السفلي المعروف سلفاً منذ أوائل القرن العشرين من ماور بالقرب من هايدلبرغ يُعدّ ممثّلاً لأشكال *الإنسان المنتصب* في أوروبا الوسطى، والتي تُجمَع منذ ذلك الحين تحت اسم إنسان هايدلبرغ (Homo heidelbergensis).

حصة الإنسان المنتصب في تاريخ البشرية

في حين ترجع بدايات *الإنسان المنتصب* إلى ما قبل 2 مليون سنة، يرجع أحدث أشكاله اللاحقة إلى نحو 300000 سنة مضت. في نطاق هذه الفترات الزمنية الطويلة جداً بالنسبة لوعينا، ناهيك عنها بالنسبة لإحساسنا، والتي تشمل جزءاً كبيراً من تاريخ البشرية بمجمله، يمكن تمييز ثلاث حقب كبيرة: 1. حقبة أولدوفان المتطوّر المقصورة على أفريقيا قبل 2 إلى 1.5 مليون سنة، 2. حقبة أشوليان المنتشرة إلى أوروبا وآسيا مع الفؤوس اليدوية قبل 1.5 مليون إلى 500000 سنة، 3. الحقبة الموثَّقة بشكل جيد في أوروبا من 500000 سنة مضت حتى انقراض إنسان هايدلبرغ. وقد استطاعت الأبحاث تقسيم هذه الحقبة الأخيرة بصورة أدق؛ كثيراً ما تجري التطوّرات جزئياً بالتوازي أيضاً ويحلّ أحدها محلّ الآخر تدريجياً، على أن هذا لا يُعتدّ به في هذا السياق.

الأولدوفان المتطوّر

يبدي الأولدوفان، الذي بدأ بالتطوّر قبل 2 مليون سنة، طيفاً متمايزاً من الأدوات قياساً إلى الفترة السابقة. المميّز في ذلك هو تهيئة سطوح الطرق للتمكّن من إحداث الطرقات وتوجيهها بشكل

هادف بغية الحصول على الشكل المطلوب بصورة أفضل. إلى ذلك يزداد عدد أدوات القطع بشكل كبير، في حين تصبح الأدوات الحصوية أكثر ندرةً. أي أن صناعة الأدوات الحجرية تمرّ بعملية أولى نحو مزيد من الكمال والإتقان، والتي تقوم على خبرات في التعامل مع الأحجار الحاوية على السيليكا. كما يُعثَر على أولى القطع ذات الحواف المعدَّلة والمنمَّقة بشكل لاحق، حتى وإن كانت الرتوش لا تزال غائبة، والتي لا تسم إلّا مرحلة أحدث بكثير في إنتاج الأدوات الحجرية. على الرغم من التقدّم الواضح الموصوف لجهة الفعل الهادف والمدروس عند الإنسان المبكّر لا تزال تُفتقَد الأشكال القياسية الموحَّدة. علاوةً على ذلك يتولّد الانطباع كما لو أن هذه القطع الأثرية، التي أمكن استخدامها كمكاشط أو مكاحت أو محافر، قد نشأت بالمصادفة.

كما يمكن إلحاق أقدم آثار الاستيطان بمرحلة الأولدوفان المتطوّر من الفترة قبل 2 إلى 1.5 مليون سنة. وقد تم اكتشاف معسكرات الإنسان المبكّر في أماكن مختلفة من شرق أفريقيا، لا سيما على ضفاف الأنهار والبحيرات. وقد تم العثور في أولدوفاي نفسه، وفي مواقع أخرى في شرق أفريقيا أيضاً، على دوائر من الحجارة كانت تشكّل على ما يبدو قاعدة لأكواخ دائرية بسيطة. وقد ظهرت في داخلها عظام مشطورة ومعالَجة لا حصر لها. بيد أن المرء كثيراً ما كان يقطّع الحيوانات في المكان الذي يغتنمها فيه مباشرة. والحق أن مواقع المياه تلعب دوراً هاماً في هذا السياق، ذلك أن جميع الثدييات تقصدها. وعلى غرار الحيوانات المفترسة كان الإنسان أيضاً ينتظر فريسته هناك - وقد تحوّل إلى حيوان مفترس في ذلك الوقت على أبعد تقدير. حيث استعاض عن افتقاد القدرة الجسدية والأكف ذات المخالب والأسنان المفترسة بالتفكير والتصرّف الهادف.

الإنسان المنتصب يتحوّل إلى صيّاد

عند النظر في عظام تلك الحيوانات، التي قطّعها الإنسان في المعسكرات، يلفت النظر أن الأمر كثيراً ما كان يتعلق بثدييات كبيرة: فيلة، وحيد القرن، أفراس النهر، حمير الوحش، زرافات، خيول، أيائل، أبقار.. إلخ. إذن، وفي حال حالفه الحظّ، كان الإنسان المبكّر يتوافر على كميات هائلة من اللحوم دفعة واحدة، ولم يكنْ في مقدوره حفظها بالطبع في ذلك الوقت - وهي مثلبة تزداد سوءاً إذا علمنا أن هذه الحيوانات تتحدّر من طبيعة عشبية مفتوحة ذات مناخ معتدل، مما يعني فساد الفريسة بسرعة. على أن ثمة ميزة كانت تكمن في أن العديد من هذه الأنواع، ونظراً لحجمها الكبير، كانت تتفوّق على الإنسان بشدة على مدى فترة طويلة من التطوّر، وبالتالي لم تكنْ تخشاه مبدئياً؛ وهكذا ربما استطاع الإنسان الأفضل تطوّراً فيما بعد أن يقترب منها من دون مشكلات كبيرة وأن

يرديها بسهولة نسبياً. ومن المرجَّح على أية حال أنه لم يكنْ لدى الإنسان أيّ فرصة بعد للنجاح في صيد الغزلان وحمير الوحش السريعة للغاية في ذلك الوقت. أما فيما يخصّ استهلاك الفريسة فتبيّن بقايا الحيوان المقطَّع أن الإنسان لم يكتفِ بأكل لحمها فقط، وإنما قام بتكسير العظام أيضاً بانتظام للوصول إلى نقي العظم الغني بالمواد المغذّية.

أسلحة الصيد المبكّرة

من الجدير بالملاحظة على ما يبدو أنه لم يتم العثور بين العظام، التي لا حصر لها في مواقع معسكرات الأولدوفان المتطوّر، على بقايا <مورِّدات اللحوم التقليدية> وحسب، وإنما وُجِدَت بقايا حيوانات مفترسة خطيرة على الإنسان أيضاً، كالقطط ذات الأنياب الحادة والضباع والذئاب والدببة.. إلخ، على سبيل المثال. كانت هذه الحيوانات منافسِاته في صيد الفرائس وسقطت هي نفسها فريسة له على ما يبدو. بما أن مثل هذه الحيوانات يصعب قتلها بالقِطَع أو بالكرات الحجرية يُفترَض أن الإنسان استخدم في ذلك الوقت سلفاً أسلحة صيد أخرى، مثل الرماح والحراب المصنوعة من الخشب؛ على أن هذه الأخيرة قد تحلّلت بشكل كامل في الفترة الزمنية الطويلة الممتدة على الـ 1.5 مليون سنة الأخيرة، مما يجعلنا نقتصر على الفرضيات.

الأشوليان وأولى الفؤوس اليدوية

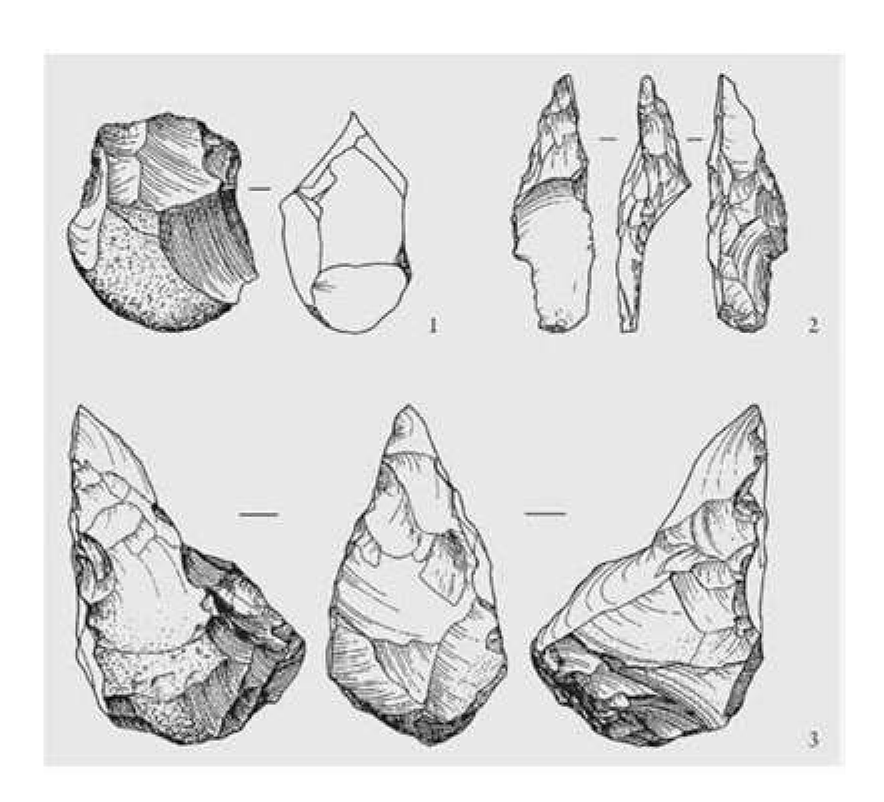
نشأت أولى الفؤوس اليدوية أخيراً عن الأدوات الحصوية الحادة في الأولدوفان المتطوّر في أفريقيا قبل 1.5 مليون سنة. يُعدّ ما يُسمّى الأشوليان أقدم ثقافة أثرية يقرّرها وجود الفؤوس اليدوية. وقد نشأ شكلها النموذجي عن طريق معالجة السطحين الجانبيين للأدوات الحصوية المدبّبة في الأعلى والمدوّرة في نهايتها السفلية من أجل استعمال أفضل وأسهل. ربما يُعدّ الإنسان الماهر سلفاً، ولكن على وجه الخصوص الإنسان العامل و*الإنسان المنتصب* أول صانع لأولى الفؤوس اليدوية. نصادف مع هذه الفؤوس اليدوية في الأشوليان الأفريقي قِطعاً حجرية أيضاً (الشكل 3). عندما تحتوي المكتشفات على أقدم الفؤوس اليدوية يدور الكلام عن الأشوليان؛ وإذا لم تكنْ موجودة وُصِفَت الفترة بالأولدوفان المتطوّر. يبيّن هذا أن هاتين الفترتين الزمنيتين المحدّدتين بأشكال الأدوات الحجرية لم تتلُ إحداهما الأخرى بشكل صارم، وإنما حلّت محلّها بشكل تدريجي؛ إذن فقد تم صنع أدوات هاتين الحقبتين واستخدامها بشكل متزامن على مدة فترة زمنية طويلة - وبالتالي كان هناك أيضاً تعايش بين أصحاب ثقافتي الأدوات هاتين.

انتشار الأشوليان إلى أوروبا

يظلّ الأشوليان حتى قبل 1 مليون سنة ظاهرة أفريقية خالصة بدايةً؛ حيث تم اكتشاف الأدوات النموذجية لهذه الحقبة في القارة بأكملها. فقط بعد ذلك تنتشر عبر الشرق الأوسط إلى أجزاء أخرى من العالم أيضاً، وذلك مروراً بآسيا الصغرى وأجزاء أخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط وصولاً إلى أوروبا من جهة، وعبر شبه الجزيرة العربية والمرتفعات الإيرانية وجنوب الصين والفيليبين وصولاً إلى جنوب شرق آسيا من جهة أخرى. يرجع تاريخ أقدم فؤوس أشوليان اليدوية في منطقة البحر الأبيض المتوسط إلى 800000 سنة تقريباً، وفي شمال جبال الألب بعد ذلك بـ 200000 سنة على الأقل. هناك تدرّج زمني إذن في انتشار الأشوليان من أفريقيا إلى آسيا وأوروبا. من المؤكَّد أن الحقيقة التي مفادها أن الفترات الباردة اشتدّت ابتداءً من 1 مليون سنة مضت، مما أدى إلى تزايد الأنهار الجليدية في شمال أوراسيا وإلى الجنوب في المناطق الجبلية، تلعب دوراً في ذلك أيضاً. وقد قيّدت هذه الأنهار الجليدية المياه على شكل جليد، مما أحدث في أوروبا انخفاضاً في منسوب البحار؛ وهكذا برزت ممرات برّية جديدة عملت كجسور ثقافية في الوقت نفسه.

الاستفادة الشاملة من فرائس الصيد والجمع الانتقائي

لم يتغيّر الكثير في أفريقيا في الفترة اللاحقة حتى قبل 500000 سنة. تعود معظم مكتشفات الأشوليان - كما هي الحال في الأولدوفان المتطوّر - إلى المواقع الميدانية المكشوفة. وتسمح آثار القطْع في عظام الفرائس، التي تم اكتشافها هناك، بالافتراض أن الحيوانات كان يتم سلخ جلودها وفصل أوتارها سلفاً. على أن هذا لايعني شيئاً إلّا إذا كان الصيّادون يُجيدون أيضاً الخطوات الحاسمة لمواصلة معالجة هذه المواد: يجب أن تخضع الجلود بدايةً لنوع من الدباغة قبل إمكانية الاستفادة منها كملابس، كما يجب تجفيف الأوتار قبل أن يتمكّن المرء من الانتفاع منها. تثبت الأحجار، التي استُخدِمَت في تكسير المكسّرات، أن المرء تصرّف بشكل منهجي ومنظَّم وانتقائي على ما يبدو، عندما كان يحصل على طعام نباتي ذي مدة صلاحية أطول. يشهد كلّ هذا على تواصل جدير بالملاحظة في التطوّر وتزايد في المعارف والخبرات والمهارات.



الشكل 3: أدوات حجرية نموذجية للعصر الحجري القديم من فترة الإنسان المنتصب من العبيدية في فلسطين

السيطرة على النار

تلعب مسألة السيطرة على النار دوراً مركزياً في هذا السياق. فقد شكّل ترويض الحرائق الطبيعية بعد الصواعق وتقنية إيقاد النار فيما بعد خطوتين حاسمتين في تطوّر الثقافة البشرية. حيث سهّل الطهي أو التحمير على نار مكشوفة عملية تفكيك الطعام وبالتالي خفّفا العبء عن الجهاز الهضمي. ولم يستطع الميل المتزايد باستمرار إلى استهلاك اللحوم منذ أيام *الإنسان المنتصب* أن يحقّق الاختراق الحاسم أخيراً إلّا لأنه أصبح من الممكن في وقت ما إعداد اللحم بمساعدة النار وبالتالي تسهيل تناوله. فضلاً عن ذلك مكّنت النار الإنسان المبكّر من إطالة مدة صلاحية اللحوم وغيرها من الأطعمة الحاوية على البروتين عن طريق تقنية التدخين. يُفترَض بهذه المهارة أن تكون ذات أهمية حاسمة في استراتيجية البقاء عند المجموعات المتجوّلة من الإنسان المبكّر، التي إما أنها كانت تبحث عن حيوانات كبيرة نافقة أو تهدف إلى صيدها. على أن جهد الصيد الضروري لاغتنام حيوانات كبيرة لم يسفرْ عن معناه أخيراً إلّا عندما توافرت أيضاً إمكانية حفظ جزء من جبل اللحم على الأقل، الذي يوفّره فيل على سبيل المثال، لبعض الوقت على الأقل. عندما تسنّى لمجموعة ما

هذا الضمان المؤقت للمؤونة الغذائية، توفّرت لها مساحات لأنشطة أخرى أيضاً، ذلك أن كرْب البحث الدؤوب الضروري للبقاء عن مصادر الغذاء تراجع بشكل واضح.

الحماية والضوء والدفء عن طريق النار

أخيراً وليس آخراً قدّمت النار حماية من الحيوانات المفترسة أيضاً، أسوأ أعداء الإنسان حتى ذلك الحين. فضلاً عن أنها أبعدت الحشرات - لا بل استطاع المرء الاستفادة منها في إطار المطاردة والصيد. على أن التوقيت، الذي تعرّف فيه الإنسان لأول مرة على إمكانات النار واستخدمها، يظلّ معلّقاً، نظراً لتعذّر تقديم أدلّة أثرية على ذلك. ولكن النار وفّرت في الوقت نفسه الدفء والضوء، وبالتالي إمكانية التقدّم إلى مناطق أشد برودةً بشكل دائم لأول مرة. لعل الرغبة في تفسير انتشار *الإنسان المنتصب* والأنواع القريبة له من أفريقيا إلى أوروبا وآسيا بالاستفادة من النار حصراً هو أمر مبالغ فيه. غير أنه من الثابت أن السيطرة عليها شكّلت شرطاً حاسماً لانتشار الإنسان واستيطان العالم. تنطلق الأبحاث على أية حال من أن احتلال مناطق وسط أوروبا شمال جبال الألب من قبل إنسان هايدلبرغ لم يكنْ ممكناً إلّا لأنه أجاد التعامل مع النار.

مواقد النار وبعدها الاجتماعي

كما كان للنار، فضلاً عن ذلك، بعْد اجتماعي هام؛ فقد جمع تأثير النار المدفّئ والحامي المجموعة من حولها، وهكذا تحوّل موقد النار إلى أول مركز اجتماعي للحياة البشرية. وإذا بحثنا عن مكان يمكن للغة أن تكون قد نشأت فيه في ذلك الماضي البعيد، فهو هذا المكان بالضبط، والذي لا يمكن تبادل الخبرات والتجارب والمعارف فيه من دون استعمال اللغة. من هنا لا يمكن المبالغة في تقدير أهمية السيطرة على النار في تاريخ البشرية.

أقدم المؤشرات على استخدام النار

لا تزال أقدم المؤشّرات المزعومة على استخدام النار من قبل *أوسترالوبيثيكوس* أو الإنسان الماهر قبل ما يزيد على 2 مليون سنة موضع جدل وغير موثوقة إلى اليوم. ولا يزال الاكتشاف القادم من أولدوفاي، والذي يرجع إلى 1.4 مليون سنة تقريباً ويدلّ على استخدام النار، يحتلّ رأس القائمة، غير أن عدد الأدلّة لا يزداد هناك إلّا بين 1 مليون و500000 سنة مضت. يعود أحد أقدم

الإثباتات خارج نطاق أفريقيا إلى شمال فلسطين (جسر بنات يعقوب)، حيث عُثِرَ على إرث *الإنسان المنتصب* جنباً إلى جنب مع آثار طعام بشري محروق ترجع إلى نحو 700000 سنة مضت: بالإضافة إلى أدوات حجرية صغيرة، يسمح توزّعها المكاني باستنتاج وجود مواقد نار، اكتُشِفَ هناك بقايا محروقة من نباتات صالحة للأكل أيضاً (شعير برّي وخشب أشجار زيتون برّية وكرمة برّية). تبعاً لذلك لم يستخدم المرء النار إذن لزيادة الفائدة الصحية وتسهيل هضم اللحوم وحسب، وإنما أعدّ بمساعدتها الطعام النباتي أيضاً. ويجدر بالملاحظة في هذا السياق أن الإنسان تغذّى على الشكل البرّي من الشعير، الذي كان يتم جمعه قبل زراعته بآلاف السنين.

شروط استيطان المناطق الباردة

حدث أول تقدّم جليدي كبير (فترة إلستر الباردة) قبل حوالي 500000 ألف سنة. كانت أجزاء واسعة من شرق ووسط أوروبا مغطّاة بالأنهار الجليدية الداخلية في ذلك الوقت. وفيما بعد امتدّت ما تُسمّى السهوب الباردة على تربة اللوس من المحيط الأطلسي غرباً إلى بحر الصين شرقاً. وهي عبارة عن طبيعة عشبية مترامية الأطراف ذات مناخ جاف جداً، لم تنمُ فيها الأشجار والشجيرات إلّا بالقرب من ضفاف الأنهار والبحيرات. كانت مناطق السهوب هذه غنية بالطرائد، وأمكن إثبات وجود فيلة ووحيد القرن، مثلها مثل قطعان الخيول والثيران والرنّة. ونظراً للتقلّبات الشديدة في درجات الحرارة بين الصيف والشتاء يُفترَض أن هجرة الحيوانات الموسمية كانت هي القاعدة. وقد تبع الإنسان هذه الطرائد بلا شك. ومن الممكن جداً تصوّر أن مثل هذا المجال الحيوي كان مناسباً للإنسان الباحث عن الحيوانات الكبيرة، أو بالأحرى صائدها، أكثر من الغابات الكثيفة. بيد أن شروط إقامته في هذه المناطق تمثّلت في الملابس الدافئة والسكن الدافئ، وبالتالي السيطرة على النار. فضلاً عن أن الملابس والمساكن الأكثر دفئاً اشترطت قدرة الإنسان على سلخ جلود فرائسه ومعالجتها الموافقة. واندرج في ذلك أيضاً القدرة على وصل القطع الجلدية بعضها مع بعض وإنتاج قطع الملابس بهذه الطريقة. كما ذكرنا سابقاً، تشير علامات القطْع على عظام الحيوانات في بعض الأحيان إلى أن الإنسان المبكّر أتقن خلال الأشوليان سلفاً مهارة انتزاع الأوتار من أجساد الحيوانات وتجفيفها ومن ثم خياطة الجلود بمساعدتها إلى قطع ملابس أو إلى أغطية أكبر للأكواخ وصالحة للشتاء كذلك.

انتشار إنسان هايدلبيرغ

في الجزء الأخير من العصر الحجري القديم المبكّر - أي قبل 400000 إلى 300000 سنة مضت - كانت النار قد أصبحت رفيقاً دائماً للإنسان في سائر أنشطته. والحق أن عدد المواقع المكتشفة الموافقة لهذه الفترة تزايد بشكل قافز، لاسيما في أوروبا (إيطاليا، إسبانيا، فرنسا، ألمانيا، جنوب إنجلترا). قد يكون هذا مرتبطاً بانتشار إنسان هايدلبيرغ، ولكنه ربما لا يعكس سوى تحسّن وضع الأبحاث بشكل كبير أيضاً. وعلى الرغم من تزايد المؤشّرات على الطعام النباتي، إلّا أن اللحوم شكّلت المكوّن الرئيس للتغذية.

معسكر بيلتسينغسليبن في تورينغيا

مع ازدياد عدد المواقع ازداد أيضاً عدد الأدلّة على الصيد. والحق أن المواقع، التي تم فيها اكتشاف كميات كبيرة من عظام الحيوانات، تتمتع بأهمية كبيرة من أجل التقييم. إما أنه تم استيطان هذه الأماكن وقتاً طويلاً أو كانت تُقصَد دورياً وبشكل متكرّر. وقد ظهر مكتشَف فريد من هذا النوع في بلدة شوننغن في مقاطعة هيلمشتت. حيث تم العثور على ضفاف بحيرة ضحلة هناك على معسكر صيد مؤقت، مثلما كان يكثر وجوده في ذلك الوقت. كما ظهر مكتشَف مشابه في موقع بيلتسينغسليبن في تورينغيا. يبيّن الموقعان كلاهما أن الإنسان المبكّر فضّل اختيار معسكراته في العراء بالقرب من المياه. وقد وُجِدَت في المحيط المباشر في كلا الحالتين غابات فيضية غنية بالأنواع وغابات بلّوط غير كثيفة، إضافة إلى حقول من الشجيرات ومروج مفتوحة وفّرت نباتات مختلفة صالحة للأكل وخدمت كملاذ للحيوانات الصغيرة. ويُفترَض أن أسلافنا اصطادوا السمك في برك الينابيع المجاورة. يكفي اختيار أماكن إقامة كهذه ليشهد على الخبرة والتصرّف الموزون. أسفرت الحفريات في بيلتسينغسليبن عن مؤشّرات على مساكن بسيطة مع مواقد نار ومناطق عمل أمامها. وقد اتّسمت المساقط الأفقية للأكواخ بأحجار وعظام كبيرة مرتَّبة على هيئة دائرة. كما ظهرت مكتشفات مشابهة في مواقع إسبانية ترجع إلى هذه الفترة كذلك. لا نعرف المزيد عن بناء الأكواخ، غير أنه يجوز لنا بالطبع أن نفترض هيكلاً خشبياً وسقفاً من القصب والأغصان.

معسكر صيد في شوننغن في ساكسونيا السفلى

في شوننغن تم اكتشاف ما يزيد على 20000 من عظام الثدييات الكبيرة، التي تحمل آثار قطْع بأدوات من حجر الصوّان؛ ويُرجَّح أن الأمر في ذلك يتعلق بشواهد على مجموعة صيّادين خبيرة وناجحة، ربما كانت متخصّصة بصيد فرائس معينة تماماً. يعود أكثر من 90 بالمئة العظام

إلى خيول برّية، علاوةً على ذلك تم إثبات وجود عظام ثيران برّية وأيائل حمراء وحمير برّية. كلّ هذه البقايا وُجِدَت في شريط من الضفة عرضه 10 أمتار وطوله 50 متراً. لا شك في أن اكتشاف العديد من الرماح الخشبية، التي تم إرداء الحيوانات بها على ما يبدو، كان ضربة حظّ نادرة في سياق هذه المكتشفات. والحق أن أسلحة الصيد هذه بقيت محفوظة لأنها غاصت في رواسب الضفّة، حيث نجت في غياب الهواء، وهكذا أمكنها أن تغيّر صورتنا عن الإنسان المبكّر من فترة *الإنسان المنتصب* أو بالأحرى إنسان هايدلبرغ بشكل دائم.

صيد جماعي لخيول برّية

فإذا انطلق المرء حتى الآن من أن هذه الأنواع من الإنسان المبكّر تغذّت على الجيف حصراً أو لم تنشطْ بعد كصيّادين ناجحين، فإن مكتشفات شوننغن تثبت العكس تماماً. كما أدى اكتشاف وجود الرماح إلى استنتاج أنها كانت جزءاً من معدّات مشروع صيد، كانت مجموعة كاملة من الصيّادين قد أردت خلاله قطيعاً مؤلّفاً من 20 حصاناً برّياً تقريباً. وكان هذا بمثابة أقدم برهان لا يتطرق إليه الشك على صيد جماعي متخصّص. إلى ذلك ظهرت في بيلتسينغسليبن عظام فيل غابات ووحيد قرن غابات - بالتالي فقد عمل *الإنسان المنتصب* صيّاداً للطرائد الكبيرة أيضاً بلا شك. من المؤكَّد أنه لا يمكن تصوّر أن صيد حيوان كبير منفرد أو قطعان منه كان إنجازاً فردياً، وإنما هو عمل يتطلّب مجموعة من الصيّادين. على أن هذه المجموعة يجب أن تكون قادرة على التخطيط والتواصل لضمان تنسيق العمل الضروري لمثل هذا الصيد. هذا ما يسمح باستنتاج وجود سلوك اجتماعي مركّب وقدرة ثقافية متطوّرة عند الإنسان المبكّر في ذلك الوقت.

صيد جماعيكميات هائلة من اللحوم ونقي العظم الغني بالمواد المغذّية لخيول برّية

أسفر عدد الخيول التي تم إرداؤها في شوننغن عَمَّا يُقدَّر بـ 2 طن من اللحوم من دون احتساب نقي العظم الغني بالمواد المغذّية. بذلك يطرح نفسه لامحالة السؤال عن حفظ هذه الاحتياطيات غير المحدودة تقريباً. لو لم يتوافر الصيّادون على إمكانات موافقة لكان صيد 20 حصاناً في وقت واحد مجرد إضاعة للوقت والطاقة. لما كان المنقّبون قد وقعوا في شوننغن على مواقد نار عديدة ومرتَّبة فمن الجائز الافتراض أن اللحوم قد تم حفظها عن طريق تحضير خاص.

رماح شوننغن الخشبية

يسمح تصنيع رماح شوننغن من خشب التنوب والصنوبر باستنتاجات مثيرة للاهتمام. يتراوح طولها بين 1.80 و 2.50 متر وتبدي بمركز ثقلها الكائن في الثلث الأمامي من السلاح، والذي يؤثّر في خصائص الرمي بشكل حاسم، شبهاً كبيراً برماح المسابقات الرياضية الحديثة. فضلاً عن ذلك كانت تتمتع بخواص تحليق رائعة ـ أمكن رمي النسخ المصنَّعة طبق الأصل عنها إلى مسافة تزيد على 70 متراً. أبدت العصا المصنوعة من خشب التنوب، التي عُثِرَ عليها مع رماح شوننغن، آثار حرق، ولذلك تم تأويلها على أنها نوع من «السيخ»؛ على أنها ربما كانت عبارة عن جزء من رمح تمت تقسيته في النار بشكل مقصود.

عصر خشبي بدلاً من عصر حجري

حتى وإن بقيت مكتشفات شوننغن حالة خاصة، إلّا أنها ليست الوحيدة. ثمة أشياء خشبية أخرى مصنوعة من قبل الإنسان تسمح بالتعرّف فيها على رماح أو حراب أوائل العصر الحجري القديم وتعود إلى بلدة كلاكتون ـ أون ـ سي (إنجلترا) وإلى موقع تورالبا (إسبانيا) وباد كانشتات بالقرب من شتوتغارت. تدلّ كلّ هذه المكتشفات على إتقان مثالي لمعالجة الخشب. ربما كانت المصنوعات الخشبية في ذلك الوقت سلفاً أهم بكثير من الأدوات الحجرية. بالنظر إلى هذه الاعتبارات يميل بعض الباحثين إلى الكلام عن <عصر خشبي> بدلاً من <عصر حجري>. ولكن بما أنه لم يبقَ سوى عدد قليل جداً من الأشياء الخشبية من تلك الأزمنة المبكّرة، فإننا نحافظ على هذه التسمية الشائعة لتلك الحقبة.

معرفة تقنية وإدراك المكان والمسافة

ليس تقنية معالجة الخشب وحدها، وإنما استعمال هذه الرماح، وصولاً إلى تحسين خواص التحليق عن طريق نقل مركز الثقل، يسمح باستنتاج وجود معرفة تقنية لا يُستهان بها وخبرة طويلة عند مبدعيها. نظراً لعدم بقاء هذه الأدوات الخشبية من الزمن المبكّر محفوظة إلّا بالمصادفة عادةً، فإننا لا نعرف منذ متى تم استخدام مثل هذه الرماح والحراب في الصيد. على أنه لا يمكن تصوّر صيد الأيائل أو الغزلان أو الخيول، ولا حتى الأبقار البرّية قليلة الخبرة أو أفراس النهر أو وحيد القرن أو فيلة الغابات ـ عندما تسنح الفرصة ـ من دون هذه الأسلحة. من المؤكَّد إذن أن حربة الرمي والطعن كانت نوعاً من الأداة الشاملة على مدى آلاف السنين، مثلما كانت الفأس اليدوية

سكين قطع ثقيلة ناجحة للغاية تقنياً وعملياً على مدى مئات الآلاف من السنين أيضاً. غير أنه يبقى من غير الواضح إلى أيّ مدى قد يكون فنّ رمي الرمح قد أثّر في السلوك الجماعي عند الإنسان المبكّر، فضلاً عن أنه أدى إلى تحسين مهارة الصيد لديه. يبدو أنه من المؤكَّد أن *الإنسان المنتصب* كان أقوى من الإنسان الحديث وأكثر قدرةً على إصابة هدفه بدقة بمقذوف. لا بد أن الرمي قد أدى به إلى إدراك جديد للمكان والمسافة وإلى تعامل متغيّر مع هذه الأبعاد. ولكن هل غيّر رمي الرمح المجموعات التي تكوّنت جراء الصيد أيضاً؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن أيّ ناحية؟ هل أدت إمكانية استخدام سلاح بعيد ربما إلى نشوب صراعات عنيفة بين المجموعات المختلفة أو زادت من الاستعداد الممكن لذلك، في الصراع على مناطق الصيد مثلاً؟ ربما لن نتمكّن من الإجابة عن هذه الأسئلة أبداً.

الصيد المتخصّص كمنطلق للتقدّم البشري

كانت مهارة الصيد المتطوّرة في زمن *الإنسان المنتصب* ذات أهمية بارزة على أية حال في تأثيرها على تطوّر الإنسان المبكّر. كان الصيد الطريقة الوحيدة لإيجاد مصادر غذائية جديدة والاستفادة منها بشكل فعّال. وقد تطلّب النجاح في ذلك تكيّفاً شاملاً مع البيئة الطبيعية في الأراضي المفتوحة، التي عاش فيها *الإنسان المنتصب*. وقد ازدادت أهمية هذا الأمر لأن الإنسان كان قد غادر المجالات الحيوية التي ألفها على مدى ملايين السنين في مناطق السافانا الاستوائية وشبه الاستوائية في أفريقيا وتقدّم إلى المناطق معتدلة المناخ الواقعة شمالاً خارج أفريقيا. وقد طرح عليه تناوب المناخ الفصلي الأشد وضوحاً هناك مع الشتاءات الباردة وفترات الجفاف الصيفية تحدّيات خاصة. فالطعام النباتي يكاد لا يتوافر هناك في نصف السنة البارد، كما يغلب الظنّ أن نظاماً غذائياً قائماً على الجيف والعظام - بقايا طعام الضباع - لم يكنْ كافياً. من هنا فإن البقاء لم يكنْ ممكناً إلّا عن طريق ممارسة الصيد الفعّال لحيوانات متوسطة وكبيرة الحجم، يمكن حفظ لحومها بعد ذلك جزئياً على الأقل لتحقيق آفاق معينة من المؤونة الغذائية. وقد شكّلت هذه التحدّيات المستمرة حافزاً متواصلاً لمزيد من تطوّر الدماغ والقدرات الذهنية والعمل الممنهَج. بعبارة أخرى: تحوّل تطوّر الإنسان منذ أيام *الإنسان المنتصب* على أبعد تقدير من المظهر الخارجي إلى مجال الدماغ. وقد حدث أول تطوّر مستدام في الثقافة البشرية وفي أقدم البُنى الاجتماعية على أساس من التخصّص المتقدّم باستمرار في الصيد.

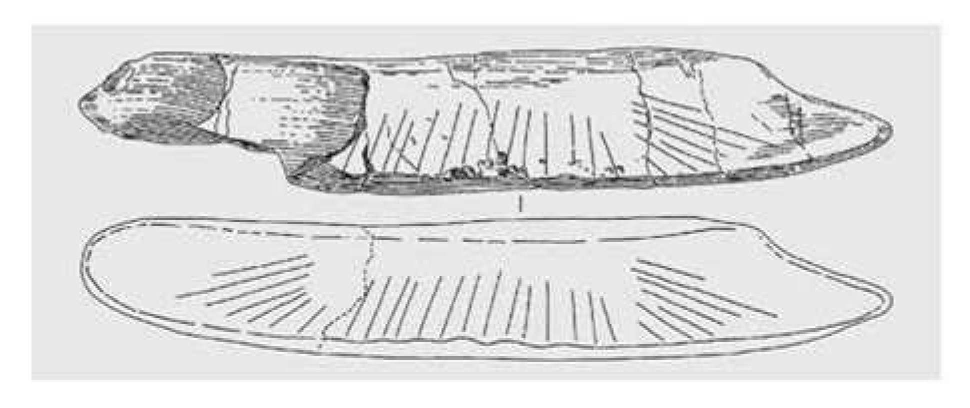
تطلبت هذه العملية إنشاء معسكرات كنوع من القاعدة لتقطيع الفريسة ومعالجتها. وقد تكوّنت من أبسط المساكن الشبيهة بالأكواخ، أي مناطق للعمل والشغل امتدت حولها مناطق حركة ونشاط الإنسان المبكّر، والتي يتراوح طولها بين 10 إلى 15 كيلومتراً. وقد تحوّل المعسكر بأكواخه ومواقد نيرانه إلى المركز الاجتماعي، الذي استقلّ فيه الإنسان تدريجياً عن الظروف الطبيعية المحلّية. وإذا انطلقنا أيضاً من أن الصيد وتقطيع الفريسة وحفظها وإنشاء الأكواخ وحراسة النار، وما شابه من أعمال من هذا النوع لم يكنْ يتولّاها الشخص نفسه، يُفترَض أن أسلافنا قد قاموا في هذه الأماكن أيضاً بالخطوات الأولى نحو مجتمع قائم على تقسيم العمل. وقد جسّد هذا في الوقت نفسه تلك المرحلة من سيرورة الإنسان الثقافية، التي تشكّل فيها العمل التعاوني بوصفه ضرورياً للوجود، ذلك أن السلوك الجماعي المنسَّق هو وحده ما خلق شرط النجاح في صيد الطرائد الكبيرة وأتاح نقل الفريسة لمسافات أطول وسمح بالتقطيع المنظَّم للفريسة. على أنه نشأت بذلك نوعية جديدة من العلاقات الاجتماعية، كانت ذات أهمية فائقة بالنسبة لمجتمعات الإنسان المبكّر. كان جميع أفراد المجموعة يساهمون في صيد الفريسة وفي نقلها ومعالجتها، وهكذا أمكنهم جميعاً أن يتماهوا مع النجاح الجماعي، الذي ضمن بقاءهم جميعاً. والحق أنه يصعب تصوّر تجربة أقوى وأشد تكويناً للهوية بكلّ مفاعيلها في التماسك الاجتماعي للجماعة. ولكن ما الإمكانات والتبعات الأخرى المترتّبة على ما سبق ذكره من شروط اجتماعية وتواصلية ضرورية للصيد الجماعي ومعالجة الفريسة؟

الأهمية الوجودية للعمل الجماعي

من المعروف أنه حيث تنشأ العلاقات الاجتماعية، وتكون عمليات التنشئة الاجتماعية فعّالة، تتشكّل عناصر أخرى للمجتمع البشري - طقوس، أي الاهتمام بالتقاليد ونقلها وصولاً إلى المؤسّسات الثقافية والاجتماعية، التي تكمن مهمتها المركزية في ضمان الوجود الاقتصادي والاجتماعي للجماعة. والحق أن عظام الحيوانات المكتشفة في بيلتسينغسليبن مع آثار القطْع والحزوز، التي تبدو كما لو أنها مصنوعة على فترات منتظمة (الشكل 4)، يتم تفسيرها في بعض الأحيان على أنها دليل على قدرة من نقشوها في العظام على إيصال رسائل رمزية والتفكير المجرد وإرادة التشكيل الواعية، لا بل لعلها مؤشّرات على اللغة وذاكرة الكلمات.

عظام بشرية مع آثار قطع من أتابويركا

بقدر ما هي معرفتنا غير مؤكَّدة، في هذه النقطة، فهي أيضاً منقوصة في الوقت الحاضر فيما يخصّ تصوّرات الإنسان في أوائل العصر الحجري القديم حول الموت والتعامل مع الموتى. يلفت النظر في بيلتسينغسليبين أمران اثنان: من جهة أولى تم العثور على بقايا بشرية مبعثرة بين عظام الحيوانات، ومن جهة ثانية بقيت محفوظة تقريباً أجزاء من الجمجمة حصراً. صحيح أن الأمر الأخير قد يرتبط بلا شك بظروف الحفظ، التي لم تسمحْ ببقاء أيّ أجزاء من الهيكل تحت الجمجمة - أي كلّ ما لا ينتمي إلى الجمجمة. ولكن يبدو كما لو أن هذا الموقع يتوافر على اختيار واعٍ لأجزاء محدّدة تماماً من المتوفّين - ربما تلك التي كان المرء يريد الاحتفاظ بها. في بلدة أتابويركا القشتالية تم اكتشاف عظام بشرية تحمل آثار قطْع كذلك. هل تم إخضاع الموتى هناك لمعالجة خاصة؟ أيُحتمَل أنه تم أكلهم؟ لا نزال نتحرّك في ظلمة فعل طقسي إلى حد بعيد إجمالاً، وذلك فيما يخصّ التعامل مع الموتى في ذلك الزمن المبكّر، ونظلّ معتمدين على تأمّلات نظرية وتكهّنات قائمة على أسس راسخة كثيراً أو قليلاً.



الشكل 4: أقدم زخرفة في أوروبا: حزوز منتظمة في عظم ظنبوب فيل من بيلتسينغسليبن، ألمانيا

خلاصة:

من كائن نباتي إلى آكل لحوم

تمثّل الفترة الممتدة من أول أداة حجرية قبل 2.7 مليون سنة حتى نهاية العصر الحجري القديم الأدنى نحو سنة 300000 ما يعادل 90 بالمئة من تاريخ البشرية. كما ذكرنا سابقاً، تندرج صناعة الأدوات من الحجر والخشب لإرداء الحيوانات وتقطيع أجسادها ضمن الابتكارات الحاسمة في هذه الحقبة الطويلة. وقد تماشى مع هذا التطوّر تحوّل التغذية من طعام نباتي صرف في الأصل إلى طعام ازداد اعتماده على اللحوم وبالتالي على البروتين. اللحم طعام مركّز قياساً إلى البذور

والمكسّرات. فهو يحتوي على نسبة عالية من البروتين، فضلاً عن أن بعض الأحشاء تحتوي على فيتامينات هامة تُفتقَد في الطعام النباتي. علاوة على ذلك كان الغذاء النباتي، الذي تم هضمه وبالتالي تفكيكه سلفاً في معدات الحيوانات العاشبة المقتولة، والذي يُفترَض أن الصيّادين استهلكوه كذلك، يمدّ بالخمائر إضافة إلى الفيتامينات. هكذا كانت الميزة الحاسمة للتحوّل إلى الأطعمة الحيوانية تكمن إذن بشكل أساسي في القيمة الغذائية الأعلى للمنتجات الحيوانية قياساً إلى الطعام النباتي الصرف، إضافة إلى إمكانية التكيّف مع الظروف البيئية الأخرى. وقد لعبت الدهون والبروتينات والفوسفور دوراً حاسماً في تطوّر الدماغ البشري.

أما التطوّر الحاسم الثاني للثقافة البشرية فقد جاء من السيطرة على النار في ذلك الوقت. وقد ميّزت هذه المهارة الإنسان عن الحيوان بشكل نهائي منذ ذلك الحين. من هنا لا يفاجئنا أن الميثولوجيا الإغريقية قد أطّرت هذه الخطوة ذات التبعات الهامة ضمن أسطورة سببية ـ تعليلية. وبموجب هذه الأسطورة كان العملاق المحبّ للبشر بروميثيوس هو من انتهك حظْر أبي الآلهة زيوس وعلّم البشر هذه التقنية الثقافية وجرّ على نفسه عقاباً قاسياً طويلاً. على أنه لولا هدية بروميثيوس لما استطاع أسلافنا أن يشقّوا طريقهم خروجاً من أفريقيا إلى مناطق أخرى في الشمال، حيث كانت تنتظرهم مناطق صيد غنية، ولكن شتاءات قاسية مع الجليد والثلج أيضاً.

إذن فقد شكّل كلّ من الطعام الحيواني والنار أساس سائر التطوّرات اللاحقة مع الأدوات الحجرية والخشبية اللازمة للصيد وتقطيع الفريسة وصولاً إلى إنشاء المعسكرات، وهي أمكنة أصبح فيها التواصل مكثَّفاً وأتاحت نشوء علاقات ومؤسّسات اجتماعية جديدة. ولكن كلّ هذه الابتكارات كانت نتيجة لتأثير العوامل البيئية في نهاية المطاف. وقد نشأت بالمصادفة بطريقة ما. لم يحدثْ تطوّر هادف ومخطَّط له باتجاه الإنسان.

التطوّر البيولوجي وصولاً إلى الإنسان المنتصب

قام التطوّر البيولوجي من *أوسترالوبيثيكوس* مروراً بـ *(الإنسان الماهر)* وصولاً إلى *الإنسان المنتصب*، مع نموّ متواصل في حجم الدماغ، بشكل جوهري على أساس من التطوّر الثقافي المشروط بالتقدّم التقني. على أن هذه التغيّرات حدثت على مدى فترات زمنية طويلة لا يمكن تصوّرها امتدت ملايين ومئات الآلاف من السنين. أما وأن هذه العملية تقدّمت ببطء شديد للغاية فهو أمر يُفترَض أنه يعود إلى انخفاض الكثافة السكّانية أيضاً. فحتى، حيث استجدّت ابتكارات هامة تطوّرياً، من الممكن أن تكون هذه الأخيرة قد ضاعت ثانية مع أصحابها ، لأنه لم يكنْ بالإمكان

نشرها بين أفراد النوع بشكل مباشر، وبالتالي كان لا بد من إعادة اكتشافها وتطويرها في مكان آخر بعد ذلك بكثير، لكي تغدو في وقت ما جزءاً من الثقافة البشرية متاحاً بشكل مستدام.

عند تقييم هذه المرحلة المبكّرة من نشأة الإنسان في العصر الحجري القديم الأدنى يجب أن نكون دوماً على دراية بمدى شحّ ونقص وجزئية معرفتنا بثقافة الإنسان المادية في ذلك الوقت. صحيح أننا نعرف بعض الأمور عن مخزونه من الأدوات الحجرية وندرك أن مصنوعاته الخشبية لعبت دوراً أهم بكثير مما توحي به للوهلة الأولى الأشياء القليلة المكتشفة حتى الآن، ولكن هذه الأدوات الخشبية القليلة تسمح لنا بأنْ نخمّن بشكل غامض إنساناً في فجر التاريخ المبكّر مختلفاً تماماً عن ذلك الذي ربما نميل إلى إعادة بنائه بناءً على خلفية الأدوات الحجرية المحفوظة وحدها. ويبقى عدم اكتمال المكتشفات الأثرية وعشوائيتها السمة المميّزة لسائر أبحاث علم الآثار. ولكنها تجعلنا قادرين أيضاً على إعادة بناء صور أو مشاهد الماضي المرة تلو الأخرى، في حال سمحت بذلك اكتشافات مفاجئة، بل ومذهلة في بعض الأحيان، مثل رماح شوننغن.

لا تواصل من دون لغة

ما نستطيع أن نجزم به هو أن *الإنسان المنتصب* ما كان له غنى عن اللغة: كانت أدواته الحجرية ومصنوعاته الخشبية مثالية في أسلوب صناعتها وفي كمالها التقني إلى حد أنه لا يمكن تصوّر إمكانية صنعها عن طريق التقليد فقط. وإنما هو أمر يتطلّب تعليمات حقيقية منظَّمة ونقلاً للمعرفة فيما يخصّ خواص المواد والشكل والتصميم والتفاصيل التقنية، مما لا يمكن تصوّره من دون تواصل عن طريق اللغة. ينطبق الشيء نفسه على صيد المطاردة ذاك، الذي كان يتم تنفيذه، كما هو واضح، مع الطرائد الكبيرة، والذي كان لا بد لمجموعة أكبر من الصيّادين أن يعملوا فيه معاً بطريقة مخطَّط لها ومنسَّقة وفقاً لاتفاقات ثابتة مع مهمات موزَّعة بوضوح بغية تحقيق النجاح. يُعزى للسيطرة على النار أهمية خاصة في تطوير وصقل أشكال التواصل في نطاق الجماعة. فقد شكّل موقد النار مركزاً اجتماعياً يُفترَض أنه كان حاسماً في السيرورة التدريجية للروابط والمؤسّسات والطقوس الاجتماعية، فضلاً عن دوره في نشوء اللغة. كما تدلّ الزيادة السريعة في حجم الدماغ، الذي تضاعف من *أوسترالوبيثيكوس* إلى *الإنسان المنتصب*، على أن هؤلاء الصيّادين كانوا قادرين من الناحية البيولوجية سلفاً على تطوير اللغة. إلّا أن مدى تمايزها هو أمر يتملّص من معرفتنا.

3

التحرّر من الطبيعة واكتشاف العالم الآخر: إنسان نياندرتال

قبل 300000 سنة كان *الإنسان المنتصب* قد استوطن سلفاً أجزاء واسعة من أفريقيا وأوروبا وآسيا. على أن عدد حركات الهجرة، التي تمت فعلاً خلال الفترة الطويلة منذ 2 مليون سنة وأمكنها أن تقود في كلّ مرة مجموعات سكّانية جديدة من *الإنسان المنتصب* من المناطق الاستوائية في أفريقيا نحو الشمال، لا يزال غير واضح. على أنه في زحفه نحو أوروبا وآسيا استطاع *الإنسان المنتصب* اللجوء إلى المعرفة الواسعة مسبقاً، التي سهّلت عليه كثيراً استيطان هذه المناطق والبقاء فيها.

التقلّبات المناخية والمجالات الحيوية الخطرة

كان للحدث البيئي المركّب مع التقلّبات المناخية الشديدة أثر كبير على العمليات الديموغرافية. والحق أن البرد عند خطوط العرض الشمالية أو الجفاف في الجنوب - وفي بعض الأحيان الظاهرتين المناخيتين كلتيهما في وقت واحد - تسبّبا في حركات هجرة متكرّرة في نطاق أفريقيا، وفي هجرات من أفريقيا إلى أوروبا وآسيا أيضاً. إنما يبدو من المشكوك فيه في الغالب أنه تم في ذلك الوقت استيطان أوروبا بشكل مستدام حتى سلاسل الجبال متوسطة الارتفاع والصين حتى مستوى النهر الأصفر تقريباً، ذلك أنه لم يكنْ أمام الإنسان المبكّر فرصة حقيقية للبقاء هناك إلّا في المناخ المعتدل. فقد شكّلت أوروبا والصين مجالات حيوية خطرة حقيقية بسبب التقلّبات المناخية الشديدة. وكانت المراحل الباردة تدفع بالحدود الشمالية للاستيطان إلى الجنوب المرة تلو الأخرى -

بالنسبة للإنسان والحيوان. وقد تسبّب هذا الضغط المناخي في هجرات دورية، على أنه أدى إلى انقراض جماعات كاملة من الحيوانات الكبيرة أيضاً بين الحين والآخر.

إنسان نياندرتال

يُعدّ *الإنسان النياندرتالي* (*Homo neanderthalensis*) أشهر معاصري هذه الحقبة القاسية مناخياً (الشكل 1). كما يُعدّ عن حق أفضل أنواع الإنسان (*Homo*) دراسةً وتمحيصاً؛ فنحن نتوافر اليوم على أكثر من 300 مكتشف هيكلي، بعضها محفوظ بشكل كامل. والحق أن إنسان نياندرتال، الذي يصل متوسط طوله إلى 1.65 متر ويتراوح وزنه بين 60 إلى 80 كيلوغراماً، يلفت النظر بشكل خاص جراء بنيته الجسدية القوية. كانت جمجمته عريضة وطويلة وتمتلك جبيناً مسطّحاً ومتراجعاً وبروزاً قوياً فوق العينين ووجهاً بارزاً ومدبّباً.

حجم دماغ أكبر مع أداء فكري أقل

كان الفكّان ناتئين ومرتفعين وطويلين، مما جعل النصف السفلي من الوجه بارزاً إلى الأمام قليلاً. على أن جمجمته لم تعدْ تبدي قنزعة سهمية تسمح باستنتاج وجود عضلات مضغ مفرطة في القوة. ثمة نظرية تفيد أن شكلها تكوّن جراء الاستخدام المشدّد للقواطع، التي ثبُتَ أنها كانت تُستخدَم كنوع من اليد <الثالثة> أو الأداة - نوع من الكمّاشة أو المَلزمة. صحيح أن حجم دماغ إنسان نياندرتال تجاوز حجم دماغ الإنسان الحديث، بيد أن هذا لا علاقة له بأداء فكري أعلى، ذلك أنه لا بد من النظر إلى حجم الدماغ نسبةً إلى كتلة الجسم، التي فاقت بدورها كتلة جسم الإنسان الحالي. يُفترَض في بعض الأحيان أن حجم دماغ إنسان نياندرتال قد يكون أيضاً تعبيراً عن الفعّالية الزائدة المشروطة بالاستقلاب ونتيجة للتكيّف مع العصر الجليدي. كما كانت فتحتا الأنف في جمجمة إنسان نياندرتال عريضتين ومرتفعتين بشكل لافت، مما يسمح باستنتاج وجود أنف كبير ومكتنز. غالباً ما يتم تفسير شكل الأنف هذا أيضاً بأنه نتيجة للظروف المناخية في العصر الجليدي، ذلك أن الأنف الكبير والطويل يسخّن هواء التنفّس بشكل أشد قبل أن يصل إلى الرئتين، وهكذا يساهم في الحفاظ على درجة حرارة الجسم الباطنية.

لم يكنْ هناك سوى مسافة قصيرة نسبياً بين القفص الصدري والوركين عند إنسان نياندرتال، مما جعل جذعه يبدو أشد اكتنازاً قياساً إلى جذع الإنسان الحديث. كانت الذراعان

والساقان أطول وكثافة العظام أعلى وارتكازات العضلات أقوى. وكان الطرفان السفليان على وجه الخصوص عند إنسان نياندرتال مصمّمين لتحمّل الإجهادات القصوى. وقد سمحت عضلات الصدر والظهر القوية بشكل غير عادي باستخدام قوي ودقيق في آن للذراعين واليدين.

العصر الحجري القديم الأوسط في أوروبا

تبعاً للمستوى المعرفي الحالي نشأ إنسان نياندرتال في العصر الحجري القديم الأوسط عن الأشكال المتأخّرة من *الإنسان المنتصب*، كـ (الإنسان الهايدلبرغي) على سبيل المثال. وكان مركز انتشاره في أوروبا وامتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى شمال منطقة الجبال متوسطة الارتفاع مباشرةً (حتى درجة العرض 52 تقريباً). لم يتضحْ بعد كيف جرى الانتقال التطوّري - التاريخي إلى إنسان نياندرتال بكلّ التفاصيل، وذلك نظراً لوجود فجوة انتقالية لا يُستهان بها لا تسمح بربط شكلَي الإنسان المبكّر أحدهما بالآخر بصورة مقنِعة. ومن بين ما يندرج في هذه الفجوة الجمجمة المحفوظة بشكل كامل تقريباً لامرأة شابة من بلدة شتاينهايم أن دير مور في ولاية بادن فورتمبرغ، التي يمكن إرجاعها إلى ما بين 300000 و 200000 سنة مضت على وجه التقريب. صحيح أن السمات المورفولوجية - الشكلية - لهذه الجمجمة لا تزال تبدي عناصر *الإنسان المنتصب*، ولكنها تبدو إجمالاً أكثر تطوّراً بوضوح، بحيث يدور الكلام، فيما يخصّ هذا الساكن البدائي لمنطقة شفابيا، عن إنسان ما قبل نياندرتال أيضاً في بعض الأحيان، والذي ربما عاش بشكل متزامن مع أشكال *الإنسان المنتصب* المتأخّرة. أما جزء الجمجمة الشهير من بلدة سوانسكومب في إنجلترا فهو أقدم بقليل ويرجع تاريخه إلى الفترة الواقعة قبل 400000 إلى 270000 سنة تقريباً؛ وهو يتوافق مع الإنسان الهايدلبرغي، ولكنه يبدي في الوقت نفسه سمات أولى لا لبس فيها لإنسان نياندرتال.

المساهمة الأوروبية في تطوّر الإنسان

حتى وإن كان الكثير من الأسئلة لا يزال معلقاً، ما من شك إذن في أن إنسان نياندرتال الكلاسيكي هو شكل الإنسان الوحيد المثبَت في أوروبا في الجزء الأول من العصر الجليدي الأخير قبل حوالي 100000 إلى 40000 سنة.

لا تكاد توجد آثار لإنسان ما قبل نياندرتال

كثيراً ما يُنظَر إلى إنسان نياندرتال على أنه المساهمة الأوروبية الحقيقية في تطوّر الإنسان قبل 160000 إلى 30000 سنة أو حتى قبل 24000 سنة. من الواضح أن إنسان نياندرتال كان قد انتشر من أوروبا إلى الشرق الأوسط، في حين كانت أشكال الإنسان القريبة معروفة من أوراسيا أيضاً (الخريطة 2). عندما أصبح الطقس بارداً للغاية في شمال جبال الألب قبل 30000 سنة، لم يعدْ إنسان نياندرتال يوجد هناك. ويُفترَض أنه هرب من البرودة إلى جنوب أوروبا، حيث استطاع آخر ممثّليه أن يستمرّوا بضعة آلاف أخرى من السنين.

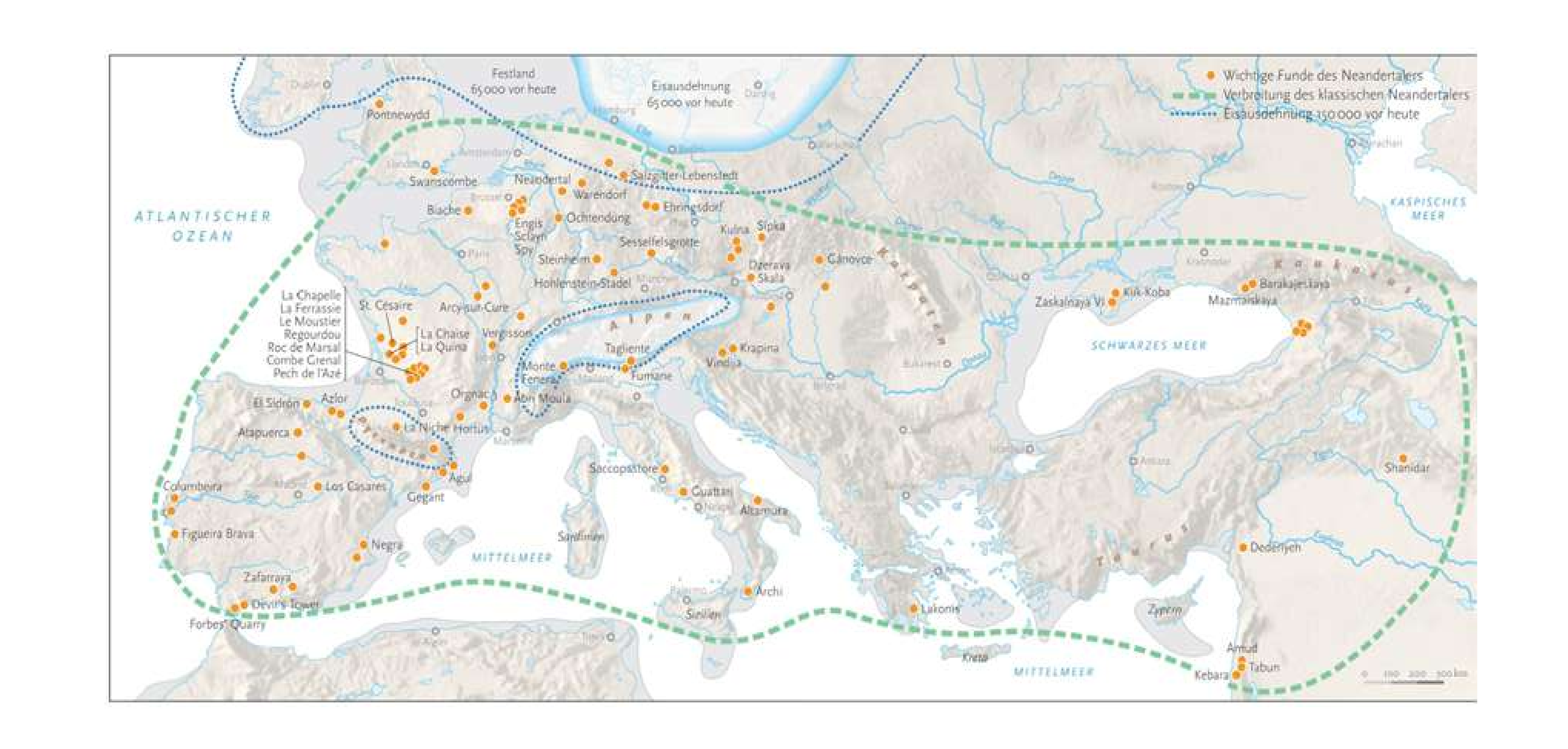
مثلما عاش *الإنسان المنتصب* في أوروبا الوسطى في فترات أشد برودةً، ذلك أنه أجاد استخدام النار واستطاع إنتاج أولى المساكن الشبيهة بالأكواخ والملابس الجلدية البسيطة، فقد ضمنت هذه المهارات والخبرات بقاء إنسان نياندرتال هناك أيضاً وفي مناطق أبرد مناخياً. هذا ما تثبته بلا شك المكتشفات الموافقة في الطبقات الجيولوجية المعنية. غير أنه كان هناك تقلّبات في المناخ وفي درجات الحرارة حتى في نطاق الفترة الباردة الواحدة. هكذا يبدو كما لو إنسان نياندرتال كان قد تحاشى أجزاء معينة من أوروبا بين الحين والآخر خلال ذروة البرد الأولى في العصر الجليدي قبل 60000 سنة تقريباً.

الثقافة المادية لإنسان نياندرتال وفترة موستيريان

يُفترَض أن نمط حياة وغذاء إنسان نياندرتال، الذي غالباً ما تُسمّى ثقافته موستيريان، وذلك بناء على المكتشفات بالقرب من البلدة الفرنسية لو موستيير، لم يكنْ يختلف بدايةً عن *الإنسان المنتصب* من حيث المبدأ: كان *الإنسان النياندرتالي* صيّاداً متخصّصاً كذلك، ويبدو أنه كان يتربّص في مجموعات أكبر وفي أماكن معينة لقطعان من الحيوانات ويرديها فيها.

وقد تم العثور في منطقة انتشاره بكاملها على أماكن للصيد كتلك الموجودة في بلدة زالتسغيتر ـ ليبنشتت في ساكسونيا السفلى، حيث تم العثور، إلى جانب آلاف الآثار الحجرية، على بقايا عظمية لـ 86 من حيوانات الرنّة. وتدلّ مواقع أخرى على صيد الماموث ووحيد القرن الصوفي والخيول البرّية والأبقار ودببة الكهوف وطرائد أخرى؛ على أن قائمة طعام إنسان نياندرتال ضمّت أيضاً ثدييات صغيرة وطيوراً ورخويات وأسماكاً، مثلما تؤكّد البقايا الموافقة. ويُفترَض أن صيد الطرائد الكبيرة كان يتم بالرماح والحراب الخشبية بالدرجة الأولى، مثلما كشفت الرماح من شوننغن

في زمن *الإنسان المنتصب* سلفاً. وقد عُثِرَ في ليرنغن في ساكسونيا السفلى على حربة من خشب الطقسوس طولها 2.40 متر بين عظام ماموث؛ ومن الواضح أن المرء كان قد كمن لفيلة الغابات في دغل الضفّة هناك. وتثبت إصابات الرأس والذراع في هياكله العظمية أن صيد إنسان نياندرتال لهذه الطرائد كان مقروناً بمخاطر جسيمة.



Wichtige Funde des Neandertalers
Verbreitung des klassischen Neandertalers
Eisausdehnung 150 000 vor heute
Festland
65 000 vor heute
Eisausdehnung
65 000 vor heute
ATLANTISCHER
OZEAN
KASPISCHES
MEER
SCHWARZES MEER
MITTELMEER
MITTELMEER
Alpen
Karpaten
Kaukasus
Taurus
Pyrenäen
Pontnewydd
Swanscombe
Biache
Neandertal
Warendorf
Salzgitter-Lebenstedt
Ehringsdorf
Engis
Sclayn
Spy
Ochtendung
Steinheim
Hohlenstein-Stadel
Sesselfelsgrotte
Kulna
Šipka
Dzerava
Skala
Gánovce
La Chapelle
La Ferrassie
Le Moustier
Regourdou
Roc de Marsal
Combe Grenal
Pech de l'Azé
St. Césaire
La Chaise
La Quina
Arcy-sur-Cure
Vergisson
Orgnac
Abri Moula
Monte
Fenera
Tagliente
Fumane
Krapina
Vindija
El Sidrón
Azlor
Atapuerca
La Niche Hortus
Agut
Gegant
Columbeira
Los Casares
Figueira Brava
Negra
Zafarraya
Devil's Tower
Forbes' Quarry
Saccopastore
Guattari
Altamura
Sardinien
Sizilien
Archi
Lakonis
Kreta
Zypern
Zaskalnaya VI
Kiik-Koba
Barakajeskaya
Mezmaiskaya
Shanidar
Dederiyeh
Amud
Tabun
Kebara

الخريطة 2: انتشار إنسان نياندرتال في أوروبا وفي الشرق الأوسط

معسكرات وأماكن للذبح

على غرار الحال في زمن *الإنسان المنتصب* كان تقطيع الفريسة يتم على الفور للمرة الأولى للتمكّن من نقلها أصلاً. فيتم نقل أجزاء الفريسة، التي يمكن الاستفادة منها، إلى أماكن أخرى، حيث تُستهلَك هناك مباشرةً أو يتم حفظها؛ ويُرجَّح أن تتم مواصلة معالجة أجزاء أخرى. ويمكن إثبات هذا الإجراء بناءً على المعسكرات المستخدَمة بصورة متباينة، وهو يبيّن أن إنسان نياندرتال أيضاً عرف بدايات تقسيم العمل. هكذا تم العثور على أماكن ذبح بكلّ معنى الكلمة، حيث يتم فيها صنع الأدوات الحجرية في الحال لتقطيع الطرائد التي تم إرداؤها. وقد أقام الصيّادون في مواقع أخرى مدة أطول واستهلكوا هناك جزءاً كبيراً من اللحوم أيضاً. يقدّم توزّع بعض المواقع الأثرية معلومات حول بنية هذه المعسكرات. ومن هذه المواقع ما يسمح بالتحقّق من انحرافات جديرة بالملاحظة تسمح باستنتاج وجود تنظيم داخلي متقدّم عند إنسان نياندرتال، إضافة إلى تخصّص موسمي في صيد أنواع حيوانية مفردة. على هذا النحو يظهر إنسان نياندرتال صيّاداً متخصّصاً كانت تقنياته وأسلوب معيشته يقومان على المعرفة الموروثة وخبرة عشرات الآلاف من السنين في الصيد الناجح للثدييات الكبيرة وغيرها من الطرائد.

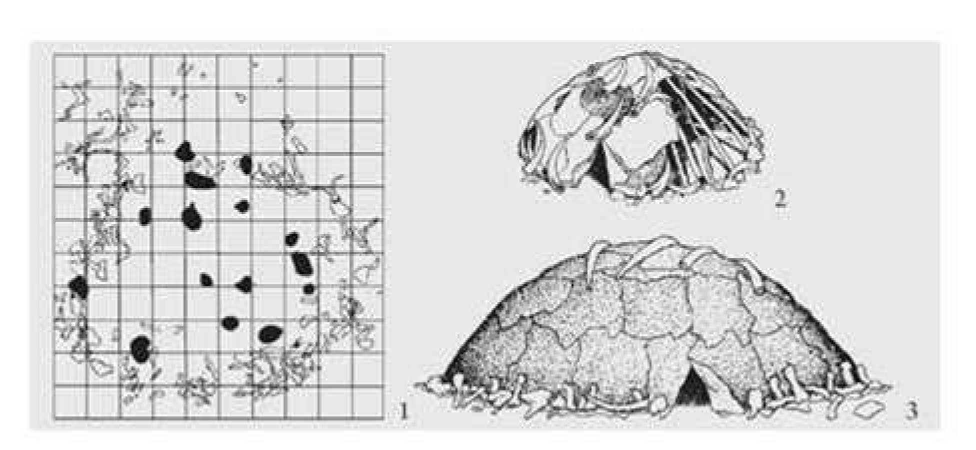
صيّادون متميّزون وجامعون خبراء

تشير قياسات النظائر المشعّة على كولاجين *الإنسان النياندرتالي* إلى تغذية تتكوّن من اللحوم فـي الغالب. وهذا يتّفق على نحو جيد جداً مع صورة إنسان نياندرتال بوصفه ممثّلاً لنوع مبكّر من الإنسان يتمتع بمهارات صيد متميّزة. على أنه من المثير للاهتمام أيضاً المشاهدة التي مفادها أن ثمة مستحاثات مجهرية نباتية قد ترسّبت فـي قلح أسنان نياندرتال سواء فـي بلجيكا أم فـي العراق. وهي تشير إلـى استهلاك التمور والبقوليات وبذور الأعشاب. كما أثْرت مطبخه فـي الفترات الدافئة على وجه الخصوص الفاكهة البرّية والتوتيات والمكسّرات وثمر الزان وثمر البلّوط والفطور والدرنيات وغيرها من النباتات الخضراء. ويبدي النشاء المترسّب في قلح الأسنان سمات تسمح باستنتاج تغيير في هذا الطعام النباتي عن طريق التسخين. وهذا بدوره يسمح بالاستنتاج القائل إن مواقد النار المكتشفة في معسكرات إنسان نياندرتال لم تخدمْ في حفظ وإعداد كميات اللحوم التي تم صيدها

وحسب، وإنما من الواضح أنها استُخدِمَت لجعل الطعام النباتـيِّ أسهل هضماً أيضاً، وذلك عن طريق الطهي أو التحمير أو التحميص. مع ذلك شكّلت البروتينات الحيوانية جوهر تغذيته، ويُرجَّح أن أهميتها كانت تتزايد كلما أدى المناخ القاسي إلى تقييد شديد في تنوّع الطعام النباتي.

البقاء في مناطق ذات شتاء بارد

تكشف المعسكرات وأماكن الصيد أنه لم تُقِمْ فيها مجموعات كبيرة جداً. ولكن من المؤكَّد أن مناطق تجوّل أفراد مجموعة ما قدّمت لهؤلاء كلّ ما يحتاجونه للبقاء. كان نمط الحياة هذا في زمن إنسان نياندرتال قد أثبت جدواه سلفاً طوال 2 مليون سنة تقريباً وكان مفتاح التأسيس الناجح للإنسان في نظام الأرض البيئي. وقد تطوّرت معرفته بالسياقات البيئية في المجالات الحيوية المختلفة باستمرار على مرّ آلاف السنين. وهكذا تحوّل *الإنسان النياندرتالي* عن طريق نمط الحياة المتكيّف للغاية إلى أول شكل من الإنسان استطاع الإقامة بشكل دائم في مناطق مناخية ذات شتاء بارد. وبسبب الظروف المناخية القاسية في زمنه اعتمد إنسان نياندرتال لأول مرة على كون ملابسه جيدة العزل وقادرة على حمايته من البرد والأحوال الجوية بما أمكن من الفعّالية. كما يجوز افتراض وجود مآوٍ مقاومة للطقس والأحوال الجوية، على الرغم من أنه لم يبقَ محفوظاً منها أيّ شيء تقريباً، باستثناء المسكن المكتشف في مولدوفا في أوكرانيا، وهو ذو مسقط أفقي دائري يبلغ قطره عدة أمتار، حيث شكّلت عظام ماموث ضخمة سقالة التصميم، التي يُرجَّح أنه كانت قدْ شُدَّت عليها جلود حيوانية (الشكل 5).



الشكل 5: مخطّط الحفريات ومحاولات إعادة بناء مساكن من الخشب وعظام الماموث وجلود الحيوانات من زمن إنسان نياندرتال (موستيريان) في مولدوفا، أوكرانيا

الأهمية المتزايدة للمادة الحجرية عالية الجودة

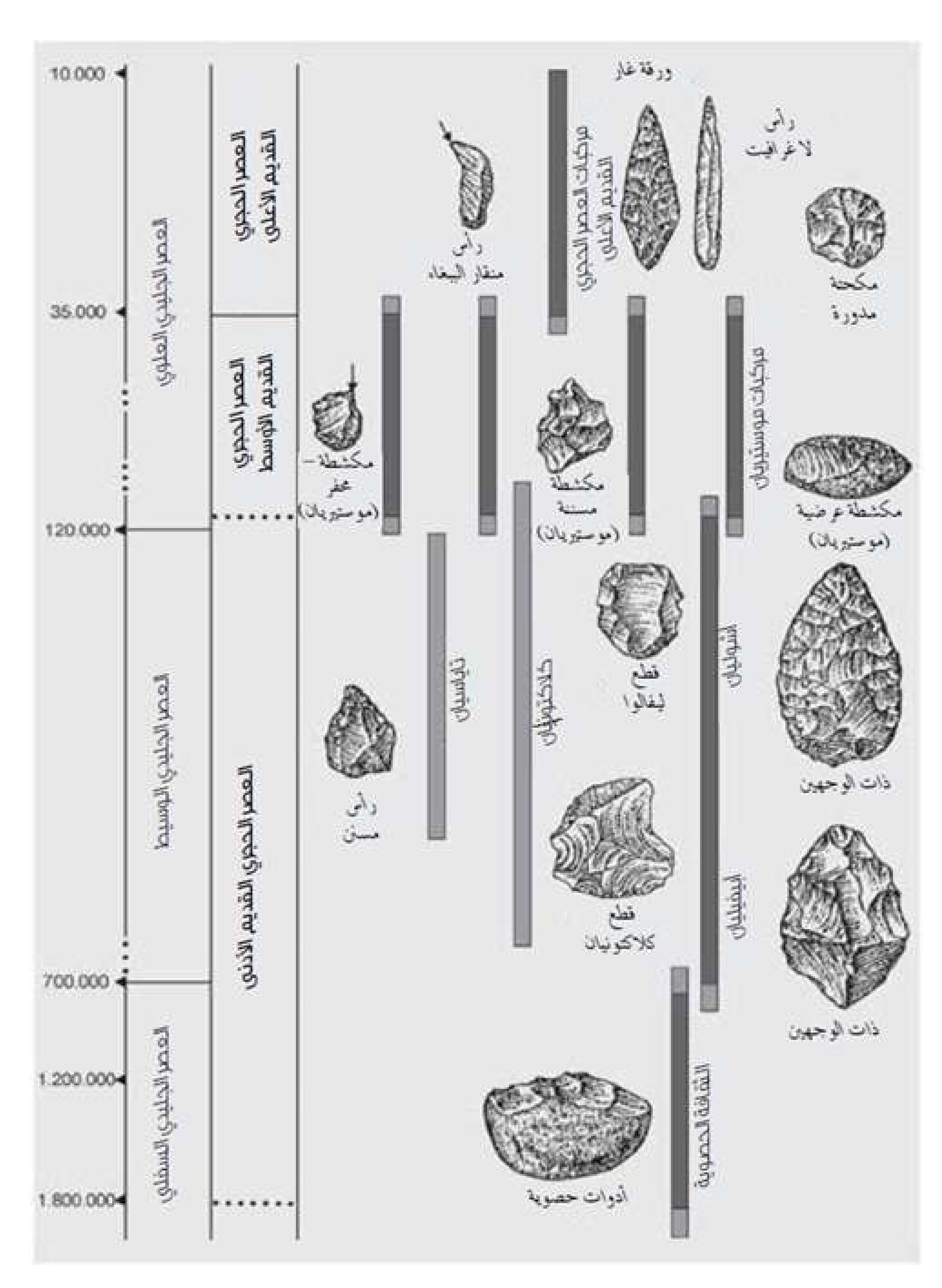
بِمَ تميّز إنسان نياندرتال عن الأشكال الأقدم من الإنسان المبكّر، التي سبقته ـ إذا تركنا السمات التشريحية ـ البيولوجية جانباً؟ في الصناعة الحجرية، التي تشمل مئات الآلاف من القطع الأثرية للعصر الحجري القديم الأوسط ـ أي العصر الذي عاش فيه إنسان نياندرتال، الذي لا يسمح بعد في مرحلته الأولية بأيّ فصل حاد عن العصر الحجري القديم الأدنى ـ يمكن إثبات حدوث تغييرات جذرية في تصميم وتشكيل أدوات الصوّان، والتي لا يمكن تفسيرها إلّا بمعنى التقدّم التقني والتخطيطي الكبير (الشكل 6). لا شك في أن إنسان نياندرتال واصل التقاليد الأقدم في صناعته الصوّانية من جهة، ولكنه أدخل ابتكارات هامة عديدة من جهة أخرى. هكذا يلفت النظر أنه استعمل بشكل متزايد مواد خام من مناطق بعيدة إضافة إلى الصخور المستخدَمة في الغالب والموجودة في المكان ـ وهي ظاهرة تكاد تكون غير معروفة في العصر الحجري القديم الأدنى. هذا يعني من جهة أولى أن إنسان نياندرتال كان مدركاً لأهمية نوعية الصخر لجهة كمال المنتَج النهائي، ومن جهة أخرى تسمح هذه المشاهدة باستنتاج حركية متزايدة للمنتجين وشبكة متنامية تدريجياً من الاتصالات البعيدة، سمحت لهم بالحصول على مواد أعلى جودةً، حينما لم تكنْ هذه الأخيرة متوافرة محلّياً.

أول أشكال قياسية من الأدوات

تكشف قوائم جرد منتجات إنسان نياندرتال في أوروبا أو الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا لأول مرة أشكالاً قياسية من الأدوات، حيث كان تحضير الحجر الأساس (ما تُسمّى تقنية ليفالوا) (الشكل 6) أكثر تطوّراً بكثير منه حتى في زمن *الإنسان المنتصب* وأشكاله المتأخّرة. تتميّز هذه التكنولوجيا بإعداد متقَن للحجر الأساس قبل الحصول على قطعة منه بطرقة هادفة مفردة. وتكون القطع الناتجة بهذه الطريقة كبيرة جداً ورقيقة وتبدي حواف حادة في كلّ مكان.

وقد رشّد إنسان نياندرتال بهذه التقنية استخدام الحجر كمادة خام مطلوبة وحقّق نوعاً من الصقل والتشذيب للأدوات المنتجة في الوقت نفسه. ونشأت مجموعة من الأشكال الهندسية الأساسية، التي تم إيصال كلّ منها إلى تصميمه النهائي عن طريق التعديلات اللاحقة. على هذا النحو تم صنع المكاشط والرؤوس والسكاكين. أما النموذجية بصفة خاصة فهي ما تُسمّى رؤوس ليفالوا المستدقّة؛ وقد استُخدِمَت من أجل رماح الصيد في الغالب. تبدو الفؤوس اليدوية والرؤوس الرقيقة ذات جودة عالية وتكاد تكون مصنَّعة وفقاً لمعايير جمالية. وهي تسِم بصفة خاصة تعديلاً

للسطوح غاية في البراعة، مما يشير إلى إتقان تقنيات طرْق مختلفة وإلى خبرة غنية وفهم دقيق. ويمكن إثبات استخدام زفت البتولا والقار كمواد لاصقة لأول مرة في الفترة نفسها، حيث تم بها تثبيت قطع الحجر في جسم الخشب بشكل مستدام. كان إنسان نياندرتال قادراً إذن على إنتاج أدوات متعدّدة الأجزاء وأشد فعّالية بكثير من الممثّلين السابقين للإنسان. إلى ذلك يلفت النظر أن أدوات القطْع كانت تُرمى بشكل متزايد بعد استخدامها ولا تتم إعادة شحذها. إذن فقد أصبح من الأسهل إنتاج أدوات جديدة، ولكن هذا سمة مميّزة سلفاً للصناعة الحجرية في ثقافات العصر الحجري القديم الأعلى.



الشكل 6: تطوّر الأدوات في ثقافات العصر الحجري في أوروبا

تُضاف أدوات عظمية

تُضاف إلى أدوات الصوّان أدوات عظمية متفرّقة لأول مرة. فضلاً عن ذلك - وعلى غرار الحال عند *الإنسان المنتصب* - يُرجَّح أن الخشب لعب دوراً كبيراً كمادة خام لصنع أدوات وأسلحة صيد أشد تعقيداً، الأمر الذي لا يمكن الحكْم عليه بمزيد من التفصيل في زمن إنسان نياندرتال كذلك، لسبب بسيط هو أن الأشياء الخشبية لا تبقى محفوظة عادة. مع ذلك تسمح الحراب الممتازة المصنوعة من خشب الطقسوس في ليرنغن بتخمين وجوب عزو أهمية أكبر للخشب في الحياة اليومية عند *الإنسان النياندرتالي*.

في القدرة على الكلام عند إنسان نياندرتال

بما لا يختلف عن الحال عند *الإنسان المنتصب* يجوز الافتراض فيما يخصّ إنسان نياندرتال أيضاً أن الصيد المخطَّط له والمنسَّق ضمن مجموعة، وعملية التعليم في إنتاج الأدوات المعقّدة والتواصل عند مواقع النار في المعسكرات، هي أمور لا يمكن تصوّرها من دون لغة. إنما يُضاف في حالته أنه تم اكتشاف العظم اللامي الوحيد حتى الآن عند *الإنسان النياندرتالي* في كهف كِبارا في جبل الكرمل الفلسطيني؛ وهو يتوافق تقريباً مع العظم اللامي عند الإنسان الحديث ويوفّر الشرط التشريحي اللازم للقدرة على الكلام عند إنسان نياندرتال. علاوةً على ذلك أمكن في أحد الكهوف الأثرية الإسبانية، وبواسطة تسلسل الحمض النووي في عظام إنسان نياندرتال، عزْل الجين FOXP2 الهام من أجل تطوّر اللغة - تبعاً للمعرفة الحالية - والموجود عند الإنسان الحديث أيضاً. من هنا لم يعدْ من الجائز التشكيك في أن الإنسان المبكّر في العصر الحجري القديم الأوسط كان يتكلّم، مثلما يُفترَض حتى بالنسبة للعصر الحجري القديم الأدنى.

أقدم قطع حلي عند البشر

تم إثبات استخدام الأصبغة اللونية لأول مرة في زمن إنسان نياندرتال. فقد عُثِرَ في طبقات العصر الحجري القديم الأوسط في عدة كهوف في جنوب شرق إسبانيا على أصداف مزيَّنة بالأصبغة اللونية، من دون إمكانية لمعرفة أدق عن نوعية الرسوم. وفي كهف بيش دو لازي في جنوب فرنسا ظهرت كتل من الأصبغة تحتوي على المنغنيز، وقد خلّفت آثاراً على العظام، ولذلك ربما تسمح باستنتاجات تتعلق بالرسم على الأجساد عند إنسان نياندرتال؛ طبيعي أن هذا الأمر غير مؤكَّد. ومن غير المثبَت أيضاً ما إذا كان إنسان نياندرتال قد لبس أسنان الذئب أو الرنّة أو قطعاً

عظمية ذات حزوز وثقوب كقطع حلي، إلّا أنه أمر غير مستبعَد بالطبع، وفي هذه الحال سوف تكون الأقدم من نوعها.

أقدم القبور وتصوّر العالم الآخر

لا شك في أن الحقيقة التي مفادها أن إنسان نياندرتال فكّر بوعي ظاهر لأول مرة في تاريخ البشرية في مسألة العبور من الحياة إلى الموت، وأعمل ذهنه في محدودية الحياة وفي الزمن بعدها، تتمتع بأهمية خاصة. ونعرف في هذه الأثناء حالات دفن في مناطق مختلفة من غرب ووسط أوروبا وفي الشرق الأوسط ترجع إلى العصر الحجري القديم الأوسط. وهي تختلف وتتباين بشدة في مظهرها من حيث الموقع والترتيب والتجهيزات. يتعلق الأمر عادة بدفن الجسم بكامله في حفر قبور بسيطة. وقد تم العثور في موقع لا فيراسي الأثري الفرنسي على عدة أفراد مدفونين بشكل حقيقي على ما يبدو وقبورهم مغطّاة جزئياً بألواح حجرية. وهي تُعدّ أقدم الشواهد على نشاط لا صلة له كما هو واضح بعملية الحصول على الطعام الضرورية بطبيعة الحال - وهي النشاط الرئيس عند الإنسان في الأزمنة المبكّرة - ولكنه جعله يظهر لأول مرة بطريقة مختلفة كلياً بوصفه كائناً مفكّراً وفاعلاً. لا يمكن فهم واستيعاب تقديس الموتى من دون وجود تصوّرات متطوّرة بشكل بدائي على الأقل عن العالم الآخر.

طقوس خاصة في التعامل مع الموتى

فضلاً عن أن بالإمكان فهم القبور المنشأة عمداً بأنها بدايات بسيطة لثقافة تذكُّر أيّاً كانت طبيعتها. لا يمكن الجزم بشكل قاطع فيما إذا كان قد تم تزويد أقدم حالات الدفن هذه بمرفقات، ذلك أنه غالباً ما لم يكنْ بالإمكان فصل حفرالقبور عن الطبقات المحيطة للعصر الحجري القديم الأوسط بشكل واضح، ومن غير الضروري أن تكون الأشياء، التي تم العثور عليها بجانب الهيكل العظمي مباشرةً، قد تم وضعها في القبر عمداً. بذلك يرتبط *الإنسان النياندرتالي*، تبعاً للمستوى المعرفي الراهن على كلّ حال، ببدايات ثقافة الدفن، على أنه لا يزال بعيداً جداً عن طقوس الموتى المتمايزة. ولكن القبور تشهد على أية حال على ارتباط عاطفي بين الأحياء والأموات، الذين لم يشأ المرء أن يترك بقاياهم الفانية للعمليات الطبيعية ببساطة.

تجدر بالملاحظة في هذا السياق مكتشفات غير عادية لا يزال تفسيرها بدقة أكبر أمراً غير ممكن في الوقت الحاضر. ففي قبر سليم تماماً لإنسان نياندرتال في كِبارا في جبل الكرمل الفلسطيني على سبيل المثال تغيب جمجمة المتوفّى. هل يتعلق الأمر في ذلك بانتزاعها عمداً بغية أداء طقوس بالجمجمة في مكان آخر، أو لدفنها بشكل منفصل؟ كما ظهر في بلدة كوبرينا الكرواتية ما يزيد على 700 عظم من عظام إنسان نياندرتال المكسّرة مع آثار قطْع وحرق، والتي تدعو كذلك إلى التكهّن والتساؤل: هل هذه شواهد على طقوس دفن خاصة، أم أنه تم تقطيع هؤلاء الأفراد من قبل أفراد نوعهم ببساطة بغية الحصول على الطعام؟ من المعروف أنه تتم مناقشة مكتشفات مشابهة فيما يخصّ *الإنسان المنتصب* أيضاً (فيما يخصّ مكتشف في أتابويركا الإسبانية على سبيل المثال). صحيح أنه لا يمكن استبعاد مسألة أكل لحوم البشر، ولكنه ليس التفسير الوحيد بالضرورة. لعل طريقة دفن ذات مرحلتين هي أمر ممكن أيضاً، حيث يُترَك بموجبها الجسد إلى أن يتعفّن بدايةً، بغية دفن الهيكل الخالي من اللحم بعد ذلك. ولكن لا يمكن إثبات هذا في الوقت الحاضر.

خلاصة واستشراف:

أثبت إنسان نياندرتال أنه كائن مفكّر

حافظ إنسان نياندرتال في نمط تغذيته ومعيشته على التقاليد المميِّزة للأشكال المتأخّرة من *الإنسان المنتصب*، ولكنه واصل تطويرها. هكذا ارتبطت بظهوره ابتكارات ثقافية كانت بالغة التأثير في تاريخ البشرية اللاحق. تكيّف *الإنسان النياندرتالي* مع حياة العصر الجليدي في أوروبا بشكل مدهش، ويمكن أن يُرى في ذلك أحد إنجازاته الحضارية الكبرى. امتلك خبرات ومعارف ومعدّات سمحت له بتدبّر أموره في الفترات الدافئة والفترات الباردة على حد سواء. شأنه شأن *الإنسان المنتصب* كان إنسان نياندرتال أيضاً صيّاد طرائد كبيرة متخصّصاً. وتشهد تقنياته في معالجة الحجر على خبرة واسعة في التعامل مع الحجر بوصفه مادة أولية لأدوات عديدة، كان يتم تعديلها بصورة أشد تخصّصاً وتنوّعاً ودقةً بشكل متواصل. تشير حالات الدفن إلى أول حوار فكري مع الموت والعالم الآخر. حتى وإن غابت المرفقات في أقدم القبور هذه، فقد تشير أسنان وعظام الحيوانات المثقوبة، التي يُرجَّح أن *الإنسان النياندرتالي* استخدمها كقطع حلي، إلى مرتكزات أولى لحسّ جمالي. بقدر ما قام سلفاً بجمع الأشياء الغريبة، كالتحجّرات أو الأصبغة الخاصة، أثبت أنه فرد مفكّر وأشد تميّزاً.

انتهت حقبة إنسان نياندرتال قبل 40000 سنة أو بالأحرى قبل نحو 30000 سنة. وقد بدأت في ذلك الوقت دينمية ثقافية غير عادية، تجلّت، فيما تجلّت، بالإنتاج المتزايد لأدوات حجرية جديدة مثل النصول والرقاقات، وكذلك أدوات عظمية أخذت تظهر بشكل متزايد. والحق أنها كلّها تميّز العصر الحجري القديم الأعلى، الذي أعقب العصر الحجري القديم الأوسط المرتبط بـ (*الإنسان النياندرتالي*). من هذه الناحية أيضاً يتضح أن الحدود المرسومة بين الحقب بمساعدة شواهد الثقافة المادية كانت حدوداً سلسة ومرنة.

الاستبدال ب (الإنسان العاقل)

ليس هناك في إطار الأبحاث أيّ شك في أن *الإنسان العاقل*، أي الإنسان الحديث، أقصى إنسان نياندرتال قبل 40000 إلى 30000 سنة بشكل نهائي. بيد أن الخلاف يكمن في كيفية حدوث هذا الاستبدال. ما من شك في أن الإنسان الحديث في أفريقيا قد تطوّر عن الممثّلين المتأخّرين لـ *(الإنسان المنتصب)* بالتزامن مع *الإنسان النياندرتالي* في أوروبا، ثم هاجر بعد ذلك من أفريقيا عبر الشرق الأوسط إلى أوروبا. على أن المثير للجدل هو المدة التي تواجد فيها إنسان نياندرتال و*الإنسان العاقل* جنباً إلى جنب في أوروبا ومدى شدة اتصالهما من ناحية بيولوجية. مما لا شك فيه من حيث المبدأ أن الأمر في كليهما يتعلق بممثّلين لخطّي نسب منفصلين من الإنسان (*Homo*)، حتى وإن بدا أن الدراسات الجينية على الحمض النووي الأحفوري أو بالأحرى القديم تثبت مزيجاً معيناً من جينات إنسان نياندرتال عند الإنسان الحديث. يرى بعض العلماء أن اختلاط السلالتين أمر معقول، وبذلك لا يستبعدون أن يكون إنسان نياندرتال والإنسان الحديث قد أنتجا سلالة مشتركة، بيد أن ما يُسمّى فرضية الاختلاط لم تفرضْ نفسها. فمعظم الخبراء يرفضونها رفضاً قاطعاً، ذلك أن أحفوريات النوعين كليهما تبدو ببساطة مختلفة جداً فيما يخصّ العديد من السمات.

علم الوراثة القديم أو كم من إنسان نياندرتال يكمن في الإنسان الحديث؟

ولكن أحدث الدراسات سمحت الآن بفكّ شيفرة 60 بالمئة من الحمض النووي القديم عند إنسان نياندرتال. وقد وُجِدَ أن الاختلاف بين جينومي الإنسان الحديث و*الإنسان النياندرتالي* لا يتجاوز 0.5%. صحيح أن كلاً من النوعين ينحرف عن الآخر في عشرات التنويعات الجينية، ولكن يُفترَض أن الإرث الجيني لإنسان نياندرتال يقع مع ذلك ضمن نطاق طيف التنويعات الموجود عند *الإنسان العاقل*. علاوة على أن جينوم إنسان نياندرتال أبدى تشابهاً مع جينوم الأوروبيين والآسيويين

أكبر منه مع جينوم الأفارقة، وهي نتيجة تنسجم بشكل جيد جداً مع الصورة الموجودة حتى الآن. والحق أن الأبحاث الجينية بعثت شيئاً من الحركة في السؤال عن علاقة إنسان نياندرتال بالإنسان الحديث، وهو سؤال لم تنتهِ الإجابة عنه بعد. أما ما إذا كان تصنيف إنسان نياندرتال و*الإنسان العاقل* في نوعين بيولوجيين سوف يستمر في المستقبل، على ضوء أحدث النتائج، فهو أمر يبدو أنه معلق أكثر من أيّ وقت مضى.

لماذا انقرض إنسان نياندرتال؟

وتظلّ الاعتبارات والتأمّلات في سبب انقراض *الإنسان النياندرتالي*، وقدرة الإنسان الحديث تشريحياً بالمقابل على مواصلة قصة نجاحه على نطاق عالمي، تأمّلات نظرية وتخمينية. ربما كان *الإنسان العاقل* أشد مقاومةً للأمراض من ابن عمّه المنقرض. بيد أن مصيره المؤسف قد يكون مرتبطاً بالبرودة المتزايدة: قبل 38000 سنة حدث ثوران بركاني ضخم بالقرب من نابولي أدى إلى طبقة ضخمة مصمتة من الرماد غطّت أجزاء واسعة من إيطاليا، ويمكن إثبات آثار هذا الثوران البركاني حتى أوكرانيا. ولم يتم العثور على بقايا إنسان نياندرتال باستمرار إلّا تحت ترسّبات هذا الرماد. والحق أن رماد الثوران الضخم حجب الشمس زمناً طويلاً، ونتيجة لذلك بدأت مرحلة باردة شديدة. وكان من شأنها أن تعني نهاية *الإنسان النياندرتالي*. لما كان يفضّل أن يعيش مستقرّاً لم يستطعْ إنسان نياندرتال أن يتجنّب المشكلات والصعوبات الشديدة في الحصول على الطعام المصاحبة للبرودة، مثلما فعل الإنسان الحديث. ربما كان هذا الأخير، بوصفه صيّاداً وجامعاً فائق الحركة والتنقّل، أشد قدرة على التكيّف واستطاع عن طريق الهجرة والانتشار السريع إلى مناطق أخرى أن يستجيب بصورة أفضل للتغيّرات المناخية الدراماتيكية. أما وأنه استطاع الانتشار بسرعة أكبر فهو أمر كان نتيجة النضج الجنسي الأبكر والخصوبة الأعلى، اللذين كانا نموذجيين بالنسبة لـ (*الإنسان العاقل*). هكذا تم إقصاء *الإنسان النياندرتالي* ربما من قبل البشر الحديثين الكثيرين والجدد والأقدر على التكيّف.

II القفزة الكبيرة إلى الحداثة الثقافية



<فينوس> فيليندورف، النمسا

1
الإنسان العاقل يغزو العالم

الإنسان الحديث ينشأ في أفريقيا

بينما استوطن إنسان نياندرتال أوروبا، نشأ *الإنسان العاقل* أو الإنسان الحديث تشريحياً عن *الإنسان المنتصب* فـي أفريقيا (الشكل 1). يدور الكـلام عن إنسان حديث تشريحياً عنـدما يقع تشريح إنسـان أحفوري ضمن نطاق طيف تنويعات الإنسان الحديث. حدث هذا التطوّر قبل ما يقارب 200000 سنة، في زمن يوصف في أوروبا بالعصر الحجري القديم الأوسط وفي أفريقيا *بالعصر الحجري الوسيط* (*Middle Stone Age*). لطالما عُدَّت أحفورات الإنسان في إثيوبيا أقدم أحفورات أمكن إلحاقها بممثّل للإنسان الحديث؛ حيث يبلغ عمرها 195000 سنة تقريباً. يُفترَض أن تتوافر في هذه الأثناء مكتشفات من موقع فلوريسباد الجنوب أفريقي، والتي يبلغ عمرها 250000 سنة. ولو تأكّدت هذه التواريخ المبكّرة جداً لزعزعت بشدة عمليات إعادة البناء السارية حتى الآن، والتي انتشر *الإنسان العاقل* بموجبها من شرق أفريقيا إلى جنوب وغرب القارة. تسمح أحدث الدراسات الجينية على بقايا مبكّرة من *الإنسان العاقل* الأفريقي ترجع إلى ما قبل 100000 سنة تقريباً بالتفريق بين أنماط فردية مختلفة - ممثّلي الإنسان الحديث الذين يتمايزون تبعاً لمادة صبغية معينة - تشكّل ثلاثة تجمّعات يتركّز انتشارها في جنوب أفريقيا وفي وسط وغرب أفريقيا وفي شرق القارة.

<خروجاً من أفريقيا>

يُفترَض أن خروج الإنسان الحديث من أفريقيا إلى أجزاء أخرى من العالم القديم قد حدث قبل نحو 100000 سنة على أبعد تقدير. وقد امتدت طريقه بدايةً من شرق وشمال أفريقيا عبر البحر

الأحمر إلى شبه الجزيرة العربية ثم إلى الشرق الأوسط وإلى ما وراء سهوب آسيا الوسطى بين بحر آرال وبحر قزوين، حيث بلغها *الإنسان العاقل* قبل ما يقارب 75000 سنة. ويمكن تصوّر أن طريقه <خروجاً من أفريقيا> امتدت عبر أريتيريا إلى جنوب شبه الجزيرة العربية وكذلك عبر مصر وشبه جزيرة سيناء. تتزامن هذه الهجرة من أفريقيا مع فترات باردة تجمّدت خلالها كميات هائلة من المياه على شكل جليد في محيط الغطاء الجليدي القطبي. هذا ما أدى بدوره إلى انخفاض واضح في منسوب البحار حول العالم وسمح بنشوء جسور برّية قابلة للاستخدام بين مناطق كانت مفصولة بالبحار من قبل. ويُفترَض أن منسوب المياه في البحر الأحمر كان في تلك الفترة أدنى منه حالياً بـ 70 متراً. هكذا تحوّل ما كان عائقاً لا يُقهَر فيما مضى إلى طريق إلى عالم جديد.

عبر آسيا إلى أستراليا (ساهول)

يُفترَض أن سيلاً من المهاجرين استمرّ في التدفّق من شبه الجزيرة العربية على امتداد الساحل الجنوبي الشرقي. وقد طرح هذا الاتجاه نفسه لأن الإنسان المبكّر فضّل لأسباب منطقية البحث عن مناطق ذات ظروف مناخية ملائمة لا تزال تتّفق بشدة مع موطنه الأفريقي، ولم يتوجّهْ إلى المناطق الأشد برودةً في الشمال إلّا فيما بعد. وقد قادته طريقه عبر إيران إلى شبه القارة الهندية، ومنها إلى جنوب شرق آسيا، الذي يُفترَض أنه وصل إليه قبل نحو 70000 سنة. كان انخفاض منسوب البحار الناجم عن الفترات الباردة في العصر الجليدي قد سمح بنشوء جغرافيا في جنوب شرق آسيا مختلفة كلياً قياساً إلى الوضع اليوم، وكانت مؤاتية جداً لحركات الهجرة في ذلك الوقت. هكذا كان جزء كبير من إندونيسيا مع ماليزيا وتايلاند متصلاً في شبه قارة واحدة تسمّيها الأبحاث سوندا. كانت هذه الأخيرة مفصولة بمضائق بحرية عن قارة ساهول في الجنوب، والتي كانت تتكوّن من أستراليا وغينيا الجديدة والجزر المجاورة. لا بد أن *الإنسان العاقل* المبكّر القادم من سوندا كان قادراً في ذلك الوقت على التغلّب على هذه المضائق البحرية، ذلك أنه استوطن أستراليا وغينيا الجديدة أيضاً قبل 50000 سنة تقريباً، أي قبل نحو 10000 سنة من الاستيلاء على أوروبا. إذن فقد تم بلوغ شبه الجزيرة الكبيرة سوندا وشبه قارة ساهول، على ما يظهر، من قبل موجة أولى من المهاجرين امتدت من شرق أفريقيا عبر شبه الجزيرة العربية والهند. ويبدو أن التطابقات التي تم إثباتها مؤخّراً بين أجزاء مفردة من الحمض النووي عند الهنود وسكّان أستراليا الأصليين، الذين يُفترَض ألّا مثيل لهم بالمناسبة في سائر أنحاء العالم، تؤكّد هذا الرأي. على أنه لا بد من الإشارة إلى

أنَّ أبحاث علم الوراثة القديمة في هذه المسألة لا تزال في بدايتها، لذلك لا بد من توخي الحذر عند تقييم نتائج من هذا النوع.

قد يكون بلوغ شرق وشمال شرق آسيا قد تم من الجنوب الغربي، أي من شبه جزيرة سوندا على امتداد ساحل المحيط الهادئ باتجاه الشمال. ويُفترَض أن *الإنسان العاقل* القادم من أوروبا الوسطى أيضاً قد تقدّم في الوقت نفسه باتجاه الشرق عبر جنوب سيبيريا ومونغوليا إلى هناك. أما الأجزاء الجنوبية من الصين فيُفترَض أنه تم استيطانها بعد أستراليا مباشرةً (ساهول)، ذلك أن أقدم المكتشفات العظمية للإنسان الحديث، التي ظهرت هناك، ترجع إلى الفترة من 60000 إلى 50000 سنة. كما أن بعض الأدلّة من اليابان والأجزاء الشمالية من شرق آسيا أحدث بشكل واضح (قبل 30000 أو 25000 سنة). يبدو أن أحدث تحليلات الحمض النووي تثبت أن *الإنسان العاقل* وصل إلى الصين قادماً من الغرب فعلاً. غير أن ثمة شكوكاً عامة منهجية لا تزال تعتري هذه الاعتبارات في الوقت الحاضر، وهي أن القيمة الدلالية للتحليلات نفسها والقاعدة الضيّقة للمادة المكتشفة، التي أمكن إجراؤها عليها، يبدو أنهما لا تسمحان ببساطة بهكذا استنتاجات تاريخية بعيدة المدى؛ بالتالي يتعيّن انتظار المزيد من الأبحاث.

ما من تأييد للنموذج متعدد الأقاليم

بالمناسبة من المثير للاهتمام أيضاً، عند مناقشة هذه المسألة، ملاحظة الدلالات الثقافية ـ الأنثروبولوجية والعقائدية: مع المستوى المعرفي الراهن تؤيّد بعض الأمور هجرة الإنسان الحديث من الغرب. بالمقابل يفضّل العديد من العلماء الصينيين ما يُسمّى النموذج متعدّد الأقاليم. وقد انبثق *الإنسان العاقل* بموجب هذا النموذج عن *الإنسان المنتصب* في مواقع مختلفة من العالم بشكل متزامن ـ وبالتالي في الصين أيضاً ـ ولكن بشكل مستقلّ في كلّ حالة عن أماكن النشوء الأخرى. على أن الأبحاث العالمية ترفض هذه النظرية في الغالب بوصفها نظرية تم دحضها. إلّا أنه لا يمكن الحكْم بعد بشكل موثوق على كيفية حدوث الانتقال من *الإنسان المنتصب* إلى *الإنسان العاقل* في شرق وجنوب شرق آسيا بمساعدة قاعدة المواد المتاحة في الوقت الحاضر.

بلغ *الإنسان العاقل* أوروبا على أية حال قبل نحو 40000 سنة مضت. وقد تمت الهجرة سواء من الشرق الأوسط، حيث يُرجَّح أنه حدث أول لقاء بين إنسان نياندرتال والإنسان الحديث، أو من مناطق سهوب آسيا الوسطى عبر منطقة البحر الأسود وممرّ الدانوب. بعد أن وصل *الإنسان*

العاقل إلى أوروبا أخذ ينتشر بسرعة نسبياً في سائر أجزاء القارة الخالية من الجليد وأقصى إنسان نياندرتال إلى حد بعيد قبل 40000 إلى 30000 سنة مضت، والذي استطاع أن يبقى في مناطق تقهقره في شبه الجزيرة الإيبيرية أطول فترة.

عبر بيرنجيا إلى أمريكا

ما من شك في أن أمريكا هي آخر قارة يعمّرها الإنسان الحديث. ومن المؤكَّد أيضاً أن استيطانها تم انطلاقاً من الشمال، وذلك عبر الجسر البرّي بيرنجيا، الذي كان قد نشأ خلال الفترات الباردة نتيجة انخفاض منسوب البحار بين القارات ووصل شمال سيبيريا بألاسكا. أما توقيت استيطان أمريكا فغير واضح. بخلاف الحال في أفريقيا وأوروبا وأجزاء كبيرة من آسيا، لم يعشْ هناك ممثّلون أقدم للإنسان المبكّر أبداً.

تاريخ غير واضح للاتصال بالسكّان الأقدم

يمكن الانطلاق بالتأكيد من وجود *الإنسان العاقل* في أمريكا الشمالية في الفترة بعد 15000 سنة مضت. أما الدلائل الأقدم، التي يُفترَض أن ترجع إلى 35000 أو حتى 40000 سنة مضت، فهي موضع خلاف شديد. كما أن الانتشار اللاحق لـ (*الإنسان العاقل*) إلى جنوب القارة لا يزال يطرح بعض الأسئلة. على أنه يغلب الظنّ أن طريقه امتدّت على طول ساحل المحيط الهادئ باتجاه تشيلي.

مع انتشار *الإنسان العاقل* حتى نهاية العصر الجليدي حوالي عام 11000 قبل الميلاد يكون استيطان العالم من قبل الإنسان قد اكتمل. ولم يقصدْ مناطق تقهقر مناخية قصوى إلّا في زمن لاحق. ما من شك في أن أفريقيا هي قارة منشأ الإنسان الحديث؛ وقد ثبُت هذا عن طريق الخصائص المورفولوجية الموافقة في مكتشفات الهيكل العظمي ودُعِمَ بالسمات الجينية لمجموع الجينات الراهن.أما النشوء متعدّد الأقاليم في أماكن مختلفة في الوقت نفسه تقريباً فهو أمر مستبعَد. بالمقابل فإن حدثية هجرة *الإنسان العاقل* المبكّر وتواريخ الاتصال بين الإنسان الحديث والسكّان الأصليين الأقدم في كلّ حالة، والذين لا بد أنه واجههم في أوروبا وآسيا، لا تزال غير موضَّحة إلى حد بعيد.

يُعدّ الشرق الأوسط أقدم منطقة اتصال بين إنسان نياندرتال و*الإنسان العاقل*؛ فقد تقابل هناك في وقت ما الممثّلون الأوائل لكلا المجموعتين بين 100000 و40000 سنة مضت. إنها الحقبة التي

تلت أقدم هجرة ممكنة للإنسان الحديث من أفريقيا إلى الشرق الأوسط وهجرته المفترَضة باتجاه أوروبا. من الجدير بالملاحظة أنه لا يكاد بالإمكان التمييز بين الإرث الثقافي لكلا الشكلين من الإنسان المبكّر هناك.

2
الإنسان الحديث يغيّر أوروبا

الإنسان الحديث تشريحياً وثقافياً

على أن *الإنسان العاقل* المنتشر في جميع أنحاء العالم من الآن فصاعداً لا يُعدّ إنساناً حديثاً من الناحية التشريحية وحسب، وإنما يثبت كلّ ما نعرفه عنه وعن أعماله أنه حديث ثقافياً أيضاً. على أن الحدود ذات الصلة بينه وبين أشكال الإنسان السابقة، لا سيما إنسان نياندرتال، لم يعدْ بالإمكان رسمها بشكل واضح كما نوّهنا للتو. كلما ازدادت معرفتنا بسلف *الإنسان العاقل* ازداد اقتراباً في سلوكه من خَلَفه، حتى وإن لم يكنْ بإمكانه مجاراته بشكل كامل أبداً.

لا شك في أن الجزء الأحدث من العصر الحجري القديم هو الأكثر بحثاً ودراسةً في أوروبا قياساً إلى باقي أنحاء العالم. ثمة وفرة من البيانات والمكتشفات الهامة تسمح بنشوء صورة واضحة التمايز للتطوّر والحالة. من هذه الناحية يمكننا أن نُبرز بوضوح خاص المعايير التي تساوي السلوك البشري الحديث بالنسبة لأوروبا تحديداً وكيفية توصيف لقاء *الإنسان العاقل* مع الأشكال الأقدم من الإنسان، وهنا مع إنسان نياندرتال على وجه التحديد.

العصر الحجري القديم الأعلى

صحيح أن أحدهما حلّ محلّ الآخر، ولكن الانتقال يبدو معقّداً جداً ومثيراً للجدل، حتى وإن كان إنسان نياندرتال يُربَط بالعصر الحجري القديم الأوسط و*الإنسان العاقل* بالعصر الحجري القديم الأعلى الذي تلاه، إلّا أنه لا يمكن رسم الحدود بين شكلي الإنسان هذين بشكل واضح قياساً إلى الحدود المرسومة بين تلك الحقبتين الزمنيتين والعصر الحجري القديم. والحق أننا ومع تقدم المستوى المعرفي نكشف أن المزيد المتزايد من سمات السلوك البشري الحديث، التي نُسِبَت إلى

الإنسان العاقل بالدرجة الأولى حتى الآن، تجسّد تمظهرات ثقافية للحقبة السابقة أيضاً. وبالعكس لم يعدْ من المستبعَد أن يكون إنسان نياندرتال قد شارك حتى في تشكيل الأوريغناسيان، أي المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم الأعلى. هكذا تبدأ خطوط الفصل التقليدية في ترتيب الثقافة المادية بالامتزاج، بعد أن ظُنَّ أنها مؤكَّدة، وتظهر شكوك راسخة في أن الإلحاقات المرتبطة بها كان لها تطابقاتها في حقائق ما قبل التاريخ.

تقلّبات مناخية شديدة

كان للتقلّبات المناخية الشديدة تبعاتها على تاريخ الإنسان. في آخر فترة دافئة قبل نحو 125000 سنة، أي قبل زمن طويل من أول ظهور لـ (*الإنسان العاقل*) في أوروبا، ساد مناخ تميّز بدرجات حرارة أعلى منها اليوم. وقد أدى هذا إلى ذوبان الكتل الجليدية في القطبين، تسبّب بدوره في ارتفاع منسوب البحار بمقدار 10 أمتار عن منسوبها اليوم. أما الفترات الباردة فكانت موحشة على نحو لا يتصوّره عقل. وأصبح المناخ في الأراضي أمام الأنهار الجليدية شديد الجفاف، مما أدى إلى نشوء كميات هائلة من الغبار الناعم وإلى ترسّبها في النهاية فيما نعرفه اليوم باسم رواسب اللوس ونقيّمه على أنه تربة خصبة بنوع خاص. وانتشرت الأراضي العشبية المفتوحة في أجزاء واسعة من أوروبا، ولم تعد الغابات موجودة إلّا في حوض البحر الأبيض المتوسط.

في حين أدت عواقب هذه التغيّرات المناخية إلى انقراض إنسان نياندرتال تدريجياً، في الفترة الممتدة بعد 40000 سنة مضت، وجد الإنسان الحديث تشريحياً سبيلاً إلى التعامل معها والحفاظ على نوعه. ولكن هل من علاقة مباشرة أصلاً بين الحداثة التشريحية والثقافية؟ وفقاً لكلّ ما نعرفه في الوقت الحاضر ثمة سبب وجيه للإجابة بالنفي عن هذا السؤال. قد يكون هناك علاقة غير مباشرة على أية حال. هكذا تتمثّل إحدى سمات الإنسان الحديث الأساسية في أنه قادر على تغيير سلوكه والتكيّف مع المتطلّبات الراهنة، في حال وُجِدَ سبب وجيه بما يكفي لذلك. ويجوز وصف هذه المقدرة بأنها حديثة، من دون أن تكون الحداثة معلَّلة تشريحياً أو من دون أن يكون لها تبعات ملموسة تشريحياً بالضرورة.

ما الحداثة الثقافية؟

لا نتكلّم عن حداثة ثقافية عموماً إلّا عندما يبدو السلوك البشري شبيهاً بسلوكنا. على أنه من نافل القول أن ثمة معايير تدخل في اللعبة هنا ولا يمكن تحديدها موضوعياً بشكل صارم دوماً، فضلاً عن أنه يصعب قياس البعض منها. هناك إجماع واسع في الأبحاث الآن على أن *الإنسان العاقل* في العصر الحجري القديم الأعلى ابتداءً من 40000 سنة مضت لم يعدْ يختلف في قدراته الثقافية عن الإنسان الحالي بشكل جوهري.

تحسّن القدرة على التكيّف عند الإنسان العاقل

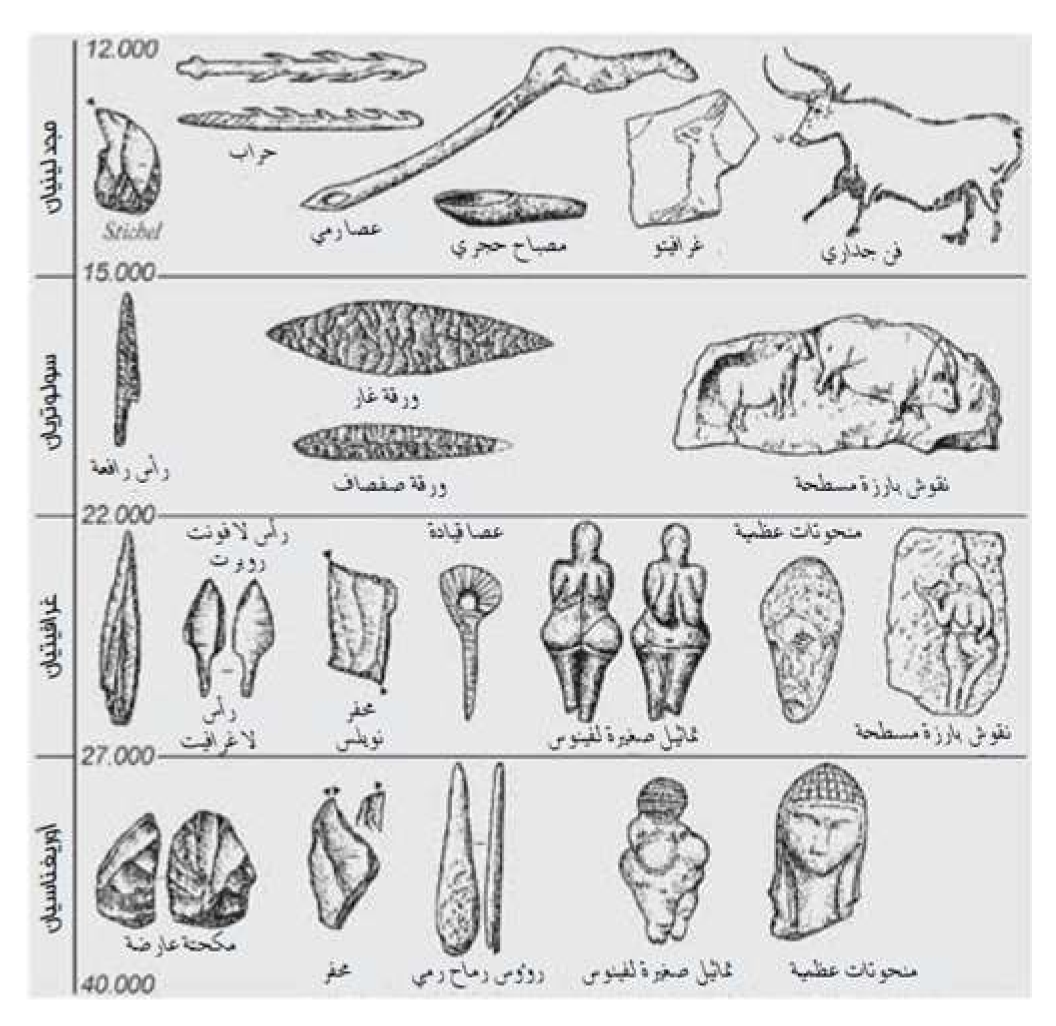
ففي هذا التوقيت على أبعد تقدير اكتمل التطوّر الثقافي نحو الإنسان الحالي في خطوطه الأساسية: أخذ المجتمع يتواصل بمساعدة لغة باتت أكثر تعقيداً، وبغيرها من وسائل التواصل بما فيها البصرية، وأنتج البشر أدوات معقّدة وقياسية، وطوّروا حسّاً جمالياً، عبّروا عنه بصناعة قطع الحلي وارتدائها، واهتمّوا بالموت وبالحياة من بعده، مثلما تبيّن أولى حالات الدفن، وأخيراً أنتجوا فنّاً تشكيلياً وحتى موسيقا، يُفترَض أنها ارتبطت بالطقوس والأعياد.

التوظيف المتعمّد للرموز

يندرج في عداد السمات الأساسية للإنسان الحديث كلٌّ من التوظيف المتعمّد للرموز في اللغة والمعتقدات والحياة اليومية، والقدرة على عزف الموسيقا والغناء والقصّ والتخطيط المسبق. كلّ هذا كان موجوداً سلفاً في العصر الحجري القديم الأعلى الأوروبي. ولما كانت الاستعدادات الوراثية عند إنسان نياندرتال تقع ضمن طيف تنويعات *الإنسان العاقل*، كما رأينا، وبالتالي لا يوجد مسوّغ للفصل بينهما إلى نوعين بيولوجيين يتّسمان بحداثة ثقافية ذات وضوح شديد الاختلاف - لا تنعكس حتى في المادة الأثرية للفترة الانتقالية - من الجائز التخلّي عن الفرضية القائلة إن السلوك الحديث ثقافياً لا يُصادف إلّا عند الإنسان الحديث تشريحياً، بل يتبيّن بوضوح متزايد أن شكل الإنسان وشكل الحياة في العصر الجليدي المتأخّر لم يشكّلا وحدة. كانت أشكال الحياة المخالفة تعبيراً عن تكيّفات ثقافية مع المجالات الحيوية والظروف المعيشية المتباينة، علماً بأن البشر كانوا ينهلون منذ القدم من مخزون غني من المعرفة والخبرة، على أن هذا الأخير كان مستقلاً عن التنويع المعني، وقد استخدمه إنسان نياندرتال و*الإنسان العاقل* بالتساوي.

ثقافة الصيد في العصر الحجري القديم الأعلى

فيما يخصّ استراتيجية البقاء ونمط الحياة لا يختلف العصر الحجري القديم الأعلى المطبوع بطابع الإنسان الحديث سوى قليلاً عن العصر الحجري القديم الأوسط السابق والمرتبط بإنسان نياندرتال. ومع ذلك بدأت قبل حوالي 40000 سنة حقبة جديدة من تاريخ البشرية (الشكل 7). وهي تتزامن من حيث التاريخ المناخي مع الجزء الثاني من آخر فترة باردة وتنتهي قبل نحو 12500 سنة مضت. وقد عاش الإنسان الحديث صيّاد طرائد متخصّصاً كأسلافه. إلى جانب الصيد وجمع الطعام النباتي ازدادت أهمية صيد السمك بشدة في هذه الفترة، مثلما يثبت ما تم اكتشافه من صنّارات صيد السمك والحراب والشباك أو ثقّالات الشباك. غير أن الصيد شكّل أهم مصدر للرزق في معظم أوقات السنة. وقد حدثت هجرات حيوانية مستمرة في الطبيعة العشبية الجافة الممتدة ذات الفوارق الكبيرة في درجات الحرارة بين النهار والليل وبين الصيف والشتاء. وسمحت إمكانية التنبّؤ هذه كذلك بتنظيم الصيد ووفّرت أساساً اقتصادياً موثوقاً لثقافة الصيد في العصر الحجري القديم الأعلى. على أن مايثير الاهتمام هو أن البشر لم يتبعوا قطعان الحيوانات على ما يبدو، بل الأرجح أنه كان هناك مواقع استيطان مستخدَمة لأجل طويل في مواقع مختارة، كان يتم نقل الفرائس إليها. لم يتم تأسيس سوى معسكرات صيد قصيرة الأجل في كلّ مرة على مسارات هجرة أنواع حيوانية معينة، ولم يكتشفْ فيها علماء الآثار سوى عظام نوع واحد من الحيوانات. وتدلّ مكتشفات العظام في مواقع الاستيطان تلك، التي لم تخدمْ كمعسكرات صيد صرف، على أن المرء قد صاد كلّ ما يمكن من حيوانات، وقد عُثِرَ فيها على مؤشرات على غنى أكبر بكثير من الأنواع، وطيف واسع من الفرائس.



الشكل 7: أدوات حجرية وأعمال فنّية نموذجية
من ثقافات العصر الحجري القديم الأعلى في
أوروبا

الصيد والذبح والمعالجة

كلّ شيء تمحور حول صيد الحيوانات وقتلها وذبحها. وقد أمدّت بكلّ ما هو ضروري للبقاء من لحوم ودهون ونقي عظام، إضافة إلى الجلود والأوتار والعظام والقرون بوصفها مواد خامًاً هامة بحاجة إلى مزيد من المعالجة. إذن فقد تم استغلال الحيوانات بشكل كامل، وذلك ليس للغذاء وحسب، وإنما لإنتاج الأدوات والملابس ولبناء المساكن أيضاً. لقد سيطر الإنسان على بيئته بشكل تام تقريباً في العصر الحجري القديم الأعلى على أبعد تقدير، وربما حتى قبل ذلك، وهو شرط ضروري للإمداد المستدام والموثوق بالغذاء. ويُفترَض أن الصيد المتخصّص على شكل مجموعات للثدييات الكبيرة وغيرها من الطرائد لا يكاد يختلف عنه في الحقب الزمنية السابقة، بيد أن ما يشبه

الثورة حدثت فيه في العصر الحجري القديم الأعلى المتأخّر (مجدلينيان) جراء اختراع قاذف الرماح. فقد سمح استخدام قاذف الرماح برمي الرمح إلى مسافات أبعد وبقوة اختراق أكبر وبإصابة الهدف بدقة أعلى. وأدى هذا إلى تحسين حصيلة الصيد بشكل كبير، ويمكن أن يكون قد خلق الأساس لكلّ من زيادة عدد السكّان خلال هذه الفترة، ولتطوّر العصر الحجري القديم الأعلى باتجاه الحداثة الثقافية.

أول عمل تدجيني للإنسان

كما انبثق عن تركيز الحياة بكاملها على الصيد أول عمل تدجيني للإنسان. وقد تم في نهاية العصر الحجري القديم الأعلى، واستهدف الكلب. على أن دافع الإنسان في ذلك الوقت كان يختلف عنه عند تدجين الحيوانات المنزلية في وقت لاحق، والتي نُظِرَ إليها بوصفها حيوانات مورِّدة للحوم والحليب والصوف بالدرجة الأولى. إذ كانت الكلاب حيوانات مساعِدة مرحَّباً بها للغاية في الصيد. ويّرجَّح أنها كانت تقيم كحيوانات مفترسة بالقرب من معسكرات البشر، حيث ربما كانت تُرمى لها بقايا الصيد، مما أتاح نشوء تعايش مستمر ووثيق لمنفعة الطرفين بمرور الوقت.

التقدّم في تحضير الطعام وحفظه

تسمح لنا معسكرات *الإنسان المنتصب* وإنسان نياندرتال بأن نفترض أن تقنيات تحضير الطعام المختلفة عن طريق الطهي والتحمير والشواء لم تكنْ اختراع العصر الحجري القديم الأعلى. ويصحّ الشيء نفسه على حفظ اللحوم. ويُرجَّح أن المرء كان ملمّاً بالتقنيات المختلفة للتدخين أو التجفيف أو التحميص أو التجميد. والحق أن غذاء الإنسان تركّز على استهلاك اللحوم حصراً تقريباً على مدى ملايين السنين. سبق أن ذكرنا أن تطوّره الجسدي والعقلي، الذي يمثّل قصة نجاح غير مسبوقة، لم يكنْ له ليسير بالشكل المعروف من دون لحوم. ولا يبدو الإفراط في استهلاك اللحوم ضاراً بالصحة ما دام أسلوب الحياة يقترن بما يكفي من الحركة وغيرها من التحدّيات الجسدية المتنوّعة، التي لم يكنْ هناك أيّ نقص فيها في العصر الحجري القديم بكلّ تأكيد.

بصرف النظر عن اللحوم يحق لنا أن نتوقّع عرْضاً غنياً من الأطعمة النباتية. بيد أنه لم يبقَ محفوظاً منها أيّ أثر في الغالب. إنما من المؤكَّد أن المرء كان يجمع كلّ ما كان صالحاً للأكل ومغذّياً: تحتوي المكسّرات والدرنات والبنجر والجذور على نسب عالية من الكربوهيدرات والألياف

وتمدّ بالطاقة والمعادن الهامة. وقد أكملت الثمار البرّية، كالتوتيات والتفاح وعنب الذئب والزعرور، الإمداد بالفيتامينات عند *الإنسان العاقل*. إلى ذلك يُفترَض أنه قام بجمع البذور والأزهار والأوراق والقرّاص واستهلكها. على أن النباتات الليفية أمدّت، فضلاً عن ذلك، بمواد خام هامة لإنتاج الحبال والأربطة والشباك والسلال والحصائر والملابس وحتى أغطية الخيام.

في مسألة أدوار الجنسين

أما توقّعاتنا فيما يخصّ أدوار الجنسين في مجتمعات العصر الحجري القديم الأعلى فهي محكومة بصور نمطية لا يمكن التحقّق منها في النهاية، وإنما هي تقوم على التفكير التقليدي في الأدوار وعلى المشاهدات الإثنوغرافية في القرون الأخيرة. تبعاً لذلك اهتمّ الرجال بصيد الطرائد الكبيرة والحصول على المواد الخام المختلفة، في حين انشغلت النساء بجمع الطعام النباتي والطهي ورعاية الأطفال. على أنه من المؤكَّد أن النساء لم يكنّ قليلات الحركة، كما يُفترَض في بعض الأحيان. لما كانت الفواصل بين الحمول أطول في مجتمعات الصيد، لم يكنْ على النساء أن يحملن على الذراع على سبيل المثال سوى طفل واحد في الغالب، الأمر الذي يُفترَض أنه لم يقيّدْ حركتهن كثيراً. وبالتالي يغلب الظنّ أن النساء شاركن في صيد الثدييات الكبيرة، وليكنْ في المساعدة في تقطيع الفريسة. من الجدير بالذكر فيما يخصّ أدوار الجنسين الملاحظة التي مفادها عدم وجود أيّ فوارق ذات دلالة فيما يتعلق بالتعامل مع الموتى وتجهيز مرفقات المتوفّين من الرجال والنساء.

التبدّل المناخي المتكرّر بوصفه تحدّياً خاصاً

وضع التبدّل المناخي المتكرّر بين الفترات الدافئة والباردة الإنسان الحديث في مواجهة تحدّيات خاصة، وسعى *الإنسان العاقل* إلى استجابات تكنولوجية متنوّعة للظروف البيئية المتغيّرة ومن الواضح أنه وجدها. وقد تجلّت في طرق إنتاج جديدة في صناعة الأدوات على سبيل المثال. مما يتميّز به المركَّب التقني للعصر الحجري القديم الأعلى هو أنه أولى تقنيات التحضير أهمية أكبر في صناعة الأدوات الحجرية. فقد استخدم المنتجون أدوات طرْق أكثر ليونة وأكثر قساوةً، مثلما استخدموا أنواعاً معينة من الحجر ذات خصائص نوعية جداً لإنتاج ضروب من الأدوات المختلفة. فضلاً عن أنهم صنعوا أدوات من العظام والعاج والقرون والخشب. والحق أن المواد وتقنيات الإنتاج وأشكال الأدوات تكشف عن تنوّع لا يُستهان به، ويمكننا بمساعدة هذه الفوارق تمييز الجماعات زمنياً ومكانياً وتوصيفها خلال العصر الحجري القديم الأعلى.

تخصّص وتنظيم وتوزيع

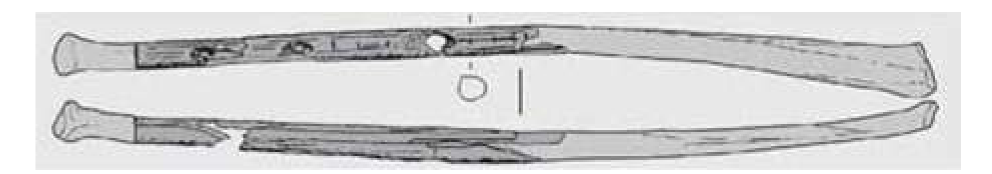
إلّا أن طيف المنتجات الأكثر تطوّراً بوضوح في زمن *الإنسان العاقل* قياساً إلى الأجزاء الأقدم من العصر الحجري القديم لا يشهد على التقدّم التكنولوجي وحسب، وإنما يكشف التغيّرات الاجتماعية ـ الثقافية أيضاً. فالحصول على الغذاء والمواد الخام، شأنه شأن صناعة الأجهزة والأدوات النموذجية للعصر الحجري القديم الأعلى، يشترط تخصّصاً أعلى بشكل واضح، سواء داخل المعسكر أم خارجه. ولا يعمل التخصّص بدوره إلّا في ظلّ تنظيم مدروس وتوزيع أشد فعّاليةً للأعمال المختلفة ضمن مجموعة صيّادين ومجموعة جامعين. ثمة سؤال مثير للاهتمام، إنما لا يمكن الإجابة عنه بشكل مؤكَّد في النهاية ـ وهو بدوره ذو متضمّنات عقائدية حديثة مثيرة للاهتمام ـ ينصبّ على ما إذا كانت مثل هذه المجتمعات المبكّرة تصنع الأدوات والمعدّات سلفاً بشكل ممنهَج في إنتاج تسلسلي يتجاوز احتياجاتها الخاصة بهدف التبادل الحقيقي للسلع. صحيح أنه يمكن التشكيك في ذلك، إنما لا يمكن استبعاده بسبب النقص في مصادر المكتشفات الواضحة الموافقة.

ثقافة الأوريغناسيان

تتراكب ثقافة الأوريغناسيان، التي كانت قائمة عند بداية العصر الحجري القديم الأعلى (قبل 40000 ـ 27000 سنة)، مع انتهاء العصر الحجري القديم الأوسط ويُفترَض أن صاحبها هو إنسان نياندرتال أيضاً بشكل جزئي. وفي ذلك الوقت سلفاً يظهر *الإنسان العاقل* على مسرح الأحداث، وإن لم يكنْ بالإمكان إثبات هذا الأمر بشكل موثوق إلى اليوم. أي أنه من الممكن جداً أنه حدثت موجة هجرة للإنسان الحديث من غرب آسيا بعد أن قدّم المناخ في أوروبا ظروفاً معيشية أفضل بوضوح من جديد ـ في أعقاب فترة باردة أخرى ـ حينما ارتفعت درجات الحرارة . ربما صادف القادمون الجدد أوروبا خالية من السكّان في أجزاء واسعة منها، مما جعل هذا المكان جذّاباً بشكل خاص لـ (*الإنسان العاقل*) المهاجر. يمكن النظر إلى ثقافة الأوريغناسيان على أنها ظاهرة أوروبية في المقام الأول، بيد أن إشعاعها امتدّ إلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وقد ترافقت مع الابتكارات التقنية في إنتاج الأدوات الحجرية (الشكل 7).

أقدم فنّ تشكيلي وأولى الأدوات الموسيقية

ولعبت دوراً بارزاً في ذلك صناعة النصول والأدوات الحادة غير المعروفة في العصر الحجري القديم الأوسط السابق (مكاشط، محافر، نصول مشذَّبة الحواف) وكذلك الرقاقات (مكاشط مرتفعة ومكاشط عريضة). كما تتزايد في المادة المكتشفة أدوات مصنوعة من مواد أخرى - العظام والقرون والعاج - بشكل قافز من الناحية الكمّية. على أننا لا يمكن أن نثبت في الجزء الأول من الأوريغناسيان سلفاً أيّ ابتكارات مرتبطة بالعصر الحجري القديم الأعلى، والتي تُعدّ من سمات الحداثة الثقافية أيضاً، مثل الأدوات المصنوعة من العظام والقرون، ورؤوس المقذوفات، وكذلك الفنّ وأولى الآلات الموسيقية (الشكل 8). إذ لا يتم العثور عليها إلّا كشواهد على فترة متقدّمة من هذه الحقبة ابتداءً من 34000 سنة مضت تقريباً. والحق أن هذه الملاحظة تُعدّ حجة قوية في النقاش الدائر حول كيفية حدوث التغيّر في العالم، والذي تم تشكيله من قبل الإنسان الحديث تشريحياً وثقافياً: مثلما لم تتطوّر الطبيعة في قفزات سار التطوّر الثقافي للإنسان كذلك بصورة تدريجية بوصفه جزءاً من الطبيعة.



الشكل 8: ناي مصنوع من عظم كعبرة البجع في غايسنكلوسترله، ألمانيا

الغرافيتيان

انتهى الأوريغناسيان قبل 30000 سنة، وبدأ في أجزاء واسعة من وسط وشرق أوروبا وصولاً إلى سيبيريا الغرافيتيان، الذي ثبُت أن صاحبه كان *الإنسان العاقل* سلفاً. ويغلب الظنّ أنه كانت هناك فترة باردة فتّاكة مجدداً بين الحقبتين، أدت بدورها إلى انهيار مجموعات سكّانية بأكملها في نواح متفرّقة. وحينما اعتدل المناخ بعد ذلك ثانيةً ربما هاجرت مجموعات سكّانية جديدة من جنوب غرب آسيا، على غرار ما يُفترَض أنه حدث في بداية الأوريغناسيان. من المرجَّح أن الأمر في بداية الغرافيتيان كان يتعلق بممثّلين طوال القامة لـ (*الإنسان العاقل*)، لم يعودوا يتوافرون على سمات قديمة وبالتالي يُفترَض أنهم كانوا يشبهون كثيراً الإنسان الحالي. انتهى الغرافيتيان قبل نحو 22000 سنة، أي في فترة البرودة القصوى أو بالأحرى فترة الامتداد الأوسع للأنهار الجليدية خلال

العصر الجليدي الأخير. وقد ضعُف الاستيطان في أجزاء واسعة من وسط وشرق أوروبا بشكل ملحوظ في ذلك الوقت.

أدوات صيد معقّدة متعدّدة الأجزاء

من أهم الابتكارات التقنية في الغرافيتيان النصول الصغيرة المستخدَمة كمقذوفات (الشكل 7)، والتي تظهر بأعداد كبيرة جداً، وكان يتم تركيبها في أجسام رماح مصنوعة من الخشب أو القرون أو العظام ولصقها بالقار أو بالغراء لضمان تماسك آمن. هكذا استطاع المرء صناعة أدوات معقّدة متعدّدة الأجزاء. وفي الوقت نفسه رفعت الحواف الأشدّ قطعاً من فعّالية الرماح في الصيد. وأضيفَت إلى ذلك قدرة الإنسان على تقطيع قرون الرنّة إلى شظايا وجدت لها بدورها استخداماً كرؤوس مقذوفات. وربما تم في ذلك الوقت اختراع قاذف الرماح، الذي كان واسع الانتشار سلفاً في المجدلينيان التالي. من الجائز على أية حال أن تُعدّ أواسط العصر الحجري القديم الأعلى الحقبة التي شهدت تحسينات هائلة في أسلحة الصيد، وبالتالي تغييرات مستدامة في تقنيات الصيد واستراتيجيته.

مواد خام نادرة وتبادل سلع مبكّر

كان الحصول على المواد الخام المهمة المركزية الثانية لـ (*الإنسان العاقل*) في الغرافيتيان، إلى جانب تأمين الغذاء. كان قد وسّع نطاق حركته بشكل كبير قياساً إلى بشر الفترات السابقة بحثاً عن مواد خام معينة وللحصول عليها، واستطاع استجرار مواد من مناطق بعيدة أيضاً عبر شبكة من قنوات الاتصال الممتدّة داخل أوروبا. هكذا عثر الباحثون على لؤلؤ للزينة مصنوع من العاج وأسنان الحيوانات والأصداف، تم استخدامه من أجل القلادات تارةً وكتطبيقات على الملابس تارةً أخرى؛ حيث ثبُت أن بعض أنواع الأصداف كانت قادمة من مناطق تقع على بعد 500 أو حتى 1000 كيلومتر من موقع الاكتشاف.

يبدي المركَّب التقني المتغيّر في الغرافيتيان ملامح ملحوظة لزيادة الفعّالية من نواح عدة. صحيح أن الظروف المناخية، التي ساءت ثانيةً في الغرافيتيان المتأخّر، عزّزت الضغط مجدداً على المجموعات البشرية في حينه، ولكن هذه الأخيرة لم تستسلمْ لمصيرها هذه المرة، وإنما استجابت لذلك بتحسين تكنولوجيا الأدوات وبتوسيع واضح في مناطق الحركة والتجوّل أثناء الحصول على الغذاء وبتوسيع شبكات تواصلاتها واتصالاتها البعيدة.

الأهمية التاريخية الثقافية لإبرة الخياطة

يستحق اختراع واستخدام إبرة الخياطة مثقوبة الرأس والمصنوعة من العظام اهتماماً خاصاً في هذا السياق. كان لهذه الأداة أهمية حاسمة، لأنها مكّنت من إجراء تحسين هائل في تقنية الخياطة. فقد أتاحت الخياطة بمثل هذه الإبرة إحكاماً في الملابس أفضل بكثير من السابق، كما مكّنت من تحسين عملية وصل الجلود والفراء. وبذلك تم أخيراً إنقاص نفوذية تلك «الأغشية الثقافية» للحرارة بشكل واضح، مثلما يمكن وصف الملابس المبكّرة. وقد تجلّى النجاح قبل 20000 سنة، عندما أدت ذروة باردة أخرى إلى زحف جديد للأنهار الجليدية وإلى مناخ أشد برودة وجفافاً من جديد وإلى نهاية الغرافيتيان. لم يحدثْ في ذلك الوقت انهيار جزئي لمجموعات سكّانية كاملة، على غرار ما حصل في أزمنة سابقة. كان الإنسان قد قام بخطوة حاسمة للتكيّف بشكل أفضل مرة أخرى مع الظروف البيئية المتغيّرة، وأجاد الآن التصدّي بنجاح للمحن والشدائد الناشئة بمساعدة تقنياته.

السولوتريان وما فوق الغرافيتيان

في الفترة الممتدة بين 21000 و17000 سنة مضت كان السولوتريان، الذي أعقب الغرافيتيان - أي المرحلة الثقافية التي رافقت أشد أطوار العصر الجليدي الأخير برودةً وجفافاً - قد انتشر في أجزاء واسعة من غرب ووسط أوروبا. أما في وسط أوروبا الشرقي وشرق أوروبا، حيث لم يُعثَرْ على أيّ شواهد على السولوتريان، فقد تطوّر عن الغرافيتيان بصورة موازية ما يُسمّى ما فوق الغرافيتيان. كان تضخّم الغطاء الجليدي في ذلك الوقت أيضاً قد سحب كميات هائلة من المياه من دورة نصف الكرة الشمالي، وانخفض منسوب البحار حوالي 120 متراً. ونشأت في معظم المناطق الشمالية ما تُسمّى أراضي التندرا القطبية الجافة، التي تحوّلت جنوباً إلى سهوب التندرا ذات الغطاء النباتي المنخفض. واستمرّ وجود الغابات في جنوب جبال الألب وإلى الشرق، وسادت في حوض البحر الأبيض المتوسط ظروف طبيعية أفضل بكثير بالنسبة للإنسان والحيوان. على أن هذه الفترة من التحدّيات المناخية القصوى لم تتحوّلْ إلى مرحلة تدهور ثقافي. فقد نجح الإنسان بفضل إبره العظمية المثقوبة في خياطة مواد من شتى الأنواع ولشتّى الأغراض بشكل فعّال - على غرار الحال في الغرافيتيان السابق - بحيث استطاع تدبّر أمر ملابسه ومساكنه أيضاً بما يتلاءم مع الظروف المناخية القاسية.

(قاذف الرماح) و(القوس والسهم) يحدثان ثورة في الصيد

تندرج رؤوس الحراب المدبّبة المميّزة للسولوتريان ضمن أكثر الأدوات المسطّحة ذات الحواف المنمَّقة كمالاً في العصر الحجري القديم، وكثيراً ما توصف عن حق بـ<تُحَف> تكنولوجيا الأدوات الحجرية في العصر الحجري القديم ذات الأثر الجمالي الرفيع (الشكل 7). كما تم إثبات وجود قواذف رماح مصنوعة من القرون في السولوتريان لأول مرة. حتى المقذوفات الحجرية من نهاية السولوتريان يتم تفسيرها في بعض الأحيان بأنها مؤشّر على أن الإنسان أجاد صناعة واستخدام القوس والسهم سلفاً. وفي حال دعمت مكتشفات أخرى هذه الفرضية، فسوف يدخل السولوتريان بقاذف الرماح والقوس والسهم التاريخ بوصفه عصراً ثورياً حقاً، ذلك أن هذه التطوّرات في تقنية الصيد واستراتيجيته لا تعني شيئاً آخر سوى ثورة.

المجدلينيان

يوصف الجزء الأحدث من العصر الحجري القديم الأعلى في الفترة الممتدة بين 19000 و13000 سنة مضت بالمجدلينيان. وقد حلّت هذه المرحلة الثقافية محلّ السولوتريان في أعقاب ذروة باردة أخرى في غرب أوروبا. وانتشر أصحاب هذه الثقافة نحو الشرق بعد ذلك. كان البشر أصغر حجماً بقليل وسطياً مما كانوا عليه في الغرافيتيان. ويُعتقّد أن تراجع الحجم هذا أثناء النموّ ربما كان بدوره نتيجة حدثية تكيّف مع الظروف المناخية شديدة البرودة في العصر الجليدي. فحجم الجسم الأصغر يعني في النهاية سطح جسم أقل يمكن أن يتم فقدان الحرارة من خلاله؛ هكذا تمتع الأشخاص صغار الحجم في ذلك الوقت بميزة تطوّرية مؤقتة.

آخر سهوب القطب الشمالي الباردة في أوروبا

كان بشر المجدلينيان سكّان آخر سهوب القطب الشمالي الباردة في أوروبا. وقد تواصل في هذه الفترة تطوير بعض الأدوات الحجرية من المراحل السابقة مرة أخرى، على أن الشواهد على هذه التكنولوجيا تبدو إجمالاً أقل إتقاناً في صناعتها من تلك التي تعود إلى الفترة الأقدم. بالإضافة إلى المكاشط والمحافر والمثاقب تجدر بالذكر ما تُسمّى السكاكين الظهرية الصغيرة على وجه الخصوص، التي كان يتم تركيبها كرؤوس مقذوفات في أجسام من الخشب والعظام والقرون (الشكل 7). كما أن تكثيف الروابط البعيدة على امتداد أوروبا والملاحَظ منذ الغرافيتيان سلفاً، وتطوير شبكات التواصل الضرورية للحصول على مواد خام معينة، أظهرا مزيداً من التقدّم في المجدلينيان

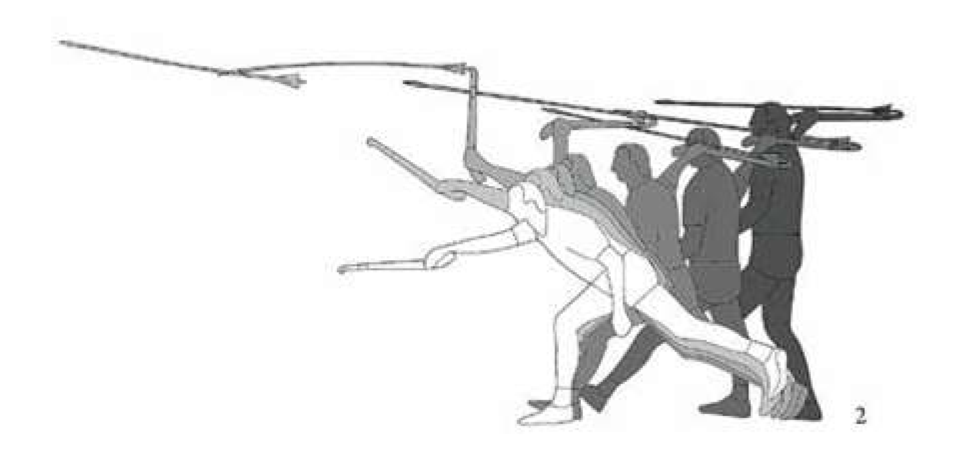
أيضاً. إضافة إلى أن كثافة الروابط، التي تم بلوغها، تجعل الزيادة الواضحة في عدد السكّان في الجزء الأخير من العصر الحجري القديم الأعلى أمراً محتمَلاً جداً أيضاً.

قاذف الرماح كأقدم آلة للبشرية

فضلاً عن ذلك يُعدّ المجدلينيان تلك المرحلة من العصر الحجري القديم الأعلى، التي بلغ فيها استخدام تكنولوجيا المواد العضوية لإنتاج مختلف المعدّات والأدوات ذروة لا يُستهان بها. وقد حظيت القرون بالدرجة الأولى بشعبية خاصة؛ فقد صنع منها المرء قواذف الرماح والقضبان المثقّبة ورؤوس المقذوفات والحراب وإبر الخياطة ذات الثقوب الدقيقة. والحق أن قاذف الرماح، الذي سبق ذكره مرات عديدة، كان اختراعاً فعّالاً بشكل خاص للإنسان في العصر الجليدي المتأخّر، وهو يشبه نوعاً من <الآلة>. وهو عبارة عن جهاز أشبه بقضيب مع خطّاف في نهايته يمكن إدخاله في تجويف في نهاية الرمح (الشكل 9). عند استعماله الموافق يمكن تسريع رمي الرمح بشكل كبير، كما ترتفع في الوقت نفسه دقة الإصابة وتزداد القوة عند إصابة الهدف بشكل واضح.

وقد أسفرت التجارب باستعمال قواذف رماح مقلَّدة عن سرعات رمي تزيد على 100 كم/سا. والحق أن قاذف الرماح المخترَع في السولوتريان سلفاً، والمستخدَم فيما بعد في المجدلينيان على نطاق واسع كما هو واضح، أحدث ثورة في تقنية الصيد في العصر الحجري القديم الأعلى، ومن هنا يُعدّ واحداً من أولى الاختراعات العظيمة للبشرية. ويبدو أن مصادفته في منطقة انتشار المجدلينيان بكاملها تمثّل سمة جوهرية لهذه الحقبة، وهي فترة صيّادي الطرائد الكبيرة، الذين تخصّصوا في صيد الأيّل والحصان البرّي والرنّة. بخلاف الماموث ووحيد القرن الصوفي الأكثر بطئاً لم يكنْ بالإمكان إرداء هذه الثدييات الكبيرة فائقة السرعة والجفولة في البرّية المفتوحة إلّا بمساعدة معدّات دقيقة، ولولا قاذف الرماح - وربما استخدام القوس والسهم أيضاً - لما كان هذا ممكناً.





الشكل 9: قاذف رماح من ماس دازيل في فرنسا ومسار الحركة أثناء استخدام قاذف الرماح.

بنية وتنظيم المعسكرات

لا يمدّنا بمثل هذه المكتشفات، التي تسمح باستخلاص نتائج أبعد فيما يخصّ تنظيم وبنية المجتمع، سوى عدد قليل من المعسكرات الكثيرة في العصر الحجري القديم الأعلى. من هذه الناحية لا تختلف هذه الحقبة عن الأجزاء السابقة من العصر الحجري القديم. كانت معسكرات الطبيعة المفتوحة توجد بالقرب من الأنهار بصفة خاصة، وفي مواقع محمية من الريح عند الضفاف العالية، ولكنها توجد في بعض الأحيان في سهول الأنهار أو في جزر أيضاً. تسمح المكتشفات، التي تم العثور عليها في أماكن العصر الحجري القديم الأعلى هذه، لأول مرة، برسم صورة أكثر تمايزاً إلى حد ما عن العصر الحجري القديم الأوسط: كقاعدة هامة كانت البُنى السكنية لا تزال تُرتَّب حول مواقد النار عموماً. ويسمح توزّع المادة المكتشفة في محيطها الأوسع بتمييز مناطق نشاط ومناطق نفايات.

كانت أنماط المساكن نفسها متنوّعة؛ فهي تمتدّ من الأكواخ الغارقة قليلاً أو المشيَّدة على مستوى الأرض أيضاً إلى التصميمات المبنية على مستوى الأرض ذات المساقط الأفقية المختلفة (الدائرية، البيضوية، متعدّدة الأضلاع، المربّعة.. إلخ) والأبعاد المتفاوتة (10 - 50 م2). ثمة مساكن طويلة منتظمة ذات مواقد مصطفّة على امتداد المحور المركزي أو تصميمات بيضوية إلى دائرية الشكل أيضاً معروفة من المواقع الأوكرانية (كوستنكي، مولودوفا، إيلسكايا). ويبدو أن بنيتها أشبه بالخيمة أو بخيمة اللباد، حيث غالباً ما تعلِّم حجارةٌ المسقطَ الأفقي، وتشكّل قضبانٌ خشبية وعظام حيوانية وعظام ماموث وأنيابه أجزاءَ السقالة الحاملة للمسكن. وقد تم اكتشاف قوائم خشبية مثقَّبة تشير إلى دعامات حاملة لهيكل السقف، وهي تُظهر في بعض الأحيان مسافات منتظمة وترتيباً جيد التخطيط دوماً. كما تم استخدام المنخفضات والتجاويف الطبيعية أيضاً من أجل المساكن، وكان يتم أحياناً توسيعها إلى أكواخ حفر بمعنى الكلمة ذات جدران عمودية عمقها 1.5 إلى 2 متر. أما السقف فيتكوّن من الأغصان أو اللحاء أو الجلود.

مستوطنة غونرسدورف في العصر الحجري القديم الأعلى

حسبَ المرء في موقع غونرسدورف، بالقرب من بلدة نويفيد في منطقة الراين، أن كوخاً دائرياً شبيهاً بالخيمة قطره من 6 إلى 10 أمتار وجدرانه عمودية يحتاج إلى ما يصل إلى 40 من الجلود الحيوانية لتغطيته. وكان لابد من وصل أجزاء السقف الجلدية بعضها ببعض بشكل جيد لحماية الكوخ من الثلج والريح والبرد؛ من هنا يجوز الانطلاق من أن الأجزاء المفردة تمت خياطتها معاً. كثيراً ما كانت مواقد النار في الداخل محاطة بالحجارة، كما توجد مؤشّرات على هياكل شبيهة بالفرن، وقد تكون الحفر الشبيهة بالقدور استُخدِمَت في تحضير الطعام. كما عُثِرَ خارج الأكواخ على حفر للتخزين وأماكن عمل لصنع الأدوات الحجرية وغيرها من الأعمال. صحيح أن حجوم المساكن كانت متفاونة، ولكن يُفترَض أنها كانت توفّر متّسعاً من المكان لعائلة واحدة عادةً. أما في التصميمات الأكبر، التي تضمّ عدة مواقد، فقد تكون عاشت عدة عائلات تحت سقف واحد. من الجائز الانطلاق إجمالاً من أن معسكرات العصر الحجري القديم الأعلى كانت تضمّ متّحدات اجتماعية مؤلّفة من 20 إلى 100 إنسان كحد أقصى.

في مسألة استخدام الكهوف

لا يزال من الصعب حسم السؤال عن مدى استخدام الكهوف كأماكن للسكن. بيد أن الفنّ الصخري الغني للعصر الحجري القديم الأعلى في بعض أجزاء أوروبا يسمح باستنتاج كثرة استخدام الكهوف على أية حال. على أنه يُرجَّح أن الإنسان المبكّر قد تحاشى الكهوف، ذلك أن الدببة والقطط المفترسة تفضّل العيش فيها. أما قرار استيطانها بشكل مكثَّف فلا بد من النظر إليه على أنه خطوة هامة سلفاً نحو إعادة التشكيل الفاعلة للبيئة الطبيعية. والحق أن هذه العملية بدأت في العصر الحجري القديم الأوسط على أبعد تقدير، غير أن استخدام الكهوف ازداد في الجزء الأحدث من العصر الحجري القديم بشكل قافز، حيث قُصِدَت بشكل متزايد الأجزاء الخلفية منها أيضاً، والتي لا يصلها ضوء النهار. لم تكنْ تلك المساحات الأبعد عن المدخل تصلح كأماكن للسكن، ويشير الفنّ الصخري المحفوظ غالباً في الأجزاء النائية تحديداً إلى أن هذه الأخيرة كانت تُقصد لأغراض أخرى يُعتقَد أنها أغراض طقسية في الغالب.

الحلي عند الرجال والنساء

إذا لم يكنْ مؤكَّداً بعد أن إنسان نياندرتال في العصر الحجري القديم الأوسط قد ارتدى قطع حلي، فإن الحلي عند *الإنسان العاقل* في العصر الحجري القديم الأعلى تندرج ضمن أشكال التعبير النموذجية لثقافته، بل ضمن السمات المميِّزة لحداثته الثقافية. كان ارتداء أسنان الحيوانات المثقوبة (تُفضَّل أسنان الثعلب ودبّ الكهوف والذئب والأيَّل) واسع الانتشار من الآن فصاعداً في كلّ أنحاء أوروبا، سواء كقطع مفردة أم مضمومة على شكل قلادات. يمكن ملاحظة فوارق إقليمية تعطي معلومات عن توافر مواد خام معينة لصناعة الحلي. هكذا تم العثور على أصداف وقواقع تم تصنيعها كمعلّقات في جنوب غرب أوروبا على وجه الخصوص، في حين أنه غالباً ما تم اكتشاف لآلئ ومعلّقات من عاج الماموث في وسط أوروبا. غالباً ما كانت الحلي تُرتدى في منطقة الرأس والعنق، وكذلك في الذراعين والركبتين والكاحلين. تسمح مكتشفات القبور بالاستنتاج أحياناً أن ملابس إنسان العصر الحجري القديم الأعلى أيضاً كانت مرصَّعة بانتظام باللآلئ والأصداف وأسنان الحيوانات، علماً بأنه لم تُلاحَظْ أيّ فوارق بين النساء والرجال.

الملابس

الشيء الخاص في هذه المكتشفات هو أنها تكشف في بعض الأحيان تفاصيل هامة فيما يخصّ الزيّ وتفصيل الملابس. هكذا يُبرز ترتيب وتصنيف الملابس أغطية رأس تشبه القبّعات

وملابس ساقين تشبه السراويل وجزمات وسترات ذات أكمام، إضافة إلى أحزمة وحقائب وأساور وغيرها الكثير. على أن موجودات من هذا النوع ليست وفيرة بما يكفي لإعادة تصميم «أزياء إقليمية» سلفاً. مع ذلك يبدو من المنطقي بلا شك أن صاحب هذه الملابس المزيّنة بالحلي أراد أن يُصرّح من خلالها عامداً بانتمائه للجماعة أيضاً، وربما حتى بمكانته الاجتماعية، الأمر الذي يمكن تفسيره على أنه تعبير واضح عن الحداثة الثقافية أيضاً. فضلاً عن ذلك تسمح قطع الصباغ الحمراء (هيماتيت) والسوداء (أوكسيد المنغنيز) المكتشفة في المعسكرات بالافتراض أنه لم يكنْ يتم تلوين الأشياء والأدوات المحبَّبة وحسب، بل ربما أجساد الأشخاص أيضاً في بعض الظروف. لا يزال الدليل المباشر على تلوين الأجساد هذا عن طريق بقايا الصباغ الموافقة على عظام المتوفّين غائباً بالطبع.

الأهمية المتزايدة للعناية بالموتى

إذا اشتغل إنسان نياندرتال في العصر الحجري القديم الأوسط بالعناية بالموتى - مثلما تؤكّد أولى حالات الدفن، وإن كانت لا تزال بلا مرفقات إلى حد بعيد - فقد تم العثور في العصر الحجري القديم الأعلى بالمقابل على أولى المؤشّرات على طقوس موتى تزداد تعقيداً بالتدريج. كانت القبور تُغطّى بألواح حجرية أو تُنثَر الـمَغْرَة على المدفون؛ وقد أدت هذه الأخيرة إلى تصبّغ الميت والطبقة التي يرقد فوقها بلون ضارب للحمرة. كان الموتى يُدفَنون والظهر ممدود أو في وضعية القرفصاء على الجانب في حفر بسيطة أو على مستوى الأرض، حيث تتم تغطية الجسم بالكامل أو الرأس على الأقل بالحجارة. ويمكننا أن نثبت في قبور الغرافيتيان لأول مرة وجود مرفقات بكلّ معنى الكلمة، حيث تجدر بالذكر بصفة خاصة لآلئ الزينة والمعلّقات المصنوعة من الحجر أو العاج أو أسنان الحيوانات أو الأصداف، التي كانت تُلبَس كقلادات أو تُخاط على الملابس. بالإضافة إلى القبور الفردية كان هناك مدافن تعدّدية. كانت تتم تغطية المتوفّين في بعض الأحيان بألواح كتف الماموث، وقد جسّد هذا لأول مرة شكلاً خاصاً من توسيد الموتى. وقد أمكن في المجدلينيان تسجيل زيادة لافتة في حالات الدفن وفي المقابر الصغيرة في الأجزاء الجنوبية من أوروبا على وجه الخصوص. وقد تكون هذه الظواهر نتيجة لاستيطان المعسكرات مدة أطول. من الواضح أن أفراد هذه المجتمعات الاستيطانية المبكّرة شعروا بالترابط فيما بينهم بعد الموت وأنشؤوا مقابر مشتركة لهذا الغرض.

المعاملة المتماثلة للكبار والصغار في الموت

من المدهش أنه لا تكاد تُستشَفّ أيّ فوارق جوهرية في معاملة الموتى وتجهيز المرفقات بين الرجال والنساء والأطفال. كثيراً ما نجد قبوراً لأطفال وحديثي الولادة. كان الأطفال إذن جزءاً من المجتمع منذ البدء على ما يظهر، ولم يكونوا مضطرّين إلى السعي إلى بلوغ هذه الحالة تدريجياً عن طريق مُسارّات معينة في سنّ محددة. تتّفق هذه الملاحظة جيداً مع الموجودات الصورية على جدران الكهوف، حيث تظهر بصمات أيدي أطفال ملوّنة مراراً وتكراراً إضافة إلى تلك التي للراشدين، وهذا مؤشّر على أن العائلة كانت تُفهَم وتُعاش بوصفها جماعة طقسية أيضاُ كما هو واضح.

يجوز لنا أن ننطلق إذن من أن التفكير في مصير الإنسان بعد نهاية وجوده البيولوجي كان قد بدأ في مخيال *الإنسان العاقل* سلفاً، وأدى إلى تبعات عملية على شكل معاملة بارّة مع المتوفّين. على أن الموتى لم يُدفَنوا وحسب، وإنما كان يتم تجهيزهم أيضاً وفقاً لمكانتهم في الحياة الواقعية، بقدر ما كان هذا ممكناً في العصر الحجري القديم الأعلى. ويُفترَض أن الشروط الفكرية لطريقة التصرّف هذه، والتي أصبحت قيمة ثابتة في طقوس الموتى عند الإنسان على مدى آلاف السنين، قد نشأت في العصر الحجري القديم الأعلى على أبعد تقدير.

أضحيات بشرية أم طقوس أكل لحوم البشر؟

يتم العثور في المجدلينيان على وجه الخصوص، وهي المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم الأعلى، المرة تلو الأخرى على بقايا هياكل بشرية تحمل آثار قطْع وخدْش لا لبس فيها. تشير هذه الموجودات إلى أنه تم تقطيع المتوفّين بعد الموت مباشرةً كما هو واضح، حيث تمت إزالة الأنسجة الرخوة والأربطة المفصلية المقطوعة وكشط بقايا الأنسجة. وقد حظيت الجماجم البشرية بمعاملة خاصة في هذه الحقبة، مما يولّد الانطباع كما لو كانت هناك في المجدلينيان عبادة جماجم ذات طابع طقسي. والحق أن ثمة مؤشّرات على ذلك تقدّمها آثار القطْع في الجماجم، كتلك التي عُثِرَ عليها في كهف قلعة ديتفورت على سبيل المثال. كان قد تم قطْع عضلات القفا عند الميت وإزالة الأنسجة الرخوة كالأنف، ومن الواضح أن الفكّ السفلي، الذي كان جزءاً من الجمجمة في السابق، لم يعدْ موجوداً مع الجمجمة حين الدفن سلفاً. ومن غير النادر أن يتم العثور على حالات دفن أو طمر منفصلة لرؤوس مقطوعة تحمل آثار ضرب، تم إنزاله بالشخص المعني عند قتله بالتأكيد. ثمة اكتشاف في كهف ماس دازيل يشير إلى إمكانية حدوث مثل هذه الأعمال العنيفة في

سياق طقسي، حيث عثر المرء في تجويف في الجدار أشبه بالكوة على جمجمة كانت أسنانها قد كُسِرَت بالقوة على ما يبدو، بينما دُسَّت في المحجرين قطع منحوتة بعناية من عظام أيل.

أفعال تضحية بالجماجم البشرية والبقايا الحيوانية والتماثيل الطينية

بالإضافة إلى مطامر الجماجم تم العثور في العصر الحجري القديم الأعلى لأول مرة على مؤشّرات أخرى على أفعال تضحية على أساس طقسي. هكذا تم اكتشاف إناث حيوانات رنّة بالقرب من هامبورغ على سبيل المثال، كان قد تم إغراقها في بركة فيما مضى بعد أن شقّ المرء صدرها وثقّله بالحجارة (منطقة شْتِلمور ومايندورف). وربما أمكن أن تُرى دوافع طقسية أيضاً وراء أكوام جماجم الأيائل أو الماموث اللافتة، وكذلك وراء المواقع غير العادية لهياكل حيوانية داخل المعسكرات، مثلما تُصادف المرة تلو الأخرى في مناطق وسط أوروبا مروراً بأوكرانيا وصولاً إلى سبيريا. فضلاً عن ذلك لا بد من أن نُحيل في هذا السياق إلى المطامر الطقسية كذلك لجماجم دببة الكهوف في الكهوف، والمعروفة في جميع أنحاء أوروبا الوسطى، وترجع الأفعال المبكّرة من هذا النوع حتى إلى العصر الحجري الأوسط أحياناً. أما وأن مثل هذه الجماجم قد تم إيداعها في كوّات صخرية أو في صناديق حجرية وتم تعريضها للنار كما هو واضح، بحيث بقيت آثار النار واضحة عليها، فهو أمر لا يمكن تفسيره إلّا طقسياً على أية حال. ينطبق الشيء نفسه على تمثال أنثوي صغير يعود إلى الغرافيتيان في قرية دولني فيستونيتسه في جمهورية التشيك، حيث تم العثور عليه وسط موقد نار مع طبقات سميكة من الرماد، مكتشف يصعب نشوءه بالمصادفة.

تُفسَّر هكذا أفعال تضحية في العصر الحجري القديم أحياناً على أنها شواهد على أفعال سحرية، حيث يُقام الاتصال فيها مع ثقافات الصيّادين السابقة في الغالب. ومن المشروع التشكيك في صحة هذه التكهّنات. على أن الأمر في مثل هذه الحالات يتعلق بلا شك بأفعال ذات أساس طقسي، قد تكون تعبيراً عن ميل موجود سلفاً عند الإنسان المبكّر إلى التسامي بتجارب الحياة الدنيوية، التي يصعب أو يستحيل فهمها، وإلى إدماج الأفعال الموافقة في عالم الحياة الخاص في الوقت نفسه. على أنه من المشكوك فيه للغاية ما إذا كان يحق لنا أن نخلص من هذه الموجودات إلى أفعال سحرية بالمعنى الدقيق وإلى السحر بوصفه مبدأ روحياً ـ دينياً في العصر الحجري القديم الأعلى.

3
الصور والرموز، التواصل والطقوس:
فنّ العصر الجليدي

فنّ العصر الحجري القديم الأعلى

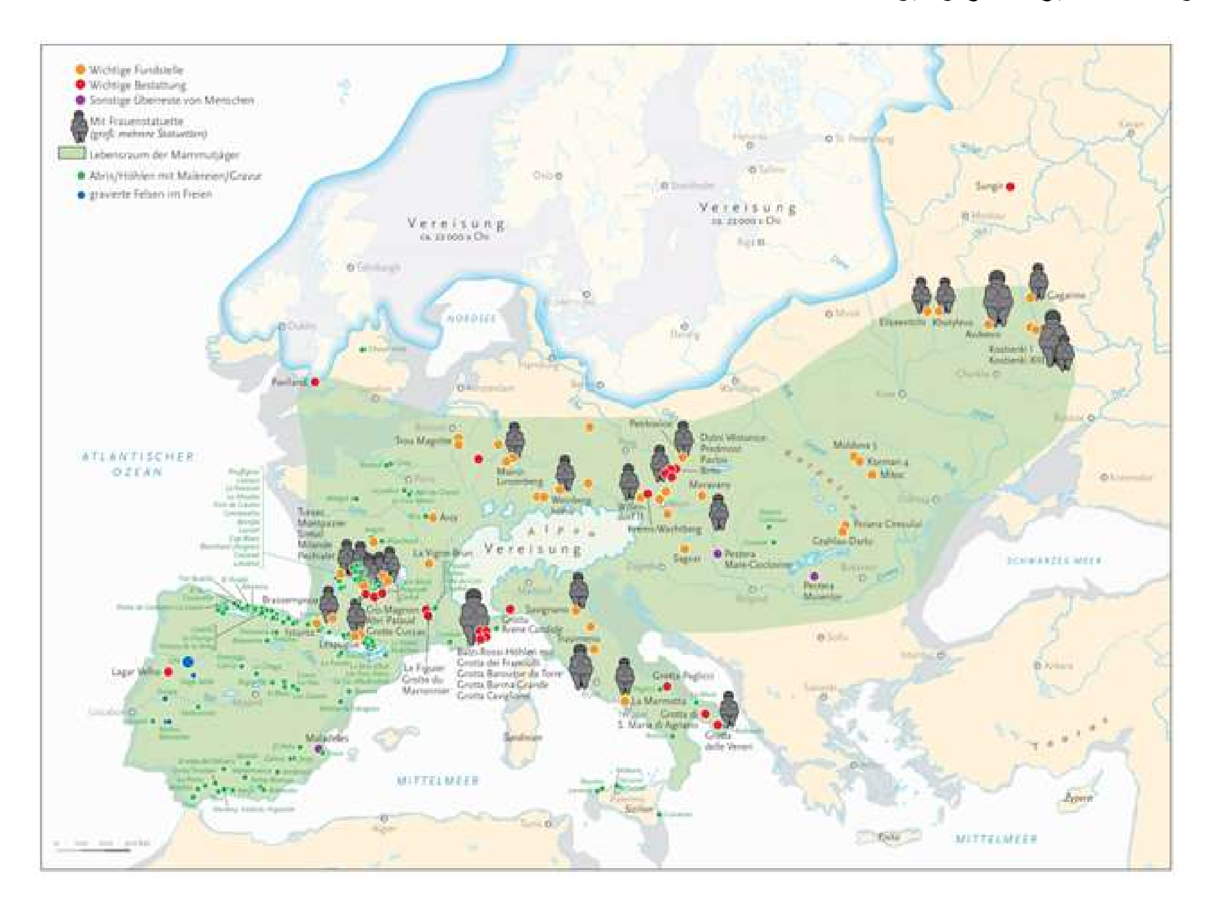
تُعدّ الشواهد الكثيرة والمثيرة للإعجاب في بعض منها بالفنِّ فائق التطوّر تقنياً (الخريطة 3) من الإنجازات البارزة للعصر الحجري القديم الأعلى، التي تجعل هذه الفترة حقبة خاصة جداً في تاريخ البشرية بكامله. إنه سمة واضحة وجلية للحداثة الثقافية ونشأ مع *الإنسان العاقل*؛ الإنسان الحديث تشريحياً أيضاً. إن عالم إنسان العصر الحجري في الصورة هو عالم إنسان العصر الحجري في الحياة اليومية. ولكن كلّ شيء في عالمه يتمحور حول صيد الحيوانات وقتلها وذبحها بهدف تأمين بقائه عن طريق الإمداد الكافي بالغذاء. والحق أن سائر الابتكارات التي أنتجها الإنسان المبكّر من ناحية تقنية خدمت غرضاً واحداً فقط، وهو جعل صيد الفرائس ومعالجتها أكثر فعّالية. لذلك لا يفاجئنا أن عالم الحيوان كان الموضوع المركزي لفنّ العصر الجليدي. ولم يكنْ يُضاف الإنسان إلّا بين الحين والآخر، حيث يغدو عندذاك موضوعاً لفنّه الخاص، لا سيما في التماثيل الصغيرة.

كما ذكرنا سابقاً من المنطقي جداً فيما يخصّ رسوم الكهوف أن ننطلق من أنها نشأت ارتباطاً بالتصوّرات الدينية ـ التعبّدية، لا سيما أن أجزاء الكهوف، التي تم اكتشافها فيها بصفة خاصة، لم تكنْ تُستخدَم كأماكن سكن. لا نعلم ما إذا كان يتم القيام بأفعال طقسية قبل أو خلال إنتاج هذه الصور مباشرةً، ذلك أنه لم يمكنْ العثور على شواهد قاطعة ومقنِعة على ذلك. إنما من الواضح أن الكثير من هذه المواقع كان يُقصَد مراراً وتكراراً، ذلك أن الصور نشأت في أوقات مختلفة كما يبدو، لا بل يتراكب بعضها فوق بعض.

فنّ الأوريغناسيان

نقع على شواهد الأوريغناسيان في بداية فنّ العصر الحجري القديم الأعلى، على أن أقدم أمثلتها المقنِعة لم تنشأ إلّا في جزء متطوّر من هذه الحقبة بدءاً من حوالي 34000 سنة مضت. وينقسم فنّ هذه

الحقبة منذ البدء إلى مجموعتين: الرسوم والنقوش على الجدران الصخرية في الكهوف بصفة خاصة، والمنحوتات الصغيرة لبشر وحيوانات



وكائنات مختلطة مصنوعة من مواد مختلفة. والحق أن الاهتمام بهذين الشكلين من الفنّ استمرّ خلال العصر الحجري القديم الأعلى بكامله. تُعدّ الرسوم التوضيحية الموجود في كهوف جنوب غربي فرنسا، والتي توحي بأنها قديمة جداً، من أهم ما يمثّل فنّ الأوريغناسيان. وتشكّل هذه المنطقة أحد أقاليم المكتشفات المركزية، حتى وإن كانت الرسوم الصخرية الأخرى ذات الأسلوب المشابه معروفة من شمال إيطاليا أو شمال إسبانيا. أما الموضوعات التي تتناولها الصور الصخرية فهي من جهة حيوانات يصعب جداً تحديدها في بعض الأحيان، ومن جهة أخرى رموز جنسية، حيث يلفت النظر بشكل خاص تصاوير الفرج والقضيب. تثبت هذه الصور أن أبناء الأوريغناسيان كانوا قد استوعبوا سياقات التناسل البيولوجية.

الخريطة 3: فنّ إنسان العصر الحجري القديم
الأع بل في أوروبا

الصور الصخرية في وادي أرديش

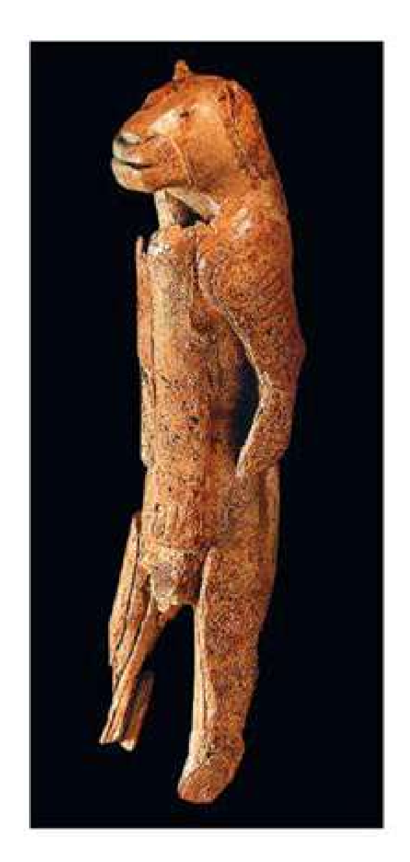
تُعد الصور المنقوشة والمرسومة من وادي أرديش (كهف شوفيه على سبيل المثال) من الأمثلة البارزة والمثيرة للإعجاب بشكل خاص. تم العثور هناك على مجموعات مذهلة تكاد لا تُضاهى ترجع إلى ما قبل 30000 سنة مع عناصر منظورية وتصاوير توحي بحركات دينمية وتصاميم تشكيلية لحيوانات مكوّنة من نقاط، إضافة إلى جدران كهوف محكوكة كانت تخدم في زيادة تباين الصور. على الرغم من ازدهارها الجلي في المجدلينيان تؤكّد هذه الصور تحديداً أن فنّ العصر الجليدي يُومِضُ وكأنه برق رعدي مبكّر جداً قادم من الفجر الثقافي للأزمنة المبكّرة.

الإنسان الأسد من هولنشتاين شتادل

تشكّل كهوف جبال الألب الشفابية إقليم المكتشفات الثاني. وقد اكتُشِفَ هناك العديد من شواهد المجموعة الأخرى من موجودات فنّ الأوريغناسيان: الكثير من المنحوتات الصغيرة لحيوانات وبشر وكائنات مختلطة مصنوعة من عاج الماموث والعظام والحجر الرملي. والحق أن جودة هذه التماثيل الدقيقة وقوة تعبيرها الشديدتين تفوقان كلّ شيء آخر معروف من هذه الفترة. تتكوّن الموضوعات الرئيسة لهذا الفنّ من الإنسان والماموث ودبّ الكهوف والحصان البرّي والأسد. أما المثير فيها بشكل خاص فهو الكائنات المختلطة كتمثال الإنسان الأسد من كهف هولنشتاين ـ شتادل (الشكل 10)، وهو عبارة عن تمثال صغير في وضعية الوقوف له رأس حيوان، يربط بين عناصر بشرية وحيوانية. تُعدّ التماثيل من هذا النوع تعبيراً عن مخيال ديني ـ روحي متمايز جداً عند *الإنسان العاقل*. ولا بد لنا أن نقرّ لها بالغرابة، التي تواجهنا بها، قبل أن نتعجّل بتزويدها ببطاقة وتسويقها بفرضيات منطقية عن الشامانية المبكّرة.

يُضاف إلى ذلك تماثيل أنثوية صغيرة متفرّقة، يبدو أنها تستبق نمط ما يُسمّى تماثيل فينوس في الغرافيتيان. من بين الحيوانات المصوَّرة لا نجد فقط تلك التي ترمز إلى الصفات الخاصة المثيرة لإعجاب أسلافنا بالتأكيد كالقوة والسرعة، وإنما نعثر أيضاً على شتى الحيوانات الصغيرة والطيور المائية. المنحوتات الصغيرة مزوَّدة أحياناً بصلبان أو حزوز أو نقاط تذكّر بالرسوم التوضيحية للفنّ الصخري في الحقبة نفسها. هل هي شواهد على لغة رمزية مشتركة؟ مهما يكنْ من أمر فقد خلق الإنسان لنفسه بالفنّ، بوصفه أحد أشكال التعبير، مستوى

هاماً آخر من التواصل على أية حال إلى جانب اللغة.



الشكل 10 : ما يُسمّى الإنسان الأسد المصنوع من عاج الماموث في هولنشتاين شتادل، ألمانيا

الفنّ الصخري في جنوب غرب فرنسا وشمال إسبانيا في الغرافيتيان

تتواجد معظم كهوف الصور العائدة لثقافة الغرافيتيان التالية في التسلسل الزمني في مقاطعة دوردوني وفي جبال البيرينيه وفي كانتابريا. انطلاقاً من بداياتها في فترة الأوريغناسيان تزداد أهمية إقليم الفنّ الصخري هذا من العصر الجليدي في جنوب غرب فرنسا وشمال إسبانيا باستمرار. ويتزايد بوضوح عدد الكهوف ذات الزخارف المصوَّرة وجودة التصاوير وتنوّع موضوعاتها. ويتطوّر في الغرافيتيان أسلوب مميّز تماماً: لدى تأمّل تصاوير الحيوانات تلفت النظر أجسامها الضخمة في الغالب وقوائمها الرفيعة نسبياً ورؤوسها الصغيرة بوصفها سمات نموذجية. وقد شُغِلَت بعض أجسام الحيوانات بالنقاط. وتظهر إلى جانب ذلك تصاوير بشرية منقَّذة بشكل مختلف كلياً، بعض منها يبدو مثقوباً برماح. كما تُصادَف كائنات مختلطة؛ هيئات بشرية لها رؤوس طيور. ثمة خصوصية أخرى تشكّلها بصمات الأيدي؛ فقد قام صانعوها بضغط راحات أيديهم على الجدار الصخري ثم رشّوها بالطلاء، بحيث نشأت ملامح موافقة.

منحوتات من العاج في أوراسيا بكاملها

لا توجد أيّ صور كهوف من الغرافيتيان في وسط وشرق أوروبا. فقد سادت هناك في الفترة نفسها الأعمال النحتية ذات الجودة العالية كذلك. حيث وجدت الأعمال الموافقة انتشاراً امتد من المحيط الأطلسي غرباً مروراً بوسط وجنوب أوروبا وصولاً إلى أوكرانيا وما بعدها نحو سيبيريا. هكذا نشأ <إقليم فنّي> مترابط ذو بعد أوراسي حقيقي. ولا بد أن نخصّ بالذكر هنا تماثيل الماموث ووحيد القرن والحصان المنحوتة من العاج، مع أن التماثيل الصغيرة للحيوانات لا تُعدّ من الشواهد الفنّية البارزة لهذه الفترة.

<فينوس> فيلندورف في النمسا

على أن ما تُسمّى تماثيل فينوس الكثيرة تندرج في عداد الفنّ العالمي (الشكل 7). وأشهرها <فينوس> فيلندورف في النمسا السفلى أو معادِلاتها من كوستنكي في جنوب روسيا. تتكوّن التماثيل الصغيرة من العاج أو الحجر الكلسي عادةً. تبدي تماثيل النساء السمينات للغاية العديد من التفاصيل الجديرة بالملاحظة. حيث تحمل رؤوسهن تسريحات مضفّرة ببراعة أو أغطية رأس تشبه القلنسوة. أما ملامح الوجه فهي غير واضحة إلّا في حالات استثنائية. ويرتدين في بعض الأحيان ملامح قلادات، وحتى الأيدي في الأذرع الرفيعة بشكل لافت تم تزيينها بالأساور. النهود بارزة بوضوح على الدوام، وتشير البطون المقبّبة إلى الأمام في العديد من التماثيل الصغيرة إلى أن <تماثيل فينوس> هذه حوامل. وقد تم التلميح في بعض الأحيان إلى نوع من الحزام أسفل البطن. أما ناحية العانة والفخذين فقد تم تشكيلها بعناية، في حين تبدو الساقان رفيعتين وقصيرتين؛ والقدمان موجودتين تلميحاً فقط، هذا إذا تم تشكيلهما أصلاً.

أقدم تماثيل الصلصال من دولني فيستونيتسه في مورافيا

لم يتم العثور على هذه التماثيل الأنثوية إلّا في المساحات السكنية حصراً تقريباً، وذلك في حفر في الغالب، إذا ما لفتت هذه البُنى نظر المنقّبين. يسمح ذلك بالاستنتاج أن التماثيل الصغيرة لا بد أنه كان قد تم نصبها أو الاحتفاظ بها على الأقل في المساحات السكنية. تجدر بالملاحظة بشكل خاص الحقيقة التي مفادها أن مثل هذه التماثيل الصغيرة لم يتم صنعها من العاج والحجر فقط، وإنما أيضاً من الصلصال، الذي يتم حرقه بالنار بعد ذلك. وقد تم العثور على مثل هذه التماثيل الصغيرة في دولني فيستونيتسه جنوب مورافيا. حيث عثر المرء في كوخ منعزل نوعاً ما هناك على بقايا فرن مع أجزاء من تماثيل حيوانية وتماثيل نسائية. كما ظهرت مكتشفات مشابهة في النمسا السفلى المجاورة (بلدة ألبرندورف) ويبدو أنها شكّلت خصوصية هذه المنطقة الواقعة في شمال شرقي الألب. يتعلق الأمر في هذه القطع بأقدم المنتجات الفخارية للبشرية، وقد تم حرقها بدرجات حرارة تتراوح بين 500 و800 درجة مئوية. ويلفت النظر أن هذه التماثيل الصغيرة لم يُعثَرْ عليها إلّا مجزّأة. من الواضح أنه كان قد تم تحطيمها عمداً، وهو فعل لم يتضحْ لنا معناه بعد، ولكن يبدو أنه غير ممكن إلّا في إطار تعبّدي.

يتميّز السولوتريان، الذي أعقب الغرافيتيان في الغرب، بتصاوير فنّية رائعة، لا سيما في إقليم الفنّ الصخري الهام في العصر الجليدي في جنوب غرب فرنسا. ثمة صور حيوانية وبشرية تم تصويرها من قبل مبدعيها على نحو قريب جداً من الواقع، وأحياناً بطريقة مشهدية. نظراً للجودة الفنّية لهذه الرسوم يبدو أن الأساس لازدهار الفنّ الصخري في المجدلينيان اللاحق قد تم إرساؤه سلفاً. لا تلعب الأعمال الفنّية الصغيرة أيّ دور في السولوتريان، بصرف النظر عن بعض الأمثلة القليلة.

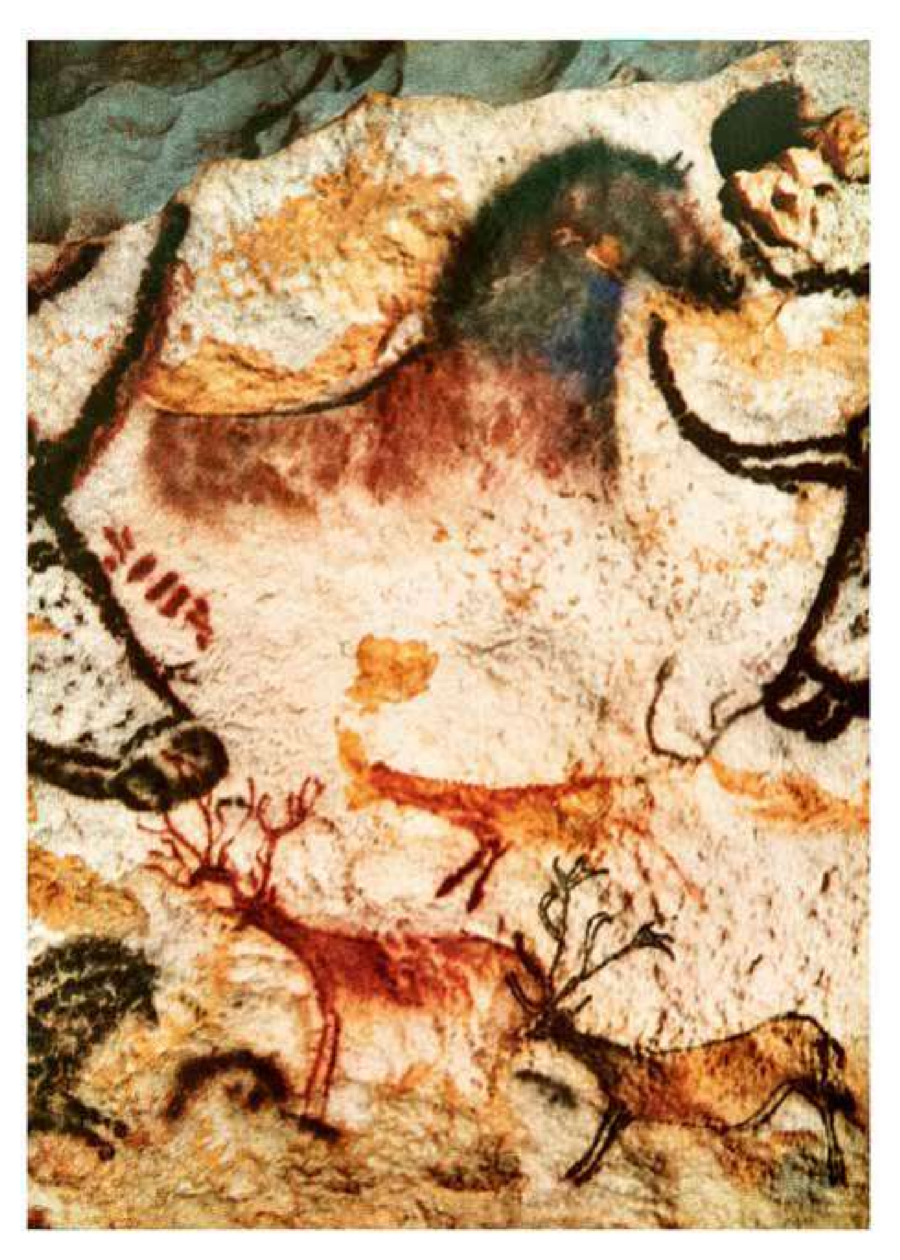
المجدلينيان والعصر الذهبي لفنّ العصر الجليدي

يُعدّ المجدلينيان العصر الذهبي لفنّ العصر الجليدي، وفترة فنّية بارزة حقاً. ترجع أشهر رسوم الكهوف في جنوب فرنسا وشمال إسبانيا إلى هذه الفترة (الشكل 11). وهي في النهاية المعالم الأثرية لكهفي لاسكو وألتاميرا، التي نذكرها هنا نيابةً عن الكثير غيرها وتندرج ضمن تراث الفنّ العالمي. ثمة محطّات أخرى معروفة للفنّ الصخري لا تقلّ أهميةً، وهي موجودة في أجزاء أخرى من فرنسا وإسبانيا، وكذلك في البرتغال وإيطاليا. يمكن أن توصف مثل هذه المواقع، بتراكيزها المذهلة من الصور الصخرية عالية الجودة، عن حق بأنها معابد، حتى وإن لم نكنْ نتوافر على معلومات دقيقة حول الطقوس المُقامة هناك. تظهر فيها لغة أسلوبية تكاد تشمل أوروبا بأكملها، وهي لا تبدي أوجه تطابق فنّية وحسب، وإنما أوجه تطابق من حيث المضامين الأساسية. ما من شك في أن فنّ الكهوف هذا مجرد تنويع في الإبداع الفنّي للعصر الحجري القديم الأعلى، والذي اتّفق أن بقي محفوظاً بصورة جيدة بسبب ثبات درجة الحرارة والرطوبة والظلام.

صور واقعية لحيوانات في تكوينات دينمية

يتميّز فنّ الفترات السابقة من العصر الحجري القديم الأعلى، من الأوريغناسيان حتى السولوتريان، بالأشكال والمضامين التصويرية المختلفة بوضوح عنها في المجدلينيان. هكذا يتم إرفاق صور الحيوانات من الحقب الأقدم برموز معقّدة في بعض منها، تغيب في المجدلينيان أو تُستبدَل بأخرى. على أن أهم الفوارق يتجلّى في تنفيذ الصور: إذا كانت الصور الأقدم عبارة عن رسومات تخطيطية صرفة في الغالب فقد ساد في المجدلينيان التصوير الواقعي لأجسام الحيوانات بكاملها. كما تتم مراعاة المنظور في ذلك. فضلاً عن أن تدرّج الأطراف أو الحيوانات بعضها خلف بعض يضفي على التصاوير عمقاً مكانياً يشهد على الإدراك المتمايز والمهارة الفنّية في التنفيذ. علاوة على ذلك تتميّز تصاوير الكائنات الحية أو الأطراف المتدرّجة من هذا النوع بتبدّلات في المنظر تسمح بتوقّع تبدّل في منظور الفنّان أو بالأحرى المُشاهِد. لا شك في أن الأناقة التامة لصور الحيوانات، التي تبدو بالغة الدينمية جراء هذه الخذعة الفنّية، يتم تصميمها ببراعة من قبل الأساتذة، بحيث لا تثير القليل من الحيرة سوى الرؤوس الصغيرة جداً في بعض الأحيان. فالتناسب في الصور موزون، والمرونة والغنى بالتفاصيل مدهشان، والرسوم الكبيرة متعدّدة الألوان مبهرة جداً. والحق

أن الحيوانات تحظى بهذه الطريقة من التصوير بقوة طبيعية وحيوية أخَّاذة. لا يمكن أن يرسم على هذا النحو إلّا من يرى الطبيعة مفعمة بالروح. على أن طيف موضوعات الصور أيضاً يتغيّر في المجدلينيان: ترجح كفة البيسون والحصان، وتحلّ الرنّة محل الأيِّل، ويتم إدخال الوعل والماموث، كما يظهر كلّ من الشَّرِه وعجل البحر والأسماك.



الشكل 11 : رسوم كهوف من كهف لاسكو، فرنسا

حيوانات وكائنات مختلطة وإشارات رمزية

مقابل صور الحيوانات النابضة بالحياة والمثيرة للإعجاب هذه تفاجئنا الندرة الواضحة في صور البشر والبعيدة جداً عن الواقع. إذ غالباً ما تبقى تفاصيل الجسد غائمة وغير واضحة وتبدو حيوانية الشكل في بعض الأحيان. إما أن تتم المبالغة بشدة في بعض أجزاء الجسد أو تبدو غريبة وتخطيطية بشدة، ولكنها ليست واقعية مثل عالم الحيوان على الإطلاق. يُضاف إلى ذلك كائنات مختلطة بمعنى الكلمة ذات صفات بشرية وحيوانية يتم جمعها عمداً كما هو واضح. وتُستكمَل هذه الصورة الإجمالية عن طريق إشارات رمزية وفُروج وما شابه.

يبقى أن نسجّل أن مبدعي فنّ الكهوف أجادوا ابتكار تكوينات لصور مثيرة للإعجاب الشديد، ولكنهم تخلّوا من ناحية أخرى عن إقامة صلات أعمق بين التصاوير المفردة، التي كان من شأنها أن تؤدي إلى صور سردية مشهدية. كثيراً ما يبدو كما لو أن الأشكال المفردة قد تم تنفيذها على الجدران الصخرية شيئاً فشيئاً على مدى فترة زمنية أطول، في نوع من أسلوب الإضافة، من دون اضطرار إلى ربط بعضها ببعض.

صور شخصية على ألواح من الإردواز

تمثّل الألواح المرسومة المصنوعة من الإردواز أو الحجر الجيري (ما يُسمّى فنّ الألواح) مصدراً هاماً آخر من مصادر الفنّ المجدليني. وهي تحمل صوراً تبدو محفورة. وتكرِّر صور الحيوانات موضوعات فنّ الكهوف، أما الصور البشرية فتفاجئنا بوفرة تفاصيلها (الشكل 12)، التي لا نعرفها من الرسوم الصخرية. وقد تم رسم الرجال والنساء من الجانب عادة، حيث تظهر خصوصيات الشعر واللحية وملامح الوجه والكثير من التفاصيل الأخرى المنفَّذة بدقة شديدة، والتي تضفي على هذه الصور طابع صور شخصية. لا ريب في أن بعض الصور تبدو أشبه بالصور الكاريكاتورية. كثيراً جداً ما يتم تصوير الأشخاص مثلما يظهرون في وضعية التعبّد (وضعية الدعاء) أو أثناء الرقص. والحق أن الجودة الفنّية لهذه النقوش، التي تشهد على قدرة متطوّرة على الملاحظة الدقيقة والتحويل المتقن لما يُشاهَد إلى صورة، لا تقلّ في شيء عن الرسوم الصخرية قوية التعبير، التي تعكس بحيواناتها العديدة البيئة المعيشية الطبيعية للإنسان في العصر الجليدي المتأخّر. يُسفر هذان النوعان الفنّيان معاً عن صورة صحيحة للإنجاز الفنّي المركّب وغير العادي لا نمتلكها على هذا النحو إلّا عن حقب قليلة مما قبل التاريخ. يشكّل فنّ الألواح والفنّ الصخري واحدة من الظواهر غير العادية في أواخر العصر الحجري القديم الأعلى.

ثمة شكل آخر من التعبير الفنّي في المجدلينيان يتمثّل في البهجة بالزينة. فقد تم تزيين كلّ شيء تقريباً، حتى الأسلحة والأدوات، وينطبق هذا بصفة خاصة على القضبان المثقّبة وقواذف الرماح على سبيل المثال. فقد نُحِتَت نهاياتها على شكل حيوانات أحياناً، أو زُوِّدَت سطوحها بنقوش تُظهر بدورها تصاوير حيوانية شبيهة جداً بالفنّ الصخري من حيث الموضوع والأسلوب.

على أن التماثيل الصغيرة من المجدلينيان، بالمقابل، ليست كثيرة. أكثر ما تُصادف تماثيل نسائية مصنوعة من العاج أو القرون أو الحجر بشكل تخطيطي غالباً من دون رأس ومن دون أقدام. يمكن أن تحمل الأجزاء العلوية من الأجساد نهوداً أو قد تكون مصمّمة على شكل عصا فقط. أما في التماثيل الإردوازية من حوض نويفيد (غونرسدورف وأندرناخ) فلم يتم تشكيل سوى معالم هيئات بشرية، من غير أن يسعى الفنّان إلى زيادة مرونة ودقة أعماله عن طريق المزيد من المعالجة. تعطي التماثيل النسائية المطروقة من حجر الصوّان في فيلتشيشْسه البولندية انطباعاً مشابهاً. ثمة منحوتات كاملة صغيرة مصنوعة من الكهرمان الأسود، كما في مونروز في سويسرا مثلاً، مثقوبة عند نهايتها العلوية ومن الواضح أنها كانت تُلبَس كمعلّقات.



الشكل 12 : رسوم بشرية وحيوانية على ألواح حجرية من المجدلينيان من فرنسا

خلاصة واستشراف:

فنّ العصر الجليدي بوصفه ظاهرة تاريخية

لا يُعدّ فن العصر الجليدي الابتكار الوحيد للعصر الحجري القديم الأعلى، والذي يكشف على هذا النحو التاريخ الثقافي والفكري بشكل خاص، بيد أنه الابتكار الأشد إثارة للإعجاب بلا شك. لا يتعلق الأمر في ذلك بظاهرة أنثربولوجية، وإنما بظاهرة تاريخية. على الرغم من الاختلاف في سماتها الإقليمية والزمنية يهيمن فيها عالم الحيوان بوصفه موضوعاً مركزياً، حيث تمثّل الثدييات، التي تعيش في البلد، الموضوعات المفضَّلة، وذلك ابتداءً من حجم الغزال. وقد تمتّعت الكائنات الحية، التي أثارت إعجاب الإنسان بقوتها أو سرعتها قبل كلّ شيء، بحظوة خاصة في ذلك. أما الثدييات الأصغر أو الطيور أو الأسماك أو الزواحف أو حتى الثدييات البحرية كالفقمات أو الحيتان فهي أشد ندرة بشكل واضح على جدول الأعمال. تعكس التصاوير إذن البيئة الإقليمية لمبدعيها بالدرجة الأولى. بالتالي لم يسعِ الفنّ في أوروبا العصر الجليدي إلّا أن يكون على هذا اللاتجانس مثل المجموع الحيواني الذي سكن قارتنا في ذلك الوقت.

ما يثير الاهتمام هي الحقيقة التي مفادها أنه تم تصوير الحيوانات في وضعيات هادئة في الغالب، وأحياناً أثناء الحركة أيضاً، إنما لم يتم تصويرها في وضعية عدوانية أبداً. تغيب في العصر الجليدي كلياً مشاهد تقوم فيها حيوانات مفترسة بتمزيق حيوانات أخرى مثلاً أو حتى تهدّد فيها بشراً. كثيراً ما تم التكهّن بمدى إمكانية تفسير هذا الشكل من التعبير الفنّي على أنه فعل تعبّدي، بل حتى سحري. هل حاول الإنسان في ذلك الوقت أن يؤثّر في الطبيعة عبر الفنّ؟ هكذا افترض المرء أن رسم الحيوانات ربما يكبح قوتها ويقيّد احتمال تهديدها؛ بالتالي يمكن القول إن الإنجاز الفنّي عند الإنسان المبكّر كان بمثابة سبيل للسيطرة على عالم الحيوان والبيئة الطبيعية إجمالاً.

تفسيرات صعبة

غير أن تفسير فنّ العصر الجليدي يظلّ مغامرة تخمينية للغاية لا تكاد تتيح أيّ أساس موثوق للمحاججة. وقد أراد المرء في وقت مبكّر أن يكشف في هذه الصور أدلّة على طقوس شامانية؛ فتم ربط الكائنات المختلطة المذكورة أعلاه والإشارات التجريدية على وجه الخصوص بأطوار غيبة الشامانات. على أن كلّ هذا لا يمكن إثباته. إن صور العصر الجليدي عبارة عن تمثيلات مغلقة وغامضة إلـى حد كبير لزمننا. وإذا أقرّ لها المرء بهذه الغرابة، فهذا لا يعني أن ينكر على فنّ العصر الحجري القديم الأعلى - بما فيه هذه التمظهرات الفنّية - الملامح الأرواحية. بيد أننا لا نعرف ببساطة ما إذا كانت هذه الصور تنوب عن الأسلاف أم أنها نشأت ارتباطاً بسحر الصيد أو بطقوس المُسارّة أو غيرها من الأفعال التعبّدية، وأنه لا بد من تفسيرها على هذا النحو. إنما من المؤكّد أن بإمكاننا الانطلاق من أن هذه الكهوف المزوَّدة برسومات جدارية

بهذا الغنى، مثل كهف لاسكو أو ألتاميرا وغيرهما الكثير في البرتغال حتى شمال إيطاليا، خدمت كأماكن عبادة أيضاً.

الفنّ بوصفه تقليداً اجتماعياً لأول مرة

لا شك في أن فنّ العصر الجليدي - أيّاً يكن تفسيره بالتفصيل - طبع التاريخ الثقافي البشري بطابعه بشدة لما يزيد على 25000 سنة. ولم تنشأ شواهده المحفوظة لنا في إطار أفعال فردية عاطفية عفوية، بل تم تشكيل الصور شيئاً فشيئاً وبشكل ممنهَج غالباً. فقد شاهدتها أجيال عديدة وواصلت كتابة رسائلها ووسّعتها، تقليد اجتماعي شاركت فيه المجموعة بكاملها في كلّ مرة. لم يكنْ للفنّ والرمزية في العصر الجليدي أن ينشأا ويتطوّرا لولا توافر شروط اجتماعية ومعرفية مسبقة مناسبة. تشترط مثل هذه التصاوير المقدرة على، بل الحاجة إلى الإطْلاع والإبلاغ والتواصل، لنقل مضامين ورسائل محدَّدة تماماً.

القدرة على التجريد

إلى ذلك يقوم هذا الفنّ على القدرة على القراءة في الماضي والتفكير في المستقبل. من غير المعقول أن تكون غاية هذه الرسائل المساعدة في معالجة ما حدث أو ما هو حاضر وحسب، من دون أخذ المواقف أو الحاجات المستقبلية أيضاً بالاعتبار ووضعها في الصورة. والحق أن الأمرين كليهما يتطلّبان قدراً لا يُستهان به من القدرة على التجريد. ولكن هذه الأخيرة تتطلّب بدورها قبولاً اجتماعياً أيضاً لكي تحظى بانتشار ثقافي. ربما لم يوجدْ قدر موافق من الانفتاح الاجتماعي إلّا مع بداية العصر الحجري القديم الأعلى، مما سمح بنشوء هذا الفنّ بوصفه وسيلة تواصل خاصة تماماً وعزّزه. قد تكون المهارة والمخيال والفرديان اللازمان لذلك موجودين بالفعل في وقت سابق، غير أن الأفكار والتطوّرات لا يمكن أن تفرض نفسها بشكل مستدام في نطاق مجموعة ما إلّا عندما تكون هناك حاجة اجتماعية معينة إلى توظيفها.

انتشار متفاوت للفنّ الصخري والتماثيل الصغيرة

نشأ فنّ العصر الجليدي المثير للإعجاب بشكل خاص في جنوب غرب أوروبا على ما يظهر، وتكمن بداياته هناك في تلك الفترة التي تعايش فيها الإنسان الحديث المهاجر إلى أوروبا مع إنسان نياندرتال. ولكن حتى وإن كانت أقاليم المكتشفات في جنوب فرنسا وشمال إسبانيا تحتلّ مكانة خاصة تماماً في إطار فنّ العصر الحجري القديم الأعلى، بناء على كثافة صورها الصخرية المتميّزة، لا بد من التذكير بأن ثمة شواهد مماثلة من حيث المبدأ معروفة من غرب أوروبا حتى أعماق سيبيريا، وإن لم تكنْ بتلك الجودة وكانت متفرّقة في الغالب. وتنتشر في المنطقة الجغرافية نفسها التماثيل الصغيرة النموذجية للعصر الحجري القديم الأعلى.

ومثلما وُلِدَ هذا الإنجاز الفنّي قبل 40000 إلى 35000 سنة مضت بشكل مفاجئ، انهار ثانيةً بشكل مفاجئ مع نهاية العصر الجليدي الأخير. فقد اختفى الوسط الداعم لفنّ العصر الجليدي، وربما اختفت معه أيضاً الأساطير والقصص التي أثّرت فيه.

الناي بوصفه أقدم آلة موسيقية عرفها البشر

بالإضافة إلى الفنّ واللغة تُعدّ الموسيقا شكلاً هاماً آخر من أشكال التواصل، وأقدم شواهدها معروف لنا من العصر الحجري القديم الأعلى. فقد عزف الإنسان الموسيقا في الأوريغناسيان، وذلك بوساطة الناي - على الأقل - المصنوع من عظام الطيور والعاج، وهو أقدم الآلات الموسيقية المعروفة عند البشر. وفي حين أن صنع الناي من العظام الأنبوبية المجوّفة يبدو أمراً عادياً، فإن الناي المصنوع من العاج في موقع غايسنكلوسترله في جبال الألب الشفابية فريد في نوعه (الشكل 8). وهو يمثّل أول شكل مجوّف مصنوع من العاج؛ عمل فنّي صغير لم يكنْ بالإمكان إنجازه إلّا بجهد كبير. وهو يوضّح لنا مرة أخرى المهارات التقنية المتميّزة عند الإنسان في الأوريغناسيان. والحق أن وجود هذه النايات في تلك الكهوف في جبال الألب الشفابية، التي تُعرَف منها أمثلة بارزة لأقدم المنحوتات الصغيرة أيضاً، لا يمكن أن يكون مصادفة. لا يمكن أن يكون الاقتران بين الفنّ والموسيقا أشد وضوحاً. ومن المؤكَّد أن ترتيبهما في إطار العبادة والطقوس تفسير مسموح به.

آخر تراجع في درجات الحرارة قبل نهاية العصر الجليدي

قبل 14000 إلى 13000 سنة مضت تقلّب المنحنى المناخي من جديد بشكل لا يُستهان به وأدى إلى نهاية العصر الحجري القديم. وأصبحت الظروف المناخية أكثر اعتدالاً في كلّ مكان، وإن تخلّلتها مراراً مراحل قصيرة من الانخفاض الحاد في درجات الحرارة. وقد حدث ارتفاع في الأنهار الجليدية نحو 12700 قبل الميلاد. وانتشرت السهوب الباردة القطبية شمال السلاسل الجبلية متوسطة الارتفاع، ونشأت إلى الجنوب منها غابة صنوبر خفيفة. وانتهى العصر الجليدي نحو 9600 قبل الميلاد، وبدأ العصر ما بعد الجليدي. وتغيّر عالم الحيوان بشكل جذري خلال التقلّبات المناخية في أواخر العصر الجليدي. فاختفت الممثلات النموذجية للعصر الجليدي، أي الحيوانات العاشبة الكبيرة والماموث ووحيد القرن الصوفي وحيوانات الرنّة أيضاً، بينما هاجرت إلى هذه المناطق شيئاً فشيئاً الأنواع التي وجدت موطنها في الغابات معتدلة المناخ: الأيَّل الأحمر والغزال والخنزير البرّي والأرخُص أو ثور المروج.

بعد نهاية العصر الحجري القديم الأعلى أزاحت الغابات الممتدّة السهوبَ العشبية في جميع أنحاء أوروبا تقريباً، كنتيجة للمناخ الذي أصبح أشد رطوبةً وبرودةً. وانزاح بناءً على ذلك مركز ثقل التطوّر الثقافي إلى شرق المتوسط وبلاد الرافدين. وقد أدت الظروف المناخية هناك إلى انتشار طبيعة عشبية في ذلك

الوقت، نمت فيها أنواع الحبوب البرّية، التي تم تدجينها في الفترة اللاحقة وتحوّلت إلى مورد رزق الثقافات الزراعية المبكّرة.

4

من أفريقيا إلى المحيط الهادئ

إذا أردنا أن نفهم بصورة شاملة السمات المميِّزة للعصر الحجري القديم الأعلى والجوانب التي تشكّل الإنسان الحديث، بوصفه فرداً يتصرّف ويعمل ويبني بصورة ثقافية، اعتمد حكمنا على المصادر الشاملة من أوروبا في المقام الأول. وهي الاكتشافات الكثيرة في المنطقة الواقعة بين المحيط الأطلسي وجبال الأورال، والتي تسمح بصياغة شهادات ومقولات حول نمط الحياة والتغذية والسلوك التعبّدي وطقوس الموتى والإبداع الفنّي والمخيال الديني ـ الروحي عند *الإنسان العاقل*، حيث تمثّل أوروبا في ذلك مركز التطوّر من نواح عدة. بالمقابل يظهر المستوى المعرفي في أجزاء العالم الأخرى، التي وصل إليها الإنسان الحديث قبل نهاية العصر الجليدي، على نحو مجزّأ للغاية. ولا يمكن الإجابة بسهولة عَمَّا إذا كان هذا يعكس الظروف الفعلية خلال العصر الحجري القديم الأعلى أم أنه لا يعود سوى إلى مستوى الأبحاث الأضعف بوضوح في أفريقيا وآسيا وأستراليا وأمريكا. على أنه من الثابت أن الإرث الأثري لا يعكس دوماً سوى جزء من واقع حياة الإنسان في عصور ما قبل التاريخ. مع ذلك تتوافر من القارات الأخرى بلا شك مؤشّرات لا لبس فيها على أن ثمة تطوّرات حدثت فيها تشبه تلك التي حدثت في أوروبا، حتى وإن كان إرث المكتشفات أكثر شحّاً بكثير. وسوف تكشف الأبحاث المستقبلية المزيد.

نشوء الإنسان العاقل في أفريقيا

يمكن توثيق وجود الإنسان الحديث في أفريقيا قبل 250000 سنة مضت، قبل أن يشرع بعد ما يزيد على 150000 سنة بالهجرة إلى الشرق الأوسط بدايةً، ثم إلى أوروبا من جهة، وإلى جنوب آسيا وأستراليا من جهة أخرى. تُسمَّى هذه الفترة الزمنية في أفريقيا *العصر الحجري الوسيط*

(*Middle Stone Age*) (من حوالي 250000 إلى 40000 سنة مضت)، وتتطابق في أجزاء كبيرة منها مع العصر الحجري القديم الأوسط في أوروبا، والذي كان لا يزال مطبوعاً هناك بطابع إنسان نياندرتال كلياً. ولكن هل يجوز لنا أن نرى في *الإنسان العاقل* في *العصر الحجري الوسيط* الأفريقي إنساناً حديثاً ثقافياً، يمكن مقارنته بإنسان العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا؟ وكيف يبدو التطوّر من *العصر الحجري الوسيط* إلى المتأخّر (Late Stone Age) في أفريقيا، والذي يتزامن إلى حد بعيد مع العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا؟

العصر الحجري الوسيط الأفريقي

حتى وإن كان مستوى الأبحاث في أفريقيا أدنى بكثير، بالمقارنة مع أوروبا، إلّا أنه تم العثور في القارة على بعض المؤشّرات على الحداثة الثقافية هناك، ربما تكون قد نشأت بشكل متزامن مع *الإنسان العاقل* في العصر الحجري الوسيط، أي ربما قبل نشوئها في أوروبا. مع ذلك لا يزال يتعذّر الجزم في الوقت الحاضر فيما إذا كانت مرحلة التطوّر، التي بلغها *الإنسان العاقل* في *العصر الحجري الوسيط* الأفريقي، قد تجاوزت بالفعل مرحلة تطوّر إنسان نياندرتال، الذي عاش في أوروبا والشرق الأوسط في الفترة نفسها. بيد أن طيف أدواته الحجرية يبدو أشد تمايزاً بشكل كبير، وتزداد صناعة النصول على وجه الخصوص. يُضاف إلى ذلك أسلحة متعدّدة الأجزاء يتم فيها إدخال النصول في أجسام خشبية وتثبيتها هناك إضافياً بمادة لاصقة مسخَّنة. كما يشهد عدد الأدوات العظمية ارتفاعاً واضحاً، حيث يتم تطوير أشكال مركَّبة وهامة للتطوّر الثقافي بشكل خاص مثل إبر الخياطة. أما الحراب العظمية رائعة الصنع، التي لم تظهرْ في أوروبا قبل المجدلينيان في أواخر العصر الحجري القديم الأعلى، فيتم العثور عليها في إقليم كاتاندا في غرب أفريقيا على سبيل المثال قبل 90000 سنة، كما أن الأدوات العظمية مختلفة الأنواع في كهف بلومبوس في جنوب أفريقيا عمرها يقارب الـ 80000 سنة. تسمح كلّ هذه التطوّرات بنشوء صورة لكفاءة وخبرة تكنولوجيتين صاعدتين بشكل قافز تقريباً، وذلك في وقت يسبق بداية العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا بشكل كبير. كما توجد استخدامات للمغرة كذلك لأول مرة قبل ما يقارب الـ 90000 سنة، حيث استُخدِمَت للتلوين، وترجع إلى هذا الوقت أيضاً أقدم أصداف وقواقع بحرية مثقوبة كانت تُلبَس كقلادات للزينة.

صيّادون وجامعون متخصّصون في سهول السافانا والغابات المطيرة

لا شك في أن أصحاب *العصر الحجري الوسيط* في أفريقيا كانوا صيّادين متخصّصين، حتى وإن لم يُعثَرْ حتى الآن تقريباً على أماكن تسمح موجوداتها باستخلاص استنتاجات حول استراتيجيات الصيد، بخلاف الحال في أوروبا. يُفترَض أن هذا يعود بلا شك إلى ظروف الحفظ المختلفة كلياً في أفريقيا، مع ذلك لا بد من الانطلاق من أن سلوك الصيد عند *الإنسان العاقل* يمكن مقارنته بالظروف السائدة في أوروبا من حيث المبدأ. كما يبدو أنْ لا جدال في أن الغذاء، الذي تغلب عليه اللحوم، كان يتم إكماله عن طريق جمع النباتات الصالحة للأكل (مكسّرات، أعشاب، درنات، جذور)، حتى وإن لم تسمحْ قائمة الطعام في *العصر الحجري الوسيط* في أفريقيا بإعادة بنائها بصورة أكثر دقة. حتى أنه يُزعَم بين الحين والآخر أن *الإنسان العاقل* بدأ قبل 70000 إلى 50000 سنة بحرق السهوب المنتشرة في أجزاء كثيرة من أفريقيا في ذلك الوقت عمداً، لكي يشجّع بذلك على انتشار أشد لنموّ النباتات الدرنية المرغوبة من قبل الجامعين. إذا كانت هذه الملاحظات موثوقة فعلاً، سواء في تحديدها الزمني أم في سياقها السببي، فهي تشير إلى معرفة كبيرة بالتعامل مع الطبيعة والبيئة، التي أمكن لـ «الأفريقي الحديث المبكّر» أن يتدخّل فيها بشكل لا يُستهان به. على أن *الإنسان العاقل* قصد مجالات حيوية جديدة أيضاً في ذلك الوقت، مثل الغابات الاستوائية في منطقة الكونغو.

كهف بلومبوس وأقدم فنّ عرفته البشرية

يُعزى للفنّ التشكيلي أهمية خاصة في مسألة نشوء الحداثة الثقافية؛ فهو واحد من المقاييس الحاسمة. إن مجتمعاً يستطيع إنتاج تصاوير تشكيلية يُفترَض أن يكون قادراً أيضاً على تنظيم سلوكه الاجتماعي ورفده بمضامين رمزية. ثمة أدلّة مزعومة على أقدم نشاط فنّي، وإن كان لا يزال أقرب إلى التجريد الهندسي، وليس تشكيلياً، يمكن إلحاقها مؤخّراً بـ (*العصر الحجري الوسيط* الأفريقي). ففي كهف بلومبوس الجنوب أفريقي، الذي تثبت رواسب طبقاته استيطاناً امتدّ من حوالي 140000 إلى 71000 سنة مضت، عُثِرَ على حجارة معالَجة كان المرء قد نقش على جوانبها الضيّقة إشارات على شكل X مصفوفة جنباً إلى جنب، وتخترقها ثلاثة خطوط أفقية. يُفترَض أن عمر هذه القطع حوالي 77000 سنة وبالتالي تُعدّ أقدم الشواهد الفنّية للبشرية على الإطلاق. وقد تم اكتشافها هناك مع قواقع مثقوبة كانت تُلبَس كقطع حلي فيما مضى.

***العصر الحجري المتأخّر* الأفريقي**

سائر الشواهد الأخرى على الإنجاز الفنّي في العصر الحجري القديم في أفريقيا هي شواهد أحدث وتنتمي سلفاً إلى *العصر الحجري المتأخّر*، الذي يُفترَض أنه بدأ قبل نحو 50000/40000 سنة مضت. من دون رغبة في الخوض هنا في تفاصيل تطوّر تكنولوجيا الأدوات الحجرية يمكن أن نسجّل على الأقل أنه يُلاحَظ طيف متزايد في تنويعات الأدوات الحجرية في *العصر الحجري المتأخّر*، مقارنةً بفترة *العصر الحجري الوسيط* السابق. كما يتواصل تزايد الأدوات العظمية وقطع الحلي المصنوعة من الأصداف والقواقع من حيث العدد، والتي أمكن إثبات وجودها في المراحل السابقة. وتندرج ضمن الابتكارات على سبيل المثال اللآلئ المصنوعة من قشور بيض النعام والمثقوبة من كهف إنكابوني يا موتو في كينيا، والتي يُفترَض أن عمرها يقارب الـ40000 سنة. كما ظهرت أجزاء بيوض النعام في ما يُسمّى كهف أبولو في جنوب ناميبيا.

الفنّ الصخري في *العصر الحجري المتأخّر* في أفريقيا

ولكن أهمية هذا الموقع تأتي بالدرجة الأولى من أنه أمدّ بأقدم التصاوير التشكيلية في القارة الأفريقية حتى الآن. فقد كشفت الحفريات هناك، إضافة إلى آلاف الأدوات الحجرية والقطع الأثرية الأخرى، سبعة ألواح حجرية مرسومة بالفحم الخشبي والمغرة واللون الأبيض. على أن الأمر في هذه الألواح لا يتعلق بشكل صريح بأجزاء من سقف أو جدار مزيَّن كانت قد انهارت، وإنما بأشياء من الواضح أنه تم إحضارها إلى الكهف من الخارج ووضعها بجوار موقد النار. يمكن التعرّف قبل كلّ شيء على صور حيوانات مثل وحيد القرن وحيوان مخطّط يشبه حمار الوحش. وفي تصوير آخر تظهر قطة مفترسة تذكِّر قائمتاها الخلفيتان بساقي إنسان، بحيث يمكن أن تكون صورة كائن مختلط. ترجع هذه القطع إلى 27000 سنة مضت. لم يتم العثور في كهف ناواتوغي في زيمبابوي سوى على أحجار مزيَّنة بجانب موقع نار كبير يضمّ عدة مواقد. في حين لم يتم العثور بعد على رسوم كهوف حقيقية من العصر الحجري القديم الأفريقي. صحيح أن الكهوف والملاذات الصخرية معروفة في منطقة كوندوا في تنزانيا، وذلك على المنحدرات الغربية للوادي المتصدّع الأفريقي، وهي مزوَّدة بصور صخرية لا حصر لها، إلّا أن تاريخها غير واضح، ومن غير المؤكَّد بعد على الإطلاق مدى رجوعها إلى العصر الحجري القديم أصلاً.

لا شك في أن هذه الأدلّة الشحيحة، والمثيرة للجدل في توقيتها أحياناً، على الإنجاز التشكيلي في العصر الحجري القديم الأفريقي تبدو متواضعة حقاً بالمقارنة مع غنى الفنّ الصخري في العصر الحجري القديم الأعلى في جنوب غرب أوروبا. يُضاف إلى ذلك أمر لافت آخر هو أن القارة، التي

انطلق منها الإنسان الحديث، ليس لديها أيّ شيء تقريباً تواجه به الثروة الغنية للإنجاز الفنّي الأوراسي فيما يخصّ الأعمال الفنّية التشكيلية الصغيرة، بمعنى التماثيل البشرية والحيوانية الصغيرة. صحيح أن بعض هذه الموجودات قد تكون لا تزال مشروطة بالأبحاث في الوقت الحاضر، ويمكن أن يتم تعديلها في المستقبل، ولكن هذا وحده لا يفسّر هذه التمظهرات المتفاوتة جداً في الواقع بين الحداثة الثقافية في أوروبا من جهة وفي أفريقيا من جهة أخرى.

بقايا شحيحة للإنسان الحديث في شرق آسيا

والأكثر شحّاً من ذلك هو كمّ المكتشفات في أجزاء واسعة من جنوب آسيا وجنوب شرق وشرق آسيا، في حين أن مناطق سيبيريا الواقعة إلى الشمال من السفوح الجبلية الجنوبية، بمعسكراتها ومدافنها وفنّها التشكيلي، تتبع في ملامحها الأساسية التطوّر في وسط وشرق أوروبا، ولذلك تُبرز مع هذه المناطق الغربية فضاءً ثقافياً أوراسياً. تحظى مكتشفات بقايا الممثّلين المبكّرين لنوع الإنسان (Homo) في الصين وإندونيسيا منذ القدم باهتمام أكبر من الثقافة المادية التي رافقتها. يرتبط هذا الأمر، فيما يرتبط، بكون إرث العصر الحجري القديم في هذه المناطق لا يمكن وصفه إلّا بالفقير للغاية قياساً إلى المكتشفات والموجودات في أجزاء واسعة من أوروبا.

إن الملاحظة التي مفادها أن مواقع العصر الحجري القديم في المنطقة الممتدة من الصين إلى إندونيسيا لم تأتِ سوى بعدد قليل على نحو لافت من الأدوات الحجرية، أدت إلى الافتراض القائل إنه تم استخدام المواد العضوية بقدر أعلى بكثير لإنتاج الأدوات الضرورية للبقاء. هكذا كان الخيزران، الذي يسهل شطره، متوافراً بكثرة على سبيل المثال ، ولكنه سريع التلف في الوقت نفسه بوصفه مادة عضوية. والحق أن المكتشفات الخشبية المتفرّقة من العصر الحجري القديم في وسط أوروبا تشير هنا أيضاً إلى الفكرة التي مفادها أن الخشب فاق الحجر كمادة خام، ولكنه لم يبقَ محفوظاً إلّا في حالات استثنائية خاصة جداً. من هذه الناحية قد يكون هذا التفسير للندرة اللافتة للأدوات الحجرية في العصر الحجري القديم الآسيوي مصيباً بلا شك. تغيب الشواهد على الإنجاز الفنّي غياباً تامّاً تقريباً، وتظلّ الحصى المنقوشة من موقع كاميكورويا في اليابان أو قطع القرون المنحوتة من كهف لونغو في شمال الصين إضافة إلى قطع الحلي، التي تظهر بين الحين والآخر، استثناءات متفرّقة، في حين تغيب كلياً رسومات الكهوف من العصر الحجري القديم.

استيطان القارة الجنوبية ساهول

كانت القارة الجنوبية ساهول في العصر الجليدي تربط أستراليا وغينيا الجديدة والجزر المجاورة بعضها ببعض. وكما قلنا سابقاً، كانت قد نشأت نتيجة تحوّل كميات ضخمة من المياه إلى جليد في الغطاء القطبي، مما أدى إلى انخفاض منسوب البحار بمقدار وصل إلى 100 متر أدنى منه اليوم. وللسبب نفسه تشكّلت إلى الشمال شبه جزيرة سوندا، التي وحّدت البرّ الرئيس لجنوب شرق آسيا مع الجزر الفيليبينية والإندونيسية. وقد وصل *الإنسان العاقل* إلى ساهول لأول مرة قبل ما يقارب الـ50000 سنة. أي أنه احتاج إلى حوالي 50000 سنة ليقطع الطريق من موطنه الأفريقي الأصلي عبر جنوب آسيا وصولاً إلى أستراليا. وعلى الرغم من انخفاض منسوب المياه كان لا يزال على الإنسان الحديث التغلّب على المضيق البحري بين شبه جزيرة سوندا وساهول، لكي يتمكّن من الهجرة من الشمال. بالتالي كان لا بد من أن يتوافر سلفاً على مراكب مائية صالحة للإبحار يستطيع أن يقطع بها مسافات أطول في عرض البحر. لا يمكن المبالغة في تقدير الإنجاز الهائل الذي يكمن وراء الوصول إلى القارة الجنوبية ساهول، لا سيما أنه لم يكنْ هناك أيّ خط بصري في أيّ مكان من الطريق البحرية من سوندا إلى ساهول. من الواضح إذن أن *الإنسان العاقل* أظهر قبل 50000 سنة شجاعة مدهشة ومهارات استكشافية جديرة بالإعجاب، جعلته قادراً على القيام برحلات بحرية مطوّلة بشكل هادف.

انقراض الحيوانات الضخمة وفرضية القتل المبالغ فيه

عندما وصل الإنسان الحديث أخيراً إلى ساهول، يفترَض أنه صادف هناك حيوانات ضخمة مثل الكنغر الضخم والحيوانات الجرابية الشبيهة بوحيد القرن والسحالي العملاقة والتماسيح البرّية وما شابه. وقد انقرضت هذه الأنواع إلى حد كبير بعد فترة وجيزة من ظهوره. يرى البعض سبب اختفاء هذا المجموع الحيواني في كفاءات *الإنسان العاقل* الخاصة كصيّاد متخصّص وفائق الفعّالية. على أن ما يُسمّى فرضية القتل المبالغ فيه، والتي طُرِحَت في شكل مشابه بالنسبة لأجزاء أخرى من العالم، هي موضع جدال. والأكثر احتمالاً هو إمكانية إرجاع انقراض جزء من عالم الحيوان إلى تغيّرات مناخية أو إلى اجتماع أسباب مختلفة، وليس إلى نشاط الصيد عند الإنسان الحديث وحده.

أقدم حرق للغابات في أستراليا

يُزعَم أن هناك مؤشّرات على أن *الإنسان العاقل* شرع بإشعال الحرائق عمداً بمجرد وصوله إلى أستراليا بغية التأثير في الظروف الطبيعية العامة: نتيجة لذلك أصبحت الغابات غير القابلة للاحتراق أقلّ كثافةً وتحوّلت الغابات الخفيفة إلى سهول عشبية. وقد ترتّب على تغيير الطبيعة هذا عواقب على الغطاء النباتي وعالم الحيوان. وقد طُرِحَت فرضيات مشابهة بالنسبة لأفريقيا أيضاً. مع ذلك يظلّ من المشكوك فيه ما إذا استطاع إنسان العصر الحجري القديم الأعلى أن يتدخّل بالفعل في بيئته بشكل ممنهَج بهذه الطريقة الضخمة. غالباً ما تتعذّر الإجابة عن السؤال عن التسلسل الزمني: صحيح أنه يمكن إثبات آثار الحرائق، ولكن يصعب جداً تحديد تاريخها بشكل موثوق.

في الفترة الممتدة بين 18000 و15000 سنة مضت حدث اشتداد واضح في الجفاف مع انخفاض في درجات الحرارة وفي كميات الأمطار. ومع نهاية العصر الجليدي، قبل 13000 سنة ارتفع منسوب البحار ببطء من جديد وانفصلت تسمانيا وبعدها غينيا الجديدة عن ساهول، وتحوّلتا إلى جزيرتين، ونشأت أستراليا في شكلها الحالي كقارة خامسة. صحيح أنه يجوز الانطلاق من وجود اتصالات منتظمة لسكّان أستراليا الأصليين مع سكّان غينيا الجديدة والجزر المجاورة الأخرى في جنوب المحيط الهادئ، ولكن هذه المناطق اتّسمت بعزلة واضحة في الفترة اللاحقة. على أن عدد المواقع المدروسة على نطاق واسع في أستراليا، والتي يمكن أن تُنسَب إلى العصر الجليدي بشكل مؤكّد، هو عدد قليل. لا يمكن تحديد التاريخ بشكل موثوق إلّا بمساعدة الأساليب العلمية على أية حال. ويجوز الانطلاق من أن إنسان العصر الحجري القديم الأعلى في ساهول عاش صيّاداً وجامعاً في المقام الأول. واجتمع مع أفراد نوعه في معسكرات في بعض الأحيان. ومن المفترَض أن نمط الحياة والاقتصاد هذا لم يتغيّرْ إلّا بشكل طفيف حتى وصول الأوروبيين بعد آلاف السنين.

طقوس الموتى

مع ذلك توجد في أستراليا أيضاً مؤشّرات على الحداثة الثقافية بعد أن وصل *الإنسان العاقل* إلى القارة الجنوبية ساهول. وتجدر بالملاحظة طقوس الموتى على وجه الخصوص، لأنه كان هناك عمليات حرق جثث قبل 25000 سنة سلفاً، وهي تُعدّ الأقدم في العالم. كما يرجع تاريخ أقدم قطع الحلي إلى فترة أبكر: حيث يتم تأريخ لآلئ الأصداف في القلادات من ماندو ماندو كريك في الفترة الممتدة بين 34000 و22000 سنة مضت.

الفنّ الصخري في أواخر العصر الجليدي

بالإضافة إلى ذلك توجد مجموعة كاملة من المواقع ذات الفنّ الصخري. على أنه من الصعب تحديد تاريخ هذه النقوش الصخرية. كما تُفتقَد مرتكزات التسلسل الزمني الموثوقة اللازمة لتصنيف الصور من حيث الأسلوب. نادراً ما يمكن إقامة علاقة سليمة بين التصاوير الموجودة على الجدران الصخرية وطبقات المكتشفات الواقعة أمامها، كما أن محاولات تحديد تاريخ الزنجار على الصور الصخرية بشكل علمي لم تسفرْ حتى الآن عن نتائج جديرة بالثقة، ولذلك تظلّ مثيرة للجدل. تم العثور في كهف كاربنترسغاب في غرب أستراليا على أجزاء منفصلة من جدار الكهف الداخلي تحمل بقايا رسم أحمر بالمغرة يصعب تمييز تفاصيله، وربما يكون من أقدم الرسوم الصخرية على الإطلاق. يرجع تاريخ الموقع إلى فترة ما بعد 40000 سنة مضت بقليل، وإذا كان مرتكز التوقيت هذا موثوقاً فنحن هنا أمام أقدم التمظهرات الفنّية لـ (*الإنسان العاقل*)، بعد أن وصل إلى أستراليا. كثيراً ما تم اكتشاف ملاذات صخرية (أشباه كهوف تحت صخور متدلّية) وكهوف مع رواسب مغرة على الجدران، وغالباً ما يكون التأريخ الدقيق إشكالياً، على أنه لا يمكن استبعاد فترة العصر الحجري القديم الأعلى.

كما تم إثبات وجود بصمات الأصابع واليد على جدران الكهوف، على غرار تلك التي عُثِرَ عليها في جنوب غرب أوروبا مع بداية العصر الحجري القديم الأعلى (كهف سْنوي ريفر وكهف كونالدا وغيرهما)، حتى إنها توجد في تسمانيا (كهف بالاواين). ويُفترَض أن عمرها 20000 إلى 16000 سنة. كما ترجع الخطوط والنماذج الهندسية البسيطة المرسومة على الجدار الصخري بالأصابع أحياناً إلى فترة مبكّرة نسبياً، وبالتالي إلى ما قبل نهاية العصر الجليدي (كهف والكوندر آرك، ملجأ الإنسان المبكّر في كوينزلاند.. إلخ). على أنه تُصادف، إضافة إلى هذه الرسوم، نقوش صخرية كتلك المعروفة بالآلاف في وادي شجر الصمغ في شمال غرب أستراليا. كما تم العثور هناك على تصاوير تشكيلية لبشر، بعضهم في وضعية تعبّد أو مشغولون بأنشطة أخرى. صحيح أن أقدم استخدام لهذا الموقع يُحال إلى العصر الحجري القديم الأعلى، ذلك أن أقدم الصور قد يكون عمرها ما بين 20000 و 10000 سنة، إلّا أنه لا يزال من المتعذَّر في الوقت الحاضر حسم السؤال عَمَّا إذا كان الإنسان قد أنجز الفنّ التشكيلي المكتشف هنا في أواخر العصر الجليدي سلفاً أم لا بد من إرجاعه إلى فترة أحدث إجمالاً.

ينطبق هذا على الفنّ الصخري التشكيلي لما يُسمّى تقليد باناراميتي أيضاً، والمنتشر في أجزاء واسعة من أستراليا، لا سيما في المناطق القاحلة في داخل القارة. وهو ينقسم إلى مجموعات مختلفة من حيث الأسلوب والإقليم. صحيح أن الإنجاز الفنّي بوصفه تعبيراً عن الحداثة الثقافية أمر

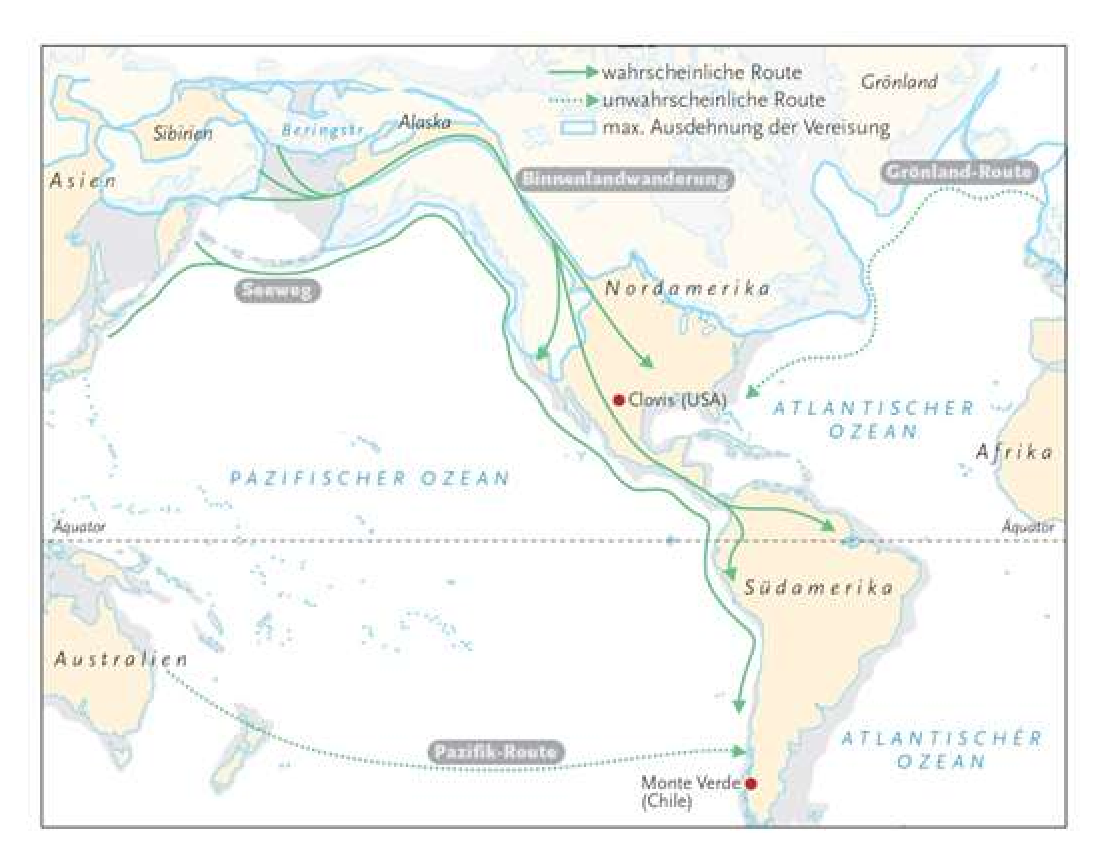
مُثبَت بالتالي في أستراليا أيضاً خلال العصر الحجري القديم الأعلى، غير أن الأمثلة تظلّ شحيحة - على غرار الحال في أفريقيا وآسيا - مقارنةً بازدهار الفنّ الصخري في العصر الجليدي في أوروبا، والذي يفوق من حيث الكمّ والنوع بمراحل كلّ ما هو معروف في أيّ مكان في العالم أيضاً. يبدو أن الصور التشكيلية قبل نهاية العصر الجليدي في أستراليا لا يمكن إثباتها بشكل واضح حقاً، بصرف النظر عن الموضوعات الهندسية وبصمات الأصابع أو بالأحرى اليد. على أنه لا يمكن استبعاد احتمال وجودها كذلك.

5
عبر بيرنجيا إلى العالم الجديد

الهجرة عبر الجسر البرّي بيرنجيا

كانت أمريكا آخر قارة يستوطنها *الإنسان العاقل* (الخريطة 4). صحيح أن التوقيت مثار جدل، ولكن تبعاً لمستوى الأبحاث الحالي يمكن الانطلاق من أن الهجرة تمت قبل حوالي 15000 سنة، أي مع نهاية العصر الجليدي، الذي يوصف في أمريكا الشمالية بعصر ويسكونسن الجليدي. كما أن هناك إجماعاً على أن الهجرة تمت من شمال شرق آسيا عبر ألاسكا وشمال غرب أمريكا، وذلك عبر بيرنجيا، وهي جسر برّي يصل بين شمال شرق سيبيريا وألاسكا (ما يُسمّى نظرية مضيق بيرنغ). وُجِدَت بيرنجيا في الأطراف الشمالية لبحر بيرنغ الحالي. كان منسوب البحار قد انخفض في ذلك الوقت نحو 125 متراً نتيجة تجمّد كتل مائية كبيرة عند القطبين، وكشف بالتالي عن الجسر البرّي. هكذا نشأت مساحة طبيعية قارية ضخمة متصلة ذات ظروف مشابهة، وهي تلك المساحة التي امتدت من لينا في ياقوتيا إلى نهر ماكنزي في كندا واستحوذت على أجزاء من المحيط المتجمّد الشمالي الحالي. عندما شارف العصر الجليدي الأخير على نهايته بالتدريج قبل 12000 إلى 11000 سنة، فيما كانت الكتل المائية لا تزال متجمّدة عند القطبين، نشأت في بيرنجيا وفي المناطق المجاورة لها شرقاً وغرباً طبيعة عشبية خصبة عاشت فيها حيوانات كبيرة مثل الماموث والرنّة ووحيد القرن الصوفي وثور المسك، وتُدعى سهوب الماموث أيضاً بسبب خصائصها النوعية. ويُفترَض أن الإنسان الحديث، الذي كان يتغذّى من صيد الثدييات الكبيرة عن طريق مطاردة القطعان الضخمة من هذه الطرائد الكبيرة، قد وصل إلى العالم الجديد في مجموعات أكبر في ذلك الوقت على أبعد تقدير. على أن تحديد تاريخ أقدم بقايا بشرية في أمريكا يبيّن أن ثمة هجرة إلى أمريكا عبر الجسر البرّي بيرنجيا لا بد أنها حدثت سلفاً خلال العصر الجليدي الأخير، ابتداءً من 15000 سنة مضت على أبعد تقدير، وربما حتى قبل ذلك.

مع حلول نهاية العصر الجليدي كانت ألاسكا خالية من الجليد إلى حد كبير، غير أن صفيحة لورنتيد الجليدية والأنهار الجليدية في الجبال الساحلية منعت الإنسان المبكّر من مواصلة الهجرة نحو الجنوب. ولم ينفتحْ ممرّ خالٍ من الجليد في منطقة يوكون الحالية إلّا قبل نحو 11500 سنة وسمح له بمواصلة انتشاره في الاتجاه الجنوبي. حتى لو صحّ هذا، لا بد أن *الإنسان العاقل* قد بلغ أجزاء أبعد في جنوب القارة الأمريكية المزدوجة بطرق أخرى، ذلك أن ثمة مواقع تظهر هناك بشكل متكاثر، وهي أقدم بوضوح وترجع إلى ما قبل 15000 سنة على الأقل. يُفترَض بما يُسمّى النظرية الساحلية أن تفسّر هذه الحقيقة، وهي نظرية تفترض أن البشر الأوائل، الذين قادوا أول مركبات مائية على امتداد ساحل اليابان وشرق سيبيريا، قد وصلوا إلى أمريكا الشمالية في الفترة الممتدة بين 15000 و12000 سنة مضت، وبعد ذلك بفترة وجيزة إلى أمريكا الجنوبية بما فيها أرض النار أو تييرا ديل فويغو. بيّنت الدراسات الجيولوجية أن الانتشار على امتداد الخط الساحلي للمحيط الهادئ كان ممكناً من حيث المبدأ حتى قبل 23000 سنة، ومجدداً ابتداءً من 15000 سنة مضت، ولم يخلُ الساحل من الجليد خلال آلاف السنين بين هذين التاريخين. بالتالي فإن طريق الهجرة هذا، وإن كان معقولاً، إنما يصعب إثباته أيضاً، ذلك أنه لم يعدْ بالإمكان العثور على مواقع تلك الفترة على امتداد الساحل - هذا إن كانت موجودة - نظراً لوقوعها على عمق يزيد على 120 متراً اليوم جراء ارتفاع منسوب البحار بعد نهاية العصر الجليدي.



الخريطة 4: نظريات في استيطان أمريكا من قِبَل الإنسان العاقل

يبدو أن الأشد احتمالاً في الوقت الحاضر هو الربط بين كلا النظريتين، اللتين لا تتنافيان. هكذا يُرجَّح أن *الإنسان العاقل* وصل إلى أمريكا الشمالية خلال العصر الجليدي الأخير على امتداد الطريق الساحلي ابتداءً من 15000 سنة مضت على أبعد تقدير. ومع حلول نهاية العصر الجليدي قبل 11000 سنة، حينما تراجع الجليد من بيرنجيا، ونشأت هناك طبيعة عشبية خصبة ومأهولة بالطرائد الكبيرة، هاجر الإنسان المبكّر عبر الجسر البرّي إلى العالم الجديد على نطاق واسع. لا يزال من المتعذَّر توصيف مسارات انتشاره الأخرى عبر القارة المزدوجة بمجملها بشكل موثوق في كلّ تفاصيلها، لأن عدد المواقع ذات الصلة لا يزال قليلاً جداً في هذا الإقليم الضخم. غالباً ما تضع المواقع الجديدة النظريات الأقدم للانتشار موضع التشكيك مجدداً، لا سيما إذا ما وفّرت بيانات مبكّرة جداً. من هذه الناحية لا بد من أن يدور الموضوع بدايةً حول تحسين الصورة العامة للمكتشفات قبل إمكانية استخلاص نتائج موثوقة فعلاً. يبقى أن نسجّل أن أيّاً من البراهين المبكّرة جداً على وجود *الإنسان العاقل* في أمريكا، والتي ترجع إلى 35000 أو حتى 40000 سنة مضت، لم

يتم تأريخه بشكل مقبول من قبل البحث العلمي بصورة عامة. بيد أنه إذا ما تعزّزت هذه الموجودات في المستقبل فسوف يتعين إعادة كتابة تاريخ استيطان أمريكا في الواقع، ولكن ما من داعٍ لذلك حتى الآن.

علم الوراثة القديم والأصل السيبيري للأمريكيين الأوائل

يبدو أن أبحاث علم الوراثة القديمة تشير إلى أن أوائل مستوطني أمريكا يعودون إلى مجموعة سكّانية واحدة لا بد أنها تطوّرت في عزلة نسبية. على أنه ينبغي الانطلاق من أن ثمة موجات هجرة عديدة، بعضها منفصل عن بعض زمنياً، وصلت إلى أمريكا قادمةً من شمال شرق آسيا ابتداءً من 15000 سنة مضت. والحق أن دراسات الحمض النووي تزداد أهمية في هذا السياق وتقدّم مرتكزات هامة بشكل متزايد، لأن هذا المنهج يتيح اطّلاعاً يتجاوز معارف علم الآثار. على أنه لا بد من التشديد المرة تلو الأخرى على أن الدراسات الراهنة لا تزال في بدايتها. فهي لا تزال تفتقر إلى قاعدة بيانات واسعة حقاً، كما أنه لا يمكن تقييم موثوقية الأساليب المنهجية المطبّقة في كلّ حالة إلّا من قبل خبراء مؤهَّلين في الموضوع. من هنا لا بد من توخّي الحذر قبل الإقرار لمثل هذه النتائج بقوة الإثبات مباشرةً، لا سيما أنها لا تزال تُظهر نتائج متضاربة أو تقدّم على الأقل مجالاً فضفاضاً للتأويل. مع ذلك سوف تنتقل أبحاث الحمض النووي القديم إلى مركز علم الإنسان القديم بشكل متزايد في المستقبل.

هكذا تم اكتشاف حمض نووي بشري في براز متحجّر يزيد عمره على 14000 سنة في كهف بيزلي في ولاية أوريغون الأمريكية، ويُقال إنه يشير إلى أوجه جينية مشتركة مع الإنسان المبكّر في سيبيريا. ثمة مكتشفات تشير إلى منحى مشابه هي تلك التي تم العثور عليها في مجمع باترميلك كريك في تكساس، الذي يرجع تاريخه إلى ما بين 15500 و13200 سنة مضت، وبالتالي يُعدّ من أقدم المكتشفات البشرية في أمريكا. أسفرت دراسة في السمات المورفولوجية للجماجم البشرية المبكّرة في أمريكا الشمالية، منشورة في عام 2010، عن نتيجة مفادها أن أمثلة العصر الجليدي المتأخّر تختلف بوضوح عن الأمثلة الأحدث، إنما بالإمكان إرجاعها كلّها إلى <أسلاف> في شرق آسيا. ويمكن ذكر نتائج دراسات مشابهة أخرى، غير أنها جميعاً تؤكّد في الوقت الحاضر أمرين اثنين: أولهما أن الإنسان المبكّر جاء من شمال شرق آسيا إلى أمريكا الشمالية، وثانيهما أن حركة هجرته تمت على فترات مختلفة وربما عبر طرق متعدّدة أيضاً. على أنه يُفترَض أنه أصبح

واضحاً الآن أن إعادة بناء مفصَّلة لاستيطان أمريكا تشترط بحثاً مكثّفاً عن الآثار الجينية، لابد من إنجازه أولاً.

بالمقابل تتدرج الفرضيات الأخرى المطروحة أحياناً فيما يخصّ استيطان أمريكا في ميدان التكهّن والتأمّل النظري. هكذا أُشير مثلاً إلى بعض أوجه التشابه بين الأدوات الحجرية في ثقافة كلوفيس الأمريكية قبل حوالي 11000 سنة (الشكل 13) وأعمال الصوّان الأقدم بكثير في السولوتريان في غرب أوروبا (الشكل 7). وقد أدى هذا إلى افتراض إمكانية حدوث الهجرة من أوروبا على امتداد الحافة الجنوبية للغطاء الجليدي القطبي أيضاً. ويرى آخرون أن استيطان أمريكا انطلاقاً من جزر المحيط وعبر المحيط الهادئ أمر ممكن، وذلك نظراً لاكتشاف جمجمة في البرازيل عمرها 11000 سنة يُقال إنها تبدي ملامح أسترالو ميلانيزية.



الشكل 13 : رأس رمح من كلوفيس مصنوع من حجر الصوّان، إيريزونا، الولايات المتحدة الأمريكية

ثقافة كلوفيس في أمريكا

ولكن هذا يتناقض كلياً مع توقيت وصول البولينيزيين المؤرَّخ بشكل جيد نسبياً إلى مجموعات الجزر المختلفة في أوقيانوسيا. لطالما يتم تقديم النتائج المشكوك فيها لدراسات جينية أو مورفولوجية على مادة الهيكل العظمي البشري كحجة لصالح مثل نظريات الهجرة هذه. إلّا أن سائر هذه النظريات لا تقوم دوماً سوى على بعض المشاهدات المفردة والمشكوك فيها للغاية، في حين أن كلّ الحقائق المتوافرة تناقضها بشكل واضح. بالتالي هي تفتقر إلى أساس علمي موثوق.

كانت ثقافة كلوفيس أول ثقافة ما قبل تاريخية منتشرة على نطاق واسع في القارة الأمريكية. وقد تم تحديد بدايتها في الوقت الحاضر قبل نحو 13000 سنة مضت. على أن المزيد المتزايد من المواقع بات معروفاً في السنوات الأخيرة، وهي تكشف أولى الآثار لوجود الإنسان قبل بضعة آلاف من السنين من بداية ثقافة كلوفيس. ترجع أقدم هذه البراهين (ماقبل كلوفيس) إلى ما قبل 15000 سنة. على أنه إذا انطلقنا من هجرة الإنسان الحديث، من شرق سيبيريا إلى أمريكا الشمالية، فوجئنا بأن مواقع فترة ما قبل كلوفيس، مهما كان عددها محدوداً، موزَّعة على القارة المزدوجة بكاملها، وذلك من ألاسكا (مدينة نينانا) مروراً بولاية أوريغون (كهوف بيزلي) وبنسلفانيا (موقع ميدوكروفت) وتكساس (مجمع باترميلك كريك) والمكسيك (بينيون)، وصولاً إلى كولومبيا (موقع العَبْرة) وفنزويلا (ولاية فالكون) والبرازيل (موقع بينا فيورادا) وتشيلي (موقع مونتي فيردي). وجميعها يعود إلى ما قبل 15000 إلى 13000 سنة، وهي تكشف آثار تقاليد ثقافية مختلفة أيضاً. لا يسمح هذا سوى بتفسيرين ممكنين اثنين: إما أنه كان هناك طبقة هجرة أقدم ترجع إلى ما قبل 15000 سنة مضت، ولا يمكن التحقّق منها بعد بشكل موثوق، أو أن الانتشار الأول خلال فترة ما قبل كلوفيس حدث بسرعة هائلة.

مواقع فترة ما قبل كلوفيس

والحق أن مواقع فترة ما قبل كلوفيس أظهرت أدوات حجرية متطوّرة بالنسبة إلى الظروف الثقافية للعصر الحجري القديم الأعلى، منها على سبيل المثال محافر ونصول وسكاكين مشحوذة من جانب واحد ورؤوس مقذوفات - بيد أن هذه الأخيرة لا تزال من دون رتوش على سطحها - لم تعدْ بعيدة كثيراً عن صناعة فترة كلوفيس اللاحقة. فضلاً عن ذلك، وبسبب ظروف حفظ خاصة كذلك، تم العثور في كهوف بيزلي في أوريغون، والتي تحتوي على موجودات تجعل اتجاه الهجرة على امتداد ساحل المحيط الهادئ الأمريكي أمراً محتملاً، على خيوط مصنوعة من أوتار حيوانية وألياف نباتية، وعلى جلود حيوانية وأعمال خوص وأشياء خشبية بسيطة كتلك التي يمكننا إثبات وجودها

في بعض المواقع في أوروبا منذ العصر الحجري القديم الأوسط. كما تدلّ قطعة هيماتيت مصقولة من مجمع باترميلك كريك في تكساس على أول اشتغال بالأصبغة. ويبيّن موقع بالقرب من كاكتوس هيل في فرجينيا أن مواقد النار كانت تتواجد في مركز المعسكرات، على غرار الحال في العالم القديم. بالإضافة إلى ذلك وُجِدَت أماكن تُستخدَم خصيصاً لذبح الحيوانات، كما في ولاية فالكون الفنزويلية على سبيل المثال، حيث كان يتم تقطيع ماموث المستودون فيما مضى كما هو واضح؛ وهو نوع من الحيوانات ذات الخرطوم والمنقرضة منذ زمن طويل، وسبق أن عاشت في الغابات المطيرة في أمريكا الجنوبية.

مونتي فيردي وأقدم المساكن في أمريكا

تجدر بالملاحظة بصفة خاصة المكتشفات التي ظهرت في موقع مونتي فيردي في تشيلي. بما أن المنقِّبين في هذا الموقع انطلقوا من تأريخ مبكّر جداً قبل 30000 إلى 25000 سنة مضت ورأوا في المكان دليلاً على هجرة لم تتم عبر الجسر البرّي بيرنجيا، وإنما تمت برأيهم على امتداد ساحل المحيط الهادئ الأمريكي، فقد اندلعت نقاشات حادة حول مونتي فيردي. على أنه يبدو مقبولاً بصورة عامة في هذه الأثناء أن موقع الاستيطان هذا يعود إلى فترة ما قبل كلوفيس ويمكن إرجاعه 14000 إلى 13000 سنة مضت. ونظراً لأن موقع مونتي فيردي كان يقع خلال فترة نشوئه في منطقة رطبة، فقد بقيت بعض المواد العضوية فيه محفوظة. يمكننا أن ننطلق اليوم من أن مونتي فيردي كان مكاناً واقعاً على ضفة نهر، وقد استوطنه ما يقارب الـ 20 إلى الـ 30 شخصاً. ثمة مسكن شبيه بالخيمة يُعاد بناؤه هناك، ويبلغ طوله 6 أمتار وقد تم دعمه بجذوع الأشجار وتأطيره بعوارض خشبية وتغطيته بجلود الحيوانات. ويُفترَض أنه واحد من أقدم المساكن في أمريكا.

مناطق تجوّل واتصالات بعيدة

وقد تم العثور في داخل المسكن على بقايا جلود حيوانية أخرى مشدودة بحبال من القصب بين أعمدة خشبية مفردة، بحيث فصلت عدة حجرات بعضها عن بعض على هذا النحو. كما عُثِرَ خارج المسكن على مواقد كبيرة ومساحات لإنتاج الأدوات. إلى جانب العظام ثمة مؤشّرات عديدة ذات دلالة على الطعام النباتي: بذور، مكسّرات، توتيات.. إلخ؛ فقد عُثِرَ على بقايا 45 نوعاً مختلفاً من النباتات الصالحة للأكل إجمالاً. ولا بد أن بعضاً منها تم إحضاره من مسافة بعيدة، وهو أمر إما أن يشير إلى مناطق تجوّل كبيرة للصيّادين والجامعين المستوطنين هناك أو يشهد على اتصالات مع

مجموعات أخرى ربما كانت تتم مقايضة الأطعمة معها. كما عثر المنقّبون في مواقع استيطان، نشأت على امتداد ساحل المحيط الهادئ البيروفي في الوقت نفسه تقريباً، على مؤشّرات على صيد السمك المبكّر بالشباك والصنّارات العظمية، حيث يُفترَض أن قائمة طعام هؤلاء المستوطنين شملت المحار وغيره من الثمار البحرية، إضافة إلى السمك.

ما قبل كلوفيس وكلوفيس في البرازيل

على الرغم من أن البشر في فترة ما قبل كلوفيس اهتمّوا بنمط حياة واقتصاد مميّز، كما هو واضح، لم يتم العثور حتى الآن على أيّ شواهد على إنجار فنّي. ولم يتغيّرْ شيء في هذا بشكل أساسي حتى فيما يخصّ ثقافة كلوفيس اللاحقة، التي بدأت قبل نحو 13000 سنة مضت. وتُعدّ مواقع بيدرا وفورادا في شمال البرازيل من الاستثناءات القليلة في هذا الشأن. فقد تم العثور هناك على طبقات عديدة من المكتشفات من فترات زمنية مختلفة، ترجع أقدمها إلى فترة ما قبل كلوفيس، علماً بأن بعض التواريخ المبكّرة جداً (قبل 32000 سنة) هي مثار جدل شديد في هذه الحالة. وفي مجال الملاذات الصخرية العديدة تم اكتشاف مئات الصور الصخرية البسيطة جداً، كان بعض منها قد سقط من جدران صخرية مرسومة. يرجع أقدمها إلى 13000 سنة مضت، وبالتالي إلى فترة كلوفيس، غير أن توثيقها عليه إشارة استفهام. وقد ظهرت في إحدى الطبقات في موقع غولت غير البعيد عن مجمع باترميلك كريك في تكساس مع رؤوس كلوفيس النموذجية حصىً مرصَّعة بالنقوش. وهي تتكوّن إلى حد بعيد من خطوط مستقيمة مرتّبة على شكل حزم متوازية في الغالب أو في نماذج مُعَيَّنية الشكل أو غيرها من النماذج الهندسية. ربما استطاع المرء أن يتعرّف في إحدى الحالات على حيوان منمَّق، مع ذلك لا بد من الإقرار من حيث المبدأ أن الإنجاز الفنّي المُثبَت في فترة كلوفيس لم يتضمّنْ بعد أيّ تصاوير تشكيلية. بخلاف الحال في الفنّ الصخري للعصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا لم يهتم سكّان كلوفيس بإعادة إنتاج عالم حياتهم بما أمكن من الواقعية؛ فقد أنجزوا بعض الإشارات المجردة القليلة، التي لا نعرف معناها.

خلاصة:

رؤوس من الصوّان بوصفها أحفورات رائدة لثقافة كلوفيس الأمريكية

انتشرت ثقافة كلوفيس ابتداءً من 13000 سنة مضت في كامل أمريكا الشمالية والوسطى في غضون وقت قصير نسبياً. أما <الأحفورات الأثرية الرائدة> فهي ما تُسمّى رؤوس كلوفيس، وهي رؤوس مقذوفات من الصوّان ذات حافة حادة مزدوجة، ووجهين منمَّقين وقاعدة غائرة نصف دائرية وذات نهايتين جانبيتين منحنيتين بشكل خفيف، تضفي على الجزء السفلي لهذه القطع مظهراً يشبه ذيل السنونو. كان لرؤوس كلوفيس هذه استخدامات متنوّعة: رؤوس للرماح أو أداة قاطعة لتقطيع غنائم الصيد؛ أي أنها كانت مقذوفاً وسكيناً في آن. تعود أبعد الأدلّة جنوباً على ثقافة كلوفيس إلى بنما. صحيح أن ثمة صناعات أخرى انتشرت في أمريكا الجنوبية في ذلك الوقت، ولكن الرؤوس من نمط كلوفيس كانت شائعة جداً هناك أيضاً، وهي تثبت أن نوعي الأدوات كليهما نشأا في الوقت نفسه تقريباً.

صيد حيوانات العصر الجليدي الضخمة

احتلّت مناطق جليدية شاسعة أجزاء كبيرة من أمريكا الشمالية خلال ثقافة كلوفيس. تلاها باتجاه الجنوب سهوب وغابات عاشت فيها تلك الحيوانات الكبيرة المميّزة للعصر الجليدي اللاحق، كان من بينها الماموث والبيسون والمستودون والغزال الأمريكي الضخم والكسلان العملاق وأنواع أخرى. عاش أصحاب ثقافة كلوفيس في مجموعات صغيرة من الصيّادين والجامعين واهتمّوا بصيد الطرائد الكبيرة على وجه الخصوص، وذلك تبعاً للمجموع الحيواني الموجود من حولهم. لم توفّرْ هذه الحيوانات الضخمة كميات كبيرة من اللحوم دفعة واحدة وحسب، وإنما أمدّت البشر، فضلاً عن ذلك، بالجلود وشعر الحيوانات والأنياب والعظام. بصرف النظر عن ذلك استهلك أصحاب ثقافة كلوفيس حيوانات صغيرة كالأرانب والزواحف والطيور. كما تم إكمال قائمة طعامهم بجمع البذور والمكسّرات وثمار النباتات البرّية.

لا شك في أن تصوُّرنا الحالي عن ثقافة كلوفيس يتحدّد بشكل أساسي بنتائج المكتشفات في أماكن الصيد أو بالأحرى الذبح، التي عمل فيها أفراد كلوفيس على تقطيع الطرائد الكبيرة المقتولة. وقد صادوا فرائسهم في الغالب في المدرجات المنخفضة للأنهار أو عند الينابيع وحفر المياه على مدار السنة، حيث تأتي الحيوانات لشرب الماء. وقد عثر علماء الآثار على المرتفعات القريبة من الأنهار تكراراً على مواقع تضمّ كميات كبيرة من القطع الحجرية، مما دعاهم إلى تأويل هذه الأماكن على أنها مواقع ورشات. لا نعرف الكثير عن معسكرات كلوفيس. وقد قصد البشر الملاذات

الصخرية والكهوف، ومع ذلك توجد مواقع أثرية في العراء أيضاً مع قوائم خشبية مثقَّبة تبعث على التفكير في مساكن غارقة بشكل خفيف، بيد أن بإمكاننا استبعاد بناء المساكن.

تنقرض الحيوانات الكبيرة مع نهاية كلوفيس

بحلول نهاية ثقافة كلوفيس اختفت الحيوانات الكبيرة المرافقة لها أيضاً. لم ينجُ من كلّ أنواع الطرائد الكبيرة مع نهاية العصر الجليدي سوى البيسون، ويُفترَض أنه شكّل حيوانات البراري حتى العصر الحديث. كثيراً ما يتم إرجاع هذا التطوّر - كما في القارات الأخرى - إلى صيد الحيوانات الكبيرة واسع النطاق والمكثَّف من قبل أصحاب ثقافة كلوفيس (ما يُسمّى فرضية القتل المبالغ فيه). على أنه يُرجَّح أن التغيّرات الأساسية في الظروف المناخية، التي حدثت مع نهاية العصر الجليدي وبداية العصر ما بعد الجليدي أو العصر الحالي، كانت أشد حسماً وديمومةً.

6
مرة أخرى: القفزة الكبيرة

العالم مأهول بكامله لأول مرة

مرت الطريق الطويلة إلى الإنسان الحديث تشريحياً وثقافياً بالعديد من مراحل التطوّر في سياق عشرات الآلاف من السنين. وقد كانت مستمرّة ومتّصلة تماماً، ذلك أنه حتى التغيّرات، التي تبدو لنا لدى استرجاع الماضي فجائية للغاية، استغرقت، عند تدقيق النظر، آلاف السنين. مع انتشار *الإنسان العاقل* من أفريقيا إلى آسيا وأوروبا وأستراليا، وأخيراً إلى أمريكا أيضاً، بات العالم بكامله تقريباً مأهولاً بالإنسان لأول مرة، بصرف النظر عن مناطق التقهقر غير الصالحة نهائياً للبقاء. على أن وفرة المصادر، التي تسمح لنا بالنظر عن كثب إلى العصر الحجري القديم الأعلى بوصفه الفترة التي ظهر فيها *الإنسان العاقل* خارج أفريقيا لأول مرة، تختلف باختلاف القارة. هكذا تسمح الظروف في أوروبا أو بالأحرى أوراسيا بتقييم أدق وتقدّم صوراً أشد تمايزاً عن مدى الحداثة الثقافية، الذي تم بلوغه حتى نهاية العصر الجليدي.

تفاوت في مستوى الأبحاث

بالمقابل يُعدّ مستوى معرفتنا فيما يخصّ أفريقيا -الموطن الأصلي للإنسان الحديث- وكذلك فيما يتعلق بشرق آسيا وأستراليا وأمريكا الشمالية والجنوبية، مستوى غير مُرضٍ. صحيح أنه توجد في كلّ مكان تقريباً مؤشّرات شحيحة على بدايات الإنجاز الفنّي، ولكن الازدهار المتميّز كمّاً ونوعاً في رسوم الكهوف في جنوب غرب أوروبا في العصر الجليدي يظلّ فريداً في نوعه على مستوى العالم؛ فهو يشكّل أول ظهور كبير للإنسان في تاريخ الفنّ العالمي في كلّ الأزمنة والأمكنة. من المؤكَّد أن مستوى المصادر غير المتكافئ مشروط بتاريخ الأبحاث بقدر كبير أيضاً، إلّا أن السؤال

المشروع يطرح نفسه عمَّا إذا كان هذا هو السبب الوحيد الممكن للتفاوت الكبير في الموجودات. صحيح أننا نقع في كلّ مكان ظهر فيه *الإنسان العاقل* على سمات متشابهة تماماً من حيث المبدأ للحداثة الثقافية، التي ظهرت منذ وصوله، ولكننا نخطئ إن نحن أردنا أن نفترض ظروفاً ثقافية موحَّدة كلياً في كلّ أجزاء العالم. لم تكن الإنجازات الثقافية للبشر الحديثين الأوائل متماثلة في كلّ مكان في العصر الحجري القديم الأعلى، مثلما لم تكنْ كذلك في الحقب المتأخِّرة أيضاً. أثناء البحث عن أسباب ذلك سرعان ما يصطدم المرء بحدود تضيع وراءها المعرفة العلمية المؤكَّدة في مجال واسع من التكهّن والتأملات النظرية في الوقت الحاضر.

تطوّر بالغ الأهمية

إذا ألقينا نظرة على التاريخ البشري بمجمله أمكننا اعتبار التطوّر إلى الإنسان الحديث ثقافياً <قفزة كبيرة> بالطبع، مع أنه استغرق آلاف السنين. على أن هذه الاستعارة لا تصف فجائية هذا التطوّر بقدر ما تميّز وفرة تبعاته وتُحيل إلى شيء غير عكوس على الإطلاق. أمكن للإنسان أن يتحوّل في تلك الأثناء بلا شك من صيّاد متجوّل إلى مزارع مستقرّ، ليعيش، بعد أجيال كمربّي ماشية، رحّالة ثانيةً، وهناك وفرة من الأمثلة على مثل هذه التطوّرات. على أن معظم أنواعه بدأت تطوّراً مستداماً قاد باستمرار في اتجاه جديد. عند استرجاع الماضي يتعيّن على المرء دوماً أن ينظر إلى تاريخ البشرية المبكّر في نطاق السؤال عن توقيت مثل هذه الانقلابات الحاسمة وبالغة الأهمية. ولا بد من فصل هذه الانقطاعات العميقة حقاً عن خطوات التطوّر تلك، التي أضفت على الظواهر الثقافية مظهراً مختلفاً فقط، من دون أن تغيّرها من أساسها.

نزوع متواصل إلى تحسين مناحي الحياة كافة

لم يختلف *الإنسان العاقل* في العصر الحجري القديم الأعلى عن أسلافه في الحقب السابقة فيما يتعلق باستراتيجية البقاء وأسلوب الحياة من حيث المبدأ. بوصفه صيّاداً وجامعاً، وذا مناطق تجوّل متفاوتة المساحة، كان *الإنسان المنتصب* كائناً متنقّلاً باستمرار. كان هو من جعل صيد الثدييات الكبيرة أساساً لاستهلاكه اللحوم، في حين أكمل غذاءه بجمع البذور والمكسّرات والتوتيات والجذور الدرنية والأعشاب والأوراق. كما كان الصيد في مجموعات أكبر تعمل على التربّص لحيوان ثديي كبير أو لقطيع كامل أمراً معروفاً قبل *الإنسان العاقل* بزمن طويل. بيد أن الحاسم في الأمر تمثّل في أن الإنسان الحديث في العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا اخترع لأول مرة

قاذف الرماح، بوصفه نوعاً من الآلة التي استطاعت أن تزيد من نجاحه في الصيد بشكل واضح. لم يتكيّف الإنسان بشكل رائع مع بيئته الطبيعية وحسب، وإنما حاول في الوقت نفسه جعل ظروفه المعيشية وتوفيقه في الصيد أقل تأثّراً بالمصادفات. واعتمد بالتالي على التحسين الهادف والممنهَج لأدواته وتقنياته في الصيد.

إبرة الخياطة بوصفها اختراعاً رائداً

وبقدر ما تقدّم لنا المصادر المتاحة من معلومات تحوّل هذا النزوع إلى فعّالية أشد فإنها تُظهر علامة فارقة في تعامله مع جميع مناحي حياته الأخرى أيضاً. صحيح أن معسكراته قد لا تختلف عن تلك الخاصة بالعصر الحجري القديم الأوسط، وأن أسلافه كانوا قد سيطروا على النار بشكل كبير في وقت سابق، ولكن الإنسان العاقل كان أول من حقق خطوات متقدّمة رائدة ومستدامة في بناء مساكنه وعزلها ضد البرد. وقد أتاح له العزل الأفضل تخزيناً أفضل وحفظاً أطول للحرارة، التي يتم إنتاجها عن طريق مواقد النار، ومكّنه أخيراً من العيش والبقاء في مناطق أشد برودةً بوضوح مما كان متاحاً لأسلافه. لذلك كانت إبرة الخياطة المصنوعة من العظام الاختراع الرائد الثاني لـ (الإنسان العاقل)، إلى جانب قاذف الرماح. بوساطة هذه الأداة العبقرية لم يكنْ بالإمكان خياطة الملابس وحسب، وإنما استطاع المرء بمساعدتها وصل جلود حيوانية أيضاً بغية تغطية الأكواخ بشكل فعّال وعزلها ضد البرد. إذن فقد تم رفع ما كان الإنسان المنتصب قادراً عليه سلفاً إلى مستوى تقني جديد تماماً من حيث النوعية، بمساعدة معدّات الخياطة المستخدَمة في العصر الحجري القديم الأعلى.

كما تكشف الزيادة المُثبَتة في عدد الأدوات الحجرية القياسية في العصر الحجري القديم الأعلى عن الفاعلية المتنامية في إنتاج الأدوات التي تضمن البقاء وتيسّر العيش. فضلاً عن ذلك حصل المرء على أفضل المواد الخام بشكل هادف ومن مسافات بعيدة. صحيح أن الحجر لا يزال المادة الصناعية الأولى، ولكن المرء راح يستخدم الآن بشكل متزايد عظاماً وقروناً أيضاً لإنتاج أدوات نوعية مثل إبر الخياطة أو الصنّارات أو الحراب. كما تم صنع الشباك وخيوط الصنّارات والعُرى من الألياف النباتية، والتي استُخدِمَت لتوسيع قائمة الطعام لتشمل الأسماك والطيور وغيرها من الحيوانات الصغيرة. وقد تم تحقيق متانة وثبات أفضل في الأسلحة والأجهزة متعدّدة الأجزاء عن طريق استخدام مادة لاصقة، حيث تم لصق النصول والرؤوس في الأجسام الخشبية من الآن فصاعداً بزفت البتولا بعد تسخينه. كما تبيّن التماثيل الفخّارية أن المرء لم يستخدم النار لتوليد

الحرارة أو لتحضير الطعام أو لحفظه وحسب، وإنما كان على دراية مسبقاً بتأثير درجات الحرارة على المواد كالصلصال أو الطين أو الزفت أيضاً. وهذا لا يشترط معارف موافقة وحسب، وإنما يسمح باستنتاج وجود خبرات ذات صلة، وتوافر استعداد للتجريب، وهذه سمة أساسية للإنسان الحديث ولكلّ تقدّم يتم إحرازه.

الحسّ الجمالي وأشكال التعبير الفنّي

ما من شك في أن من يحقّق مثل هذا التقدّم ويلبّي أهم الحاجات الأساسية لضمان الوجود، يكسب في بعض الأحيان على الأقل قليلاً من الوقت وراحة البال ويحرّر عقله من أجل جوانب ثقافية أخرى. هكذا تبدو حاجة *الإنسان العاقل* للتزيّن حاجة حديثة. فقد ارتدى قلادات اللؤلؤ وزينة الملابس ومعلّقات أخرى مصنوعة من مواد مختلفة (أصداف وقواقع وشظايا بيض النعام.. إلخ). وربما استخدم الأصبغة، لا سيما قطع المغرة، للرسم على الجسد أيضاً، على أن هذا الأمر لا يمكن إثباته على وجه اليقين. ولكنه يشهد في كلّ الأحوال على نزوع الإنسان المتنامي إلى عيْش حسّه الجمالي وإمكاناته الموافقة. ولم يعدْ هذا يتجلّى في إنتاج مصنوعات الصوّان الجميلة والمتناسقة والمنمَّقة وحسب، وإنما في تعامل الإنسان مع نفسه بشكل مباشر أيضاً. فقد شكّل صورته الخاصة به على نحو مختلف، الأمر الذي اشترط منه بدوره أن يفكّر في نفسه. من الواضح أن هذا التفكير في النفس كان قد أفضى سلفاً عند إنسان نياندرتال في العصر الحجري القديم الأوسط إلى التفكير في الموت وحتى في الزمن من بعده. غير أن الإنسان الحديث في العصر الحجري القديم الأعلى كان أول من وضع مرفقات مع المتوفّين في قبورهم. هل كان يفكّر عندها في حياة بعد الموت أم كان الأمر مجرد احترام المِلْكية الشخصية للمتوفّين؟ بصرف النظر عن الإجابة الصحيحة، يتكشّف بذلك بعْد جديد للفكر والإحساس البشريين.

التواصل بالصور والرموز

عندما قام الإنسان بخطواته الأولى على طريق الفنّ - معيار حاسم آخر لحداثته الثقافية - سرعان ما بحث لنفسه عن مجالات عمل جديدة كلياً لكي يعيش مهاراته. فجرّب كلّ شيء: تماثيل بشرية وحيوانية صغيرة، رسوم ونقوش على الجدران الصخرية أو على الحجارة والألواح، وذلك في وضعيات ووقفات مختلفة وأثناء العمل أيضاً، تارةً بشكل واقعي ونابض بالحياة، وتارةً بشكل هندسي تجريدي. وكان كلّ نوع من هذا التشكيل الفنّي الواعي يعني نقطة تحوّل عميقة للغاية

في سيرورة الإنسان الثقافية. أيّاً يكن فالفنُّ فقد كان ولا يزال تعبيراً وتواصلاً في آن. وقد أنجز *الإنسان العاقل*، مثله مثلنا، صوراً ورموزاً لكي يتم فهمها وتنقل رسائل. على أن الفنّ كان له في ذلك الوقت، كما هو اليوم، وظيفة اجتماعية بالغة الأهمية أيضاً. تعكس الصور الصخرية، بتجسيداتها الدينمية النابضة بالحياة وقوة التعبير، مجتمعاً متغيّراً بشكل جذري. فمع شواهد فنّ العصر الجليدي أصبح الإنسان حديثاً بالمعنى الثقافي، ذلك أنه أتمّ الخطوة الحاسمة نحو الفنّ. وبات الأمر من الآن فصاعداً يتعلق أكثر فأكثر بمقولات ومضامين ووسائل تصوير وأساليب مختلفة.

لا يمكن الإجابة بشكل مقنع حتى يومنا هذا عن السؤال عن سبب عدم إمكانية العثور على «المنتجات المتميّزة» لفنّ العصر الجليدي، سواء في الرسم أم في النحت، إلّا في أجزاء معينة من أوروبا، بينما تغيب في القارات الأخرى أو تظلّ مقصورة على بدايات بدائية على أية حال. صحيح أنه يتم العثور على التماثيل الصغيرة المصنوعة من مواد مختلفة في العصر الحجري القديم الأعلى، سواء أكانت لحيوانات أم لبشر، في مناطق تمتد من المحيط الأطلسي حتى سيبيريا، إلّا أن رسوم الكهوف يبدو أنها تظلّ مقصورة بشدة على غرب أوروبا، على الرغم من وجود أدلّة متفرّقة في جنوب أوروبا وفي جبال الأورال وإلى الشرق منها أيضاً. أما في المناطق الخالية من الكهوف، كما هي الحال في أجزاء معينة من وسط أوروبا، فتمثّل النقوش على الألواح الحجرية فنّاً مشابهاً تماماً. والحق أن مثل هذه الإثباتات لا تبدو شحيحة ولا تعطي أيّ صورة واضحة إلّا خارج نطاق أوروبا أو بالأحرى أوراسيا، ذلك أن ما نراه لا يزال في الوقت الحاضر مختلفاً للغاية في الأسلوب والتنفيذ والمضمون.

الفنّ التشكيلي والموسيقا يبدأان معاً

تعبّر الصور من لاسكو وألتاميرا عن أن الفنّ يقوم بالتأكيد على حوار مكثّف للغاية مع البيئة المحيطة بالإنسان، أي مجاله الحيوي وبيئته المعيشية في كلّ تنوّعها. ولكن هل كان هذا الحوار أقلّ كثافةً في الأماكن الأخرى؟ هل كان أقلّ تأثيراً وفعّاليةً لمجرد عدم عثورنا فيها على صور حية وواقعية مماثلة؟ أم أننا أمام نوعية خاصة تماماً من التواصل، لم تتحقّقْ إلّا في أجزاء معينة من أوروبا في أواخر العصر الحجري القديم الأعلى؟ يلفت النظر أنه حيث نتوافر على شواهد، على فنّ العصر الجليدي المتميّز، نصادف آلات موسيقية مبكّرة أيضاً (نايات) عادةً. لم يقتصر الإبداع البشري إذن حتى عند *الإنسان العاقل* في العصر الحجري القديم الأعلى على مجال واحد فقط من مجالات الإنجاز الفنّي. فعزف الموسيقا شكل خاص من أشكال التواصل ضمن المجتمع. كما يميل

المرء إلى إرفاقه بعملية القصّ. يُحيل ارتباط وجود الآلات الموسيقية والأشياء الفنّية في الموقع نفسه إلى علاقة داخلية تبعث على التفكير في تنفيذ طقوس واحتفالات تعبّدية، يبدو أنها لعبت دوراً هاماً بالفعل في حياة الإنسان الاجتماعية في العصر الحجري القديم الأعلى. ويُفترَض أن تبني على ذلك التطوّراتُ اللاحقة في العصر ما بعد الجليدي المبكّر، والتي سوف نأتي عليها بمزيد من التفصيل. مهما كانت هذه الطقوس، فهي أفعال تقليدية كان يتم أداؤها، وكانت تجارب الجماعة وربما تجارب أسلافها يُعاد إحياؤها في نطاق هذه التقاليد.

الإبداع البشري واللغة

حقّق *الإنسان العاقل* بالموسيقا والفنّ التشكيلي والاختراعات التقنية وتقنيات الصيد المتمايزة تنظيمياً إمكانات حداثته البيولوجية ـ التشريحية في حداثته الثقافية المعاشة. والحق أنه لا يمكن تصوّر كلّ هذه التطوّرات من دون لغة متمايزة، لا يمكن أن يولد الإبداع البشري من دون لغة. ولكن اللغة بدورها تشترط اكتمال جهاز التصويت، بوصفه أساساً تشريحياً، وحدوث تغيّرات موافقة في بنية الدماغ البشري. صحيح أنه يجوز لنا أن نفترض وجود أشكال مبكّرة من التفاهم اللغوي عند *الإنسان المنتصب* وإنسان نياندرتال أيضاً، ولكن المهارة اللغوية عند *الإنسان العاقل* في العصر الحجري القديم الأعلى لا بد أنها بلغت مستوى لا يكاد يمكن تفريقه من حيث المبدأ عن الإنسان الحالي، وذلك بناءً على التعقيد الأعلى بكثير لعالمه التقني الفنّي والاجتماعي وحتى المتسامي.

III من المعسكر إلى المدينة المبكّرة في الشرق الأوسط



«ربّة الحيوانات» من تشاتال هويوك، تركيا

1
صيّادو وجامعو شرق المتوسط المتخصّصون بعد نهاية العصر الجليدي

تُعرَف نهاية العصر الجليدي في الشرق الأوسط بما فوق العصر الحجري القديم. وقد حدثت خلال هذه الفترة تغيّرات بيئية طبيعية تسبّبت في التحوّل الجيولوجي والثقافي من العصر الجليدي إلى العصر ما بعد الجليدي أو العصر الحالي.

مع حلول نهاية العصر الجليدي بدأت كتل كبيرة من الجليد في الغطاء القطبي بالذوبان، مما أدى إلى ارتفاع منسوب البحار على مستوى العالم وغيّر المجال الحيوي البشري من نواح عدة بشكل دائم. غرقت بيرنجيا، الجسر البرّي بين سيبيريا وألاسكا، في البحر ثانيةً، وفي الوقت نفسه نشأ الخليج العربي غرب هرمز، حيث غمرت المياه اليابسة كذلك. وأدت هذه الزيادة الهائلة في سطح المياه إلى تبخّر أشد وبالتالي إلى هطول كميات أكبر من الأمطار. إذن، فقد أصبح المناخ أشد دفئاً ورطوبةً ابتداءً من 9600 قبل الميلاد على أبعد تقدير، مما شجّع على تطوّر عالم الحيوان والنبات وكان له تأثير مناسب على الإنسان أيضاً. وتحوّلت تندرا العصر الجليدي الشاسعة في أوراسيا إلى مناطق غابات بشكل دائم.

التغيّات المناخية في الشرق الأوسط

أدت الهطولات المطرية الغزيرة عند أطراف الأراضي المنخفضة، بخاصة في تلال طوروس وزاغروس، مع بداية العصر ما بعد الجليدي إلى نشوء مروج الحبوب البرّية. ارتفعت درجات الحرارة، وأضيفت إليها أمطار شتوية غزيرة، وكانت النتيجة غطاء نباتي كثيف على ضفاف نهري دجلة والفرات. وباتت الأراضي القاحلة سابقاً تمدّ بوفرة من الغذاء الآن. وامتدّت في

الوديان غابات فيضية عاشت فيها ثيران الأرخُص والأيائل والخنازير البرّية، ونشأت في المناطق كثيرة التلال المحيطة بجبال طوروس وزاغروس أراضٍ نجْدية شبيهة بالسافانا تضمّ غزلاناً وحميراً برّية. إذن فقد وجد البشر، الذين كانوا لا يزالون يعيشون هناك حياة الصيد والجمع في ذلك الوقت، وفرة من فرائس الصيد. علاوة على تزايد التنوّع في النباتات الصالحة للأكل في محيطهم: اللوز البرّي والفستق الحلبي والمكسّرات والبازلاء والعدس والحمّص، والتي كانت تُجمَع في مواقع ملائمة، حتى وإن لم تكنْ أشكالها البرّية تضاهي في غلّتها الأنواع المزروعة فيما بعد. وقد مكّنت هذه الموارد الوفيرة في بلاد ما بين النهرين العليا الصيّادين والجامعين، الذين كانوا قد حسّنوا استراتيجيات الاستحواذ بمرور مئات وآلاف السنين، من الإقامة في مكان واحد زمناً أطول أيضاً. وكانت النتيجة تراجعاً في حركة وتنقّل الصيّادين والجامعين وانخفاضاً واضحاً في مناطق التجوّل. وكانت هذه بمثابة خطوات حاسمة نحو استقرار الإنسان. وقد قابل هذه الأوضاع شبه <الفردوسية> بطريقة خاصة ما يُسمّى الهلال الخصيب، الذي كان يحيط بالمناطق الصحراوية في شبه الجزيرة العربية من الشمال على شكل نصف دائرة ويُعدّ منطقة نشأة الحياة الريفية.

صيّادو وجامعو نطوفيا

بين 12000 و9500 قبل الميلاد كانت ثقافة نطوفيا ما فوق العصر الحجري منتشرة على امتداد ساحل شرق المتوسط والمناطق المجاورة، والتي تُعدّ بحق نقطة تحوّل في عصور ما قبل التاريخ في الشرق الأوسط. تزامنت نطوفيا إلى حد كبير مع آخر مرحلة دافئة خلال الفترة الباردة الأخيرة، والتي جلبت مناخاً دافئاً ورطباً إلى الشرق الأوسط وساعدت في نشوء ظروف معيشية واقتصادية وثقافية جديدة. امتدّت نطوفيا من شمال سيناء عبر فلسطين والأردن إلى لبنان وسوريا، حتى إنها وصلت إلى الفرات في الشمال الشرقي. كان المناخ قد مكّن الآن من استيطان حتى مناطق كأطراف الصحراء العربية السورية على سبيل المثال، التي لم يسبقْ أن قصدها الإنسان بشكل مستدام، بمستوطناتها وبنائها المبكّر للمساكن وأدواتها المصنوعة من الصوّان والحجر الصخري والعظام وغيرها من المواد، وببقايا طعامها النباتي والحيواني، حتى وإن لم يكنْ يتم الحصول بعد على هذا الأخير عن طريق تربية الأنواع البرّية المدجَّنة، وبفنّها التشكيلي وقبورها ذات المرفقات المختلفة، تبدي نطوفيا سلفاً سمات بنيوية جوهرية مماثلة لما نصادفه في مجتمعات العصر الحجري الحديث المكتمل اللاحق (أي في الفترة التي تلت استقرار الإنسان). بالتالي كان الإنسان في نطوفيا قد قام بخطوات حاسمة بعيداً عن عادات الحياة في العصر الحجري القديم باتجاه الأشكال الجديدة من البقاء والعيش المشترك.

نحن نرى في أبناء نطوفيا صيّادين وجامعين بصفة عامة كشفوا عن نزوع واضح سلفاً إلى العيش باستقرار مدة أطول. إلى جانب الكهوف والملاذات الصخرية والبقايا السكنية تميّز الأبحاث مستوطنات الأرض المفتوحة على وجه الخصوص. من جهة أولى تم العثور بينها على معسكرات قاعدية دائمة، ولكن ربما لم يتم استيطانها سوى في الشتاء، وذلك في مناطق مكوّنة من غابات البلّوط والفستق الحلبي وفي أراضٍ عشبية مثمرة. ومن جهة ثانية قصد الناس في أوقات معينة ما يُسمّى معسكرات محيطية في الجبال العالية أو على أطراف الصحراء العربية السورية. وقاموا انطلاقاً من هذه المعسكرات برحلات صيد خلال أشهر الصيف بصفة خاصة. والحق أن أعمق طبقات تلك المستوطنة، التي يُفترَض أن تجد طريقها بعد ذلك بكثير إلى السجلّات المكتوبة بوصفها أريحا التاريخية (تل السلطان)، عبارة عن واحد من أقدم مواقع الأرض المفتوحة في نطوفيا. وسرعان ما تراكب فوق هذه المرحلة الثقافية هناك العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري وفيما بعد العصر الحجري الفخاري. قد تكون مواقع نطوفيا متفاوتة في الحجم، ولكنها بلغت مساحة تصل إلى 1000 متر مربّع على أية حال. وقد عُثِرَ في مثل هذه المواقع الاستيطانية على أكواخ نصف دائرية إلى بيضوية، كان بعضها غارقاً في الأرض بشكل خفيف، حيث انتصب البناء المشيَّد من الطين المدكوك على نوع من الأساسات المكوّنة من الأحجار. وقد دعمت القوائم الخشبية هيكل السقف، وكانت الأرضية في الداخل ممهَّدة بالأقدام وفي وسطها موقد كبير. وتم العثور بين الحين والآخر على آثار حاويات على شكل حفر مرصوفة بالحجارة استُخدِمَت للتخزين، غير أنه لم يبقَ محفوظاً سوى القليل من هذه المؤشّرات من نطوفيا.

شكل جمع الحبوب البرّية، إضافة إلى الصيد، جزءاً هاماً من عملية الحصول على الغذاء في نطوفيا. ويجوز لنا أن نرى في ذلك حقاً مرحلة حاسمة تسبق تدجين النباتات؛ فما إن تجاوز إنسان نطوفيا هذه المرحلة حتى أقبل على زراعة الحبوب مباشرةً. تُعدّ الملاحظة التي مفادها أن زراعة الحبوب البرّية تمت في تل أبو هريرة السوري على نهر الفرات نحو 11000 قبل الميلاد، ولكن لم يكنْ قد تم تدجينها بعد، ذات أهمية كبيرة في هذا السياق. وكان الحصاد يتم بوساطة مناجل صوّانية. تقدّم عظام الحيوانات معلومات عن اللحوم بوصفها جزءاً من الغذاء. وكان معظمها مصدره من الغزلان، حيث يلفت النظر أن المرء كان يفضّل قتل الحيوانات الفتية. تثبت رؤوس السهام الحجرية أن صيّادي نطوفيا كانوا يتوافرون سلفاً على القوس والسهم؛ كما أنهم لم يكونوا قادرين

على إرداء حيوانات الصيد السريعة هذه إلّا بهذه الطريقة. إلى جانب قاذف الرماح المستخدَم مسبقاً في العصر الحجري القديم الأعلى كان القوس والسهم الاختراع الهام الثاني للإنسان الحديث، والذي أحدث ثورةً تقريباً في مهارات الصيد لديه. على أن صيّادي نطوفيا لم يستهدفوا الغزلان وحسب، بل ركّزوا في صيدهم، فضلاً عن ذلك، على البقر البرّي والماعز البرّي والأيَّل الأحمر والأيَّل الأسمر والريم والخنزير البرّي والحمار البرّي والحصان البرّي، بالتالي على أنواع تم تدجين جزء كبير منها فيما بعد. إلى ذلك تم صيد الثعلب والقطة والغُرَيْر والنمس، إنما ليس طلباً للحمها، وإنما رغبة في فرائها. قياساً إلى الحقب السابقة ارتفعت نسبة الحيوانات الصغيرة في طيف الفرائس بشكل واضح كالسلاحف والأرانب والطيور، مثل اللقلق والبطّ والحجل.

طقوس الموتى في نطوفيا

لا شك في أن الصيد منح إنسان نطوفيا خبرة خاصة بالموت، وإن كانت يومية. أما الخبرات الخاصة بموت أفراد نوعه فكانت من نوع آخر. كثيراً ما تم توثيق حالات دفن من هذه الحقبة. حيث تم وضع الموتى تحت التراب بالقرب من مواقع الاستيطان أو حتى في مساكن مهجورة، إنما ليس تحت أرضيات أكواخ لا تزال مأهولة. نعرف هذا من العصر الحجري الحديث الذي أعقب نطوفيا. كانت حفر القبور في نطوفيا غارقة في الأرض الصخرية عادةً ومجهَّزة بقطع حلي وأدوات وبقايا حيوانية ومغطّاة بألواح حجرية. هناك قبور شُغِلَت مرة واحدة فقط وأخرى عدة مرات. أما توسيد الموتى وتوجيههم نحو جهة معينة من الجهات الأربع فلم يتبعْ قاعدة ثابتة. تجدر بالملاحظة حالات دفن البشر مع الكلاب، وتؤكّد عادة الدفن هذه مرة أخرى أهمية الكلب بوصفه رفيقاً للإنسان. فقد كان أول حيوان دجّنه الإنسان، حيث تم هذا التدجين في العصر الحجري القديم الأعلى سلفاً، كما سبق أن ذكرنا. ولا ندري لماذا تمت إزالة رؤوس المتوفّين قبل الدفن في بعض الأحيان.

تم إثبات أن نسبة قبور الأطفال تشكّل ثلث حالات الدفن الموثَّقة، وهي نسبة عالية بشكل لافت. يشير هذا إلى ارتفاع معدّل وفيات الأطفال من جهة، ولكنه يبيّن أن الأطفال الموتى لا بد أنهم حَظُوا بمعاملة لا تختلف عن معاملة الراشدين من حيث المبدأ من جهة أخرى، وهذا ما لوحِظَ في العصر الحجري القديم الأعلى سلفاً. إذن فقد تم دفن الجميع وفقاً لقواعد، وهي عادة تم التخلّي عنها في الحقب الأحدث بشكل متفاوت. لم يتم حتى الآن إثبات وجود فوارق في معاملة الموتى وفي تجهيزهم بالمرفقات يمكن تفسيرها اجتماعياً بشكل صريح وواضح. مع ذلك تبرز بين الآونة والأخرى مكتشفات وموجودات خاصة تبيّن كيف تميّز بعض الأفراد عن باقي مجموعتهم بطريقة

معينة. هكذا ظهر في كهف هيلازون تشتيت في شمال فلسطين قبل سنوات قليلة قبر غير عادي على الإطلاق: امرأة عمرها 45 سنة لا يتجاوز طولها 1.50 متر، من الواضح أنها كانت عاجزة عن المشي منذ ولادتها، تم دفنها هناك في حفرة منحوتة في الصخر في وضعية الجلوس والساقان معطوفتان والظهر متّكئ على جدار قبرها. ليست هذه الوضعية فقط غير مألوفة، وإنما تجهيزها بالمرفقات أيضاً؛ وُضِعَ مع المرأة في القبر 50 من دروع السلاحف وبقايا نمس وهيكل عظمي لفهد وجناحا نسر وعظام حيوانية أخرى، إضافة إلى قدم بشرية وقِدْر من البازلت، ثم تم ملء القبر بالحجارة وإغلاقه بها. وقد فسّر المنقّبون هذه الحال، بإيحاء من هذه المرفقات الحيوانية، بأن المتوفّاة كانت شاماناً. سواء أردنا تبنّي هذا التفسير مع مستوى معرفتنا الحالي عن ثقافة نطوفيا، أم لم نردْ، فإن هذا الاكتشاف يثبت أنه لا بد أنه وُجِدَ في ذلك الوقت أفراد لعبوا دوراً خاصاً داخل المجتمع الذي كانوا ينتمون إليه، ويبدو أنه دور يرتبط بلا شك بقدرات أو مهمات معينة كان يؤديها الشخص المعني.

تتكوّن ثقافة نطوفيا المادية من أدوات لا حصر لها مصنوعة من الصوّان والعظام والقرون، كما تزداد أهمية الأشياء الصخرية باستمرار. لا بد أن نخصّ بالذكر المناجل المصنوعة من العظام والقرون والصوّان، إضافة إلى الهاوِن والمدقّات والآنية والقدور المصنوعة من الحجر الجيري أو الرملي، والتي يُفترَض أنها أحدثت ثورة في إعداد وتحضير الطعام النباتي. يزداد إنتاج الحلي بشكل كبير، وإلى جانب المعلّقات وقلادات اللؤلؤ المصنوعة من أسنان الحيوانات والعظام وقشور الرخويات وما شابه من منتجات حيوانية تم العثور على لآلئ الملْكيت لأول مرة.

الفنّ التشكيلي في نطوفيا

إلى ذلك أنتجت نطوفيا لأول مرة في الشرق الأوسط فنّاً تشكيلياً كان لا يزال مفقوداً هناك في العصر الحجري القديم الأعلى بخلاف الحال في الكثير من أجزاء أوراسيا. حيث تم صنع تماثيل حيوانية أو رؤوس حيوانية في الغالب من العظام والقرون والحجر؛ غالباً ما يتم العثور عليها ارتباطاً بالمعدّات والأدوات، التي كانت تزيّن رؤوسها أو مقابضها. كما تُصادَف تصاوير بشرية كذلك، وإن كانت أكثر ندرة. مع أن تطوّر العصر الحجري القديم الأعلى في الشرق الأوسط يبدي الكثير جداً من أوجه التطابق مع هذه المرحلة الثقافية في أوروبا، إلّا أنه اختلف من نواح أساسية عنه في القارة الأوروبية، لأنه ظلّ خالياً من الصور والفنّ تقريباً. ولم تتبدّلْ هذه الحال إلّا مع نطوفيا، التي أنجبت أقدم المنتجات الفنّية التشكيلية في الشرق الأوسط.

آخر موجة باردة في عهد نطوفيا

في أعقاب آخر مرحلة دافئة في الفترة الباردة الأخيرة، التي ساعد مناخها الدافئ والرطب في الشرق الأوسط في نشوء نطوفيا وتطوّرها، حدثت موجة برد قارس بين 11000 و10200 سنة مضت، وذلك في أواخر عهد نطوفيا بعد حوالي 2000 سنة. وحلّ آخر تبريد أقصى في غضون عقد واحد من الزمن أدى إلى نشوء الأنهار الجليدية ثانيةً بارتفاعات أعلى في نصف الكرة الشمالي. ولا تزال أسباب ذلك مثار جدل حتى اليوم، غير أن ثمة إجماع على أن هذه المرحلة يمكن أن تُعدّ الجزء الأخير من فترة فيستولا الباردة وبالتالي من العصر الجليدي. ولا بد أن تأثير هذا التغيّر المناخي كان مدمّراً على سكّان نطوفيا في آخر عهدها، حيث كانت في طريقها إلى إيجاد الحياة الريفية. فقد تراجعت الحبوب البرّية وغيرها من النباتات الصالحة للأكل، التي كان اعتماد أبناء نطوفيا عليها قد تزايد باستمرار، وبشكل كبير في هذه الفترة الأشد برودةً وجفافاً. وطوّر أصحاب الثقافة النطوفية استراتيجيات مختلفة للاستجابة لهذا التغيّر المفاجئ والجذري في الظروف المعيشية، سواء بتحسين تقنيات الصيد أم بزيادة الحركة والتنقّل من جديد أو بالهروب إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، حيث استغلّوا الموارد الغذائية المائية بشكل مشدَّد. ويغلب الظنّ أن الخطوة الأخيرة نحو الزراعة الهادفة للنباتات البرّية وتدجينها النهائي كانا أيضاً نتيجة لهذه الموجة الباردة الأخيرة.

تلا ذلك قبل نحو 10200 سنة مضت ما يُعرَف بالبريبوريال أو الفترة ما قبل الدفء بوصفها الفترة الأولى من العصر ما بعد الجليدي أو العصر الحالي. تثبت تحاليل حبوب اللقاح أن المناخ في الشرق الأوسط أصبح بعد ذلك أشدّ دفئاً ورطوبةً بشكل ملحوظ ولمدة طويلة. إذا كان الاستقرار والإنتاج الزراعي الهادف للمواد الغذائية، الذي انصب على النباتات المُغِلّة على وجه الخصوص، مجرد ميل أو اتجاه جديد في نطوفيا، فقد تحوّل في العصر الحجري الحديث التالي إلى استراتيجية حقيقية. تُعدّ هذه العملية، التي بدأت مع نطوفيا، ذات أهمية جوهرية في التطوّر الثقافي للبشرية.

2
الخطوات الأولى نحو الحياة الريفية
في الهلال الخصيب

مع نهاية العصر الجليدي أصبح المناخ أكثر دفئاً بشكل واضح وازدادت الهطولات المطرية أيضاً. واستقرّت هذه الظروف الطبيعية العامة ابتداءً من 9500 قبل الميلاد بشكل دائم ووفّرت الشرط اللازم لنشوء نمط ريفي من الحياة والاقتصاد قائم على إنتاج المواد الغذائية. على أن هذه الخطوة لم تحدثْ بشكل فجائي، أي أنه لم تظهرْ في الحال جميع ظواهر ما تُسمّى حزمة العصر الحجري الحديث، وهي الاستقرار الواضح والجلي وتدجين النباتات والحيوانات وإنتاج الفخار. بل إن هذه السمات المختلفة جداً للظروف الثقافية في العصر الحجري الحديث المكتمل لم تظهرْ إلّا على التوالي عن طريق التدريب والمران. فكان لكلّ منها تاريخه الخاص، الذي كان له مسار متباين جداً من بعض النواحي في الفضاءات الثقافية المختلفة في العالم.

العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري في الهلال الخصيب

حلّ محلّ نطوفيا في الشرق الأوسط، والتي كان سكّانها قد تحرّروا سلفاً من العادات الحياتية للعصر الحجري القديم بشكل كامل، العصرُ الحجري الحديث ما قبل الفخاري (Pre Pottery Neolithic, PPN). تُؤرَّخ هذه المرحلة بمساعدة بيانات الكربون المشعّ في الفترة ما بين 9500 و6200 قبل الميلاد، وقد تمت دراستها على مساحة واسعة لأول مرة في تل السلطان، أو أريحا القديمة. كان الأمر الحاسم في حفريات أريحا هو العثور على PPN هناك فوق آثار مستوطنة نطوفيا مباشرةً، مما يعني أنه حلّ محلّها. يمكن تقسيم هذه الفترة إلى جزء أقدم (PPN A) وجزء أحدث (PPN B).

الفترة ما قبل الفخارية الأقدم (PPN A):

المجموعات الإقليمية ل PPN A

امتدّ PPN A من 9500 إلى 8600 قبل الميلاد تقريباً. وعلى غرار نطوفيا السابقة انتشر على امتداد ساحل شرق المتوسط والمناطق الأخرى المجاورة له، ولكنه وصل إلى أجزاء بلاد ما بين النهرين الواقعة اليوم في جنوب شرق تركيا عند أعالي دجلة والفرات. ويمكن تمييز تنويعات إقليمية في نطاق هذا الفضاء الجغرافي الكبير تبعاً لأهم مواقعها: السلطانيان في جنوب شرق المتوسط أو بلاد الشام (نسبةً إلى تل السلطان أو بالأحرى أريحا)، والمريبطيان (نسبةً إلى تل مريبط)، والأسوديان (نسبة إلى تل أسود في حوض دمشق)، وأخيراً مواقع بلاد ما بين النهرين العليا حول تشايونو وغوبكلي تيبي وغيرها. على الرغم من بعض الفوارق والخصوصيات هناك أوجه تطابق أساسية بلا شك بين مجموعات PPN A هذه من ناحية أشكال الاستيطان والعمارة والثقافة المادية ونمط الاقتصاد. هكذا تقع مواقع الأسوديان على سبيل المثال خارج نطاق منطقة انتشار الحبوب البرّية، ومع ذلك تمدّنا بقايا الحبوب العائدة إلى PPN A في هذا الإقليم أيضاً بالبرهان على زراعة مبكّرة جداً.

كانت مستوطنات PPN A أكبر من مستوطنات نطوفيا السابقة بشكل واضح. وقد تكوّنت في الغالب من منازل دائرية صغيرة ذات أساسات من الحجر وهيكل من الآجرّ الطيني المجفَّف بالهواء. كان داخل المنزل غارقاً في الأرض قليلاً في بعض الأحيان. حيث تم لأول مرة مدّ أرضيات حصوية. وقد تم العثور في الداخل على مواقد في ترتيب منسَّق وعلى حاويات تخزين مجهَّزة بُنِيَت من ألواح حجرية أو من الآجرّ الطيني. كما وُجِدَت خارج المنازل مخازن للطعام النباتي. كان الناس قد صمّموا ابتداءً من 9500 قبل الميلاد أرضيات معلَّقة من أجل هذه النباتات بغية حمايتها من الحشرات والهوام الضارة، فضلاً عن أن التهوية المحسَّنة من خلال هذا التصميم حفظت المخزونات من التعفّن.

مباني تخزين

كما يسمح وجود مباني تخزين مستقلّة باستنتاجات معينة فيما يخصّ التنظيم الاجتماعي في هذه القرى المبكّرة: في حين كان يسكن كلاً من الأكواخ الدائرية متّحدٌ أسري واحد، فإن الفصل

الواضح للمخازن يشير إلى أنها مبانٍ مشتركة، وبالتالي كان محتواها أيضاً مِلْكية مشتركة. قد تكون بداية الزراعة إذن مهمة تولّاها التجمّع الاستيطاني بكامله بدايةً، حيث تم تبادل الخبرات المكتسَبة في زراعة النباتات وتبادل المحاصيل المنتَجة والاستفادة الجماعية منها. ولم يحدثْ إلّا في وقت لاحق تطوّر تم في سياقه نقل مثل هذه المخازن إلى المنازل. فنشأت على هذا النحو حجرات تخزين حقيقية تقع في الطابق الأرضي غالباً في المنازل ذات الطابقين. تشهد هذه الحقيقة على تغيّر جوهري في علاقات المِلْكية، ذلك أن المِلْكية المشتركة للبذور والمحاصيل الحقلية انتقلت في وقت من الأوقات إلى مسؤولية الأسر كلّ على حدة. هل تقلّصت المِلْكية الجماعية في ذلك الوقت لصالح المِلْكية الخاصة الناشئة؟

يمكن القول عموماً: إن PPN A كان فترة اقتصاد مختلط مارسه المزارعون الأوائل جنباً إلى جنب مع الصيّادين والجامعين. وقد تم إثبات تدجين الحبوب البرّية في PPN A؛ حيث تم العثور على حبوب متفحّمة من الأيكورن والشعير والإيمر في العديد من منازل مستوطنات PPN A، وينطبق الشيء نفسه على البقوليات.

من بين الأدوات الحجرية التي لا تُحصى تلفت النظر في إطار الصناعة الصوّانية في فترة PPN A نصولُ المناجل في المقام الأول. وهي تدخل على كلّ حال في عملية الحصاد، التي يتم فيها قطع السنابل فقط. فضلاً عن أن البلطات الحجرية المصقولة، التي تُصادَف في PNN A لأول مرة، وتظهر في أماكن أخرى بوصفها أدلّة قاطعة على الظروف الثقافية للعصر الحجري الحديث المكتمل، غالباً ما يتم تأويلها على أنها أدوات كانت تُستخدَم في الزراعة في ذلك الوقت سلفاً. بيد أن هذا التفسير غير مؤكَّد في النهاية بعد. من المنطقي أن الفخار لا يزال غائباً في المرحلة الثقافية ما قبل الفخارية A. مع ذلك يتم العثور المرة تلو الأخرى على أوانٍ مصنوعة من الحجر، وهي في الغالب آنية أو قدور استُخدِمَت في تحضير الطعام.

أسلحة الصيد

صحيح أنه تم توثيق رؤوس سهام صوّانية منذ فترة نطوفيا، إلّا أنه يُفترَض أنها كانت لا تزال أجزاء من أسلحة ضامنة للبقاء حتى بالنسبة لصيّادي PPN A، على أن الثدييات الكبيرة الأبطأ حركةً في العصر الحجري القديم كانت قد انقرضت منذ زمن طويل، بينما لا يكاد بالإمكان إرداء حيوانات الصيد الأخرى الأسرع بكثير، مثل الغزلان والأيائل، بأسلحة العصر الحجري

القديم. كان الإمداد بالبروتين عند سكّان PPN A لا يزال يعتمد بالتأكيد على الصيد بشكل أساسي، لأنه لم يتم إثبات وجود حيوانات منزلية في ذلك الوقت بعد. صحيح أن الكلاب المدجَّنة سلفاً في العصر الحجري القديم الأعلى تمثّل استثناءً، ولكن تربيتها لم تتم من أجل الاستهلاك مبدئياً. وكانت تُوكَل لها مهمة خاصة بوصفها مُرافقات للإنسان، لا سيما كمساعِدات في الصيد.

تقدّم طقوس الموتى رؤى هامة فيما يخص ظروف الوعي في نطوفيا. إذا كانت قبور سكّان نطوفيا لا تزال تقع بالقرب من المباني السكنية، أو في الأكواخ المهجورة، فإن العلاقة بين المتوفّين والأحياء تغدو أوثق ابتداءً من PPN A. ففي أريحا وحدها ظهرت مئات الهياكل العظمية، وجماجم مدفونة بشكل منفصل ، تعود إلى تلك الفترة. كانت قد دُفِنَت تحت أرضيات الأكواخ، التي لا تزال مأهولة، وفي جدرانها، وهي عادةٌ كانت منتشرة في العصر الحجري الحديث المبكّر من الشرق الأوسط حتى جنوب أوروبا.

الفترة ما قبل الفخارية الأحدث (PPN B):

استمرّت المرحلة الأحدث من الفترة ما قبل الفخارية - PPN B - من 8600 تقريباً إلى 6200 قبل الميلاد على أبعد تقدير. لا شك في أن الفوارق بينها وبين PPN A السابقة عديدة وجوهرية، فيما يخصّ مفاعيلها على الظروف المعيشية والاقتصادية. ويبدو واقع الحال كما لو أن الدوافع الحاسمة للابتكارات الأساسية في هذه الفترة لم تعدْ تصدر عن شرق المتوسط كما كانت الحال خلال PPN A، وإنما من أعالي الفرات. واصلت المستوطنات نموّها ويُرجَّح أنها بلغت مساحات حتى 10 هكتارات. واستطاع أن يعيش فيها آلاف الناس، وهي حجوم تتطلّب مزيداً من التأكيد بالطبع. كما أصبحت المباني السكنية نفسها أكبر، ولكنها كانت مستطيلة الشكل ابتداءً من PPN B بالدرجة الأولى وأبدت توزّعاً أشدّ تعقيداً في الغرف في بعض الأحيان. كما حظيت معالجة الأرضيات والجدران بعناية متزايدة. إلى جانب الأرضيات الحصوية أخذ يتزايد طلاء الأرضيات بالجير، فضلاً عن كثرة تمليط الجدران بالجير أيضاً.

يُفترَض بالخبرات المكتسَبة في التعامل مع الجير أن تمثّل خطوة هامة في الطريق نحو اختراع الفخار. وفي حين تم صنع أوعية من الجصّ بالإضافة إلى الآنية الحجرية في أعالي بلاد ما بين النهرين، أنتج المرء في شرق المتوسط ما تُسمّى الآنية البيضاء ابتداءً من 7000 قبل الميلاد تقريباً. تكوّنت مادتها الأساسية من خليط من الجير والرماد الرمادي، والتي شيّدها المرء حول

السلال المضفَّرة من الخارج محوّلاً إياها إلى حاويات بسيطة. وفي عملية الحرق التالية كان اللبّ، الذي لا يزال يدعم كتلة الجير هذه في الداخل بدايةً، يتفحّم، ولكن بصماته تبقى على الوجه الداخلي للوعاء الجيري. لم تعدْ هذه الآنية البيضاء بعيدة كثيراً في الواقع عن الفخار المصنوع من الصلصال، غير أن الفخار الحقيقي لم يُحرَقْ في الشرق الأوسط إلّا بعد نهاية PPN B.

بداية زراعة النباتات في PPN B

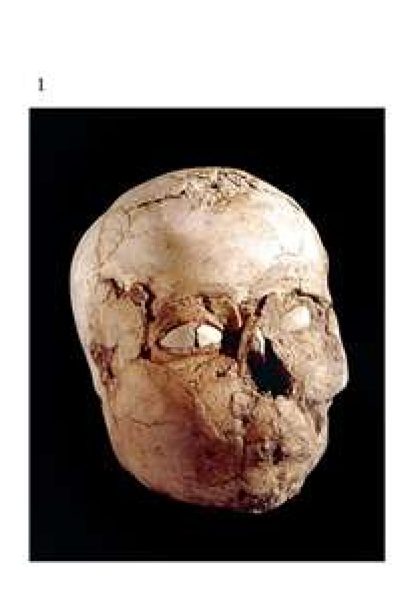
أظهرت زراعة النباتات في فترة PPN B تقدّماً واضحاً قياساً إلى PPN A السابق، فقد تم توثيق أشكال مزروعة من الشعير والأيكورن والإيمر والقمح الصلب والكتان، إضافة إلى البقوليات مثل الفول والفاصولياء والعدس والحمّص. على أن الاختلاف الحاسم عن PPN A يكمن في أن تدجين الحيوانات بدأ في ذلك الوقت، وسرعان ما ظهرت الماعز والأغنام، وبعد ذلك بقليل الأبقار، بوصفها أولى الحيوانات المنزلية. بالتالي أخذ الصيد ينكفئ بشكل متزايد. والحق أنه لا بد من التوقّف لحظة عند هذه الخطوة وإدراك أهميتها. فهي لم تكنْ تعني سوى أن هذا الشكل الأساسي من الحصول على اللحوم أصبح بذلك ببطء، ولكن بصورة ثابتة، نوعاً من الإكمال الغذائي. بالتالي فإن التحوّل الجذري في الأمن الغذائي البشري، أي الخطوة من الاقتصاد الاستحواذي إلى الاقتصاد الإنتاجي، تم في PPN B، وذلك لأول مرة على مستوى العالم. ومن نافلة القول: إن هذا التطوّر، الذي ربما كان الأهم في تاريخ البشرية على الإطلاق، لم يكنْ هاماً بالنسبة للإمداد الغذائي وحسب، وإنما غيّر المجتمع بكامله جذرياً من الداخل.

أريحا: من القرية إلى المدينة

من المهم في هذا السياق أنه ظهرت خلال البحث في العصر الحجري الحديث، ما قبل الفخاري في كثير من الأماكن، مكتشفات غير عادية تشير إلى تغييرات بعيدة المدى في العيش المشترك في هذه المجتمعات الريفية المبكّرة. ومن الواضح أن العبادة والطقوس لعبت دوراً خاصاً في ذلك. لطالما وُصِفَت بقايا مستوطنة أريحا (تل السلطان) العائدة إلى فترة PPN في السابق بأنها «أقدم مدينة في التاريخ»، وهو تأويل لم يعدْ بالإمكان التمسّك به اليوم. ولكنه يبيّن أنه تطوّرت في هذه المواقع بُنى وهياكل معقّدة تجلّت في التصميم المعماري لهذه الأماكن أيضاً وتتطلّب تفسيراً. ثمة مبنى دائري كبير في أعمق طبقات PPN في أريحا عدّه المرء بداهةً «برجاً»، وجدار ضخم عدّه «حصناً للمدينة». يبيّن هذا مدى قوة تأثير الصورة الواردة في الكتاب المقدس عن الأسوار العظيمة

لأريحا، والتي يُفترَض أنها سقطت تحت أصوات أبواق قوات يوشع بحسب الموروث. والحق أنها عكّرت صفو رؤية الباحثين حتى بعد آلاف السنين. مع ذلك لفت نظرهم في وقت من الأوقات أن مثل هذا التحصين الضخم لا معنى له في هذه المنطقة، التي كانت لا تزال قليلة الكثافة السكّانية للغاية في ذلك الوقت. ضد أيّ أعداء كان موجَّهاً، وممن كان من المفترَض أن يؤمّن الحماية؟

مع ذلك ربما لم يخدم السور إلّا في اتّقاء الفيضانات، وذلك عندما كانت الوديان المجاورة تتحوّل إلى سيول جارفة بسبب الأمطار على سبيل المثال. كان من شأن الكتل المائية والطينية المجترَفة أن تدفن مستوطنة أريحا المبكّرة تحتها بسهولة. ولكن حتى هذا التفسير لا يمكن التحقّق منه إلّا إذا توافرنا على معطيات أكثر دقة حول طوبوغرافية المكان ومحيطه خلال تلك الفترة ما قبل الفخارية. أيّاً يكن تفسير السور المذكور في النهاية، فهو لم يكنْ من عمل عائلة أو عشيرة مفردة بلا شك. وإنما لا بد أنه كان حصيلة جهد جماعي ضخم من قبل من عاشوا في أريحا. ولكن هذا يعني أن مجتمعات الاستيطان قد حشدت وجمعت قواها وطاقاتها. وهكذا توافرت على مهارات وإمكانات لحماية نفسها من التهديدات الطبيعية، التي أحسّت أنها خارقة للطبيعة في قوتها الأساسية. وفي وقت لم يعدْ بإمكان المرء فيه أن يساعد نفسه بنفسه في البرّية المفتوحة عن طريق الصيد والجمع، وإنما كان مرغماً على تخزين المواد الغذائية المنتَجة بعناء، وفي إطار عمليات طويلة في الغالب في مواضع معينة داخل المستوطنات، لعب ضمان الموارد الغذائية دوراً حاسماً في بقاء جميع السكّان. إذا تَلِفَت المخزونات بحريق مدمّر، أو تعرّضت للرطوبة بسبب الأمطار وبدأت بالتعفّن، أو جرفها فيضان، وجد المجتمع الاستيطاني نفسه في خطر وجودي أقصى. من هنا كانت الجهود الجماعية تستحق العناية بنظر جميع أفراد المجتمع.





الشكل 14 : جمجمة معدَّلة من أريحا (1) وتمثال من الجصّ من موقع عين غزال (2)

كما كان ما يُسمّى برج أريحا الواقع على السور يمثّل إنجازاً جماعياً خاصاً، وهو مبنى دائري مع درج يقود إليه، ولكن داخله لم يُستكشَفْ حتى يومنا هذا. كان واضحاً للمنقّبين الأوائل في أريحا أنه إذا كان السور جزءاً من حصن المدينة، فلابد أن البرج المرتبط به كان له وظيفة تحصينية فيما مضى. مع ذلك سبق أن أُشير في مناسبات عدة إلى أن اثني عشر هيكلاً عظمياً كان قد تم إيداعها عند قاعدة الدرج المؤدي إلى البرج، بالإضافة إلى أشياء أخرى، من بينها على سبيل المثال كتلتان حجريتان كبيرتان، فيهما تجاويف في الوسط، تم تفسيرها بأنها قواعد لهياكل ربما كانت أشبه بعمود الطوطم، تشير إلى مجال ديني ـ تعبّدي أكثر منه مجالاً عسكرياً.

عادات الدفن وعبادة الجماجم

كما تدلّل جماجم عديدة، كانت موزَّعة في منطقة مستوطنة أريحا خلال مرحلة PPN B على وجه الخصوص، على وجود ممارسة طقسية خاصة. لا نعلم ما إذا كان بالإمكان ربط هذه

الجماجم بأضاحٍ بشرية أم كانت تُفصَل عن المتوفّين بعد الموت مباشرةً أو تم استخراجها من القبور بعد مدة معينة من الزمن. على أن حقيقة كون الجماجم تم تعديلها بالطين (الشكل 14، 1) وأنه تم وضع أصداف في المحاجر في بعض الأحيان، وأن ناحية الوجنتين والجبين تبدي آثاراً لتلوين، تشير إلى عبادة جماجم صريحة. وإذا كان مبدعو هذه الجماجم المكسوّة بالجصّ يريدون استعادة وجوه المتوفّين، ربما أمكننا أن نرى في ذلك نوعاً من عبادة الأجداد. على أنه سوف يبقى خفياً علينا إلى الأبد أيّ مخيال ديني - روحي يكمن وراء ذلك. ويطرح نفسه السؤال المشروع عمَّا إذا لم يكنْ من المحتمل أن الممارسات التعبّدية الأقدم، التي سبق أن تكوّنت في العصر الحجري القديم الأعلى، استمرّت في هذا الفعل، فليس سوى أنها وُجدت بأشكال جديدة ليس إلّا. وقد رأينا أعلاه أن سكّان هذا الجزء الأخير من العصر الجليدي، الذين يجوز لنا أن ننسب لهم الحداثة الثقافية سلفاً، قدّموا مرتكزات عديدة لتعامل طقسي خاص مع الجماجم. لا شك في أن الوزن اللافت للديني يربط العصر الحجري القديم الأعلى بالعصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري. كان على الإنسان في هاتين الحقبتين أن يفسّر لنفسه الكثير من الأمور الجديدة في بيئته، والتي لم يستطعْ فهمها بعد بشكل عقلاني صرف. وقد سمح التسامي المتعمَّد بهذه الجوانب بدمجها في مسار العالم على شكل أعمال تعبّدية وربما التأثير فيها عن طريق الطقوس.

3

أماكن العبادة والاحتفالات الطقسية بوصفها قوى محرّكة لعصر جديد

عين غزال في الأردن

لم تظلّ الممارسات التعبّدية ما قبل الفخارية في الشرق الأوسط، والتي أصبحت معروفة للعلن لأول مرة من خلال الحفريات في أريحا، مقصورة على أماكن مفردة، وإنما هي معروفة في هذه الأثناء من مواقع أخرى كثيرة في الإقليم. ويصحّ هذا على الجماجم المعدَّلة على وجه الخصوص. فقد عُثِرَ عليها في موقع عين غزال الأردني أيضاً على سبيل المثال، ويمثِّل واحدة من أكبر المستوطنات ما قبل الفخارية في الشرق الأوسط، والتي تفوق في حجمها أريحا بعدة مرات، حيث تمتد على مساحة تُقدَّر بـ 15 هكتاراً. يبدي الموقعان قاسماً مشتركاً آخر، ألا وهو التماثيل البشرية (الشكل 14، 2)، والتماثيل النصفية المصنوعة من الجصّ. وفي حين أننا لا نعرف من أريحا سوى أجزاء من تماثيل، تم العثور في عين غزال على تماثيل كاملة محفوظة كان قد تم إيداعها هناك في حفر مجهَّزة لها خصيصاً. صحيح أن ارتفاعها لا يتجاوز متراً واحداً وبالتالي لا يتعدّى نصف الطول الطبيعي للإنسان سوى بقليل، إلّا أنها تختلف بذلك بشكل واضح عن تماثيل الصلصال الأصغر بكثير، وواسعة الانتشار في العصر الحجري الحديث. تدلّل شواهد الإنجاز التشكيلي المبكّرة هذه على أن مبدعيها قاموا سلفاً بخطوة حاسمة على طريق إنتاج أولى التماثيل البشرية كبيرة الحجم. من الواضح، فضلاً عن ذلك، أن هذه الأشياء لم تولَدْ في سياق فنّي صرف بقدر ما نشأت في سياق ديني ـ تعبّدي، حتى وإن لم يعدْ بالإمكان إعادة بناء مسار هذه الطقوس بصورة أكثر دقةً بمساعدة هذه التحف المكتشفة. لا شك في أن التفكير في بقايا عبادة الأجداد، كما يقترح الباحثون في بعض الأحيان، هو واحد من التفسيرات الممكنة.

تعاقب تشايونو

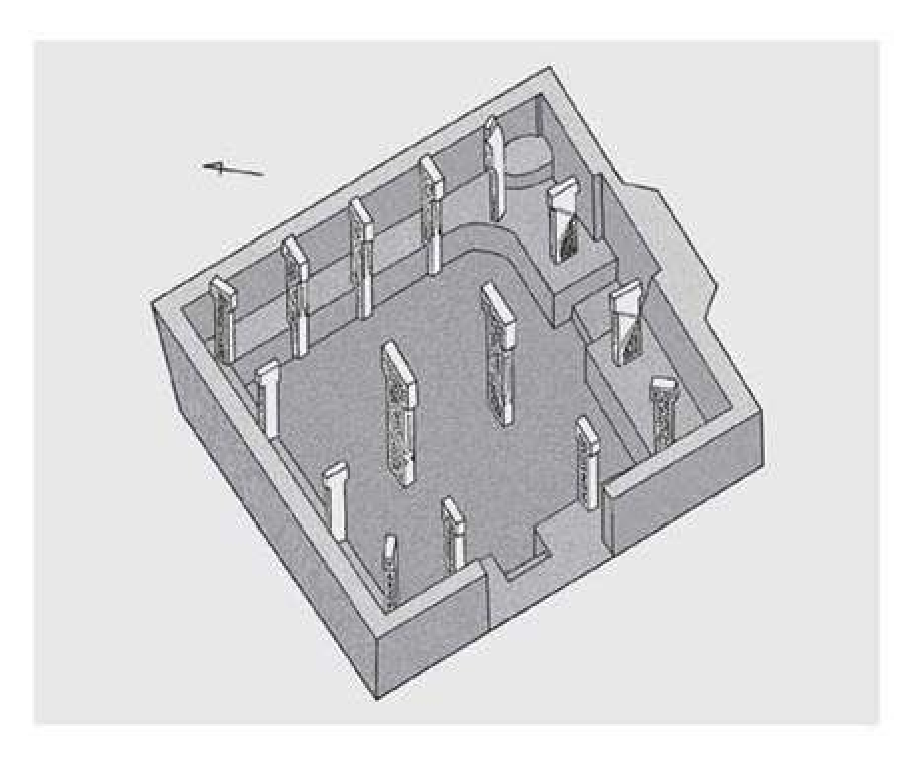
على أن ثمة اكتشافات هامة فيما يخصّ الدور الحاسم للعبادة في الشرق الأوسط ما قبل الفخار تحقّقت في السنوات الأخيرة في بلاد ما بين النهرين على وجه الخصوص، عند أعالي دجلة والفرات، وهي منطقة تقع اليوم في جنوب شرق تركيا. وهي توثّق حدثاً طقسياً في هذه الأماكن. تُعدّ مستوطنة تشايونو بالقرب من مدينة العزيغ من أقدم المواقع التـي تمت دراستها، وتؤكِّد لأول مرة التعاقب الكلاسيكي من المبانـي الدائرية في PNN A إلى المباني المستطيلة في PPN B في جنوب شرق الأناضول أيضاً. وقد ظهرت هناك في PPN B الأحدث ما تُسمّى منازل مخطّط الشوّاية، التي تقوم على هيكل سفلي من الجدران المتوازية المتقاربة. وتحوّلت أخيراً في جزء أحدث من PPN B إلى مبانٍ ذات قنوات تحت الأرضية. كان المغزى والغرض منها في كلا الحالتين يكمنان في ضمان تهوية مثالية داخل المباني، وحماية ما يتم تخزينه هناك من الحشرات والهوام في الوقت نفسه. هكذا أمكن الحفاظ على المخزونات جافة بطريقة تكاد تكون مثالية، وقد سبق أن أوضحنا مدى تعلق مصير المجتمع الاستيطاني بها.

المبنى الحصوي في تشايونو

على أنه كان في تشايونو العديد مما تُسمّى المباني الخاصة، التي كان لها أهمية كبيرة وتشير إلى أعمال عبادة معقّدة وتكمّل بطريقة خاصة الصورة المكتسَبة في أريحا وعين غزال. كانت هذه المباني ذات الصلة بالطقوس مربّعة ومكوَّنة من حجرة واحدة. كان من بينها في تشايونو المبنى الحجري على سبيل المثال، وهو بناء مربّع مفروش بألواح من الحجر الجيري وفي وسطه شاهدتان حجريتان. ثم وفي وقت لاحق، في إطار PPN B، كان هناك ما يُسمّى مبنى الجماجم، حيث عُثِرَ في حجرات صغيرة مغطّاة بالألواح شبيهة بالقبو على عظام، وبشكل خاص على جماجم 450 فرداً على الأقل. وكان في الحجرة الواقعة فوقها لوح حجري أشبه بالمذبح. كان مبنى الجماجم هذا ينتصب منفرداً ومحاطاً بشواهد حجرية عمودية، أكّدت بشكل إضافي على مكانته الخاصة داخل مستوطنة تشايونو. وفي وقت لاحق أيضاً - بالتالي في أحدث مرحلة من PPN B - يتم تأريخ ما يُسمّى المبنى الحصوي، والمسمّى تبعاً لأرضيته. والحق أن هذه التقنية، التي لم تجدْ تطبيقاً لها بعد العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري إلّا في العصر الروماني، توضّح بشكل إضافي المهارة الحرفية العالية والمعارف الواسعة في معالجة بعض المواد الخام خلال فترة PPN B. من غير المؤكَّد حتى اليوم حجم الدور الذي لعبته عمليات الحرق الفنية في ذلك. ويُعتقَد أنه كان هناك في

وسط المبنى، الذي تم فتحه لاحقاً، شاهدتان قائمتان، على غرار الحال في المبنى الحجري سابقاً. وقد تم العثور في الداخل مرة أخرى على لوح حجري أشبه بالمذبح، على غرار ما تم توثيقه في مبنى الجماجم، سوى أن هذا الأخير كان يزيّنه نقش بارز لوجه بشري منمنم بالحجم الطبيعي تقريباً، وهو العمل النحتي التشكيلي الوحيد من القطع الكبير في تشايونو. تجدر بالذكر في هذا السياق الملاحظة التالية: إذا أمكن اعتبار المجال الاستيطاني المنقَّب فيه من تشايونو ممثّلاً للمستوطنة بأكملها، يمكن القول إنه لم يوجدْ سوى مبنى عبادة واحد دوماً في كلّ مرحلة من فترة PPN B.

على أن المعارف التكنولوجية المتقدّمة عند سكّان تشايونو خلال PPN B لا يثبتها البناء ذو الأرضية الحصوية فقط، وإنما أيضاً الحقيقة التي مفادها أن الناس بدؤوا العمل بالنحاس الخالص في ذلك الوقت. كانت هذه المادة الخام متاحة في رواسب الخام القريبة من مقاطعة إرجاني على شكل مَلَكيت يمكن معرفته من لونه الأخضر، وقد تمت معالجته إلى لآلئ وأشياء صغيرة مشابهة.



الشكل 15 : إعادة بناء مبنى عبادة ما قبل فخاري
من مستوطنة نيفالي تشوري، تركيا

بيد أن هذا تم عن طريق الطرق والجلخ والحفر، وليس عن طريق الفعل الحراري بالتأكيد، الأمر الذي كان من شأنه أن يعني خطوة أولى نحو التعدين الحقيقي. لم يلفتْ خام النحاس الانتباه إلّا

بسبب لونه الجذّاب، علماً بأنه تم التعامل معه ومعالجته كأيّ حجر آخر. لم تُعرَفْ خواص الصهر والصبّ إلّا بعد آلاف السنين، أي أنها تندرج في سياق تكنولوجي وتاريخي ـ ثقافي مختلف تماماً.

نيفالي تشوري

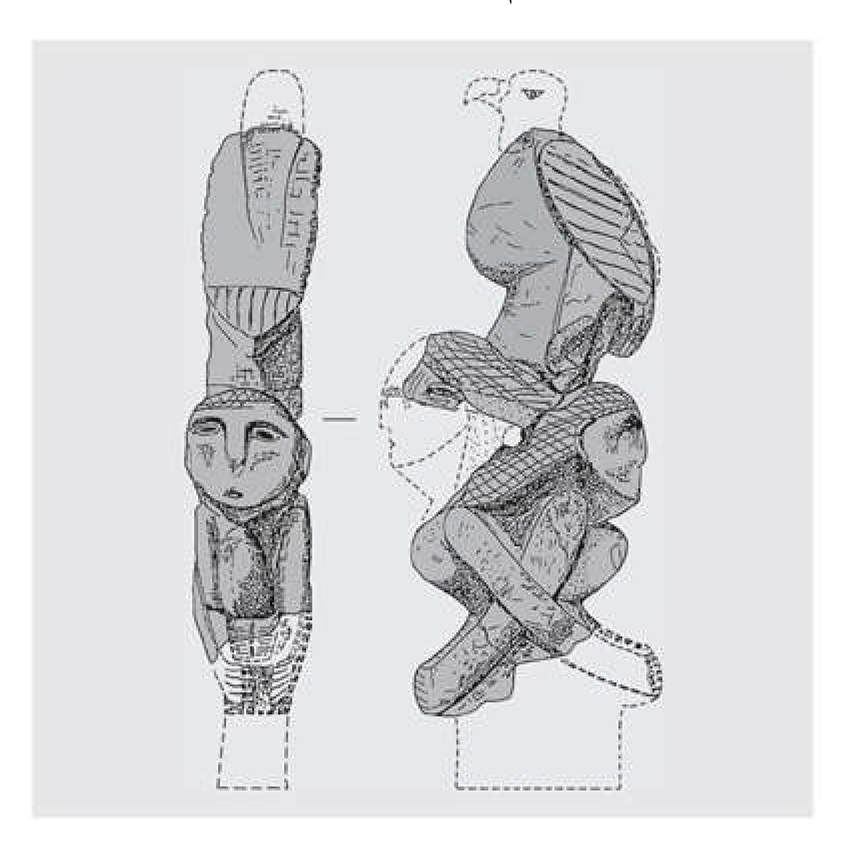
في جنوب شرق تركيا كذلك، في أعالي الفرات، كانت تقع مستوطنة نيفالي تشوري، التي وسّعت معرفتنا مرة أخرى بالفترة ما قبل الفخارية في أعالي بلاد ما بين النهرين بما يتجاوز تشايونو، وذلك لأسباب ليس أقلها ظروف الحفظ الأفضل. يسري هذا بالدرجة الأولى على الأنشطة التعبّدية ـ الطقسية في المجتمعات الاستيطانية المبكّرة هذه. فقد تم الكشف في نيفالي تشوري عن حجرة مربّعة تقريباً ذات زوايا مدوّرة وأرضية حصوية ـ تعيدنا بالذاكرة إلى تشايونو ـ خدمت أغراضاً تعبّدية. ثمة مقاعد معتمة على امتداد جدرانها الأربعة تم تقسيمها بأعمدة حجرية ضخمة على شكل حرف T (الشكل 15). ويرتفع في المساحة الداخلية زوجان آخران من الأعمدة على شكل حرف T. يحمل أحدهما على وجهيه نقشاً بارزاً لأيدٍ وأذرع، ويمكن التعرّف في جزئه العلوي العريض إلى ملامح وجه ومؤخّرة رأس. إذن فقد صُمِّمَت أعمدة ـ T هذه في هيئة بشرية وبالتالي فُهِمت على هذا النحو أيضاً، أي أنها صور بشرية منمّقة ومبالغ فيها إلى أبعاد جبّارة. ثمة أجزاء أخرى من منحوتات حجرية تالفة تم استخدامها في بناء الجدار الشرقي من هذا المبنى، بوصفها أشياء كانت قد وجدت استخدامها في سياق مختلف في الأصل. ربما كانت هذه العملية مشحونة طقسياً كذلك وبالتالي يمكن تقييمها على أنها نوع من دفن لهذه التماثيل، ذلك أن عمليات الدفن في أماكن أخرى كان يُفضَّل تنفيذها في الجانب الشرقي من المنازل، على أن هذه الحيثية ليست واضحة.

كائنات مختلطة من الإنسان والحيوان

تجسّد المنحوتات كائنات مختلطة من الإنسان والحيوان بكلّ وضوح، وتعيدنا بالذاكرة إلى التماثيل الصغيرة في العصر الحجري القديم الأعلى في جنوب غرب ألمانيا، مع أنها تتناول موضوعات ومضامين مختلفة، وهي عبارة عن نوع من الإنسان ـ الطير: كان لأحدها جسم طائر ورأس إنسان، وكانت النسخة الأخرى على شكل طائر كذلك، غير أن الرأس الشبيه برأس الطيور انتهى بوجه بشري. تتجاوز هذه التماثيل من حيث المضمون ما قدّمته التماثيل الجصّية البشرية من

أريحا وعين غزال، لأنها تسمح لنا بأن نرى عالماً فكرياً ـ دينياً معقّداً، حتى وإن استطعنا تخمين المحتوى الرمزي الحقيقي لما تم تصويره على أية الأحوال.

تنضمّ إلى هؤلاء الأشخاص- الطيور من نيفالي تشوري منحوتة أخرى تشبه العمود، أمكن إعادة بنائها جزئياً: طائر جارح يتوّج شخصين قابعين ظهراً إلى ظهر، ولكلّ منهما بدوره جسم طائر ووجه بشري (الشكل 16). ويشكّل طائران جارحان متباينان، يماثلان ذلك الطائر الموجود في قمة العمود، أسفل جزء أوسط مفقود، قاعدة التمثال العمودي بكامله كما هو واضح، والذي يشبه عمود الطوطم. لا نعلم بالطبع المعنى الكامن وراء هذه الأعمال الفنّية وبِمَ كان يفكّر منتجوها في تلك الأثناء. ولكن سبق أن أشرنا إلى أن عبادة حقيقية للجماجم ميّزت العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري في الشرق الأوسط، ويمكن تتبّع جذورها حتى العصر الحجري القديم الأعلى. يتم الآن في هذه الأعمال ربط رؤوس بشرية بطيور، أي بكائنات حية تبلغ مجالات لا بد أن الإنسان رأى أنها بعيدة المنال ويتعذّر عليه الوصول إليها قبل ديدالوس وإيكاروس. هل يُفترَض أن تمثّل هذه الروابط بين الإنسان والطائر صلة المتوفّين بالعوالم السماوية؟



الشكل 16 : جزء من عمود حجري لإنسان
طائر من نيفالي تشوري، تركيا

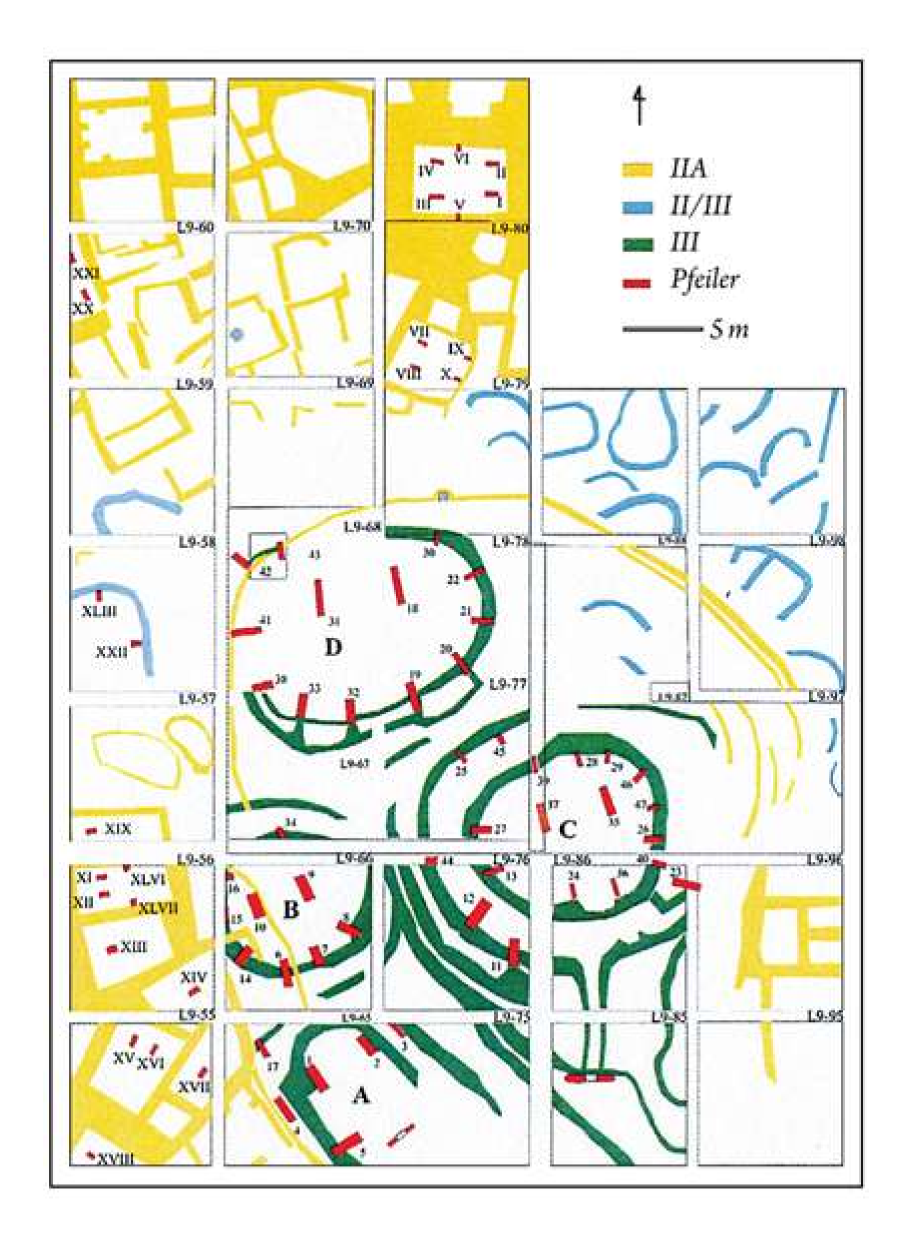
أقدم تماثيل الصلصال

ولكن بدلاً من الذهاب بعيداً بالتكهّنات حول معنى هذه الصور، يجدر بنا إلقاء نظرة على مكتشفات أخرى جديرة بالملاحظة في نيفالي تشوري. نخصّ بالذكر هنا قِدْراً حجرياً، ربما استُخدِمَ كحوض للتدخين، وعلى وجهه الخارجي نقش بارز لهيئتين بشريتين راقصتين بأذرع وسيقان ممدودة، يُرى بينهما حيوان يشبه السلحفاة. يُضاف إلى ذلك هيئات أنثوية من الصلصال، كتمثال رجل بقضيب منتصب وآخر لامرأة جالسة، فضلاً عن تماثيل صغيرة من الحجر الجيري تجسّد في معظمها حيوانات. يجدر بالملاحظة، علاوةً على ذلك، قناع بشري مصغّر مصنوع من الحجر الجيري. لا شك في أن كلّ هذه المؤشّرات التشكيلية على الرقص والتنكّر بأقنعة، إضافة إلى الموضوعات القضيبية، التي ترمز إلى القوة والخصوبة الذكوريتين (صور بقضيب منتصب)، وغيرها الكثير، إلى جانب النقوش البارزة ومنحوتات البشر- الطيور، تسمح بتخمين وجود مخيال ديني ـ روحي معقّد للغاية عند مبدعيها، يُفترَض أنه تجلّى في أعمال تعبّدية ـ طقسية متنوّعة. والحق أن نيفالي تشوري تغيّر بهذه الاكتشافات نظرتنا إلى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري في الشرق الأوسط بشكل نهائي.

مكان العبادة في غوبكلي تيبي

يُفترَض بالحفريات في غوبكلي تيبي بعد سنوات قليلة أن تبيّن أن نيفالي تشوري لم تكنْ سوى قمة جبل الجليد. ولا شك في أن ما ظهر هناك يُعدّ من أعظم اكتشافات علم الآثار في عصرنا. لم يدع الموقع الجغرافي المميّز لغوبكلي تيبي ـ تلّ في جنوب شرق تركيا بالقرب من مدينة أورفا ـ وما اكتُشِف على السطح من نقوش بارزة ومنحوتات لحيوانات برّية خطرة، ولرجال بقضيب منتصب، وتماثيل حيوانية برأس بشري وأجزاء لا حصر لها من أعمدة ـ T حتى قبل بدء أعمال التنقيب، أيّ مجال للشك في أنه كان يقع هناك موقع خاص تماماً من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري. وبخلاف الحال في نيفالي تشوري أو تشايونو لم يكن الأمر يتعلق بمستوطنة قروية تضمّ مباني خاصة مفردة تشير، بناءً على تصميمها المعماري وتجهيزها بالنقوش البارزة والمنحوتات، إلى استخدامها للعبادة، بل شكّل موقع غوبكلي تيبي بكامله، والذي لم ينتهِ التنقيب فيه بعد، حتى بعد 20 سنة، ويبدو أن حجمه لا نهاية له، مكان عبادة ضخماً واقعاً في أعلى نقطة من سلسلة جبلية طويلة.

تسمح رواسب الطبقات في الموقع، والتي يبلغ ارتفاعها بضعة أمتار، باستنتاج مفاده أن هذا الموقع لا بد أنه استُخدِمَ على مدى آلاف السنين. وقد تم اكتشاف أعمدة على شكل حرف T مقطوعة من كتلة حجرية، على غرار ما كانت معروفة من نيفالي تشوري، كان قد تم إدماجها في ترتيبات دائرية أو بيضوية من السور الجاف، أي المشيَّد بالحجر الطبيعي أو المكسور من دون ملاط. وقد انتصبت أمامها في الداخل ـ على غرار الحال في المبنى الحصوي في نيفالي تشوري كذلك ـ مقاعد حجرية عادة. وفي الوسط ـ وهذا أيضاً على غرار الموجود في نيفالي تشوري ـ انتصب زوجان من الأعمدة الكبيرة على شكل حرف T أحدهما قبالة الآخر، وهما مزيّنان بوفرة من النقوش البارزة. من الواضح أن أعمدة ـ T هذه لم يكنْ لها أيّ أهمية معمارية كدعامات أو ما شابه. فهي لم تكنْ عناصر إنشائية في هذه المرافق، بل كانت أهم جزء في تجهيزها الداخلي. هذا ما تؤيّده أيضاً التجويفات الأشبه بالقدور والموجودة على الوجه العلوي للأعمدة، والتي لن يكون لها أيّ معنى لو كانت الأعمدة تخدم كدعامات أو متّكآت.



الشكل 17 : الدوائر الحجرية وهياكل البناء الأخرى من غوبكلي تيبي، تركيا

قبل بضع سنوات تم استخراج أربع دوائر حجرية من هذا القبيل بشكل كامل، وتتراوح أقطارها بين 10 و30 متراً. على أن أعمال السبر الجيومغناطيسية أكّدت أن عددها الإجمالي أكبر بكثير، مما يدلّ على الحجم الكامل لهذا المكان المقدس، الذي يفوق سائر التصوّرات السابقة (الشكل 17). ما من شك في أن الحجم الهائل للموقع بمرافقه الطقسية المشيَّدة جنباً إلى جنب مباشرةً بأعمدتها الضخمة على شكل حرف T يميّز غوبكلي تيبي عن سائر المواقع الأخرى المماثلة في عصره. بالتالي يظلّ هذا المكان فريداً في الوقت الحالي. كان غوبكلي تيبي مكان عبادة ضخماً عند

المجتمعات المستقرة المبكّرة، التي مارست الزراعة وتربية الماشية في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري (PPN B)، في الفترة الممتدة من 9000 إلى 8000 قبل الميلاد تقريباً. على أن غوبكلي تيبي نفسه لم يكنْ واحدة من المستوطنات الريفية المبكّرة المألوفة، التي تضمّ سكّاناً محليين. لم يكن الناس، الذي بذلوا جهوداً جبّارة لتشييد هذه المباني التعبّدية على قمة الجبل، يعيشون في غوبكلي تيبي، وإنما في المستوطنات الموجودة بشكل متزامن في المحيط القريب والبعيد. تظهر في هذا المكان إذن شبكة اجتماعية وتعبّدية منظَّمة، بل وسياسية في بعض مرتكزاتها بالتأكيد، على أن نشوءها وتأثيرها تأسّسا على الطقوس بالدرجة الأولى. والحاسم في الأمر هو أنها تتجاوز بكثير مجتمعاً استيطانياً واحداً وبالتالي يُرجَّح أن تأثيرها كان إقليمياً، ويشمل عدة أماكن.

أعمدة T ذات نقوش حيوانية بارزة ورسوم توضيحيَّة

أعمدة ـ T الحجرية المتجانسة مزيَّنة بنقوش حيوانية بارزة أو برسوم توضيحية تجريدية. ومن المؤكَّد أن هذه العلامات مثّلت في زمن تشييد هذه المرافق رموزاً مقدسة مفهومة عموماً، على غرار ما يُفترَض أنه ينطبق على الصور في رسوم الكهوف في العصر الحجري القديم الأعلى كذلك. لا خلاف على الشكل الأساسي البشري لأعمدة ـ T هذه، وهو أمر يدعمه أيضاً أنه بالإمكان التعرّف إلى نقوش بارزة لبعض الأذرع والأيدي على الجوانب. كما يمثّل الجزء العلوي المعترض للشواهد رأساً بشرياً منمّقاً للغاية مع ذقن ومؤخّرة رأس بارزين يمكن التعرّف عليهما بالمنظر الجانبي. هذا يعني أن الهيئات على شكل حرف T ، التي تنتصب في دائرة، والمدمَجة في جدران الدوائر الحجرية جزئياً، تنظر نحو الداخل إلى عمودي ـ T المركزيين الأضخم والأغنى بالتزيين عادةً، واللذين يُفترَض أن لهما أهمية مركزية بالنسبة للحدث الطقسي في الداخل. ويبلغ ارتفاعها عادة مترين إلى ثلاثة أمتار ووزنها عدة أطنان، بحيث كان تشييدها بمثابة تحدٍّ تقني بلا شك. كان الإنسان قد أنجز بأعمدة ـ T هذه لأول مرة أشكالاً ثلاثية الأبعاد، ومن كتلة واحدة في كلّ مرة. تبدي الأعمدة طابعاً حجرياً ضخماً حقاً، وقد تطلّب نقل واحد من هذه الأعمدة لبعض المسافة 500 إنسان، بحسب تقديرات المنقّبين. ولا شك في أن هذا الرقم يمثّل عدداً هائلاً من الأشخاص يكاد لا يُصدَّق بالنسبة لصيّادين وجامعين استقرّوا للتو، ويُفترَض أنه من المتعذَّر بلوغه إلّا لدواعٍ خاصة. وقد كان تشييد هذه المعابد داعياً من هذا القبيل، على أنه تطلّب توجيهاً وإدارة خاصين أيضاً، ولم يكنْ بالإمكان تحقيقه على الإطلاق إلّا بوجود نوع من مُعلِّمي البناء. ويكاد يكون من المستحيل تصوّر إمكانية إنجاز ذلك من دون تقسيم واضح وصريح للعمل ووجود تراتبيات اجتماعية موافقة، ذلك أن

العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري يضيق بهذه الأخيرة في أيّ مكان. ما العدد الضروري من الأشخاص الذين كانوا على استعداد لحشد الإرادة والوقت والطاقة والوسائل لإنجاز كلّ هذا، ولتقديم المؤونة للعاملين في <موقع البناء الكبير> هذا؟

الصور البشرية المبكّرة

تُظهر النقوش البارزة المنفَّذة بإتقان على أعمدة ـ T هذه قططاً كبيرة مثل الأسود أو النمور أو الفهود، ودببة وثيراناً وخنازير برّية وغزلاناً وحميراً برّية وأفاعي وزواحف أخرى وصقوراً وكراكي وعقارب، إضافة إلى موضوعات زخرفية أخرى على شكل جماجم بقر، وعلامات أخرى يصعب تفسيرها بدقة. تهيمن على المنحوتات الحيوانية الأنواع المهدِّدة في وضعية عدوانية، ويمكن أن يُنسَب لها معنى رادع أو ربما معنى دارئ للشؤم أيضاً. يُضاف إلى ذلك مكتشفات أخرى مثل حلقات حجرية محيّرة يتجاوز قطرها نصف متر، ورؤوس بشرية مطروقة من الحجر أو منحوتات لرجال بقضيب منتصب، إنما من دون أطراف، حتى إن الرؤوس والأشكال البشرية ذات المظهر الذكوري عادةً يفوق حجمها الحجم الطبيعي في بعض الأحيان. يلفت النظر في الوقت نفسه غياب الموضوعات الأنثوية والتماثيل النسائية النموذجية. من الاستثناءات الخاصة نقش لامرأة بساقين منفرجتين ظهر على سطح مقعد في مبنى أعمدة الأسود في طبقة أحدث من غوبكلي تيبي. لا ريب في أننا نبالغ إن نحن استنتجنا من هذا أن التصاوير النسائية لم يُعزَ لها تدريجياً أهمية أكبر مبدئياً إلّا في مرحلة الاستخدام الأحدث لهذا الموقع، لا بد أن كلّ هذا سوف يبيّنه التقييم النهائي الشامل لأعمال التنقيب في هذا الموقع.

على الرغم من التنوّع اللافت في الموضوعات تتكرّر تصاوير متشابهة المرة تلو الأخرى، الأمر الذي ينصبّ على الجمع بين حيوانات معينة سواء على عمود ـ T نفسه أم في الصورة نفسها. ما من شك في أنه يكمن وراء ذلك نظام أيقوني ثابت من العلامات والرموز، كان في متناول سكّان العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري، ومفهوماً من قبلهم بصورة عامة، على غرار لغة إشارة. مع ذلك يسمح مجموع الصور في الدوائر الحجرية بملاحظة خصائص معينة: في حين تلعب تصاوير الأفاعي دوراً خاصاً في المرفق A (الشكل 17)، يكاد كلّ عمود في الدائرة B يحمل نقشاً بارزاً لثعلب، بينما تُصادف في الدائرة C خنازير برّية بانتظام، يُضاف إلى ذلك مبنى أعمدة الأسود المستطيل العائد إلى مرحلة الاستخدام الأحدث لغوبكلي تيبي. على أن الإجابات الموثوقة عن السؤال حول كيفية تفسير هذه الملاحظات حقاً وحول كيفية فهم هذه الانحرافات، لن تتمكّن من

تقديمها إلّا مراجعة وتقييم شاملان للمخزون الكامل من الصور والمكتشفات، الذي أسفرت عنه أعمال التنقيب في غوبكلي تيبي.

طقوس أم عبادة موتى؟

يتبنّى المنقّبون من حين لآخر الفرضية القائلة إن هذه المرافق عبارة عن موقع مركزي لعبادة الموتى (الشكل 18). بالتالي فإن أعمدة ـ T هذه تمثّل الأجداد، والوحوش المصوَّرة تحمي المتوفّين. صحيح أنه لم يُعثَرْ على قبور في غوبكلي تيبي حتى الآن، ولكن يبدو من المعقول جداً أن تكون ذكرى المتوفّين أو بالأحرى ذكرى أجداد المجتمع المتعبّد هناك قد لعبت دوراً، من دون أن يشترط هذا بالضرورة دفن الموتى في غوبكلي تيبي نفسها. إذا كانت الذاكرة الثقافية موجودة في ذلك الوقت المبكّر سلفاً، وكانت مرتبطة بأماكن معينة، فمن المؤكَّد أن غوبكلي تيبي كان مكاناً من هذا القبيل. مع ذلك ثمة تفسيرات ممكنة مختلفة كلياً لنشوء هذا المرفق ووظيفته. يبدو أن مكتشفات وموجودات غوبكلي تيبي تشير في بعض الأحيان إلى ممارسات شامانية أيضاً، لا سيما عندما يُعثَر على تصاوير لأشخاص برؤوس حيوانية، مما يبعث على التفكير في الشامان الحاليين، الذين يبدؤون رحلتهم إلى العالم الآخر متنكّرين في زيّ حيوانات. ولكن حتى محاولة التفسير هذه هي مجرد واحدة من بين محاولات تفسير عديدة. لم ينشأ إيمان حقيقي بالآلهة في بلاد ما بين النهرين إلّا في وقت لاحق، ولا تُعرَف صور من غوبكلي تيبي يمكن تفسيرها على أنها تصاوير لآلهة. يفيد الموروث السومري بأن الاقتصاد الريفي مع الزراعة وتربية الماشية جاء من الجبل المقدس دو ـ كو إلى سكّان بلاد ما بين النهرين. وقد حدّدت المصادر مكان آلهة أنونا على هذا الجبل، والتي يبدو أنها ترجع إلى أزمنة مبكّرة جداً. لا نعرف ما إذا كان بالإمكان رؤية هذا الموروث ارتباطاً بأماكن طقوس العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري وما إذا كانت غوبكلي تيبي قد لعبت دوراً في ذلك. مما يسمح بتخمينات في هذا الاتجاه هو أن أولئك الذين أنجزوا هذا المكان المقدس في غوبكلي تيبي باتوا يعملون في الزراعة وتربية الماشية المنظَّمتين في أزمنة مبكّرة بالفعل، ولكن لا شيء أكثر من ذلك. يبقى أن نتذكّر أن ثمة فجوة من آلاف السنين بين هذا الحدث من جهة ونشوء الأسطورة السومرية من جهة أخرى، يبدو أن تجسيرها مستحيل على ثقافات بلا كتابة.





1 2

الشكل 18 : عمود حجري يحمل تصويراً حيوانياً (1) وتصويراً بشرياً (2) من غوبكلي تيبي، تركيا

مهما يكن من أمر، يصعب على المرء حتى الآن أن يتخيّل أن البشر كانوا قادرين نحو 9000 قبل الميلاد سلفاً على نقش أو نحت أحجار وزنها بالأطنان ونقلها وترتيبها في مجموعات كبيرة. فقد كان المشروع فائق التعقيد ويُفترَض أنه استغرق سنوات، إن لم يكنْ عقوداً من الزمن. فضلاً عن أنه لم يكنْ يوجد مياه على الهضبة العالية من حول غوبكلي تيبي ولا إمكانية للزراعة وتربية الماشية لإمداد العاملين هنا بالمواد الغذائية؛ بالتالي كان لا بد من إحضار هذه الأخيرة إلى الموقع من مسافة بعيدة. والحق أنه لا يمكن بذل مثل هذا الجهد الذي لا يُصدَّق من قبل مجتمع ما إلّا إذا كانت النتيجة المنشودة ذات أهمية وجودية بالنسبة للبنّائين. ومن الواضح أن تشييد المعبد الضخم في غوبكلي تيبي كان هدفاً يستحق العناء. وإلّا لما نشأ أبداً هذا المكان المقدس، الذي تم استخدامه لأكثر من ألف سنة وكان فيه مجمّع مطري كبير بالتأكيد.

احتفالات تعبّدية ضخمة

بالتالي يوضِّح غوبكلي تيبي بشكل مثير للإعجاب أن أهمية الدينيّ في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري كانت أهمية ساحقة. وتعلن مكتشفاته وموجوداته عن عالم ديني ـ تعبّدي ينسف كلّ ما هو معروف حتى ذلك الحين. وقد ظهرت أكوام من العظام الحيوانية بالقرب من الدوائر الحجرية ويمكن اعتبارها بقايا ولائم حافلة تم خلالها أكل كمّ هائل من الحيوانات. ويمكن أن نفترض أعمالاً واحتفالات مشابهة قائمة على العبادة لها علاقة بالمباني الخاصة في كلّ من نيفالي تشوري وتشايونو. هذا ما يسمح باستنتاج طقوس وتصوّرات دينية كانت منتشرة وفعّالة على امتداد منطقة أكبر. ينطبق الشيء نفسه على طيف الصور في غوبكلي تيبي، ذلك أن الموضوعات الموثَّقة هناك تظهر في أماكن أخرى من الإقليم. وقد شكّلت لغة طقسية موحِّدة لأجزاء كبيرة من أعالي بلاد ما بين النهرين، أي نظام إشارات أمكن للناس في هذا الفضاء الثقافي أن يقرؤوه ويحفظوه. ذلك أنه حتى أعمدة ـ T المعروفة في نيفالي تشوري وغوبكلي تيبي باتت معروفة في هذه الأثناء، في مواقع ما قبل فخارية أخرى في محيط مدينة شانلي أورفا أيضاً. تسمح كلّ هذه السمات بظهور مجتمع عبادة متماسك ـ لغة ثقافية ـ دينية ـ في المناطق الجبلية في أعالي بلاد ما بين النهرين، وذلك في منطقة يجوز لنا أن نفترض، لأسباب وجيهة، أنها مهد الاقتصاد الزراعي. ينتصب غوبكلي تيبي في مركز ذلك الفضاء، الذي تم فيه ربط «حزمة العصر الحجري الحديث»، ليس دفعة واحدة في الواقع، وإنما في خطوات متتابعة.

ولكن ما الأهمية التي كانت تُنسَب لهذه الاحتفالات التعبّدية حقاً؟ يكفي الجهد الهائل الموصوف أعلاه، الذي تطلّبه تشييد مرافق عبادة، كذلك الذي في غوبكلي تيبي، ليجعل أهميتها الاجتماعية واضحة للعيان. كانت المستوطنات الريفية في العصر الحجري الحديث الفخاري المكتمل في الألفيات التالية تقع بعضها بجوار بعض عادةً. وقد اهتم سكّانها بالمقايضة والتبادل المكثَّف والمستمر واستطاعوا الاعتماد في ذلك على الدوام على شبكة اتصالات كثيفة يتم عبرها نقل البضائع والسلع والمعلومات. لذلك لم تكنْ قرى العصر الحجري الحديث في حاجة إلى إقليم كبير؛ ولم يعدْ سكّانها مضطرّين إلى الابتعاد كثيراً عن قراهم لتلبية احتياجات حياتهم اليومية.

كان الوضع مختلفاً جداً عند الصيادين والجامعين في العصر الحجري ما قبل الفخاري، الذي تم فيه الانتقال التدريجي من الاقتصاد الاستحواذي إلى النمط الاقتصادي الإنتاجي، وذلك خطوة خطوة عن طريق تدجين النباتات والحيوانات. كان البشر في ذلك الوقت لا يزالون في حاجة إلى أقاليم أكبر بوضوح كمناطق حركة وتجوّل، ولذلك كانت قراهم أشدّ تبعثراً وتباعداً، حيث تصل المسافة فيما بينها إلى 50 كيلومتراً أو أكثر. من هنا يغلب الظنّ أن التواصل الوثيق المستمرّ فيما

بينها لم يكنْ هو القاعدة في PPN B. كما لا يجوز افتراض أن جميع سكّان هذا الفضاء قد استقرّوا بشكل دائم سلفاً. غير أن اللقاءات أو الاجتماعات المتكرّرة باستمرار لا غنى عنها خصوصاً بالنسبة للمجتمعات المقسّمة مكانياً بشدة. كانت مثل هذه الأماكن تتمتّع بأهمية أساسية بالتأكيد كنقاط تلاقٍ لتبادل المعلومات والأشياء عند مجموعات لا يزال يغلب على حياتها طابع الصيد والجمع في الأساس. لا شك في أنه يجوز الانطلاق حتى بالنسبة للعصر الحجري القديم من أن أماكن معينة كانت تخدم كملتقيات موسمية بطريقة مشابهة. ومثل هذه المراكز هي أماكن مقدسة بطريقة ما؛ فهي تشكّل نقاطاً لبلورة حاجات الصيّادين والجامعين الاجتماعية والاقتصادية والطقسية. ولا شك في أن غوبكلي تيبي كان مكاناً من هذا القبيل.

تناول الطعام الطقسي والشعور بالانتماء للمجتمع

كانت هذه الاجتماعات، التي تخدم التبادل، أشبه باحتفالات كبيرة مقترنة في الغالب بنوع من تناول الطعام الطقسي المشترك، وذلك على شكل ولائم حافلة بصفة خاصة، بل ومصمَّمة ببذخ وتضمّ أطباقاً غير عادية. ولكن مثل هذه الاحتفالات الكبيرة اشترطت أيضاً القدرة الموثوقة على الإمداد بالطعام الخاص بالقدْر المطلوب وفي توقيت معين. وقد استخلص المرء من ذلك الاستنتاج الذي مفاده أن ابتكار تدجين النباتات والحيوانات، الذي كان على جانب كبير من الأهمية في تاريخ البشرية وغيّر العالم في الوقت نفسه حتى يومنا هذا، ارتبط بتلك الاحتفالات الكبيرة. ففي النهاية لم يكنْ بالإمكان إقامة هذه الأخيرة إلّا إذا أمكن التنبّؤ بغلّة محصول كافية وتقديرها إلى حد ما على سبيل المثال. من وجهة النظر هذه سرعان ما يتحوّل الحيوان المنزلي إلى لحم حيّ محفوظ. أخيراً أجبرت احتفالات الصيّادين والجامعين، التي أخذت تكبر باستمرار، على سعي مستدام للحصول على الطعام، أفضى في نهاية المطاف إلى الإنتاج المنظَّم للمواد الغذائية. ونظراً لجودتها الخاصة ربما لم تكن الأطعمة المعتمدة بشكل أساسي على النباتات والحيوانات المدجّنة مخصَّصة للاستهلاك اليومي في البداية، وإنما كانت يتم إدراجها في برنامج مثل هذه الاحتفالات الكبيرة فقط. ويُرجَّح أن هذه المواد الغذائية لم تصبحْ في متناول الجميع إلّا في وقت لاحق. فضلاً عن ذلك أمكن إدراج تأثيرات المواد المسكِرة في سياق مثل هذه الاحتفالات بشكل مقصود. لطالما كان الجامعون ذوو الخبرة ولا يزالون في كلّ الأزمنة خبراء متميّزين بالثمار والأعشاب والجذور والفطور وبتأثيرها المهلوِس والمسكِر في بعض الأحيان. ما من شك في أن تحقيق احتفالات من هذا النوع أدى إلى تركيز هائل للقوى البشرية. من هنا يغلب الظنّ أن هذه الاجتماعات هي التي جعلت الإنجازات

الجماعية الجبّارة، مثل تشييد المعابد الضخمة في غوبكلي تيبي، أمراً ممكناً أصلاً. ويرجع التقليد المتمثّل في إقامة الطقوس أو الاحتفالات المرسِّخة والموحِّدة للمجتمع في أماكن خاصة إلى العصر الحجري القديم الأعلى.

جبل مقدس ذو وظيفة مركزية

كان زمن نشوء غوبكلي تيبي زمن انقلاب أو ثورة. وقد نُسِبَ لهذا الجبل المقدس بالتأكيد وظيفة مركزية بالغة الأهمية في أعالي بلاد ما بين النهرين. فهو يقع في ما يُسمّى المثلّث الذهبي، الذي انتشر فيه كلّ ما كان هناك من الأشكال البرّية في بداية تدجين الأشكال البرّية. لذلك كانت الظروف الطبيعية في غوبكلي تيبي تحديداً صالحة بشكل خاص لتحويل الصيّادين والجامعين إلى مزارعين مستقرّين. تحدّد الدراسات الجينية منشأ حبوبنا المزروعة (أينكورن) في محيط جبل كاراكاداغ، لذلك يُعتقَد، ولسبب وجيه، أن بدايات استنبات الحبوب المزروعة من الحبوب البرّية كانت في الأراضي الواقعة حول غوبكلي تيبي. وقد تم تقشير وسحق الحبوب البرّية القاسية الغنية بالسعرات الحرارية والمتوافرة بكميات كبيرة بمدقّات في قدور حجرية. كان هذا بمثابة التغيير الأساسي الذي ميّز مجموعات الصيّادين والجامعين المستقرّين في الألفية العاشرة قبل الميلاد. ومع تزايد الاستيطان والارتباط بالمكان تحوّل ذلك إلى إنتاج حقيقي للمواد الغذائية، وذلك عن طريق حصاد الحبوب النامية (الأينكورن والشعير) في الحقول بعد شيء من الوقت من نثر البذور. وعن طريق الاستنبات أمكن فيما بعد تكبير الحبوب وبالتالي زيادة المحاصيل بشكل كبير. إلى ذلك يمكن افتراض أن المجموعات المتجوّلة في أعالي بلاد ما بين النهرين لا بد أنها تعاونت لحماية وجود الحبوب البرّية المبكّرة وكذلك البذور الأولى المنثورة في الحقول من الحيوانات البرّية (قطعان الغزلان والحمير البرّية). إذن، فقد اقتضت الزراعة حتى في السابق حداً أدنى من التنظيم، الذي لا بد أنه تمخّض بدوره عن بُنى اجتماعية جديدة في المجتمعات الاستيطانية من حول المعابد من نمط غوبكلي تيبي. بالتالي فإن «ثورة العصر الحجري الحديث» لم تبدأ هنا، في جنوب شرق تركيا على الأقل، في الحديقة المنزلية الصغيرة، وإنما في تنظيم جماعي واسع النطاق مباشرةً، مثلما يُعتقَد في بعض الأحيان.

بدايات تدجين النباتات والحيوانات

لا بد أن ترويض الحيوانات البرّية الفتية المفردة، الذي طالما قام به الصيّادون، أفضى أخيراً في وقت من الأوقات إلى استراتيجية تربية الحيوانات المنزلية. مع ذلك لا يجوز الخلط بين الترويض والتدجين. كان هناك حيوانات سمحت بترويضها، إلّا أنها لا يمكن أن تصبح حيوانات منزلية حقيقية أبداً؛ ذاك أن أنماطها السلوكية المشروطة وراثياً تتضارب مع ذلك. هكذا يغدو العديد من الحيوانات البرّية عقيماً حينما يتم أسره. ولم يكنْ ممكناً في نهاية المطاف تدجين سوى الحيوانات البرّية التي كانت قادرة على تجاوز حالة الأسر. ينطبق هذا على الأغنام والماعز والأبقار والخنازير على سبيل المثال. وحينما نجحت عملية الاستنسال، كانت الحيوانات الصغيرة المولودة في حالة الأسر أصغر حجماً دائماً وغالباً ما أبدت تغيّرات في هيكلها العظمي أيضاً. كانت البرّية المفتوحة، وليس حالة الأسر، هي المحيط الحيوي الطبيعي ذو التنوّع الغذائي المثالي والأشد صحةً لكلّ الحيوانات. من هذه الناحية كان على مربّي الماشية أن يحولوا المرة تلو الأخرى دون تدهور وضعف الحيوانات المدجّنة بشدة قبل ظهور الحيوانات المنزلية المستقرّة وراثياً إلى حد ما، وذلك عن طريق تهجين الحيوانات البرّية وغيره من الإجراءات. إذن، شأنه شأن تدجين النباتات، لم يكنْ تدجين الحيوانات بأيّ حال عملية سريعة ولمرة واحدة. بل يُفترَض أنه كان عملية مركّبة للغاية ومصحوبة بانتكاسات متكرّرة، وتطلّبت من الأشخاص المعنيين قدْراً أقصى من الخبرة وقوة الملاحظة. إذا أدركنا هذا، فهمنا بشكل أفضل أيّ إنجاز حضاري هائل مثّله استنبات النباتات المزروعة وتربية الحيوانات المنزلية. على أنه كان في الوقت نفسه أول مناورة أو تدخّل واعٍ في الطبيعة بهدف زيادة الغلال.

انهيار العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري

بناء على هذه الاكتشافات الجديدة يمكننا إذن أن ننطلق من أنه نشأت في أعالي بلاد ما بين النهرين وفي أجزاء أخرى مما يُسمّى الهلال الخصيب، في سياق أواخر العصر الحديث ما قبل الفخاري خلال الألفية العاشرة والتاسعة قبل الميلاد، وفي بيئة ثقافية لا تزال تتسم بطابع حياة الصيد والجمع، ظروفٌ معيشية واقتصادية للعصر الحجري الحديث المكتمل مع تدجين نباتات وحيوانات، وهذا أيضاً لأول مرة على مستوى العالم. لايزال الفخار فقط غائباً. ولكن قبل أن يبدأ العصر الحجري الحديث الفخاري في الشرق الأوسط تأثّر هذا الأخير ونصف الكرة الشمالي بكامله تقريباً بتغيّر مناخي جديد كان له عواقب بالغة. حوالي 6200 قبل الميلاد حدث ما يُسمّى تقلّب ميزوكس، المعروف بـ (حدث 8.2 كيلوسنة) أيضاً، الذي تسبّب في تبريد سريع وواضح جداً، وأدى في الوقت

نفسه إلى قحولة أجزاء كبيرة من الحزام الجاف للعالم القديم الممتدّ من الصحراء الكبرى في الغرب إلى بادية غوبي في الشرق، استمرّت ما يقارب الـ 300 إلى الـ 400 سنة. ويُفترَض أن التغيّر المستدام في البيئة الحيوية الطبيعية لسكّان PPN B كان أحد أسباب النهاية الفجائية لهذا التطوّر الواعد في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري. وتمت مغادرة الأراضي كثيرة التلال وسفوح جبال طوروس وزاغروس عند أطراف بلاد ما بين النهرين، وبدا أن استيطان الوديان الكبيرة الأشد انخفاضاً لنهري دجلة والفرات أخذ يشتدّ في الوقت نفسه. على أن استثمار هذه المساحات من الأرض - في المناخ الجاف تحديداً - اشترط ريّاً اصطناعياً. وبذلك أمكن استيطان حتى المناطق التي جفّت في أعقاب تقلّب ميزوكس وجعلها صالحة للزراعة. غير أن أحداث التاريخ الانقلابية، ومنها انتهاء PPN B، نادراً ما يمكن تفسيرها بسبب واحد. لا بد من الأخذ بالاعتبار أسباباً أخرى إلى جانب التغيّر المناخي، كالاستغلال المفرط الممكن بلا شك للمواد المتاحة في مناطق PPN B الأساسية على سبيل المثال، والذي يُحتمَل أنه أدى كذلك إلى انهيار مؤقت للمجتمعات التي نشأت هناك.

4
المستوطنات الكبيرة المبكّرة في وسط الأناضول

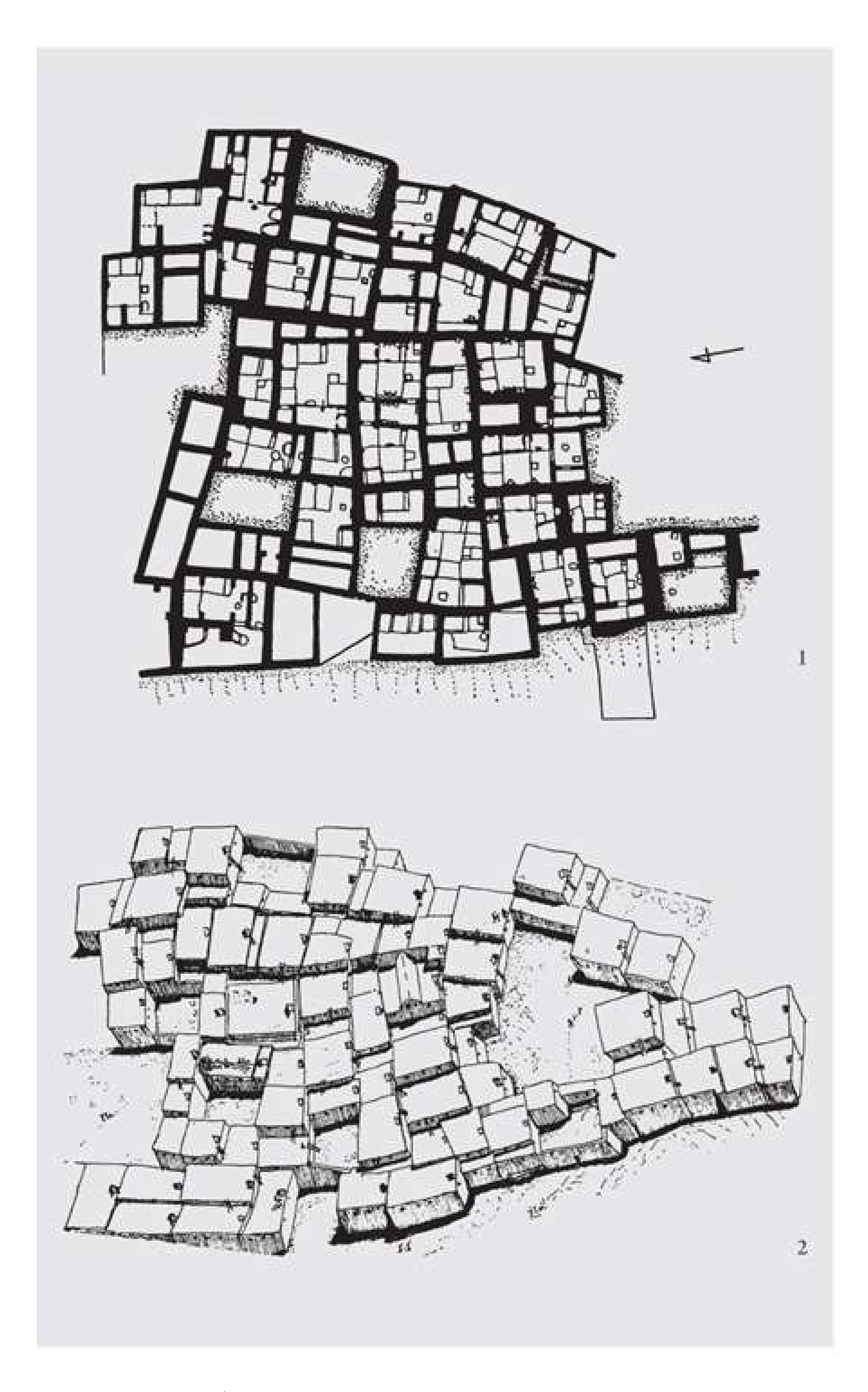
تشاتال هويوك في سهل قونية

كان للأحداث التـي حصلت فـي الأطراف الشمالية والشمالية الغربيـة لبلاد ما بين النهرين، خلال الألفية العاشرة إلى الألفية السابعة قبل الميلاد، أهميتها في تاريخ البشرية، كما طوّرت دينمية ألقت بظلالها على المناطق المجاورة بلا شك. كان وسط الأناضـول من بين هذه المناطق، التـي كانت متاخمة لمنطقة أوائل العصر الحجري الحديث الأساسية. ترمـز تشـاتال هويوك هناك إلـى المرحلة الانتقالية مـن العصـر الحجري الحديث ما قبل الفخـاري إلـى العصر الحجري الحديث الفخاري المبكّر. ينقسم تعاقب هذه المستوطنة الكبيرة إلى أربع عشرة طبقة إجمالاً تمتدّ من 7400 إلى نحو 6200 قبل الميلاد. يقع الموقع في المساحات الفيضية الواسعة لأحد الأنهار. بالتالي كان الماء متوافراً بكميات كافية على الدوام، وهو أمر كان له أهميته في هضبة قونية القاحلة قليلة الأمطار. وفقاً لذلك كان العرْض الغذائي الطبيعي من الحيوانات والثمار البرّية وفيراً في محيط المستوطنة أيضاً. ومن المحتمل أن هذه الظروف الملائمة للغاية هي التي أدت إلى اجتذاب هذا المكان مستوطنين من المحيط الأوسع على ما يظهر، إذ إن تشاتال هويوك عبارة عن مستوطنة كبيرة حقيقية من جهة، ويكاد لا يُعرَف أيّ مواقع أخرى في هضبة قونية تعود إلى هذه الفترة الزمنية من جهة أخرى. بالتالي تبدو تشاتال هويوك في نطاق المشهد الاستيطاني المحيط فريدة ومعزولة إلى حد ما، الأمر الذي ينبغي أخذه بالاعتبار عند تقييم المكتشفات المصادفة هناك.

مبانٍ متلاصقة

في زمن الحفريات الأولى في تشاتال هويوك كان محطّ الاهتمام ما يُسمّى طريقة البناء المتلاصق الموثَّقة هناك (الشكل 19)، التي أضفت طابعاً خاصاً على المستوطنة بكاملها وبقيت زمناً طويلاً لا نظير لها: كانت المستوطنة قائمة على نمط بناء غير معروف من قبل، لأن المباني المستطيلة، التي تبدو موحَّدة، كانت متلاصقة بشكل مباشر ولا تفصل بينها شوارع أو أزقّة أو ساحات مثلاً. بدلاً من ذلك استُخدِمَت الأسطح كمساحات مرورية، وكان يتم عبرها الولوج إلى المناطق الداخلية أيضاً. وقد تم تشييد المنازل

بالإمكان بلوغها إلّا من الأعلى كذلك. تراكبت طبقات عديدة فوق بعضها البعض في تشاتال هويوك،



نفسها من الآجرّ الطيني أو الطين المدكوك. نحن هنا إجمالاً أمام هندسة معمارية منزلية متطوّرة بشكل مدهش قياساً إلى ذلك الزمن المبكّر. مع ذلك لم تكنْ مساحة المستوطنة مبنية بشكل كامل، ويُعثَر المرة تلو الأخرى على مناطق خالية، يمكن تفسيرها بأنها فناءات، بيد أنه لم يكنْ

ويقدّر المنقّبون عدد المنازل في كلّ طبقة بـ 400 إلى 1800 منزل، وهو رقم مبالغ فيه جداً بالتأكيد. ينطبق هذا على عدد السكّان أيضاً والبالغ 10000 نسمة. مع ذلك نحن هنا أمام تجمّع بشري بحجم جديد كلياً، حيث نتقدّم مع تشاتال هويوك إلى بعْد جديد من حيث حجم المجتمع الاستيطاني. ويُفترَض بهذا الحجم أن يضع تنظيمها أمام تحدّيات كبيرة، بما في ذلك التخلّص من النفايات.

الشكل 19 : مخطّط (1) وإعادة بناء (2) مستوطنة تشاتال هويوك، تركيا، في الع رص الحجري الحديث المبكّر.

حركة المرور عبر الأسطح

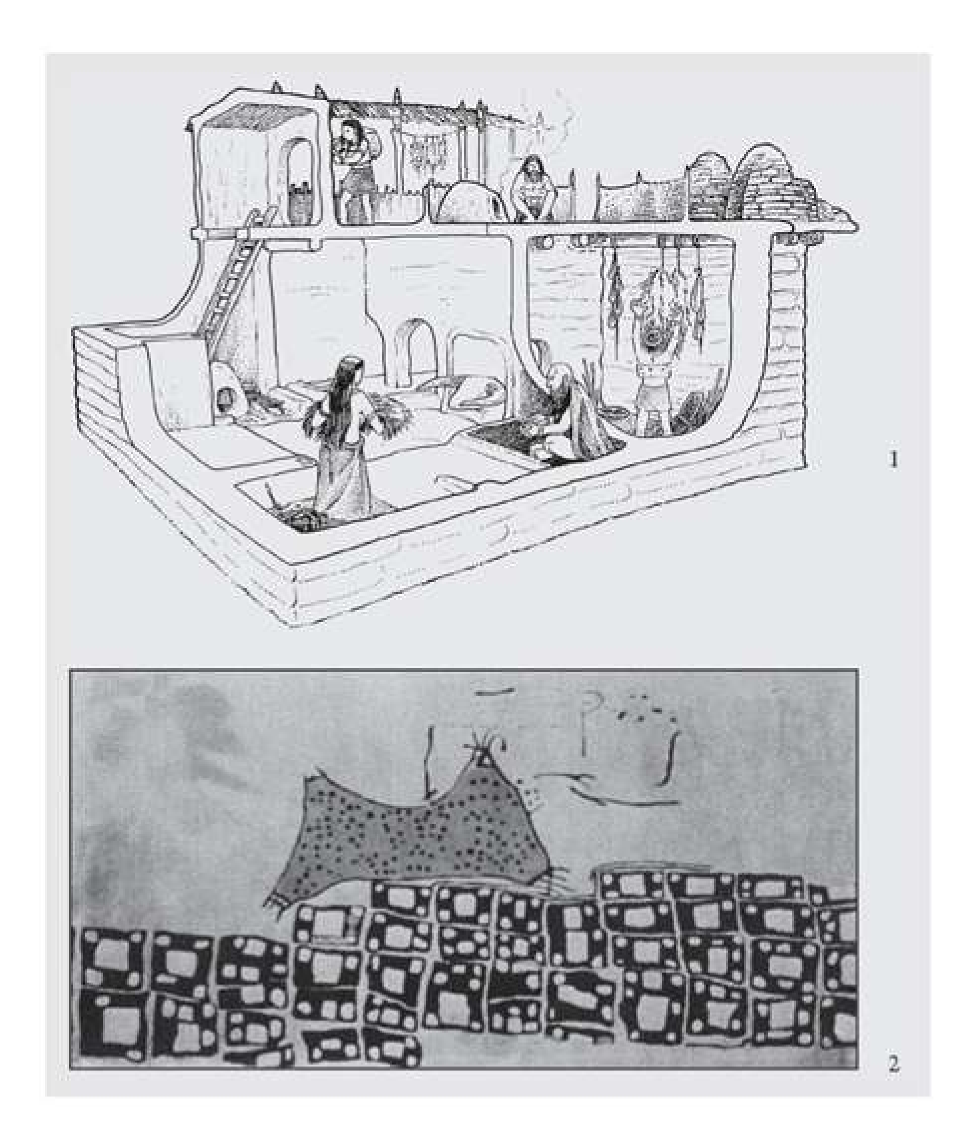
كـان المـرء يدلف إلـى داخل المنازل عبر الأسـطح من الأعلـى مستعيناً بسلّم لهـذا الغرض. وقد وُجِدَ هذا المدخل بالقرب من الجدار الجنوبي دوماً؛ ولأن الموقد كان يقع هناك أيضاً، من المرجَّح أن المدخل كان يخدم كمسرب لسحب الدخان كذلك (الشكل 20، 1). وقد جعلت الرواسب الداكنة على الرسوم الجدارية تجديد هذه الأخيرة ضرورياً المرة تلو الأخرى؛ ومع ذلك لا بد أن تشكّل السخام كان شديداً. كان على فتحة الدخول أن تضمن سقوط الضوء أيضاً وبالتالي إنارة داخل المنازل، ذلك أنه لا وجود لنوافذ. كانت أرضيات المنازل على مستويات متفاوتة، مما أدى إلى نشوء شيء من التقسيم الداخلي. لم تكنْ هناك أيّ حجرات واضحة مفصولة بجدران. كانت بعض المناطق مفروشة بحصائر من القصب، مثلما تكشف بقاياها؛ وربما خدمت كأماكن للنوم. إلى ذلك تضمّنت التجهيزات الثابتة للمنازل منصّات عمل مرتفعة أمكن القيام بأنشطة مختلفة عليها، إضافة إلى مقاعد طينية موضوعة أمام الجدران وحجرات تخزين منفصلة. كانت الحياة تدور في العراء بالدرجة الأولى وليس في المنازل على كلّ حال.

المنزل بوصفه وحدة سكنية واقتصادية

بما أنه لم توجدْ في تشاتال هويوك مباني تخزين للمستوطنة بكاملها، وكان كلّ مبنى يمتلك حيّزاً للمخزونات خاصاً به، يُفترَض أن جماعة كلّ منزل قد تدبّرت أمورها كلّ واحدة بمعزل عن الأخرى. هذا ما يسمح بتخمين أن العائلات كانت تتولّى أيضاً معالجة الحبوب وغيرها من المواد

الغذائية إضافة إلى تربية الحيوانات المنزلية. من غير الواضح ما إذا لم يكنْ صنع الآجرّ الطيني والفخار والأدوات الحجرية والعظمية منظّماً بشكل مركزي.

اعتمـدت تغذية سكّان تشاتال هويوك علـى الزراعة وتربيـة الماشية، إضافة إلـى الجمع والصيد. وقد تم توثيق أقدم أنواع الحبوب النموذجية مثل الأينكورن والإيمر والشعير والقمح، يُضاف إلى ذلك البقوليات المبكّرة مثل البازلاء والبازلاء الحلوة. بالنسبة للحيوانات المنزلية تسود الأغنام والماعز، كما هو معتاد في هذه الفترة الزمنية. لم يتّضحْ بعد متى بدأ تدجين الأبقار في هذا الموقع. أما عظام البقر الموافقة من طبقات العصر الحجري الحديث المبكّر فيبدو أنها عظام حيوانات برّية في الغالب، بينما لم يتم توثيق البقر المنزلي الصريح إلّا في أوائل العصر الحجري النحاسي.



الشكل 20 : إعادة بناء مبنى ذي ضريح (1)
ورسم جداري يحمل تصويراً لمخطّط قرية
(2) من تشاتال هويوك، تركيا

شكلت الأوعية الحجرية غير المزيّنة وبعد ذلك بقليل الأواني الفخارية أحادية اللون غير المزخرفة بدايةً جزءاً لا يتجزّأ من تجهيزات المنازل. فقد كانت ضرورية لإعداد الطعام بالطهي إضافة إلى حفظ المواد الغذائية. ولكن يجوز لنا أن ننطلق من أن السكّان استعملوا أوانيَ خشبية أيضاً، مثلما يثبت موجود موافق من طبقة الحريق VI في تشاتال هويوك، حيث سادت ظروف حفظ ممتازة. صُنِعَت الأدوات الحجرية من الصوّان، مع ذلك كان السَّبَج شائعاً جداً كمادة خام لصنع الأدوات والأسلحة، بما في ذلك إنتاج المرايا المزعوم. كانت هناك مخزونات هامة من السَّبَج خارج نطاق الأناضول وليست بعيدة جداً عن تشاتال هويوك، وذلك عند جبل غولو وجبل نينيزي. وتقدّم الأختام الفخارية العديدة ذات النماذج الهندسية المختلفة سبباً للنقاش. من غير المستبعَد أنها استُخدِمَت لتمييز الممتلكات بمجرد أن أتقن المرء صناعة الأواني الفخارية؛ ولم تظهر الأختام الفخارية هناك، كما هي الحال في أماكن أخرى أيضاً، إلّا مع تأسيس بيوت اقتصادية مستقلة على ما يبدو. على أنه من الممكن أن نتصوّر أن الأختام استُخدِمَت لتزيين القماش أو الجلد أو الخشب أو لطبع حلي على الجسد مباشرة.

تماثيل صغيرة بين الفنّ والعبادة

هناك تماثيل أنثوية صغيرة مثيرة للإعجاب معروفة من تشاتال هويوك، من بينها ما تُسمّى الإلهة الجالسة بين قطّتين كبيرتين. وقد أثار تفسيرها مخيّلة الباحثين في وقت مبكّر حول ما إذا كان سكّان هذا المكان يعبدون الآلهة الأم وبالتالي إمكانية افتراض نوع من النظام الأمومي. على أن هذا غير مثبَت، ولا بد من توخّي الحذر من التسرّع في تفسير المكتشفات والموجودات في منحى محدَّد واحد فقط. إن حقيقية كون المرأة الجالسة في التمثال المذكور أعلاه محاطة بقطّتين برّيتين قد تشير كذلك إلى أن العالم الفكري في تشاتال هويوك كان لا يزال شديد التأثّر بالتصوّرات الذهنية الخاصة بمجتمع الصيّادين والجامعين. وقد تشير إلى منحى مشابه أيضاً التماثيلُ الصغيرة المكتشفة بكثرة في تشاتال هويوك، والتي يلفت النظر فيها البدانة والتشديد على السمات الجنسية الأنثوية، على غرار ما سبق توثيقه في تماثيل فترة الغرافيتيان في العصر الحجري القديم الأعلى في أجزاء واسعة من أوروبا. لا شك في أن عقيدة الخصوبة لعبت دوراً في كلا الحالتين، غير أن هذا لا يعني وجود

صلة حتمية بالزراعة والاقتصاد الريفي حصراً. وفي معظم الحالات لا يساهم السياق الدقيق لاكتشافها أيضاً في تفسيرها. يُضاف إلى ذلك أن معظم التماثيل لا يمكن تحديد جنسها؛ ففي بعض الأحيان يبدو أن الأمر يتعلق بتماثيل رجال. وحري بهذا أن يشير إلى أن الرسالة المقترنة بهذه القطع لم تكنْ خاصة بالجنس بالضرورة.

فضلاً عن ذلك لم تقدّم الحفريات في تشاتال هويوك أيّ مؤشّرات على معاملة غير متكافئة للنساء والرجال. كما لم يُعثَرْ على أيّ مرتكزات لذلك في طقوس الموتى أيضاً، ذلك أنه لم يتم دفن الرجال والنساء بشكل مختلف ولا تم تزويدهم بمرفقات متباينة. بل يبدو أن الكثير من الأمور يدلّ على شيء من قابلية التبادل بين الجنسين. أما ماهية العوامل التي حدّدت دور الفرد في مجتمع تشاتال هويوك المتّسم بالمساواة إلى حد بعيد على ما يبدو فهو أمر يبقى مثار تساؤل؛ على أنه لم يكنْ جنس الفرد.

رسومات جدارية ونقوش زخرفية

في أعقاب أولى الحفريات في ستينيات القرن العشرين سرعان ما اشتُهِرَت مستوطنة تشاتال هويوك بالدرجة الأولى بأن المنازل التي لا حصر لها لم يتم تشييدها بشكل متلاصق لأول مرة وحسب، وإنما بكونها أبدت على الجدران في الداخل رسومات ونقوشاً زخرفية بشكل منتظم تقريباً كما لم يعرفْه المرء في أيّ موقع آخر حتى ذلك الحين. وقد قدّمت الطبقتان السابعة والسادسة قبل كلّ شيء، واللتان دمّرتهما كوارث الحريق، زخارف جدارية ذات أشكال مختلفة محفوظة بشكل ممتاز. لم يتم في حينه سوى تزيين الحُجرة الرئيسة باستمرار، أي حجرة المعيشة الفعلية، التي وصفها ميلارت بـ <الضريح> بناءً على هذه الزخرفة. على أن هذه التسمية مضلِّلة. نحن نعرف اليوم أن المساكن المكشوف عنها كانت عبارة عن مبانٍ سكنية وليست مناطق مخصَّصة لأغراض العبادة.

عُرِفَت منازل تشاتال هويوك بجماجم الثيران المثبَّتة على الجدران، والتي تم تلبيسها بعد ذلك بالصلصال أو الجصّ، لإعطائها شكلاً مميّزاً. لا شك في أن التقليد المتمثّل في الإفراط في تشكيل الجماجم بطبقات رقيقة من الطين يعيدنا بالذاكرة إلى أريحا وإلى الموجودات المشابهة في شرق المتوسط، حتى وإن لم يكن الأمر هناك يتعلق بجماجم حيوانية، وإنما بجماجم بشرية. وقد استُخدِم في ذلك في عين غزال الأردنية الجصّ أيضاً. غالباً ما انتصبت أسفل جماجم الثيران هذه مقاعد من الطين متّصلة بالجدار، وتشير أفاريز الأعمدة إلى مزيد من التقسيم الداخلي. بيد أننا لا نعلم بالضبط ما هي الأفعال الطقسية التي كانت تجري هناك. تبيّن أسنان الحيوانات المغروزة في

الجدران بشكل متكرّر أن هذه التجهيزات الداخلية لا بد أنها تقوم على تصوّرات فائقة التعقيد. كثيراً ما تفتقر التماثيل للرأس أو حتى للذراعين والساقين. ثمة تمثال بشري بساقين منفرجتين يذكّر بمشهد مشابه من غوبكلي تيبي الأقدم تاريخياً بكثير، ويمكن اعتباره مشهد إخصاب. فيما عدا ذلك لا يكاد يكون هناك أيّ قواسم مشتركة بين الموقعين من حيث الموضوعات المصوَّرة، بينما ترجح كفّة الفوارق والاختلافات بشكل واضح.

أقدم تصوير خرائطي للبشرية

هناك فوارق أساسية بين الموقعين في تقنية التنفيذ أيضاً. ففي حين أن الموضوعات في غوبكلي تيبي محفورة في سطوح الحجر، تم رسم الصور الحيوانية والبشرية في تشاتال هويوك على ملاط طيني باللون الأبيض أو البيج أو الأحمر أو البنّي أو الأسود. غالباً ما تبدو الرسومات المنظَّمة هندسياً أشبه بسجّادات جدارية، وربما يُفترَض بها أن تحاكيها أيضاً، لا سيما أنه حتى الدروز تظهر في بعض الأحيان. أما بصمات اليد فتعيدنا بالذاكرة إلى رسوم الكهوف في العصر الحجري القديم الأعلى في جنوب غرب أوروبا. من الجدير بالملاحظة أنه يكاد لم يتم تصوير الحيوانات المنزلية في تشاتال هويوك، مع أنها بدأت سلفاً بتربية الماشية. بدلاً منها تهيمن الحيوانات البرّية، وحتى وإن كان الصيد لا يزال يمثّل إكمالاً غذائياً هاماً، إلّا أن كثرة ظهور الخنازير البرّية أو الأرانب أو الدببة هو أمر مثير للدهشة. أما بالنسبة للفهود والحيوانات المفترسة الأخرى، التي لم يكنْ يتم صيدها ولا أكلها بالطبع، فقد تكون هناك أسباب حاسمة أخرى. وإذا كان طيف صور الرسومات الجدارية في تشاتال هويوك لا علاقة له بنمط الاقتصاد عند سكّانها، إلّا أنه يبدو أنه يعكس في الغالب ذكرى زمن ماضٍ بعيد. ثمة موضوع يبدو أنه خارج عن المألوف، وقد فسّره المنقّبون على أنه مخطّط لمستوطنة ذات منازل متلاصقة مع تقسيمها الداخلي (الشكل 20، 2). أما منتقدو هذا التفسير فيميلون إلى أن يروا في ذلك تصويراً لجلد فهد يُحتمَل أنه تم رسمه وكأنه معلّق على الجدار.

ولكن الاختلاف الجوهري بين تشاتال هويوك وغوبكلي تيبي الأقدم منها يكمن في المقام الأول في أن غوبكلي تيبي عبارة عن مجمّع معابد ضخمة من أجل المجتمع بأكمله، في حين امتلكت كلّ عائلة في تشاتال هويوك مذبحها المنزلي الخاص. لا نعلم ببساطة أيّ شيء ملموس عن المخيال الديني ـ الروحي في ذلك الوقت؛ بالتالي تظلّ مقارباتنا ومحاولات تفسيرنا تنطوي على جانب كبير من التكهّن والتخمين. وينطبق هذا على سبيل المثال على الصور التالية أيضاً: الطيور الشبيهة

بالنسور، والتي تنقضّ على كائنات بشرية بلا رأس، قد تدفعنا إلى التفكير في ما إذا لم يكن المتوفّون يُترَكون عرضة للطيور الآكلة للجيف. وقد تم توثيق عادات موتى من هذا القبيل تاريخياً بعد آلاف السنين، حيث مارسها أتباع العقيدة الزرادشتية. يستحيل أن يكون عدد حالات الدفن المكتشفة في تشاتال هويوك ممثِّلاً لحجم السكّان الإجمالي؛ لا بد أنه عاش هناك أناس أكثر بكثير. ولكن ما الذي حدث للموتى الذين لا يمكننا تقديم أيّ دليل عليهم؟ هل تم التخلّص منهم في طقوس الموتى والنسور؟ ربما، لا نعلم.

في كلّ الأحوال، لا تدع أعمال الزخرفة والتزيين على الجدران الداخلية في تشاتال هويوك مجالاً للشك في أن تصميم المنازل كان أمراً هاماً جداً بالنسبة للسكّان. ولا تغيّر في ذلك شيئاً حقيقة أن معظم المباني كانت مطلية من الداخل باللون الأبيض فقط ولم تُظهرْ أيّ صور جدارية مُتقَنة. وإذا ما نظرنا إلى الموجودات بمجملها، فإن تراكيب الصور المُتقَنة ومتعددة الأجزاء تشكّل استثناءً. تسمح الحقيقة التي مفادها أن الرسومات الجدارية تم تنفيذها من جديد مراراً وتكراراً بالافتراض أنه ربما لم يكنْ يتم صنعها إلّا لفترة قصيرة ومن أجل مناسبات محدّدة حصراً. قد تكون هذه المناسبة حالة دفن تحت أرضية المنزل مثلاً، مثلما تم اكتشافها غير مرة. تتكرّر موضوعات الصور والرسومات الجدارية مراراً. وهذا يدعو إلى التفكير في متخصّصين كانوا يصنعون مثل هذه الأعمال الفنّية <حسب الطلب>، وربما كانوا يتوافرون على منظومة ثابتة من الرموز والإشارات ومفهومة من قبل أفراد المجتمع. ويُرجَّح أن مثل هذه المنظومة تم تناقلها عبر الأجيال وترسّخت في معتقدات وعادات سكّان تشاتال هويوك.

ظواهر عبادة مشتركة وخصوصية

لا شك في أن موجودات تشاتال هويوك غير عادية، وطالما أن المرء لم يعدْ يعرف المزيد عن مواقع PPN B المذهلة، مثل نيفالي تشوري أو غوبكلي تيبي، فقد أثارت هذه الموجودات ضجّة كبيرة أيضاً؛ فهي تمثّل مستوطنة كبيرة في منتهى التعقيد من النمط الريفي المبكّر، حتى وإن لم يكنْ بالإمكان بعد أن يدور الكلام بالتأكيد عن مرتكزات أولى للتحضّر. ومهما كانت الموجودات المكشوف عنها في تشاتال هويوك لافتة ومثيرة للإعجاب، يبدو أنه لم يكنْ لها تأثير خارجي يُذكَر. يبقى هذا الموقع معزولاً على هضبة قونية؛ ولم يُعثَرْ على نظير له في أيّ مكان. لا بد أن العبادة والطقوس لعبا دوراً هاماً في هذه المستوطنة، مثلما تبيّن الرسومات الجدارية والنقوش البارزة والتماثيل الصغيرة، غير أن المباني الخاصة، التي عُثِرَ عليها بشكل متكرّر في مستوطنات PPN

B، والتي يمكن تفسيرها على أنها مباني عبادة، تغيب تماماً في تشاتال هويوك بحسب شهادة الحفريات حتى الآن. في حين أن الطقوس في غوبكلي تيبي حدّدت التصميم المعماري للمكان وكان الهدف من الموقع بكامله تأثيراً خارجياً يشمل مجتمع الإقليم بكامله، يبدو الحدث التعبّدي فـي تشاتال هويوك - علـى غرار الاقتصاد - حدثاً <خصوصياً>؛ حيث يبقى مسحوباً على المنازل أو على الوحدات السكنية على أية حال. بالتالي يطرح السؤال نفسه عمَّـا إذا كانت تشاتال هويوك مبدِعة أو مبتكِرة حقاً بمعنى من المعاني. هل تم هناك بالفعل تطوير أشكال جديدة من التعايش والاقتصاد القروي المبكّر، كان لها عندئذ تأثير واضح في الأقاليم المجاورة؟ أم أن واقع الحال في سهل قونية كان أشبه بتطوّر معوّق مقارنةً بأحداث فترة PPN B في أعالي بلاد ما بين النهرين؟ ألم يحاول المرء هناك على الأرجح أن يستوعب الانقلابات، التي كانت تحدث سلفاً في أماكن أخرى، وأن يجعلها مفهومة ويعالجها، وذلك في وقت كانت فيه الحدثيات الدراماتيكية في الهلال الخصيب قد بلغت مرحلة جديدة كلياً منذ زمن طويل؟

أشيكلي هويوك كنموذج سابق لتشاتال هويوك

هل كان نمط البناء المتلاصق وحركة المرور عبر الأسطح على الأقل من خصائص تشاتال هويوك إذن؟ ولا حتى هذا! فإلـى الشمال من منطقـة أكساراي تم اكتشـاف موقع أشيكلي هويوك، وهو موقع ما قبل فخاري بالكامل ويتوافق مع فترة PPN B في جنوب شرق الأناضول. يعود تاريخ طبقات المستوطنة الثلاث عشرة المكشوف عنها في هذا التلّ الواقع على مرتفع أعلى النهر إلى الفترة الممتدّة بين 8200 و7400 قبل الميلاد. إذن فقد تمت مغادرة أشيكلي هويوك في وقت كانت فيه مستوطنة تشاتال هويوك قد بدأت للتو؛ بالتالي كانت أشيكلي هويوك بشيراً لتشاتال هويوك. من هنا يمكن القول: إن أشيكلي هويوك هي موقع أقدم مجتمع مستقرّ في هضبة وسط الأناضول على الإطلاق. يُفترَض أن اختيار المكان لم يتقرّرْ بالموقع المناسب وحسب؛ وإنما وُجِدَ في الجوار القريب مقلع سَبَج هام أيضاً سبق أن استُخدِمَ من قبل صيّادي وجامعي العصر الحجري القديم الأعلى.

تبدي هياكل المباني وأشكال المنازل في أشيكلي هويوك أوجه تطابق مع تشاتال هويوك إلى حد بعيد. كان الوصول إلى الأكواخ الطينية المتلاصقة المكوّنة من حجرة واحدة في هذه المستوطنة يتم عبر الأسطح بالدرجة الأولى، كما كانت الأسطح فيها أيضاً مناطق النشاط الأساسية لمختلف الأعمال. وكان المرء يصل إليها، كما هي الحال في تشاتال هويوك أيضاً، عبر سلالم تقود إلى داخل

المباني عبر فتحة الضوء. شكّل الآجرّ الطيني أساس العمارة في أشيكلي هويوك منذ البداية. كان قد تم جمع المنازل البسيطة إلى وحدات سكنية أكبر، على غرار الحال في تشاتال هويوك مجدداً. وقد وُجِدَ فيما بينها مناطق مفتوحة تخدم كأماكن لجمع القمامة. تبعاً لذلك فإن نمط بناء المنازل وتصميم المستوطنة الموثَّق لأول مرة في تشاتال هويوك لم يتم استيراده من الجنوب الشرقي، وإنما نشأ في وسط الأناضول كما هو واضح؛ فهو يرجع إلى تقليد محلي طويل يبدو أن جذوره تكمن في الألفية التاسعة قبل الميلاد.

مبانٍ ذات وظيفة عامة

من الجدير بالملاحظة أنه وُجِدَ في أشيكلي هويوك بعض المباني الأكبر، التي تصل مساحتها الأساسية إلى 500 متر مربّع، وتختلف بشكل واضح عن باقي المباني من حيث الشكل والتجهيزات. ولا بد أن يُنسَب لها وظيفة عامة في المجتمع الاستيطاني، حتى وإن كنا لا نعرفها، ناهيك عن قدرتنا على توصيفها. لا تدع المادة المكتشفة في أشيكلي هويوك مجالاً كبيراً للمزيد من التفكير والتأمّل، ذلك أنها تقتصر على الأدوات الصوّانية. لا يزال الفخار غائباً، ولا يُعرف من مجمل المساحة الاستيطانية المكشوف عنها حتى الآن سوى تمثال حيواني صغير واحد من الصلصال، على غرار ما هو معروف في وسط أوروبا منذ فترة الغرافيتيان. ولم تُكتَشفْ بقايا أخرى لإنجاز فنّي أو شواهد على فكر ديني، هذا على الرغم من أن موقع أشيكلي هويوك لم يغيّرْ وجهه أبداً على مدى ألف سنة تقريباً.

أولى محاولات التدجين في وسط الأناضول

كان سكّان أشيكلي هويوك قد بدؤوا سلفاً بشكل متفرّق بزراعة الإيمر والأينكورن والشعير وحتى بعض البقوليات. كما مارسوا في الوقت نفسه اقتصاد جمع مكثَّف، حيث ركّزوا على الشعير البرّي والمكسّرات (الفستق الحلبي واللوز) والثمار والتوتيات وغيرها من النباتات الصالحة للأكل. هذا التوازي بين الزراعة المبكّرة ونشاط الجمع الذي ظلّ سائداً بدايةً كان أمراً مألوفاً، لا سيما في مرحلة مبكّرة من العصر الحجريّ الحديث بعد ظهور الاستقرار مباشرةً. ولكن في سياق الفترة اللاحقة جرت في كلّ مكان تطوّرات حثيثة نحو الزراعة، سواء من الناحية الاجتماعية أم لجهة تقنيات الإمداد بالطعام.

لم يتم إثبات تربية الماشية في أشيكلي هويوك بعد حتى الآن. بالتالي كان الإمداد باللحوم يتم عبر الصيد في المقام الأول، ويبدو أن الأغنام البرّية والماعز البرّي والخنازير البرّية والأبقار البرّية كانت محبَّبة بشكل خاص. أسفر تقييم العظام الحيوانية عن نتيجة جديرة بالملاحظة: من الواضح أنه لم يتم صيد الحيوانات البرّية إلّا بعد أن تبلغ سنّاً معينة؛ أي كان يتم انتقاء الفريسة بشكل هادف ومقصود. ولا يمكن تفسير ذلك في الواقع إلّا بالقول: إن الغاية من هذا التدبير كانت الحفاظ على التجدّد المبكّر المرة تلو الأخرى عن طريق ترك الحيوانات الفتية تكبر وتتكاثر. على هذا النحو تم حفظ الأنواع الحيوانية وحمايتها من تراجع شديد كان من شأنه أن ينتهي بانقراضها. بالتالي نرى في نهج صيّادي أشيكلي هويوك نوعاً من الإدارة المستدامة للثروة الحيوانية البرّية. صحيح أنهم لم يدجّنوا الأغنام والماعز، إنما لا بد أن نأخذ بالاعتبار أنهم احتفظوا بها تحت السيطرة على الأقل. ويبدو هذا خطوة لا يُستهان بها قياساً إلى ممارسة الصيد في الحقب السابقة، لأنه يكشف علاقة متغيّرة جذرياً بين الإنسان والحيوان. أما في تشاتال هويوك - وكان المرء قد تقدّم فيها قليلاً في التطوّر الثقافي - فقد تم تدجين الأغنام والماعز، كما ذكرنا سابقاً، بينما استمرّت الأبقار في أشكالها البرّية فقط؛ ولم تظهرْ كحيوانات منزلية إلّا قبل التخلّي عن المستوطنة بفترة قصيرة.

الدفن في المستوطنة وأدوار الجنسين

تُعرَف القبور المحفورة تحت أرضيات المباني السكنية في العديد من مواقع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري والفخاري المبكّر. ولكن عددها في أشيكلي هويوك مرتفع بشكل مدهش، حيث تم العثور في نحو 400 منزل منقَّب فيها على 76 حالة دفن. والمفاجئ في ذلك هو سنّ وفاة الأفراد، التي تكشف عن فوارق بارزة بين الجنسين. هكذا، كثيراً ما بلغ الرجال سنّاً تتراوح بين 55 و 57 سنة، في حين تُوفّيت النساء بعمر يتراوح بين 20 و 25 سنة عادة. ولا يمكن حتى الآن تقديم إجابة قاطعة عن السؤال عمَّا إذا كان هذا الموجود يعود إلى الوفاة أثناء الوضع أم إلى مستوى الإجهاد الجسدي الأعلى بوضوح مقارنة بالرجال. مع ذلك لا يتناسب عدد حالات الدفن المكتشفة داخل مستوطنة أشيكلي هويوك إلّا مع جزء من السكّان الذين عاشوا فيها فيما مضى، على غرار الحال في تشاتال هويوك أيضاً. لذلك يمكن القول إن معظم الأموات لا بد أنهم دُفِنوا في موضع آخر خارج المستوطنات أو ربما تُركوا وشأنهم، وقد سبق أن تطرّقنا إلى هذا الموضوع. ولا نعلم سبب تلقّي أولئك الأشخاص، الذي دُفِنوا داخل المستوطنة، مثل هذه العناية الخاصة بالموتى، وما هي المعايير التي تم اختيارهم بموجبها.

خلاصة:

بينارباشي واستمرار حياة الصيد والجمع

تلقي المكتشفات والموجودات في أشيكلي هويوك وتشاتال هويوك ضوءاً ساطعاً على الإنسان الذي استقرّ وأصبح منتجاً اقتصادياً بالتدريج في جنوب وسط الأناضول. ومع مستوى الأبحاث الحالي يمكن اعتبار الموقعين كليهما مستوطنات مرجعية لعملية التحوّل هذه. قبل تأسيس أشيكلي هويوك كانت مجموعات صيادي وجامعي العصر ما فوق الحجري القديم تجوب سهل قونية حتى الألفية التاسعة قبل الميلاد، وخلّفت آثاراً واضحة في بينارباشي على سبيل المثال. وقد عثر المنقّبون هناك على معسكرات تحت ملاذات صخرية وفي مكان معيشة واسع على تلّ واقع أمامها. وفي حين لم تُستخدَمْ الملاذات الصخرية ربما سوى لأجل قصير، أو موسمياً، يمكن تفسير المسقرّ بأنه خطوة نحو ارتباط أشد بالمكان قادت أخيراً إلى نشوء أول مستوطنة متعدّدة لطبقات في أشيكلي هويوك.

كان المرء قد شيّد في تجويفات مسطّحة في بينارباشي مبانـيَ سكنية بسيطة من جدران مضفّرة. كان الطيف الغذائـي لسكّانها واسعاً، وامتدّ من الحيوانات البرّية والطيور مروراً بالأسماك وصولاً إلى النباتات البرّية الصالحة للأكل. ويشهد السَّبَج وغيره من المواد الخام اللازمة لإنتاج الأدوات المتخصّصة الموثَّقة هناك على شبكة واسعة من الاتصالات البعيدة. وقد تم العثور على حالات دفن سواء تحت الملاذات الصخرية أم في مكان المعيشة. بالتالي فإن العادة المُثبَتة بانتظام في المستوطنات ما قبل الفخارية أو بالأحرى مستوطنات العصر الحجري الحديث المبكّر مثل أشيكلي هويوك أو تشاتال هويوك، والمتمثّلة في دفن المتوفّين في منطقة المباني السكنية تحت أرضياتها أو جدرانها، اتّبعت تقليداً قديماً جداً. من هنا يمكن القول إن هذا النوع من ربط الأحياء بالأموات والرغبة في الاحتفاظ بهم بقربهم لم ينشأ مع استقرار الإنسان أولاً، وإنما يعود إلى زمن مجموعات الصيد والجمع المتحرّكة والمتنقّلة.

صيّادو الأبقار في موسولار

من الجدير بالملاحظة أن الملاذات الصخرية في بينارباشي تم استخدامها كمعسكرات حتى الألفية السابعة قبل الميلاد بشكل موسمي من قبل الصيّادين والرعيان؛ أي أن نمط حياة الصيد والجمع استمرّ بعد الاستقرار وبعد بدء الزراعة وتربية الماشية حتى فترات الاستيطان الأحدث في تشاتال هويوك. هذا ما تثبته موجودات كتلك التي عُثِرَ عليها في موسولار بالقرب من أشيكلي هويوك. على غرار الحال في بينارباشي عثر المرء هناك على مساكن بسيطة جداً مُدمَجة في تجويفات أو منخفضات في الأرض، يعود تاريخها في الواقع إلى منتصف الألفية الثامنة قبل الميلاد، مما يعني أنها وُجِدَت بالتزامن مع أشيكلي. كان واقع الحال في موسولار عبارة عن معسكر متخصّص لصيّادي الأبقار، حيث تم صنع المعدّات اللازمة لصيد وتقطيع الحيوانات من جهة، والاستفادة من المنتجات الحيوانية مباشرةً من جهة أخرى، في إطار إنتاج الجلود ومعالجتها المتخصّصة مثلاً. تعود أهمية موسولار بشكل خاص إلى أن المكتشفات في هذا الموقع تثبت بشكل مقنِع أنه وُجِدَ، إلى جانب المستوطنات الدائمة ذات البدايات الناشئة تدريجياً في تربية الماشية والزراعة، نمطٌ ثانٍ من الحياة في قطاعات اقتصادية معينة اتّبع التقاليد المتوارثة منذ عشرات الآلاف من السنين. إذن، حتى وإن وُجِدَت سلفاً مستوطنات كبيرة وممتدّة، وكانت منظَّمة بصرامة ومأهولة على مدى قرون، إلّا أن هذا لا يعني على الإطلاق أن السكّان بأكملهم كانوا مقيّدين هناك. علينا أن ننطلق إذن، فيما يخصّ صورتنا عن بداية العصر الحجري تحديداً، من تعايش أشكال مختلفة جداً من الحياة والاقتصاد جنباً إلى جنب. لا شك في أن تكوين نماذج أرشيولوجية للصورة الإجمالية عن هذه الحقبة، التي ترتبط بشكل وثيق بمكتشفات الحفريات في المستوطنات المعروفة، يحجب رؤية التنوّع الاجتماعي في زمن الانقلاب.

مبنى خاص في وسط الأناضول أيضاً

ثمة موجود جديد بالملاحظة في موسولار يشير إلى أنه ربما وُجِدَ في جنوب وسط الأناضول تعايش لمخيالات وطقوس محتلفة فـي تلك الفترة؛ فقد عثر المرء هناك على نوع من المباني الخاصة لم يخدمْ أيّ أغراض سكنية. كان يحتوي على منخفضات حوضية الشكل في الوسط ومقاعد من الطين على الجوانب وقوائم خشبية مثقَّبة من أجل هيكل البناء إضافة إلى أرضية جيرية مصبوغة باللون الأحمر في الداخل، بخلاف جميع مساكن هذا الموقع. صحيح أن الاعتبار التالي عبارة عن تخمين لا أكثر، ولكن لو صحّ أن هذا المبنى خدم أغراضاً اجتماعية، بمعنى احتفالات وطقوس مجتمع صيّادي الأبقار الذي عاش هناك، فإنه يعني أن ثمة موجوداً يتكرّر هناك بعيداً عن جنوب شرق الأناضول، مشابهاً جداً لما تم العثور عليه في المستوطنات ماقبل الفخارية في تشايونو

أو نيفالي تشوري أو في غوبكلي تيبي، ولو في تصميم معماري مختلف كلياً. بالتزامن مع مستوطنات أشيكلي هويوك وتشاتال هويوك ذات الهيكلية المختلفة كلياً يبدأ شيء جديد لم تعد الحياة الطقسية المتّسمة بالاحتفالات الكبيرة عند صيّادي وجامعي العصر ما فوق الحجري القديم تجد فيه أيّ تعبير لها، من الناحية المعمارية على الأقل.

إذن، في حين أن مكتشفات، كتلك التي عُثِر عليها في موسولار وتشير بلا شك إلى صلات بجنوب شرق الأناضول، لها أهمية كبيرة في فهم مجموعات الصيّادين والجامعين التي واصلت العيش في وسط الأناضول حتى زمن المستوطنات الكبيرة المنظَّمة كما هو واضح، لا يمكن تفسير مواقع مثل أشيكلي هويوك وتشاتال هويوك في شكلهما وتصميمهما النوعيين تماماً على أنهما نتيجة لانتقال من مناطق ما يُسمّى الهلال الخصيب. والأرجح أن الأمر فيهما يتعلق بتطوّر أصيل. والحق أن ما يربط الموقعين بطريقة خاصة جداً، على الرغم من زمنيهما المختلفين، هو حقيقة أنهما لا يبديان تعدّد الطبقات وحسب، بمعنى طبقات الاستيطان المتراكبة بعضها فوق بعض، وإنما يُظهران أيضاً وبالتفصيل متانة وقوة تحمل واضحة في هياكل البناء المختارة. هذا ما يشي بدوره بتقليد ملْكية العقارات وبالرابطة الوثيقة بين المباني والأشخاص أو العائلات، والتي من الواضح أنها كانت فعّالة على مدى أجيال. كما يمكن أن تُستخلَص من ذلك استنتاجات فيما يخصّ علاقة الناس بالملْكية والممتلكات.

استقلالية التطوّر في وسط الأناضول

لم يتم العثور في شرق المتوسط وفي غيره من مناطق الشرق الأوسط على نماذج مماثلة ولا على موازيات مقنِعة حقاً لهذا الثبات في المكان، وهذا الاصطفاف المتلاصق في المباني، التي لا يمكن بلوغها إلّا عبر الأسطح. بالتالي هي تَسِم عملية أصيلة بشكل صريح. لا يستبعد هذا بأيّ حال وجود مؤثّرات ومحفّزات من أعالي بلاد ما بين النهرين، التي كان قد بدأ فيها التحوّل التدريجي إلى الاستقرار والاقتصاد الإنتاجي في وقت سابق. وتبدو مثل هذه الاتصالات الثقافية أكثر احتمالاً إذا علمنا أن السكّان الذين عاشوا هناك في ذلك الوقت كانوا يستجرّون السَّبَج اللازم لهم من شرق ووسط الأناضول، أي أنه كان هناك بالتأكيد شبكة واسعة جداً من الاتصالات التجارية.

كما هي الحال في الهلال الخصيب فرضت نفسها هناك أيضاً تربية الحيوانات وزراعة النباتات بالتدريج البطيء في سياق عملية استغرقت وقتاً طويلاً جداً. وقد دام الأمر وقتاً أطول حتى تمت تنحية لحوم الطرائد ونباتات الجمع إلى الخلفية بشكل واضح، علماً بأنها لم تختفِ كلياً من قائمة

الطعام أبداً. لا تشترط أشكال الحياة والاقتصاد الموثَّقة في أشيكلي هويوك وتشاتال هويوك معارف خاصة وتقسيماً للعمل في عملية إنتاج الغذاء الناشئة فقط. فإذا أمكننا أن نتصوّر صنع أدوات صوّانية وأحجار طحن ومدقّات في كلّ منزل، حيث يهتدي منتجوها بحاجتهم الشخصية، فلا بد من وجود تنظيم أعلى لا يمكن أن يعمل من دون توزيع واضح للمهمات والمسؤوليات، وذلك فيما يخصّ الحصول على المواد الخام، التي تقتضي نهجاً أشد تعقيداً في التنقيب والاستخراج أو يجب إحضارها من مناطق بعيدة. إذا كنا نعرف مسبقاً شيئاً من هذا القبيل، من صيد الطرائد في العصر الحجري القديم الأعلى، فربما انطلقت تدريجياً، مع بداية الاستقرار، وما يتطلّبه مرة أخرى من تنظيم عمل مشدَّد، عمليةٌ أدت سلفاً إلى ظهور الأشكال المبكّرة من الحرف اليدوية.

الفنّ وعوالم الحياة المتغيّة بشكل دراماتيكي

في كلّ الأحوال توثّق تزيينات الجدران الداخلية، التي ميّزت التطوّرات الملاحظة في تشاتال هويوك، الإلمام بالموضوعات والتقنيات، الذي لا يمكن افتراض توافره بالتأكيد إلّا عند دائرة محدودة جداً من الأشخاص، الذين يجوز لنا أن نصفهم بالمتخصّصين والفنّانين في مجالهم. والحق أن التصوير الواقعي للأبقار وغيرها من الحيوانات البرّية، والذي كان سائداً لديهم مقارنةً مع الأغنام والماعز المدجَّنة سلفاً، والتي لا تكاد تظهر في أعمالهم، يعيدنا بالذاكرة مرة أخرى إلى شدة ارتباطهم المستمرّ بالطبيعة المحيطة، على الرغم من أن الإنسان، ومن خلال تربية الماشية وزراعة النباتات، كان في صدد التأثير في هذه الطبيعة بشكل مستدام وتحويلها إلى ما يناسبه ويتّفق مع مصالحه. وربما تمثّل الصور الجدارية في تشاتال هويوك أيضاً شكلاً من أشكال معالجة التغييرات الدراماتيكية في العلاقة بين الإنسان والحيوان، لا بل بين الإنسان والبيئة عموماً، والتي أخذ يختبرها بشكل متزايد على أنها قابلة للسيطرة عليها وتغييرها أكثر فأكثر. كان الوعي بالمقدرة على تشكيل العالم الخارجي على نحو أكثر ديمومة تجربة قوية من الناحية الفكرية على الأقل. تجربة سمحت، بل ربما طالبت بإدماج فعل السيطرة على العالم هذا في الشكل المتسامي للسيطرة الفنّية حتى على الحيوانات الخطرة جداً مثل الفهود داخل المنازل.

5
بدايات نشأة المدينة في بلاد ما بين النهرين

خلال العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري (PPN A وPPN B)، بين الألفية العاشرة والألفية السابعة قبل الميلاد تغيّرت ظروف الإنسان الطبيعية والاقتصادية والثقافية في ما يُسمّى الهلال الخصيب بشكل جذري جراء الاستقرار وتدجين النباتات والحيوانات. ربما كان هذا أبلغ وأشمل تحوّل في تاريخ البشرية عموماً. وإذا كان الأمر كذلك طرح نفسه السؤال حتماً عمَّا حدث بعد ذلك: ما هي الابتكارات الأساسية التي ميّزت التطوّر اللاحق في الشرق الأوسط في الألفيات التالية؟

يُعدّ اختراع الفخار من السمات المميزة للفترة التالية للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري، وقد أصبح الفخار منذ ذلك الحين جزءاً لا يتجزّأ من الحياة البشرية اليومية حتى يومنا هذا. كما أصبحت الأواني الفخارية المحروقة في تنوّعها الشكلي الكبير اللازم لكلّ الاستخدامات الممكنة حامل الزخرفة المفضَّل، ويبدو أن أساليب التزيين الموثَّقة في ذلك تعبّر بلا شك عن خصائص مؤكّدة لهوية مجتمعات الاستيطان في أزمنة معينة، الأمر الذي اعتاد عالم الآثار أن يصفه بـ «الثقافات» أو «المجموعات الثقافية»، وهذا غير دقيق من الناحية المنهجية. من المؤكّد أن بإمكان المرء أن يُكمل ذلك بحوامل أخرى لخصائص الهوية كالأزياء التقليدية على سبيل المثال، أو رسوم الجسد أو بالأحرى الوشوم، التي ربما كانت أشد تعبيراً وتمييزاً، ولكنها لا تبقى محفوظة من عصور ما قبل التاريخ عادةً.

جَرمو وبداية العصر الحجري الحديث الفخاري

يجد الجزء الأقدم من العصر الحجري الحديث الفخاري تمثيله في مواقع مثل جَرمو وأم الدباغية، التي بدأ تاريخها في النصف الأول من الألفية السابعة قبل الميلاد سلفاً وتواصل بعد PPN B. أما كيف حلّت الفترة الفخارية محلّ الفترة ما قبل الفخارية، وما إذا كان هناك ربما شيء من التعايش بين الحين والآخر، فهي أسئلة مطروحة على الأبحاث المستقبلية. الواضح هو أن مواقع PPN B المركزية مثل غوبكلي تيبي تم التخلّي عنها ولم تشهدْ مزيداً من الاستخدام. فضلاً عن ذلك يبدو كما لو أن مركز ثقل الاستيطان انتقل من مناطق التلال، التي تحيط بسهول دجلة والفرات في الشمال على شكل هلال، باتجاه هذه السهول النهرية بالضبط، ذلك أننا نعثر هناك على وجه التحديد على أقدم مواقع مجتمعات الاستيطان المنتجة للفخار. لا يعرف فخار جَرمو وأم الدباغية سوى أشكال بسيطة جداً من الأواني، التي تتكوّن من جدران سميكة غير مزيَّنة ومقوّاة بمواد نباتية، وهي تقنية يتم بها تثبيت الصلصال الدهني جداً عن طريق إضافة مواد أخرى.

تقع جَرمو في السفوح الغربية لجبال زاغروس، التي تمتدّ بعيداً إلى السهول المنخفضة لبلاد ما بين النهرين. كان محيطها الطبيعي يتكوّن من غابات البلّوط والفستق الحلبي. كانت القرية ما قبل التاريخية مستوطنة مأهولة على مدى فترة زمنية طويلة جداً امتدّت لقرون، من دون انقطاعات يمكن إثباتها من ناحية أثرية. يميّز المنقّبون اثنتي عشرة طبقة، كلّ منها تضمّ قرية صغيرة لا يتجاوز عدد منازلها 25 منزلاً، وتتّسع لنحو 150 إنساناً إجمالاً. كان للمنازل مساقط أفقية بسيطة، وترتكز جدرانها المصنوعة من الطين المجفَّف في الهواء على أساسات حجرية، وهو نمط من البناء لا يزال مستمرّاً كشكل معماري تقليدي في الشرق الأوسط حتى يومنا هذا. من المكتشفات التي تم العثور عليها أدوات من السَّبَج، الذي جاء من بحيرة فان في شرق الأناضول. يُضاف إلى ذلك أصداف ظريفة من الناحية الجمالية من الخليج العربي استُخدِمَت في صناعة الحلي. تشير هذه الأمثلة إلى ضرورة وجود تجارة بعيدة ومنظَّمة في شمال بلاد ما بين النهرين في زمن نشأة الاستقرار، ربما تعود جذورها إلى زمن سبق تأسيس المستوطنات الدائمة. كان لمختلف المعدّات والأوعية علاقة بالحصاد وبإعداد وتخزين المواد الغذائية. وقد ضمّت قائمة الطعام بشكل موثَّق الإيمر والأينكورن ونوعاً من الشعير البدائي والعدس؛ ومن الحيوانات المدجّنة كان هناك الماعز والأغنام، ولا يمكن إثبات الخنازير إلّا في الطبقات الأحدث. تظلّ الشواهد على الإنجاز الفنّي شحيحة، وتقتصر على تماثيل فخارية حيوانية وبشرية الشكل، تبرز من بينها بشكل خاص تماثيل صغيرة لنساء حوامل، ويبدو أن اختيار هذا الموضوع لا يزال يبدي صلات بتقاليد العصر الحجري القديم الأعلى بلا شك.

إلى الغرب قليلاً، عند أعالي نهر دجلة تقع أم الدباغية في منطقة جافة جداً ذات هطول مطري غير منتظم وفترات طويلة من القحط؛ بالتالي لم تكنْ الزراعة المطرية ممكنة هنا، ذلك أنها تتطلّب أن تكون كمية الهطول أكبر من التبخّر. لذلك يُرجَّح أن مستوطنة أم الدباغية لم تكنْ تُقصَد إلّا موسمياً. يذكّرنا مجموع المكتشفات بجَرمو من نواحٍ كثيرة. حتى إنه يمكن إثبات استيراد السَّبَج من شرق الأناضول؛ الأواني الفخّارية البسيطة مطلية بالمغرة أو مزيَّنة بالحزوز. كانت بنية المستوطنة غير عادية، إذ إن المباني كانت تتكوّن من عدد لا حصر له من الحجرات المربّعة تقريباً بطول جانبي يبلغ مترين كحد أقصى وجدران طينية تبلغ سماكتها 50 سنتيمتراً. وقد تم جمع هذه الحجرات إلى مساقط أفقية شديدة الاختلاف، بعضها متطاول وأكثر تعقيداً ويصل طوله إلى 50 متراً. يكشف التخطيط الغريب للموقع، إضافة إلى الاصطفاف المتطابق تقريباً لجميع المباني، خطّاً تخطيطياً وتنظيماً فوقياً. إذا لم تكنْ بنية الجدران عبارة عن هياكل أساسية حصراً فلا بد أن حركة المرور بين حجرات المباني كانت تتم عبر الأسطح لعدم وجود ممرّات فيما بينها، على غرار ما أمكن إثباته في تشاتال هويوك كذلك، والتي كانت قائمة في سهل قونية في الوقت نفسه تقريباً.

أما تفسير مستوطنة مشيّدة بهذا التنظيم غير العادي فيبقى معلقاً. يشمل طيف العظام الحيوانية أنواع الحيوانات المنزلية الشائعة في ذلك الوقت كالأغنام والماعز والأبقار والخنازير والكلاب، بيد أن أعدادها كانت قليلة جداً. يعود أكثر من 80 بالمئة من العظام لحيوانات برّية، من بينها عدد قليل من الأرخُص والضباع، وفي حين تكثر مصادفة عظام الغزلان في المادة المكتشفة، إلى حد ما، فإن الحمار البرّي الشرق أوسطي هو المهيمن بوضوح، بعد أن أصبح النوع الحيواني السائد في هذا المكان. سبق أن خمّن المرء أن أم الدباغية ربما كانت مستوطنة متخصّصة من صيّادي الحمير البرّية. قد تتّفق مع هذه الصورة على أية حال الرسوم الجدارية أيضاً، التي لا تكاد تُظهر سوى الحمار البرّي. غير أن كلّ هذا لا يفسّر بعد المساقط الأفقية غير العادية للمباني. من الواضح أن الحجرات المربّعة لها وظيفة خاصة تماماً، ولكن ما هي؟ تقول إحدى النظريات إن أبناء أم الدباغية حاولوا تربية الحمير البرّية وربما حتى الغزلان؛ ويُفترَض بموجبها أنه تم وضع حيوان واحد في كلّ حجرة، أشبه بأسطبل. ثمة قطع فخارية تحمل رسوماً تمثّل حميراً برّية حوامل، يبدو أنها تدعم هذا الافتراض، لو كان سكّان أم الدباغية صيّادي حمير حصراً لكان اختيار هذا الموضوع تحديداً غير مفهوم في الواقع. على أن أكثر الفرضيات احتمالاً في الوقت الحاضر تنصّ على أن المساقط الأفقية ليست سوى هياكل أساسية لمباني تخزين أكبر. وهذا من شأنه أن يجعل سماكة الجدران التي لا يُستهان بها مفهومة، ذلك أن جدراناً بسماكة 50 سنتيمتراً في حجرة لا يتجاوز

قطرها المترين هو أمر يحتاج إلى تفسير بالتأكيد. علاوةً على أننا نعرف هياكل أساسية مشابهة في مواقع PPN B كـ (شايونو) على سبيل المثال.

ثقافة حسّونة

مع مواقع مثل أم الدباغية بدأ تطوّرٌ سرعان ما أدى بعد منتصف الألفية السابعة قبل الميلاد إلى ثقافة حسّونة، التي كانت منتشرة في شمال بلاد ما بين النهرين في الغالب. كان فخار مرحلة حسّونة المبكّرة لا يزال وثيق الصلة بالفخار المعروف من أم الدباغية؛ فقد هيمنت عليه الأواني الخشنة المصنوعة يدوياً، والتي تم حرقها بدرجات حرارة منخفضة؛ أُضيف إليها فخار أكثر دقةً ذو سطوح مصقولة وزخارف محفورة. وفي فترة حسّونة المتطوّرة باتت الأوعية كروية الشكل ذات العنق المنخفض، والمصنوعة من الصلصال الفاتح مع الرسوم والزخار ف المحفورة، أوعيةً نموذجية ظهرت في مواقع عديدة بأشكال متشابهة جداً. كانت الزخارف قائمة على المثلّثات والمعينات، وأُضيف في الأواني المرسومة نماذج شبكية ووجوه صغيرة. واقتصرت التماثيل الفخارية على التماثيل الفخارية الأنثوية في وضعية الوقوف.

مبان دائرية ومبان مستطيلة ومخازن حبوب

إذا أردنا أن نفهم ما يمكن أن يكون قد تغيّر في الحياة البشرية في هذا الإقليم، في أواخر الألفية السابعة قبل الميلاد، فعلينا أن ننظر إلى المستوطنات من جديد. سادت في فترة حسّونة المبكّرة المباني الدائرية، التي يتراوح قطرها بين 3 و5 أمتار، حيث أظهرت المباني الأكبر تقسيماً داخلياً بجدران فاصلة رقيقة. وهي تسمح بتفسيرها على أنها وحدات سكنية لعائلات صغيرة. وقد عُثِرَ إلى جانبها على مبانٍ ذات مساقط أفقية معقّدة، تتألّف من حجرات مربّعة وتذكّر بأم الدباغية. ولم يتم إيضاح وظيفتها بشكل صريح، حيث يُعتقَد هنا أيضاً أن الأمر يتعلق بهياكل أساسية لمخازن حبوب أو مبانٍ لتجفيف الحبوب. في كلّ الأحوال يجوز للمرء أن ينطلق من وظيفة كانت في خدمة المجتمع الاستيطاني.

تُعرَف مبانٍ من هذا النوع من فترة حسّونة الأحدث أيضاً، وتبدو هندستها المعمارية أكثر تطوّراً بصورة عامة، وتعرف المزيد من المنازل المستطيلة ذات الحجرات الداخلية المتعدّدة والمباني الملحقة أيضاً. كثيراً ما كانت مشيَّدة بشكل متلاصق، بحيث لم يكنْ بالإمكان الوصول إليها

إلّا عبر الأسطح. ومن المؤكّد أن الأسطح استُخدِمَت كمناطق عمل أيضاً لأنشطة مختلفة لم يشأ المرء أن ينقلها إلى الحجرات الداخلية في المباني السكنية. تبيّن العتبات والمفصّلات الحجرية للأبواب أنه لم يكنْ بالإمكان الوصول إلى الحجرات المفردة كما هو واضح عبر الأسطح وحسب، وإنما لا بد أنها كانت متصلة فيما بينها أيضاً.

أثاث المنزل ونمط الاقتصاد

تضمّن أثاث المسكن بشكل منتظم مدافئ ومقاعد طينية ومصاطب مرتفعة. عُثِرَ في الحجرات الداخلية على أحجار فرك وأوانٍ فخارية وأدوات من الصوّان والسَّبج وإبر وأدوات صغيرة مصنوعة من العظام إضافة إلى لآلئ من أحجار ومعادن مختلفة. وقد جاء السَّبَج من شرق الأناضول، كما هي الحال في جَرمو. ولكن بما أن السَّبج لا يظهر بين الأشياء المكتشفة إلّا على شكل منتجات نهائية حصراً تقريباً، بينما تُفتقَد النفايات التي تنشأ بالضرورة أثناء إنتاج مثل هذه الأدوات الحجرية، يمكن أن ننطلق بالطبع من أن التفاوض لم يتم على المادة الخام نفسها، وإنما على مجموعات كاملة من المعدّات مباشرة على ما يبدو. يثبت وجود العديد من المغازل أن المنسوجات أيضاً كانت تُصنَع في المنازل. بالمقابل لا تدلّ الأشياء المتفرّقة، مثل سوار من الرصاص في موقع يريم تيبي I، في الحال على نشاط تعديني عند سكّان حسّونة. كان الغذاء يعتمد على لحوم الحيوانات المنزلية والبرّية. وقد تمت تربية الخنازير والأغنام والماعز والأبقار، في حين تركّز الصيد على الغزلان والحمير البرّية والخنازير البرّية والأرانب. أما الطعام النباتي فتكوّن من الحبوب والبقوليات: شعير وقمح وعدس وبازلاء.

تمثّل الهياكل العظمية للأطفال إحدى خصائص ثقافة حسّونة. كانت توضع عادة في أوانٍ فخارية كبيرة يتم دفنها داخل المنازل تحت الأرضيات أو الجدران أو حتى تحت عتبات الأبواب. ولم يُعثَرْ على عظام راشدين في نقاط اكتشاف مماثلة إلّا بشكل متفرّق جداً، مما يدعو إلى الافتراض أنه تم دفنها خارج المستوطنات. أما مرفقات القبور فهي قليلة وتقتصر على أوانٍ فخارية وعظام حيوانية (مرفقات من اللحوم)، وكان بينها لآلئ في بعض الأحيان.

أقدم آلة موسيقية في الشرق الأوسط

من المكتشفات المفردة الجديرة بالملاحظة بصفة خاصة ناي طيني عليه رسوم من مستوطنة يريم تيبي I في فترة حسّونة، ويمكن أن يُعدّ واحدة من أقدم الآلات الموسيقية في الشرق الأوسط؛ صحيح أنه تم توثيق آلات الناي في العصر الحجري القديم الأعلى أيضاً، ولكن هذا لم يتم إلّا في أوروبا الوسطى حتى الآن. كما يعود إلى يريم تيبي I لوح كتف بقرة تظهر فيه حزوز لا يتم تفسيرها على أنها تصوير فنّي؛ والأرجح أنها تشكّل أقدم شاهد على عملية حسابية. يبقى أن نرى ما إذا كان هذا التفسير صحيحاً بالفعل. على أنه من المحقّق أنه حدثت في ثقافة حسّونة ابتكارات يمكن أن تُعدّ بدايات الهياكل الإدارية بلا شك.

حسّونة وبدايات الهياكل الإدارية

والحق أن ثمة مكتشفات من مستوطنة تل صبي أبيض في فترة حسّونة المبكّرة تتّفق مع هذا الإطار. فقد عثر المنقّبون هناك في الحقيقة على عدد كبير من الأختام المصنوعة من الطين والعظام، وربما من مواد أخرى، مزوَّدة بالعديد من النماذج الهندسية المختلفة وكذلك بتصاوير لحيوانات ونباتات. كان المرء يختم بها أقفالاً مصنوعة من الصلصال الرطب على أوانٍ فخارية وحجرية، وبالتأكيد على سلال وأكياس مصنوعة من مواد عضوية لم تبقَ محفوظة إلى اليوم. بمثل هذه الأختام يتم هنا لأول مرة تمييز الملْكية الفردية بشكل مقصود وواعٍ؛ كانت هذه الممتلكات الشخصية عبارة عن مواد غذائية من المفترَض تأمينها عن طريق هذه الأختام ضد الوصول غير المرخّص له. نظراً لأن هذه الأقفال يسهل فتحها ولا تمثّل أي تأمين مادي حقيقي، من المحتمَل أنها لم تخدمْ سوى في منع الاختلاط أو في كشف الانتهاك الواضح للقانون أو بالأحرى في منع المرتكبين المحتملين من القيام بذلك.

تمييز الملْكية

يُستنتَج من كلّ هذا أن كلّ عائلة أو كلّ منزل كان يتوافر في ذلك الوقت على نسبة أو حصّة مميّزة تماماً من المواد الغذائية، بغض النظر عمَّا إذا كان إنتاجها تطلَّب جهداً جماعياً أم لا. وحيث يتم تمييز الملْكية الفردية توجد تصوّرات قانونية. بالتالي يمكن القول إن تصوّرات الملْكية والمعايير القانونية سرعان ما وُلِدَت في الشرق الأوسط بعد وقت قصير جداً من بدء استقرار الإنسان وإنتاج المواد الغذائية. وليست الأختام سوى انعكاس لهذه المعايير في الواقع المادي.

كان المجتمع في بلاد ما بين النهرين إذن قد بلغ في الألفية السابعة قبل الميلاد درجة لا يُستهان بها من التمايز. إذا ذهبنا خطوة واحدة أبعد من ذلك فإن دمغات الأختام المعنية ربما لم تُستخدَمْ في تمييز أو وسم الملْكية حصراً. من المحتمَل أنها كانت علامات للأفراد. تبدي بعض الأختام ثقوباً في الحقيقة، أي أنه يمكن تعليقها على جسم مالكها أيضاً. من المؤكَّد أن هذه المسألة تنطوي على جانب من التكهّن، ولكن مما لا جدال فيه هو أن هذه الأشياء، التي تبدو وكأنها مكتشفات تافهة للوهلة الأولى، كانت تعني تغييرات هائلة في البنية الداخلية للمجتمعات المبكّرة فيما مضى، وقد غذّت تطور الفردية، وسيكون لها تداعياتها على الفعل الاقتصادي وعلى الفكر القانوني في المجتمع على حد سواء.

ثقافة سامراء

إلى الجنوب من منطقة انتشار ثقافة حسّونة نشأت بعد ذلك بقليل، وقبل نهاية الألفية السابعة قبل الميلاد، ثقافة سامراء، التي تتميّز بفخار مزيَّن برسوم ملوّنة أظهرت تصاوير تشكيلية عديدة لوجوه بشرية أو لأشكال بشرية أو حيوانية كاملة، إضافة إلى النماذج الهندسية. والحق أن أجسام البشر والحيوانات المرسومة بتقنية خيال الظلّ أو بشكل هندسي تُجمَع بشكل مؤثّر، ويُفترَض أن بعض المشاهد المرسومة أثناء الحركة تنطوي على معنى رمزي بالتأكيد، يتجاوز الطابع التزييني.

العادة المتمثّلة في حفر القبور تحت المنازل داخل المستوطنة واسعة الانتشار في ثقافة سامراء أيضاً ، ولا تبدي بنية المستوطنة القروية أيّ تغيّرات أساسية، مقارنةً بثقافة حسّونة، بقدر ما تسمح الحفريات الواسعة هنا برؤى تمثيلية. لا بد أن نخصّ بالذكر أن منازل الآجرّ الطيني في فترة سامراء تُظهر دعامات على الجدران الخارجية لأول مرة، وهي سمة معمارية يُفترَض أن تميّز الفترات اللاحقة في بلاد ما بين النهرين، لا سيما في المباني المقدسة وغيرها من المباني العامة الكبيرة ذات الطابع التمثيلي.

الزراعة المطرية والريّ الاصطناعي

بعد 6000 قبل الميلاد بوقت قصير تتطوّر في بلاد ما بين النهرين استراتيجيتان زراعيتان مختلفتان يعود الفضل في نشوئهما إلى الظروف الطبيعية المحلية. كانت الزراعة المطرية ممكنة في شمال بلاد ما بين النهرين بما فيها السفوح الجبلية المجاورة في شمال غرب إيران وجنوب شرق

الأناضول، وذلك بسبب هطول الأمطار بمعدّل 200 ملم سنوياً. أما في الجنوب الأكثر جفافاً فلم يكنْ بالإمكان تحقيق زراعة النباتات إلّا بمساعدة الريّ الاصطناعي. وتعود أقدم الأدلّة على قنوات الريّ (هياكل لتمرير وتوجيه المياه) إلى المساحات المحيطة بموقع شوغا مامي، وقد نشأت في فترة ثقافة سامراء. بذلك تدخّل الإنسان لتغيير بيئته الطبيعية في وقت مبكّر جداً وبطريقة جديدة كلياً وبشكل متعمَّد ومخطَّط له، وذلك لتحسين العائد الاقتصادي لعمله في المقام الأول. وقد عنى الريّ الاصطناعي مزيداً من العمل بالنسبة للمجتمع الاستيطاني قياساً إلى الزراعة المطرية، غير أنه كوفئ بمحاصيل أوفر؛ ازداد حجم الحبوب وبذور النباتات، ونشأ عن الشعير ذي الصفّين الشعير ذو الصفوف الستة الأكثر إنتاجية. على أن منشأة أنظمة الريّ تثبت أيضاً أن المتّحد الاستيطاني كان قادراً على تنظيم نفسه إلى حد أمكن معه تحقيق مثل هذا الإنجاز الجماعي أصلاً.



الشكل 21 : أوانٍ فخارية عليها رسوم من ثقافة حَلَف في شمال بلاد ما بين النهرين

في أصل التمايز الاجتماعي

وقد تطلّب الأمر بنية مجتمعية يكون فيها أولئك الذين يتوافرون على المعرفة التقنية اللازمة قادرين على تولّي القيادة بأنفسهم أو تقديم المشورة لأولئك الذي يتعيّن عليهم اتخاذ القرارات ضمن متّحد قروي. على هذا النحو فقط أمكن ضمان بناء القنوات بما يتّفق مع الاحتياجات وصيانتها بشكل صحيح خلال فترة استخدامها. يمكن للمرء أن يفترض وجود أشكال تنظيمية مماثلة بالمعنى الواسع في عمليات الصيد المجهِدة في العصر الحجري القديم. ففي ذلك الوقت أيضاً وُجِدَ أفراد يتوافرون على معرفة متخصّصة أكثر من الآخرين ووضعوا هذه لمعرفة في خدمة المجتمع ومصلحته. على

أنه في اللحظة التي أصبحت فيها مثل هذه البنية التنظيمية فعّالة في مكان ثابت للعيش والسكن، بغية تحقيق زيادة في المحاصيل عن طريق منشأة أنظمة الريّ الاصطناعي، نشأت تربة خصبة أمكن أن تنبثق منها في الفترة اللاحقة تراتبيات اجتماعية وبالتالي مؤسّسات سياسية مبكّرة، مثلما كان واقع الحال في السياق اللاحق من تاريخ بلاد ما بين النهرين المبكّر.

ثقافة حَلَف وأول معالجة للنحاس

نشأت ثقافة حَلَف في شمال بلاد ما بين النهرين عن ثقافة حسّونة نحو 6000 قبل الميلاد، وهي ثقافة امتدّت على منطقة كبيرة نسبياً من بلاد ما بين النهرين لأول مرة حتى منتصف الألفية السادسة قبل الميلاد. يبدي فخار حَلَف المرسوم بالألوان (الشكل 21) صلات بأواني حسّونة، وعلى وجه الخصوص بأواني سامراء، غير أن التصاوير التشكيلية على الأواني تراجعت بوضوح لصالح زخرفة هندسية أكثر دقة. بناءً على استخراج النحاس ومعالجته تُعدّ حَلَف ثقافة عصر معدني وعصر حجري نحاسي سلفاً. صحيح أن التعدين لا يمكن تصوّره من دون تقسيم للعمل، غير أن التخصّص يُفترَض أنه حقيقة قائمة في مجتمعات الشرق الأوسط المبكّرة منذ زمن طويل على أية حال. في حين أن الأبنية الدائرية والمستطيلة المشيَّدة من الطين على أساسات حجرية لم تكنْ تعني أيّ ابتكارات من حيث المبدأ في بنية مستوطنات حَلَف، ذلك أنها كانت شائعة في شكل مشابه إلى حد بعيد منذ قرون، تبدّى التغيّر المرئي في الحجم المختلف للمستوطنات. لم يسبقْ أن بلغت المستوطنات في تاريخ بلاد ما بين النهرين مثل هذا الحجم، الذي بلغته في فترة حَلَف. فإلى جانب القرى العديدة صغيرة ومتوسطة الحجم كان هناك مواقع مركزية مترامية الأطراف لأول مرة في النصف الأول من الألفية السادسة قبل الميلاد، وقد بلغت مساحتها 10 هكتارات، إذا ما صحّت افتراضاتنا، ذلك أن أيّاً من هذه المواقع لم تتم دراسته عن طريق التنقيب والحفريات بصورة شاملة.

ثقافة عُبيْد وإدخال عجلة الخزّاف

تعزّز هذا التطوّر في فترة عُبيْد التالية بين 5500 و3800 قبل الميلاد. لا يزال الفخار مطلياً بالألوان وغنياً بالزخرفة، مع أن طيف النماذج تقلّص بشكل ملحوظ. وقد تم صنع الأواني على لوح عمل دوّار. حتى وإن لم يتم بعد اختراع عجلة الخزّاف سريعة الدوران، إلّا أن هذا الابتكار التقني أتاح تسريع عملية إنتاج الأواني الفخارية وتوحيد مقاييسها بشكل أكبر. وقد أُضيف نمط جديد من المباني في المستوطنات الكبيرة الهامة في تلك الفترة مثل إريدو وأور وتل العُبيْد: مبنى القاعة

المركزية. وهو عبارة عن حجرة مركزية تشكّل المركز الوظيفي للوحدة السكنية، تتفرّع عنها ممرّات إلى باقي الحجرات المتجمّعة من حولها.

المعابد وغيرها من المباني الضخمة

لم يعدْ بالإمكان إغفال أن الفوارق الاجتماعية أيضاً أخذت تنعكس في أنماط المباني المتمايزة بشكل متزايد. فقد ظهرت، إضافة إلى ما سبق، مبانٍ مركزية أو بالأحرى مشتركة، يمكن النظر إليها سلفاً على أنها معابد - ذلك أنها خدمت أغراضاً تعبّدية كما هو واضح. مع ذلك فإن تراتبية المواقع نفسها، التي أمكن توثيقها لأول مرة خلال فترة حَلَف، أخذت تشتد في فترة ثقافة عُبيْد: هكذا جسّدت تيبي غاورا أو إريدو أو أور، بمبانيها الضخمة فـي الوسط - معابد على الأرجح - مراكز عابرة للأقاليم بالتأكيد في ذلك الوقت. كانت إريدو الواقعة على الفرات الأسفل مكان عبادة إله الماء إنكي، وتوصف في الملحمة البابلية بأنها المدينة الأولى على وجه الأرض. تقدّم الطبقات السميكة للمستوطنة، بمبانيها الضخمة من الألفية السادسة قبل الميلاد، الدليل الأثري على هذا التقليد.

الاتصالات التجارية وامتداد ثقافة عُبيْد

لم تعد التراتبية المتقدّمة تفعل فعلها داخل مستوطنة واحدة أو مجلس مستوطنة واحدة وحسب، وإنما هيكلتْ منطقة بكاملها بطريقة جديدة وفعاّلة في آنٍ معاً. ويمكن أن نرى في ذلك أصول الكيانات السياسية المحلية التي تقودها النخب. ليس من قبيل المصادفة أن تمتدّ ثقافة موحَّدة إلى حد بعيد لأول مرة في فترة عُبيْد من شمال بلاد ما بين النهرين نزولاً حتى الخليج العربي. وقد أُضيف إلى ذلك شبكة راسخة من الاتصالات التجارية العابرة للأقاليم، ارتبطت بها مراكز عُبيْد في بلاد ما بين النهرين. وصل فخار عُبيْد بالطريق البحرية إلى البحرين وقطر في الجنوب، وبلغ الهضبة الإيرانية في الشرق ووصل إلى منابع دجلة والفرات في شرق الأناضول في الشمال. يكاد يكون من المستحيل تخيّل هذا التوسّع والامتداد في ثقافة عُبيْد خارج بلاد ما بين النهرين عن طريق الاتصالات التجارية فقط ومن دون أيّ انزياحات سكّانية. بيد أنه لا بد أن نضيف أننا لا نستطيع في الواقع تقييم التطوّر الثقافي في جنوب بلاد ما بين النهرين بشكل أفضل إلّا ابتداءً من فترة عُبيْد، ذلك أن كلّ آثار الاستيطان الأقدم غطّتها طبقات ارتفاعها بالأمتار من الرواسب التي جلبها دجلة والفرات من الشمال.

فترة أوروك

لا شك في أن هذه الثقافة، التي بدأت مع حسّونة وسامراء في الألفية السابعة قبل الميلاد وتعزّزت مع حَلَف في النصف الأول من الألفية السادسة قبل الميلاد، وبلغت بعْداً جديداً مع عُبيْد حتى بداية الألفية الرابعة قبل الميلاد، بلغت أوجها في فترة أوروك ذات الطابع الحضاري الرفيع. وُلِدَت خلال فترة أوروك ابتكارات هامة غيّرت حياة الناس في بلاد ما بين النهرين بشكل جذري. مع اختراع عجلة الخزّاف سريعة الدوران بات ممكناً لأول مرة إنتاج الأواني الفخارية موحَّدة النمط بعدد كبير، بل على نطاق صناعي تقريباً. تحوّل الفخار إلى إنتاج واسع، ويوضّح الافتقار شبه التام للزخرفة في أواني أوروك أحادية اللون بجلاء شديد المكانة الجديدة للأواني الفخارية. أرغم الجفاف المتزايد في الألفية الرابعة قبل الميلاد، إضافة إلى الزيادة السكّانية في المراكز المدينية المتنامية في الحجم باستمرار، على تكثيف الزراعة وزيادة الغلال، الأمر الذي لم يكنْ بالإمكان تحقيقه إلّا بالتوسّع المنظَّم في تشييد القنوات وأنظمة الريّ على نطاق واسع. واستمرّت تراتبية المستوطنات، التي نشأت بسرعة في فترة عُبيْد، في النموّ والاشتداد.

أدى هذا التطوّر إلى نشوء المدن المحصَّنة ذات التخطيط الداخلي الفعّال بوصفها مراكز إدارة وتجارة وسيطرة تضمّ مجموعات مهنية متخصّصة مع ترسيخ النخب القيادية والحاكمة. وانعكست الظروف الجديدة في التصميم المعماري للمواقع المركزية في بلاد ما بين النهرين؛ فهي تمتلك الآن مبنى كبيراً للاجتماعات، ومعابد ضخمة وقصوراً ذات زخارف تمثيلية، وأبنية مشيَّدة على أساسات طينية استبقت الزقورة الكلاسيكية في بلاد ما بين النهرين؛ برج المعبد المتدرّج.

أقدم مدينة للبشرية

تُعدّ أوروك من أولى المستوطنات من هذا الطراز، حتى إنها كثيراً ما تُعدّ أقدم مدينة للبشرية على الإطلاق. لأول مرة في التاريخ ينشأ أسلوب حياة حضري حقاً، مصحوب بازدياد لا نظير له في عدد السكّان. ويُرجَّح أن جذور نشأة كهنوت مؤسّساتي وشكل جديد من النخبة القيادية، أي مَلَكية محدَّدة دينياً، تكمن في هذه الفترة.

المَلَكية والإدراة واختراع الكتابة

يتمثّل الفارق الحاسم مقارنةً بالحقب السابقة من التاريخ في أن الطبقة الحاكمة الجديدة لم يعدْ لديها بشكل دائم أيّ حصّة في إنتاج المواد الغذائية. أصبح تقسيم العمل دائماً، وتجلّى تمايز المجتمع المترافق معه في التصميم المعماري للمدن بمراكزها العامة ذات المباني التمثيلية وبأحيائها السكنية ومناطقها الحرفية. كانت المدن في فترة أوروك مراكز ذات وظائف موافقة في منطقة محيطية أوسع، وقد تم تنظيم التجارة البعيدة انطلاقاً منها. كما ربطت طرق القوافل بين مناطق أبعد بعضها عن بعض من أيّ وقت مضى وامتدت من منطقة الخليج حتى البحر الأبيض المتوسط. لم يكنْ ليتم إنجاز كلّ هذا لولا إدخال أدوات إدارية جديدة، أدت أخيراً، وعن طريق الأشياء الفخارية الموسومة والأختام الأسطوانية، إلى اختراع الكتابة في أواخر الألفية الرابعة قبل الميلاد. استقلّت العبادة والدين، وبلغ الفنّ بإنجازاته التشكيلية ومنحوتاته الكبيرة أبعاداً جديدة لم يتم بلوغها في فترة عُبيْد.

كانت أوروك نواة هذا التطوّر، إلّا أنه يجوز لنا أن نضع في صفّ هذه المدينة المبكّرة مراكز أخرى مماثلة في ذلك الوقت: تيبي غاورا على نهر دجلة، وتل بْراك في سهل الجزيرة، وحبوبة كبيرة على الفرات الأوسط، وحسينبي في جنوب شرق الأناضول. مع أواخر فترة أوروك كانت بلاد ما بين النهرين والمناطق المجاورة لها قد تخطّت عتبة الحضارة الرفيعة بشكل نهائي.

IV وادي النيل قبل الحضارة المصرية القديمة



سكين طقسية من الصوّان ذات مقبض مزيَّن من العاج من نقادة، مصر

1
الصيّادون والجامعون في نهاية العصر الجليدي

عاش صيّادو وجامعو وادي النيل في نهاية العصر الجليدي في مناخ كان قد أصبح أكثر جفافاً وحوّل المناطق العشبية إلى أراضٍ صحراوية قاحلة. على أن فيضانات النيل المتكرّرة بانتظام خلقت أرضاً خصبة على جانبي النهر، كانت جذّابة كمجال حيوي لإنسان العصر الحجري القديم المتأخّر. معظم المواقع الأثرية في وادي النيل في هذه الفترة صغيرة نوعاً ما وتشير إلى أنها كانت تُستخدَم موسمياً بشكل متكرّر. تم جمع النباتات في المستنقعات والمروج على نهر النيل، حيث كانت عشبة البندق، وهي نوع من العشب الحامض، مرغوبة بشكل خاص. فضلاً عن أن المرء مارس الصيد في الكثبان الرملية المتاخمة للأرض المثمرة واستغلّ الثروة السمكية في النيل إضافة إلى ذلك.

صيّادون وجامعون من وادي كوبانية

يمكن توصيف الظروف المعيشية والاقتصادية في وادي النيل في أواخر العصر الحجري القديم الأعلى بصورة جيدة جداً على أساس المكتشفات والموجودات في وادي كوبانية، وهو موقع بالقرب من أسوان أعطى اسمه لحقبة كاملة تُدعى من الآن فصاعداً كوبانيان. من سمات علم آثار ما قبل التاريخ، الذي يتحرّك في المجهول بسبب عدم وجود أيّ مصادر مكتوبة، تسمية الظواهر الثقافية بأسماء المواقع الهامة التي تميّز الثقافة المعنية بشكل خاص. تبيّن المواقع في وادي كوبانية بوضوح شديد كيف تأقلم صيّادو وجامعو العصر الحجري القديم المتأخّر مع الظروف المعيشية الخاصة على نهر النيل. استمرّت التغييرات الحاصلة في فعّاليتها حتى في العصر ما بعد الجليدي أو

العصر الحالي، قبل أن يفرض نفسه تدريجياً نمط حياة ريفي. اعتمد سكّان وادي كوبانية في العصر الحجري الحديث على موارد وادي النيل إلى حد كبير، أي على النباتات البرّية في المنطقة الخصبة الرطبة وعلى أسماك النهر. مع ذلك تثبت المكتشفات تنوّع طعامهم النباتي. بالمقابل لم تلعبْ أنواع الثدييات الكبيرة، التي كان من شأنها أن تضمن إمدادات كافية من اللحوم، سوى دور ثانوي جداً في التغذية. يمكن إرجاع هذا إلى تغيرات طبيعية محلية لم تعدْ توفّر لهذه الأنواع الحيوانية أيّ مجال حيوي ملائم. ولم يتم العثور سوى على عدد قليل من بقايا أفراس النهر والحمير البرّية والأرانب والأرخُص والغزلان. ولكن حتى وإن كان صيد الغزلان والأرخُص أمراً سهلاً، إلّا أنه لم يكنْ يمثّل مصدراً موثوقاً للغذاء في أغلب الظن. أما الأسماك فقد لعبت دوراً بارزاً بالنسبة لسكّان كوبانية. اكتشفت الحفريات ما يزيد على 100000 من عظام السمك، معظمها لسمك السلّور. ويُفترَض أن صيد السمك كان يتم في فصلين من السنة بالدرجة الأولى ، مع بداية فيضان النيل في الربيع وكذلك في الخريف. صحيح أن صيد السمك في النيل كان ممكناً على مدار السنة، ولكن الثروة السمكية كانت أدنى في الصيف والشتاء بشكل واضح. وقد تم توثيق أنواع مختلفة جداً من البذور والثمار ونباتات أخرى بين البقايا النباتية في وادي كوبانية. بيد أن عشبة البندق البرّية كان لها أهمية خاصة عند سكّان هذا الموقع ويُرجَّح أنها غطّت نسبة كبيرة من حاجتهم إلى الكربوهيدرات. كانت عشبة البندق موجودة بوفرة في وادي النيل بكامله، ولا يزال يُعثَر عليها هناك حتى اليوم. تثبت أحجار الطحن العديدة في المادة المكتشفة أنه تم طحن بذور الأعشاب البرّية التي يتم جمعها. ويُرجَّح أن هذه البذور أيضاً تعود في معظمها إلى عشبة البندق. فضلاً عن ذلك تم جمع ثمار نخيل الدوم، ما يُسمّى شجرة كعكة الزنجبيل، المنتشر في وادي النيل بكامله في ذلك الوقت كما هي الحال اليوم.

التغيّات المناخية مع بداية العصر ما بعد الجليدي

في نهاية العصر الجليدي حدثت تغيّرات مناخية دراماتيكية كان لها تأثير دائم في القارة الأفريقية أيضاً. تراجعت آخر الأنهار الجليدية أكثر فأكثر وأدى الاحترار الواضح، الذي بدأ قبل نحو 15000 سنة، إلى زيادة شديدة في كميات هطول الأمطار. وترافق الانتقال إلى العصر ما بعد الجليدي مع انزياح منطقة الرياح الموسمية إلى الشمال وبالتالي جلب لهذه المناطق مناخاً أشد رطوبة بشكل واضح. ارتفع منسوب مياه النيل بشكل كبير، وبذلك أمكن لفيضاناته أن تكون ذات مفاعيل أشد تدميراً. ولكن الحاسم في الأمر هو أن الفيضانات أتاحت الآن استيطان السهول المنخفضة الواقعة غرب النيل مثل الأراضي الفيضية في الفيوم ونبتة. وامتدّت مفاعيل هذه

التغيّرات المناخية من دلتا النيل حتى النوبة. تثير الاهتمام المؤشّرات الأرشيولوجية على أن الصيّادين والجامعين في وادي النيل أضرموا الحرائق في الأدغال، على ما يبدو في العصر ما فوق الحجري القديم سلفاً في منطقة الأراضي الخصبة بشكل مقصود، بغية تحفيز نموّ النباتات وتسهيل صيد الثدييات. جراء المناخ الأشد رطوبةً ودفئاً في العصر ما بعد الجليدي أصبح الغطاء النباتي في وادي النيل أكثر وفرةً وثراءً ووفّر طيفاً أوسع من النباتات البرّية الصالحة للأكل. وقد أسهم تزايد الأمطار الموسمية في خصوبة هذه المنطقة بشكل كبير. لم يبقَ هذا التطوّر مقصوراً على وادي النيل، وإنما كان له مفاعيله على منطقة الصحراء والساحل في شمال القارة الأفريقية بكامله. ويُفترَض أن النيل اكتسب حوضه الحالي تدريجياً مع بداية العصر ما بعد الجليدي. نحو 7000 قبل الميلاد على أبعد تقدير نشأت بحيرة الفيوم، التي تغذّت من مياه النيل عبر قناة حوارة. وانتشرت المروج الرطبة مع أنواع مختلفة كثيرة من الأعشاب في المناطق التي تغمرها الفيضانات بشكل منتظم على جانبي النيل. ونشأت على أطراف هذه المناطق مساحات مستنقعية، وتشكّلت في المناطق الجافة الأبعد عن النهر والمتاخمة للأراضي الخصبة قطاعات من الغابات الشبيهة بالسافانا تضمّ الأكاسيا والنخيل والطرفاء وغيرها من الأشجار والشجيرات. وقد وفّر هذا المجال الحيوي الجديد مجموعة أشد غنى وتنوّعاً من الحيوانات من أجل الصيد وبالتالي كان فضاءً استيطانياً جذاباً لإنسان ما قبل التاريخ.

صناعات العصر ما فوق الحجري القديم في وادي النيل

تُعدّ المخلّفات الأثرية للعصر ما فوق الحجري القديم في وادي النيل قليلة. تُعرَف أقدم صناعات العصر ما فوق الحجري القديم من الفترة الممتدّة بين 8000 و6800 قبل الميلاد (والتي سُمِّيَت بحسب مواقعها أرحِميان وشامَريان، وكذلك الكابيان - بالقرب من أسوان) من المنطقة النوبية في وادي النيل. ولا يزال نمط الاقتصاد هناك يشي بالعديد من أوجه التطابق مع الكوبانيان، غير أن أهمية صيد الثدييات الكبيرة مثل الأرخُص والغزلان والأبقار والأغنام البرّية أخذت تزداد تدريجياً. فضلاً عن ذلك تم استهلاك أفراس النهر والسلاحف أيضاً. أما وأنه لا يُعرَف سوى عدد قليل من مواقع العصر ما فوق الحجري القديم في وادي النيل فهو أمر ربما يرتبط بكونها تقع اليوم تحت رواسب ضخمة ناجمة عن فيضانات النيل المنتظمة، وبالتالي لم يعدْ بإمكان علماء الآثار العثور عليها.

ثقافة الفيوم ب

يقدّم حوض الفيوم ظروف اكتشاف أفضل بكثير. ويمكن فهم العصر ما فوق الحجري القديم هناك بشكل أفضل من أيّ مكان آخر في وادي النيل. تُجمَع مكتشفات تلك الفترة هناك تحت مسمّى ثقافة الفيوم ـ ب، كما تُسمّى قرونيان أيضاً. ترجع المواقع إلى الألفية السابعة والسادسة قبل الميلاد. تظهر محطّات قرونيان (مواقع المستوطنات) في المناطق الواقعة شمال وغرب بحيرة الفيوم الحالية بالدرجة الأولى وتكشف بوضوح أنها لم تُستخدَمْ إلّا موسمياً. الصناعة الحجرية لها طابع العصر ما فوق الحجري القديم وتتميّز بالأدوات الحجرية الدقيقة مثل السكاكين والمكاشط ورؤوس السهام. يقع معظم هذه الأماكن بالقرب من ضفاف البحيرة، ولا يُعثَر عادةً سوى على عدد قليل من المواقد والحفر ومكتشفات متناثرة على السطح. البقايا شحيحة، ولا نعلم شيئاً عن بناء المنازل. يُرجَّح أن الأمر يتعلق بمستوطنات لم تكنْ تُقصَد إلّا موسمياً، وتتكوّن من أكواخ بسيطة جداً. من الواضح تماماً أن أصحاب القرونيان، وعلى غرار مستوطني وادي كوبانية في العصر الحجري القديم المتأخّر، عاشوا من صيد السمك في بحيرة الفيوم القريبة بالدرجة الأولى. ولكنهم مارسوا إلى جانب ذلك صيد الثدييات الكبيرة أيضاً، لا سيما الغزلان والأبقار البرّية والأرانب وغيرها من الحيوانات الصحراوية. تبيّن ترسّبات الرماد، التي تحتوي على كميات كبيرة من بذور الأعشاب البرّية المتفحّمة، أن هذه النباتات لعبت دوراً كبيراً في تغذية هؤلاء الناس. صحيح أنه لم يتم العثور على أحجار طحن، ولكن هذا لا يعني أن المرء لم يعالج البذور بهذه الطريقة. تدلّ البقايا الموجودة في مواقع استيطان القرونيان على أنها كانت تُقصَد خلال ثلاثة مواسم، أي في أوائل الصيف، ثم في الخريف، حينما يكون صيد السمك وفيراً بشكل خاص، ثم في الشتاء، عندما تهاجر الطيور المائية إلى بحيرة الفيوم لقضاء الشتاء هناك. وفي ما تبقى من الوقت أقام أصحاب القرونيان إما في مواقع أخرى في محيط بحيرة الفيوم أو حتى غادروا حوض الفيوم كلياً بين الآونة والأخرى. كما أن أقدم حالة دفن في الفيوم معروفة من القرونيان، امرأة في الأربعين من العمر تقريباً تم دفنها من دون مرفقات في وضعية قرفصاء خفيفة على جانبها الأيمن ورأسها نحو الشرق.

طريفيان العصر ما فوق الحجري القديم في مصر العليا

تُعدّ حالة المكتشفات في وادي النيل في مصر العليا أو الصعيد مع نهاية العصر ما فوق الحجري القديم سيّئة إلى حد ما قياساً إلى ذلك. صحيح أن هناك مواقع تُجمَع تحت مسمّى طريفيان، ويُفترَض أنها تعود إلى الألفية السادسة قبل الميلاد في الغالب، حينما فرضت نفسها في مصر

السفلى أولى علامات النمط المعيشي والاقتصادي الخاص بالعصر الحجري الحديث، ولكن إجراء تقييم واضح لهذه الفترة لا يزال صعباً بالنسبة لهذا الجزء من مصر. ثمة تقارير في هذا السياق عن شظايا فخارية، إلّا أن الأمر في هذه المكتشفات قد يتعلق أيضاً بحالات خلط مع بقايا طبقات أحدث لها سلفاً طابع العصر الحجري الحديث. كانت الصناعة الحجرية في ذلك الوقت لا تزال ذات طابع دقيق وصغير تماماً وقريبة جداً من صناعة العصر ما فوق الحجري القديم. كما أن المكتشفات والموجودات المتفرّقة من مواقع الطريفيان القليلة تذكّرنا بالقرونيان في حوض الفيوم: يتعلق الأمر بعدد قليل من المواقد والحفر الضحلة ليس إلّا، إضافة إلى المادة المكتشفة المتناثرة في محيطها. ولم يتم العثور على مؤشّرات على الحيوانات والنباتات التي كان السكّان يستهلكونها. هذا ما يجعل التقييم الموثوق لنمط حياة السكّان في الطريفيان صعباً جداً.

إذن، فقد اعتمد صيّادو وجامعو العصر الحجري القديم الأعلى والعصر ما فوق الحجري القديم في وادي النيل في تغذيتهم على مواد غذائية رئيسة محدّدة تماماً، كانت متوافرة بكثرة في بعض فصول السنة. كان الأمر يتعلق بالأسماك وجذور النباتات البرّية بالدرجة الأولى. أُضيف إلى ذلك طيف واسع من النباتات البرّية ذات البذور والثمار، وكذلك الحيوانات البرّية التي كان صيدها يتم بأعداد قليلة نسبياً. صحيح أن الظروف البيئية في وادي النيل كانت قد تغيّرت جذرياً عند التحوّل من العصر الجليدي إلى العصر ما بعد الجليدي نظراً للمناخ الأشد رطوبةً ودفئاً، ولكن لم ينتجْ عن ذلك بدايةً أيّ تغيّر جوهري في الظروف المعيشية والاقتصادية. فقد ظلّ سكّان هذه المنطقة صيّادين وسمّاكين وجامعين، ولكنهم تمكّنوا في الوقت نفسه من التكيّف على نحو يكاد يكون مثالياً مع التحدّيات والفرص الخاصة لبيئة طبيعية متغيّرة.

تحسينات في الصيد وصيد السمك

ثمة تغييرات معينة في الصناعة الحجرية يمكن تفسيرها على أنها تحسينات في تقنية الصيد وصيد السمك، سمحت بصيد السمك في المياه العميقة على وجه الخصوص. كانت أبعاد الأماكن المأهولة نفسها صغيرة جداً. لم يعثرْ علماء الآثار سوى على بعض المواقد والحفر، ولكن ما من مؤشّرات أدق على بناء المنازل. وينطبق هذا على المواقع في النوبة وفي الفيوم على حد سواء. لا شك في أن التكيّف المتقدّم مع المجال الحيوي خلال العصر ما فوق الحجري القديم والاستفادة الشاملة من الموارد الغذائية المتوافرة اشترطا عملاً منسّقاً داخل المجتمعات التي عاشت هناك، بحيث يجوز لنا افتراض وجود تنظيم اجتماعي بدائي. على أننا لا نستطيع توصيفه بمزيد من

التفصيل بناءً على المخلّفات الأثرية، كما تُفتقَد مؤشّرات على مظاهر دينية أو طقوس بشكل تام، باستثناء حالة الدفن المفردة المذكورة أعلاه في القرونيان. وقد تبيّن فيما يخصّ الألفيات السابقة لبداية العصر الحجري الحديث أن الناس في تجمّعات وادي النيل حسّنوا سيطرتهم على المجال الحيوي باستمرار وتخصّصوا كصيّادين وسمّاكين وجامعين بشكل متزايد. مع ذلك كان الانتقال إلى نمط اقتصادي قائم على إنتاج المواد الغذائية مع تدجين الحيوانات والنباتات خطوة جذرية نحو مستقبل متغيّر.

صيّادو وجامعو خرطوم العصر الحجري الوسيط

إلى الجنوب، في النوبة العليا ووسط السودان بين مصبّ نهر عطبرة في النيل وملتقى النيل الأبيض والنيل الأزرق، بالقرب من الخرطوم، سرعان ما نشأت بعد 8000 قبل الميلاد ثقافة صيّادين وجامعين سُمِّيَت خرطوم العصر الحجري الوسيط. تتركّز معظم المواقع شمال وجنوب مدينة الخرطوم الحالية. وقد اعتمدت تغذية الناس على الصيد وصيد السمك، وعاش المرء في معسكرات كانت تُقصَد لمدة قصيرة، حيث لم يبقَ محفوظاً فيها سوى القليل من المخلّفات الملموسة أثرياً. ويبدو أحياناً أن المستوطنات المتخصّصة بصيد السمك بالقرب من الأنهار استُخدِمَت مدة زمنية أطول. ويُفترَض أن مجموعات أصغر كانت تنطلق من هناك وتجوب أطراف الصحراء من أجل الصيد. صحيح أن مجموعات الصيّادين والجامعين استمرّت في العيش كما في العصر الحجري الوسيط، ولم تتوافرْ على أيّ نباتات مزروعة أو حيوانات منزلية، غير أنها أنتجت الفخار سلفاً لأول مرة. وكان عبارة عن أشكال بسيطة ذات زخرفة محزَّزة متموّجة مميَّزة على الوجه الخارجي تكاد تغطّي السطح الخارجي لهذه الأواني المستديرة بكامله. يسمح هذا الأسلوب الخاص في الزخرفة، والذي يسهل التعرّف عليه، بتحديد هوية حتى الشظايا الصغيرة جداً من هذه الأواني. من هنا يمكن تحديد منطقة انتشار خرطوم *العصر الحجري الوسيط* بشكل دقيق وموثوق جداً، صحيح أنها تتركّز في وادي النيل في وسط السودان، ولكن يمكن إثباتها إلى الشرق والغرب أيضاً وفي المناطق الصحراوية المحيطة. من المؤكَّد أن الدافع إلى هذا الإنتاج المبكّر للفخار لم يأتِ من الشرق الأوسط، وإنما يُرجَّح أن أقدم الأواني الفخارية هذه يمكن التعرّف عليها في سياق ثقافي آخر شمل أجزاء واسعة من الصحراء
الأفريقية.

تبيّن بقايا الطعام، التي ظلّت محفوظة، أن الناس تغذّوا على الأسماك والرخويات في ذلك الوقت، على أنهم صادوا إلى جانب ذلك الثدييات الكبيرة كالتماسيح وأفراس النيل والفيلة، التي عاشت في الأدغال والغابات المتاخمة لوادي النيل. كانت الأدوات الحجرية من النوع الدقيق، وضمّت المادة المكتشفة العديد من رؤوس السهام الصغيرة بشكل خاص، والتي من الواضح تماماً أنها خدمت أيضاً في تسليح الرماح، التي استُخدِمَت في صيد السمك. إلى جانب صيد السمك والصيد شكّل جمع النباتات إكمالاً غذائياً هاماً آخر، حيث تم استغلال الجذور، وتشهد أحجار الطحن الكثيرة أيضاً على معالجة بذور الأعشاب البرّية.

تُعرَف حقول القبور أيضاً في النوبة ووسط السودان منذ العصر الحجري القديم الأعلى. هكذا أمكن الكشف في جبل الصحابة عن مقبرة كبيرة وفخمة تضمّ أكثر من 40 مدفوناً، جميعهم في وضعية القرفصاء على الجانب الأيسر والرأس موسَّد في الاتجاه الجنوبي الشرقي. تلفت النظر القبور التعدّدية التي تضمّ كباراً وصغاراً. ويبدي الكثير من الأفراد جروحاً في الجمجمة ناجمة عن رؤوس سهام صوّانية كما هو واضح، مما يشير إلى نزاعات مسلّحة. وقد تم العثور على تجمّعات أصغر من القبور، يضمّ معظمها 6 إلى 8 حالات دفن، تعود إلى خرطوم *العصر الحجري الوسيط* اللاحق. وقد تم اكتشافها بالقرب من نقاط الاستيطان مباشرةً، بالتالي هي تشير إلى ارتباط أشد وضوحاً بالمكان عند البشر في هذه المرحلة الثقافية.

2
من الصيّاد والجامع إلى مربّي الماشية والمزارع

لا تسمح المخلّفات الأثرية في وادي النيل بالتوصيف الأدق للانتقال من صيّادي وجامعي العصر ما فوق الحجري القديم إلى مستوطني العصر الحجري الحديث الأوائل. بناءً على التكيّف الأفضل لصيادي وصيادي سمك وجامعي العصر ما فوق الحجري القديم مع البيئة المتغيّرة يطرح نفسه السؤال عمَّا إذا كان علينا أن ننطلق بالفعل من انتقال جذري من نمط معيشي إلى آخر. أخيراً ربما يكون تدجين النباتات والحيوانات قد تطوّر شيئاً فشيئاً أيضاً واستمرّ قائماً جنباً إلى جنب مع الأشكال الأقدم من الاقتصاد إلى حين. قد يبقى إعمال الذهن في ذلك نوعاً من التكهّن، غير أن اللافت هو أن أولى مستوطنات المزارعين لا تختلف جوهرياً عن معسكرات الصيّادين والجامعين في الفترات السابقة. كما أن سكّان وادي النيل في العصر الحجري الحديث أيضاً لم يخلّفوا مواقع استيطانية إلّا بين الحين والآخر. ولا تكاد مخلّفاتهم تشمل أكثر من مواقد وحفر وبعض المكتشفات المتناثرة في محيطها، بينما لا يكاد يُعرَف شيء عن بناء المنازل. ظلّ صيد السمك مهيمناً، كما استمرّ جمع النباتات في المنطقة الخصبة الرطبة. بيد أن الفارق الحاسم هو أن الناس لم يعودوا يكتفون الآن بصيد الثدييات الكبيرة، وإنما قاموا بتربية الحيوانات المنزلية، التي أخذت تلعب دوراً متزايد الأهمية في حياتهم.

<كبح بيئي> في الفيوم ومصر العليا

من الواضح أن هذه الحالة استمرّت في حوض الفيوم مدة أطول بين المراحل الثقافية. أما في وادي النيل وفي الدلتا على وجه الخصوص فقد تم التحوّل إلى العصر الحجري الحديث بصورة أسرع، الأمر الذي ربما يرتبط أيضاً بالقرب الأشد من الشرق الأوسط. يبدو أن المستوطنات في

وادي النيل كانت أكثر ديمومة ـ فقد توافرت على المزيد من التجهيزات لتخزين المؤن؛ وكان الصيد في صدد التراجع بوضوح، وذلك وفقاً للعظام الحيوانية التي تم العثور عليها. وفي خطوة تطوّر أخرى ازداد حجم المستوطنات وتعقيدها بشكل واضح. أما الحقيقة التي مفادها أن العصر ما فوق الحجري القديم في حوض الفيوم وفي وادي النيل في مصر العليا دام فترة أطول فقد تعود أيضاً إلى أن المناخ والبيئة هناك كانا مناسبين لنمط الحياة والاقتصاد القائم على الصيد والجمع وصيد السمك. كثيراً ما يدور الكلام في هذا السياق عمّ يُسمّى كبحاً بيئياً أدى إلى تأخير التطوّر في الفيوم ومصر العليا مقارنةً مع المناطق في مصر السفلى، التي استفادت من قربها من ثقافات الشرق الأوسط كما هو واضح. ولكن ما من شك في أن هذا التأخير يرتبط أيضاً بأن الحوافز الحاسمة لبداية العصر الحجري الحديث ونمط الحياة المستقرّ ذي الاقتصاد الإنتاجي وصلت من الشرق الأوسط إلى وادي النيل المصري أولاً، ومن ثم انتشرت من هناك شيئاً فشيئاً إلى باقي الأقاليم.

يكمن السبب الأساسي في عدم كون وادي النيل المصري من مناطق نشأة الزراعة المبكّرة ببساطة في عدم وجود أشكال برّية لأولى النباتات المزروعة هناك، أي أنه كان لا بد من إدخالها من الشرق الأوسط أولاً قبل أن تتمكّن الزراعة من التطوّر في الإقليم أصلاً. ومع ذلك كان وادي النيل، ونظراً لفيضاناته المتكرّرة، ملائماً للزراعة على نحو يكاد يكون مثالياً، لأن تربته الفيضية الطميية، التي تغمرها المياه بانتظام، كانت خصبة بصفة خاصة. لم يستقرّ نمط العصر الحجري الحديث في الحياة والاقتصاد وفقاً لنموذج الشرق الأوسط بشكل نهائي إلّا ابتداءً من 5500 قبل الميلاد تقريباً. إلى الجنوب الغربي، أي في أجزاء الصحراء الشرقية التي تتبع مصر اليوم (نبتة بلايا، بير قصيبة)، حينما كان المناخ لا يزال رطباً نسبياً هناك، عاش منذ 3000 سنة أناس ينتجون الفخار ويجمعون ذرة الدخن البرّية ويربّون الأبقار أيضاً بشكل مبكّر جداً. وقد أدى التراجع التدريجي للأمطار الموسمية في الصيف، وما اقترن به من جفاف متقدّم في الصحراء منذ أواسط العصر ما بعد الجليدي منذ ما يقارب الـ 4000 سنة قبل الميلاد، إلى التخلّي التدريجي عن هذا المجال الحيوي. وانتقل السكّان الذين يعيشون هناك إلى وادي النيل الخصب، الذي وفّر ظروفاً أفضل للبقاء.

العصر الحجري الحديث في ثقافة الفيوم أ

تُعدّ ثقافة الفيوم ـ أ، المعروفة بالفيوميان أيضاً، من أقدم ثقافات العصر الحجري الحديث المكتمل في مصر السفلى. وهي ثقافة أعقبت ثقافة الفيوم ـ ب مباشرةً، والتي كانت لا تزال تتّسم بطابع العصر ما فوق الحجري القديم (القرونيان)، التي سبق أن تناولناها أعلاه. على غرار الحال

خلال فترة القرونيان تقع مواقع ثقافة الفيوم ـ أ أيضاً بالقرب من الضفّة الشمالية لبحيرة الفيوم قبل كلّ شيء. دامت ثقافة الفيوم ـ أ من أواخر الألفية السادسة حتى بداية الألفية الرابعة قبل الميلاد. لا شك في أن التقاليد العائدة إلى الفيوم ـ ب، والتي لا تزال ظاهرة في منطقة حوض الفيوم، تطرح السؤال عمّ إذا لم يكن الانتقال من حياة الصيد والجمع إلى حياة المزارعين المستقرّة قد تم هناك أيضاً بشكل تدريجي وفي إطار عملية طويلة المدى. وُجِدَت في فترة الفيوم ـ أ مستوطنات كبيرة تضمّ ما يزيد على 100 موقد والعديد من حفر التخزين الكبيرة، التي من المُثبَت أنها استُخدِمَت كمخازن حبوب أيضاً وأمكنها أن تستوعب حتى 200 إلى 300 كيلوغرام من الحبوب. وقد عُثِرَ عليها في الأماكن المرتفعة التي لم تكنْ مهدَّدة بفيضانات بحيرة الفيوم الدورية في حينه؛ وإذا لعبت هذه الاعتبارات دوراً في تخطيطها وإنشائها، فهذا يشير إلى استيطان شبه دائم لهذه المواقع. على أنه يوجد إلى جانب ذلك مواقع كثيرة أيضاً لم تُستخدَمْ بالتأكيد إلّا موسمياً أو بالأحرى لأجل قصير.ولم يتم العثور فيها سوى على بضعة مواقد، في حين تغيب البقايا المعمارية الأساسية. بناءً على المادة المكتشفة يمكن تفسير هذه المحطّات بأنها أماكن صيد أو ما يُسمّى أماكن تقطيع الفرائس. تكشف كلّ هذه المواقع صلة واضحة بشواطئ بحيرة الفيوم في ذلك الوقت. تطرح الموجودات خلال ثقافة الفيوم ـ أ إذن السؤال عمَّا إذا لم يكنْ تدجين الحيوانات حصيلة لتطوّر متواصل انطلاقاً من العصر ما فوق الحجري القديم. أوليس بالإمكان أن نتصوّر مع ذلك أنه كان يتم التقاط الحيوانات البرّية في فترة ما قبل العصر الحجري الحديث سلفاً وإطعامها وتربيتها بعض الوقت، قبل أن يتم أخيراً ذبحها واستهلاكها؟ والحق أن هذا كان من شأنه أن يكون الخطوة الأولى نحو استخدام أشد منهجيةً لموارد اللحوم، استخدام لا شك في أنه بلغ مرة أخرى بعْداً مختلفاً تماماً مع تربية الحيوانات المنزلية. تسمح المؤشّرات المعروفة منذ العصر ما فوق الحجري القديم على أحجار الطحن، التي تم بها سحق بذور الأعشاب البرّية والحبوب البرّية، بالتعرّف على المراحل التمهيدية الموافقة فيما يتعلق بزراعة النباتات أيضاً.

أول فخار في مصر

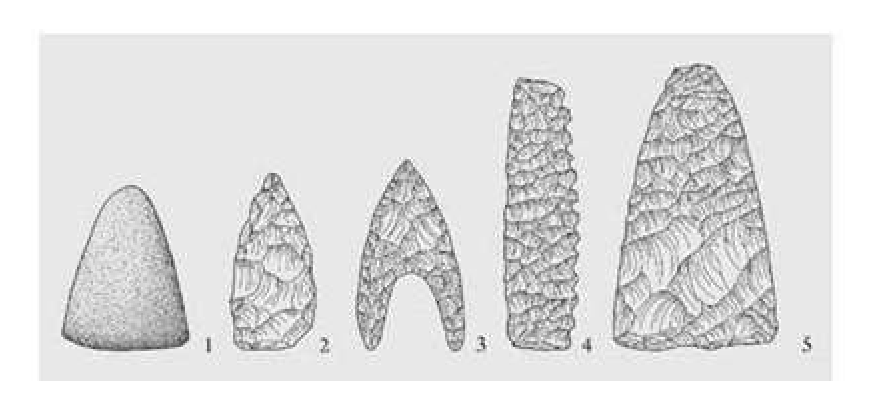
فيما عدا بقايا المواقد والقوائم الخشبية المثقَّبة المتفرّقة وبقايا الأرضيات وأجزاء الجدران لم يُعثَرْ على أي مؤشّرات على شكل المساكن. على أن الطبقات التابعة لها تحتوي، إضافة إلى الأدوات الحجرية، على أول القطع الفخارية وعلى العديد من عظام الحيوانات والأسماك. أما الفخّار الذي عُثِرَ عليه هناك ـ وهو أقدم فخار في الفيوم- فهو فخار خشن وغير متناظر التشكيل تقريباً

ومصنوع يدوياً. الأشكال الفخارية المكتشفة بسيطة وتقتصر على القدور الكروية وشبه الكروية والأواني ذات المقطع على شكل حرف S وأحياناً عنق أسطواني معزول وأطباق مسطّحة. أما الأدوات الحجرية فمصنوعة من الصوّان وحجر الشَّرْت (الشكل 22)، ويمكن الافتراض في بعض الأحيان أن المواد الخام أتت من مناطق بعيدة. من أهم المعدّات الأدوات المحزّزة والمسنّنة والمكاشط والقطع الحجرية المنمّقة، كما تم العثور على عدد قليل من المثاقب والمحافر والمحكّات. تكشف بعض القطع الأثرية عن غرض محدَّد لها: هكذا يُفترَض أن المناجل تُحيل إلى أدوات الحصاد وأن رؤوس السهام استُخدِمَت من أجل الصيد. كما تجدر بالملاحظة البلطات الحجرية المصنوعة بتقنية القطع ثم الشحذ. على أنه لابد من التأكيد عموماً على أن الصناعة الحجرية في الفيوميان تكاد لم تشهدْ تغييرات تستحق الذكر في تطوّرها الذي دام أكثر من ألف سنة من أواخر الألفية السادسة حتى بداية الألفية الرابعة قبل الميلاد.

تبيّن البقايا الحيوانية في مستوطنات الفيوم ـ أ أن سكّانها عاشوا من الصيد وصيد السمك إلى حد كبير على غرار الحال في القرونيان السابق. وقد تركزّ صيد السمك على سمك المشط وسمك السلّور، كما تم صيد أفراس النيل والغزلان وغيرها من الحيوانات البرّية التي عاشت في المساحات القريبة من شواطئ بحيرة الفيوم.

أقدم الحيوانات المنزلية والنباتات المزروعة على ضفاف بحيرة الفيوم

يُعد البقر أقدم حيوان منزلي في هذه المنطقة، والذي تم تدجينه بشكل شبه مؤكَّد في شمال غرب أفريقيا نفسه. أما الأغنام والماعز فكانت هناك غريبة كحيوانات برّية وبالتالي تم استيرادها من الشرق الأوسط بوصفها أنواعاً مدجَّنة مسبقاً. إن الحقيقة التي مفادها أن الحيوانات المنزلية لم تشكّلْ سوى جزء صغير نسبياً قياساً إلى ما كان يتم صيده من حيوانات برّية وأسماك ـ بحسب المادة المكتشفة ـ تبيّن أن الظروف المعيشية والاقتصادية على ضفاف بحيرة الفيوم لم تتغيّرْ إلّا بالتدريج البطيء. من هنا لا يمكن أن يدور الكلام عن <ثورة عصر حجري حديث> ـ بالمعنى الدقيق للكلمة- مثلما نقرأ المرة تلو الأخرى. ومن هذه الناحية يمكن القول باختصار إنه لم تكنْ هناك فوارق جوهرية بين القرونيان في العصر ما فوق الحجري القديم والفيوم ـ أ في العصر الحجري الحديث المبكّر من حيث الاستفادة من الحيوانات. والاستثناء الوحيد تمثّله الحقيقة التي مفادها أن الأبقار مع الأغنام والماعز المستوردة من الشمال الشرقي تمت تربيتها في الفيوم ـ أ سلفاً كحيوانات منزلية.



الشكل 22 : أدوات حجرية من ثقافة الفيوم أ في مصر

حتى فيما يخصّ إدخال النباتات المزروعة يمكن التفكير في تطوّر طويل ومتواصل في الغالب. وقد أمكن إثبات وجود أحجار الطحن في مواقع وادي النيل منذ أيام العصر الحجري القديم المتأخر بهدف سحق بذور الأعشاب البرّية؛ بالتالي كان التعامل مع الحبوب معروفاً لدى أصحاب هذه الثقافة. ولكن المادة المكتشفة في مستوطنات ثقافة الفيوم ـ أ تقدّم الآن لأول مرة بقايا لنباتات مزورعة مدجَّنة. ويدخل في عدادها الأيمر وغيره من الحبوب المبكّرة، التي تم العثور عليها في حاويات التخزين في مستوطنات الفيوم ـ أ. وقد استُخدِمَ العديد من معدّات الحصاد إضافة إلى أحجار الطحن والفرك لمتابعة معالجتها. ولكن النباتات التي استمرّ جمعها، أي الثمار والحبوب وجذور الأعشاب البرّية على سبيل المثال، لعبت دوراً هاماً كذلك في غذاء الناس. من هنا يصعب جداً تقديم إجابة دقيقة عن السؤال عن الأهمية التي تمتّعت بها النباتات المزروعة في قائمة طعام ثقافة الفيوم ـ أ. على غرار الحال مع الحيوانات المنزلية يبدو أن النباتات المدجَّنة أيضاً لم تكنْ بدايةً سوى نوع من إثراء قائمة الطعام، من دون أن يصل الأمر على الفور إلى تغييرات أساسية وجذرية في نمط الحياة.

على الرغم من أن المستوطنات كانت لا تزال تُقصَد لمدة قصيرة في الغالب وموسمياً فقط، إلّا أنه لا بد من التشديد على أن الرواسب أضخم وأشد سماكةً وبالتالي تشير إلى استخدام أطول أو أكثر تكراراً. أما وأنه تم العثور بشكل متفرّق على لآلئ أصداف ومعلّقات وأشياء مشابهة فهو أمر يدلّ، علاوةً على ذلك، على تنوّع أكبر في الأنشطة التي كانت تجري في هذه المواقع. يشير كلّ هذا إلى استيطان أطول ممّا يُفترَض بالنسبة لمستوطنات ثقافة الفيوم ـ ب. ويكشف هذا تمايزاً متزايد الوضوح في المستوطنات: لا بد من التمييز بين مستوطنات دائمة أكبر حجماً وتقع في مواضع أكثر

ارتفاعاً وبين مواقع تُقصَد لأجل قصير، كانت تُستخدَم لأنشطة معينة فقط كالحصول على الغذاء أو أنشطة الصيد أو تقطيع الفرائس أو صيد السمك أو جمع النباتات.

ازدياد الارتباط بالمكان

على الرغم من انضمام عناصر من العصر الحجري الحديث لم يتغيّرْ نمط الحياة والاقتصاد في ثقافة الفيوم ـ أ بشكل أساسي على الإطلاق. ولم يفرضْ نفسه ارتباط أقوى بالمكان، وبالتالي ميل أشد وضوحاً إلـى الحياة المستقرّة، التي ظلّت في الواقع مقترنة بحركة وتنقّل موسميين، إلّا ببطء شديد. ومع أنه تم فـي ذلك الوقت أيضاً استيراد أولى النباتات المزروعة ـ من الشرق الأوسط بالطبع ـ إلّا أن كفة النباتات البرّية ظلّت هي الراجحة في التغذية. ولا تختلف الحال مع الحيوانات؛ اكتفى كلّ من البقر المدجَّن في القارة الأفريقية والأغنام والماعز المستوردة من الشرق الأوسط بإثراء طيف الغذاء ليس إلّا، من دون أن يقترن ذلك بتغيير جذري في نمط الاقتصاد. استمرّ الصيد وصيد السمك في حوض الفيوم سائداً طوال الألفية الخامسة حتى بداية الألفية الرابعة قبل الميلاد. لا شك في أن ثقافة الفيوم ـ أ عرفت طيفاً غذائياً أوسع من القرونيان السابق، ولكن التقاليد المعيشية والاقتصادية ظلّت بدايةً من دون تغيير.

أوائل العصر الحجري الحديث في الفيوم

تحوّلت ثقافة الفيوم ـ أ إلى ما يُسمّى الموريان، وهو ظاهرة ثقافية للعصر الحجري الحديث ترجع إلى مطلع الألفية الرابعة قبل الميلاد. وعلى الرغم من بعض التطوّرات الإضافية لا تزال أشكال الفخار ومعالجته تبدي ارتباطاً وثيقاً بثقافة الفيوم ـ أ. ولا تكاد المستوطنات تختلف عنها في ثقافة الفيوم ـ أ السابقة، وينطبق هذا على نمط الاقتصاد أيضاً. صحيح أنه تم العثور على عظام أبقار وأغنام وماعز، ولكن دور هذه الحيوانات على قائمة الطعام لا يزال دوراً مكمّلاً بالقياس إلى الصيد البرّي. أبدى شكل الاقتصاد فـي الفيوم إذن استمرارية مدهشة على مدى آلاف السنين، وظلّ يتّسم بطابع حياة الصيد والجمع حتى الألفية الرابعة قبل الميلاد. ومع الميل المتزايد إلى الاستقرار وظهور الفخار وتدجين الحيوانات المنزلية وزراعة النباتات تمت خلال الألفية الخامسة قبل الميلاد إضافة جوانب جديدة ليس إلّا، من دون أن تُحدث هذه العناصر تغييراً جذرياً في الظروف الثقافية. فقد ظلّت جديدة وغريبة زمناً طويلاً ولم تستطعْ أن تحلّ محلّ الصيد وصيد السمك والجمع كاستراتيجيات تموين وإمداد، وذلك لفترة طويلة على نحو مدهش. يكشف هذا مرة أخرى بوضوح

أن وادي النيل، وحوض الفيوم على وجه الخصوص، لم يكونا مركزاً لتدجين النباتات والحيوانات، وإنما تبنّى الناس هذه التقنيات الثقافية في الظاهر فقط وغلّفوها بتقليد محلي قوي.

مِرمدة بني سلامة في مصر السفلى

بالتزامن مع ثقافة الفيوم ـ أ تقريباً تطوّرت في جنوب دلتا النيل أهم ظاهرة ثقافية للعصر الحجري الحديث في مصر السفلى، وقد سُمِّيَت مِرمدة بني سلامة بحسب الموقع الأثري. وقد قامت من نهاية الألفية السادسة إلى بداية الألفية الرابعة قبل الميلاد. من الصعب جداً توصيف الفترة التي سبقت ثقافة مِرمدة مباشرةً في هذا الجزء من مصر بناءً على مستوى الأبحاث الحالي. مع ذلك يثير الاهتمام موقع حلوان بالقرب من القاهرة، حيث ظهرت آثار ثقافة عصر حجري حديث ما قبل فخاري لها أصل شرق أوسطي، وهو أمر لا يزال يصعب الحكم عليه بدقة في الوقت الحاضر.

مؤثرات من شرق المتوسط

تبيّن مواقع مثل حلوان أنه لا يزال من الممكن جداً توقّع المفاجآت مستقبلاً فيما يخصّ العلاقات بين مصر السفلى وشرق المتوسط. أيّاً كان شكل الروابط بين وادي النيل والهلال الخصيب خلال العصر ما قبل الفخاري، فإن الآثار المكتشفة في وادي النيل لا تدع أيّ مجال للشك في أن التطوّر اللاحق لهذين الإقليمين المركزيين سار بشكل مختلف كلياً.

<المستوطنة> الأولى في مِرمدة

ما من شك في أن موقع مِرمدة بني سلامة واحد من أهم مواقع العصر الحجري الحديث في مصر. تبلغ سماكة رواسبه 3 أمتار تقريباً، وتعود كلّ من طبقاته إلى فترة زمنية مختلفة. تمثّل الطبقة الدنيا ما يُسمّى المستوطنة الأولى، وقد قامت في بداية العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري في مصر السفلى. وهي تنفصل عن الطبقات الأحدث بفجوة أو انقطاع. لا تشكّل هذه المستوطنة سوى طبقة رقيقة جداً تحتوي على بقايا قليلة من الأكواخ الدائرية والبيضوية، التي يتراوح قطرها بين 2 إلى 3 أمتار. ويُفترَض أن جدرانها شُيِّدَت من قوائم خشبية كانت مكسوّة بحصائر وربما بملاط طيني أيضاً. تختلف هذه المباني بوضوح شديد عن منازل الآجرّ الطيني، التي وُجِدَت في الهلال الخصيب في الوقت نفسه. فضلاً عن ذلك عثر علماء الآثار على حفر

منبسطة وبضعة مواقد. أما الفخار فبسيط ومقوّى قليلاً. وقد تم إنتاج أطباق وأوعية وقدور بسيطة بألوان حمراء داكنة مع تلميع أو بالأحرى صقل الوجه الخارجي. تبدي الأواني نموذجاً متعرّجاً أو نموذج حراشف السمك كزخرفة مميّزة، مما يشير إلى صلتها بأوائل العصر الحجري الحديث في شرق المتوسط، الذي يُفترَض أن العصر الحجري الحديث في مصر السفلى تلقّى منه حوافز أساسية. يُضاف إلى ذلك أوعية للعبادة، أي ما يُسمّى مذابح صغيرة، وكذلك أوانٍ مصغَّرة وأخرى ذات مقبض. لا يزال طيف الأدوات الحجرية يبدي ارتباطاً وثيقاً بالعصر ما فوق الحجري القديم. وقد تم العثور بالدرجة الأولى على نصول وقطع حجرية كان يتم تحويلها فيما مضى إلى أدوات مختلفة. إلى جانب المثاقب نخصّ بالذكر رؤوس السهام ذات الحزوز الجانبية. يجدر بالملاحظة أنه عُثِرَ بين المكتشفات الصغيرة على أولى الأشياء المصمّمة فنّياً، منها على سبيل المثال تمثال بشري صغير ومنحوتات حيوانية. كما أن كلاً من الحلي والمعلّقات المصنوعة من قشور الأصداف وغيرها من الرخويات ولآلئ بيض النعام والتحف العظمية، إضافة إلى الطبشور الأحمر للرسم على الجسد يكشف سلفاً وعياً جمالياً عند أبناء هذه الفترة. في هذا السياق تُحيل مكتشفات الأصداف وقشور الرخويات الأخرى إلى علاقات بعيدة لا يُستهان بها وصلت بدايةً إلى شواطئ البحر الأحمر.

ازدياد في فائض الإنتاج والتخزين

لا بد أن الموقع قد هُجِرَ زمناً طويلاً بعد التخلّي عن المستوطنة الأولى، قبل تأسيس مستوطنة مِرمدة الوسطى. ما خلّفته هذه الأخيرة أشد ثراء بكثير ويكشف زيادة في حجم وتعقيد المستوطنة أيضاً. كان الموقع خلال هذا الوقت أشد كثافة سكّانية. على أن أشكال المنازل يبدو أنها لم تتغيّرْ سوى قليلاً، ذلك أن القوائم الخشبية المثقّبة لا تزال تشير إلى مساكن بيضوية، وأمكن توثيق عدة مواقد في محيطها الخارجي بانتظام. ويوجد بجانبها الآن المزيد من مرافق التخزين، كالحفر والصوامع على سبيل المثال، كما كانت الحال في السابق في ما يُسمّى مستوطنة مِرمدة الأولى. بناء على المادة المكتشفة تُسمّى هذه الطبقة الوسطى فترة ثقافة مِرمدة الكلاسيكية. لا توجد فيها سوى القليل من الروابط مع الطبقة السابقة. وتبرز الفوارق فـي الفخار بوضوح خاص، حتى وإن ظهرت بعض أوجه التشابه في الأشكال. كانت الأواني الفخارية غير المزخرفة مقوّاة بالتبن (مادة عضوية مفرومة) وبالتالي أشد ثباتاً بشكل واضح. كما اتّسع طيف الأطباق والقدور، وظهرت الأواني البيضوية بوصفها أهم الأشكال الخاصة المميّزة لهذه الطبقة الوسطى. وقد أُضيف الآن إلى الأواني

المعروفة المصقولة باللون الأحمر أوانٍ مصقولة باللون الرمادي. ولم تكن الثورة في المعدّات الحجرية أقل وضوحاً. فقد أثبتت رؤوس السهام ذات الأجنحة الطويلة جداً والرؤوس المثلّثة المحزَّزة إضافة إلى رؤوس الرماح المشحوذة على شكل قواطع عرْضية أنها مبتكَرة ومميَّـزة في آن. كما تم العثور على نصول سكاكين وبلطات مشحوذة مصنوعة من الحجر؛ وتشير المناجل إلى أدوات حصاد موافقة. لا بد من ذكر منحوتات الثور وسط المكتشفات الصغيرة. تبيّن اللآلئ المصنوعة من بيض النعام وغيره من المواد، إضافة إلى المعلّقات والخواتم والأساور المصنوعة من العاج، أن الحلي أصبحت في هذه الأثناء أكثر أهمية مما كانت عليه في الأزمنة السابقة. وتسمح خطّافات الصنّارات والحراب المصنوعة من العظام إضافة إلى ثقّالات الشباك الحجرية بالتعرّف على أهمية صيد السمك في ذلك الوقت.

مباني تخزين مشتركة في الطبقة العليا

في حين كانت المستوطنتان الأوليان في مِرمدة بني سلامة عبارة عن مستوطنتين أصغر حجماً واقعتين علـى مقربة من ضفّة النهر، كانت الطبقة العليا مفصولة مجدداً عن سابقتيها بفجوة أو انقطاع. وكانـت أشد اتّساعاً وأشد كثافة بكثير مـن حيث السكّان. وأُضيف الآن إلى أشكال المنازل المعروفة حتى ذلك الحين مبانٍ بيضوية من الطين المدكوك. من غير المؤكَّد تماماً ما إذا كانت عبارة عن مبانٍ سكنية أو مباني تخزين مشتركة. إلى جانب ذلك تم العثور على حاويات تشبه السلال لتخزين المواد الغذائية. إذن لا بد أن أهمية التخزين ازدادت باطِّـراد في مرحلة العصر الحجري الحديث. ولا يمكن أن يعني هذا بدوره سوى أن أهمية الاقتصاد الإنتاجي أخذت تزداد باستمرار مع نهاية الاستيطان، وذلك بعد حياة صيد وصيد سمك وجمع كانت لا تزال سائدة في البداية، على غرار الحال في الفيوم. تختلف المادة الفخارية المكتشفة في هذه الطبقة عن سابقتيها بشكل واضح. يُعدّ الفخار المصقول باللون الأسود على وجه الخصوص شيئاً جديداً، حيث يمكن أن يبدي زخارف مجسَّمة ونقوشاً تزيينية، بل حتى رسوماً عجينية سميكة. بالمقابل تبدو الأشكال تقليدية في الغالب ولا تبدي سوى تغييرات طفيفة. ولا تبرز سوى الأطباق المنحنية قليلاً والأشكال المخروطية المزدوجة. كما ظهرت لأول مرة أشكال من الأواني صعبة الصنع مثل الزجاجات الكروية والأوعية المزدوجة والألواح القاعدية. أما الأدوات الحجرية فهي متنوّعة وعالية الجودة. ونخصّ بالذكر النصول المسنّنة المستخدَمة كمناشير، وما تُسمّى رؤوس مِرمدة ذات الأجنحة القصيرة المشطوفة، التي تظهر في ثقافة الفيوم ـ أ أيضاً، إضافة إلى الأدوات القاطعة وأنواع

البلطات المختلفة. كما تُصادَف مناجل أيضاً، إلّا أنها أكبر من ذي قبل بشكل واضح. وقد عُثِرَ على تماثيل صغيرة بشرية وحيوانية، وكذلك على أساور وتحف عظمية وقطع حلي وثقّالات شباك وأحجار فرك وأحجار طحن.

إذن، يبدو أن موقع مِرمدة بني سلامة قد تطوّر تدريجياً في سياق وجوده من معسكر صغير واقع على ضفة النهر وربما لم يُستخدَمْ إلّا موسمياً إلى مستوطنة أكبر مأهولة بشكل متواصل، وقد سكنها في النهاية عدد كبير ومتنامٍ بشدة من السكّان. إذا نظرنا في هذه الموجودات، إضافة إلى البقايا الحيوانية والنباتية التي بقيت محفوظة، أمكن إبراز العديد من أوجه التشابه مع التطوّر في الفيوم (ثقافة الفيوم ـ أ). كانت الحيوانات المنزلية موجودة منذ البداية، بيد أنها كانت تكمل الإمداد بالغذاء فقط، والذي كان لا يزال معتمداً كلّ الاعتماد على الصيد وصيد السمك. وكان البقر هو السائد بين الحيوانات المنزلية منذ البداية، حتى أن أهميته ازدادت في المراحل الأحدث للمستوطنة. وقد تم العثور على خنازير في جميع الطبقات، في حين تراجع عدد الأغنام بشكل واضح بمرور الوقت. ولا يمكن تفسير هذا إلّا بكون أهمية الأغنام المستوردة من الشرق الأوسط على صعيد الإمداد باللحوم في وادي النيل لم تكنْ تضاهي، ولو بشكل تقريبي، أهمية البقر المدجَّن بصورة مستقلّة عن الأشكال البرّية في شمال أفريقيا. ساد صيد السمك في جميع الطبقات، حتى إنه ازداد أهميةً في المستوطنة الأحدث على ما يبدو. أما فيما يخصّ حيوانات الصيد فقد تم العثور على بقايا تعود إلى أفراس النيل والتماسيح والسلاحف. كما ضمّت المادة المكتشفة أصدافاً نهرية، وهي توضّح مدى اعتماد الإمداد بالغذاء على النيل القريب. بالمقابل تكاد الثدييات النموذجية الموجودة في المناطق الصحراوية القريبة لم تلعبْ أيّ دور في قائمة الطعام.

الاقتصاد الزراعي المبكّر في جنوب دلتا النيل

على غرار الحال في حوض الفيوم لم يُقصِ الاقتصاد الإنتاجي إذن اقتصاد الصيد والجمع بشكل فجائي في جنوب دلتا النيل أيضاً، وإنما أكمله وحسب في البداية ولم يحلّ محلّه إلّا في سياق تطوّر مطوّل. صحيح أن بالإمكان إثبات شيء من الاستمرارية بين الطبقات المفردة في مِرمدة، غير أنه لا يمكن إغفال الفوارق والتغييرات. ففي حين لا تزال الطبقة الدنيا تشير بفخارها ذي الزخارف المتعرّجة إلى صلات بالشرق الأوسط، لا يعود هذا يُلاحَظ في المراحل الأحدث. بسبب المناخ شديد الجفاف، الذي ساد في جنوب شرق المتوسط من منتصف الألفية السادسة حتى منتصف الألفية الخامسة قبل الميلاد، لم تُحفَظْ هناك أيّ بقايا استيطانية تعود إلى الزمن الذي تلا الفترة ما قبل

الفخارية PPN C. ولعل تراجع الاقتصاد الزراعي في هذه المنطقة منذ نحو 6000 قبل الميلاد كان له علاقة بانتعاشه في وادي النيل، وربما هاجر جزء من السكّان باتجاه وادي النيل. تبدي كلّ من مستوطنتي مِرمدة الوسطى والأحدث صورة مستقلّة قائمة بذاتها وتمثّل ثقافة عصر حجري حديث أصيلة في مصر السفلى. وتكشف المؤثّرات المتبادلة سواء في الثقافة المادية أم في نمط الاقتصاد والحياة أنهما كانا وثيقي الصلة بالفيوم ـ أ. لا يُعرَف سوى القليل عن النباتات المزروعة في مِرمدة بشكل مؤكَّد، مع ذلك يُفترَض أن يدخل في عدادها كلّ من الإيمر والشعير والكتان والعدس.على أن التصنيف الأدق يبدو صعباً في الوقت الحاضر. حتى وإن كانت معرفتنا فيما يتعلق بالنباتات المزروعة لا تزال ضعيفة، إلّا أن ما يُلاحَظ من زيادة واضحة في حاويات ومرافق التخزين في الطبقة الوسطى، وفي الطبقة الأحدث على وجه الخصوص، تدلّ صراحةً على الأهمية المتزايدة للنباتات المزروعة في غذاء سكّان مِرمدة. يُحتمَل أن الزراعة قد لعبت في هذه المنطقة من وادي النيل في ذلك الوقت سلفاً دوراً أكبر منه في حوض الفيوم في الفترة نفسها. غير أن هذه الاعتبارات تبقى مجرد تكهّنات وتأمّلات نظرية طالما لا تتوافر لدينا معطيات وبيانات أكثر موثوقية.

3
الاقتصاد والاتصالات البعيدة وتشكيل الحكم قبل توحيد مصر

العمري جنوب القاهرة

هناك المزيد المتزايد من مواقع العصر الحجري الحديث في وادي النيل الأدنى والأوسط، التي تعود إلى نهاية الألفية الخامسة وبداية الألفية الرابعة قبل الميلاد، أي بالتوازي مع المستوطنة الوسطى، وبالدرجة الأولى مع المستوطنة الأحدث في مِرمدة بني سلامة. تبرز الآن الظواهر الثقافية المنتشرة إقليمياً بشكل واضح، كمجموعة العمري على سبيل المثال، وهي موقع أثري جنوب القاهرة. وقد تم العثور هناك على مستوطنة واسعة تضمّ أكثر من 100 كوخ دائري الشكل وغائر في الأرض قليلاً. على غرار الحال في الطبقة الأحدث في مِرمدة يمكن ملاحظة أن حاويات تخزين الحبوب وغيرها من المواد الغذائية ازدادت أهميتها بالنسبة للناس هناك. لولا مرافق التخزين هذه لما أمكن إطعام هذا العدد المتنامي بشدة من السكّان. وقد تم توثيق الشعير والإيمر والكتان في البقايا النباتية، ولكن جمع النباتات البرّية استمرّ كما في السابق، ولو في نطاق متناقص تدريجياً. من بين الأنواع الحيوانية الموثَّقة عن طريق المكتشفات العظمية تهيمن الأغنام والماعز والأبقار والخنازير، إلى جانب ذلك لا يزال صيد السمك (السلّور) يتمتّع بأهمية كبيرة. أما الصيد فتركّز على الطيور المائية وأفراس النيل والنعام والتماسيح والظباء. تبيّن موجودات العمري أن الزراعة لم تكنْ في نهاية الألفية الخامسة قبل الميلاد قد حلّت بعد نهائياً محلّ حياة الصيد والجمع القائمة على صيد السمك والصيد والجمع، ولكنها بدأت في إقصائها تدريجياً. وقد طوّر الاقتصاد الزراعي في ذلك الوقت أشكالاً أكثر تخصّصاً أيضاً. إذن فقد أخذت زراعة النباتات وتربية الحيوانات تتوسّعان باستمرار في وادي النيل، مما أدى في نهاية المطاف، حوالي 4000 قبل الميلاد، إلى تغيير جذري في نمط الاقتصاد.

ثقافة بوتو المعادي للعصر الحجري الحديث المكتمل

حدثت عملية تطوّرية مماثلة في ثقافة تاسا المنتشرة إلى الجنوب قليلاً وفي ثقافة بوتو المعادي، التي أعقبت ثقافة مِرمدة في جنوب الدلتا. قامت ثقافة بوتو المعادي من مطلع الألفية الرابعة حتى 3500 قبل الميلاد، قبل أن تحلّ محلّها ثقافة نقادة الأحدث، التي انطلقت من مصر العليا وانتشرت عبر وادي النيل نحـو الشمال. تكشف مستوطنة المعادي بعض الصلات مع العمري. فقد عاش المرء فـي قرى أصغر، وكانت المنازل المشيَّدة من مواد خفيفة كالخشب والقشّ والطين غائرة في الأرض قليلاً. تختلف الأواني البسيطة غير المزخرفة والمصنوعة يدوياً عن أوانـي مِرمدة بشكل واضح، في حين تشير بعض الأشكال إلى اتصالات مع شرق المتوسط بلا شك. إلى جانب ذلك تم العثور على أوانٍ مستوردة من ثقافة نقادة المبكّرة في الجنوب. يُضاف إلى ذلك أولى الأشياء النحاسية، التي لا يمكن أن يكون مصدرها إلّا الشرق الأوسط وبالتالي تثبت العلاقات التجارية مع شرق المتوسط وغيره من مناطق الشرق الأوسط، والتي اشتدّت وتوثّقت في الألفية الرابعة قبل الميلاد.

الحيوانات المنزلية والنباتات المزروعة والنحاس

من المؤكَّد أنه وُجِدَت في ذلك الوقت سلفاً طرقات بعيدة للتجارة وتبادل البضائع انطلاقاً من وادي النيل مروراً بشبه جزيرة سيناء وصولاً إلى المراكز الثقافية والاقتصادية في الشرق الأوسط. وقد حدث مع ثقافة بوتو المعادي في الألفية الرابعة قبل الميلاد تحوّل لا رجوع فيه في الواقع، فقد نشأ عن حياة الصيد والجمع، التي تنطوي على عناصر العصر الحجري الحديث، نمط الحياة الخاص بثقافة العصر الحجري الحديث المكتمل. عـرف الناس هناك أولـى الأشياء المعدنية أيضاً، حتى وإن استجرّوا أقدم نسخها - قِطعاً نحاسية - من الشرق الأوسط ولم يكنْ بالإمكان بعد إثبات وجود تعدين خاص في وادي النيل. فيما يخصّ الحيوانات المنزلية تم العثور على بقايا أبقار وأغنام وماعز وخنازير، بالإضافة إلى ذلك تم إثبات تدجين الحمير لأول مرة في مصر. كما ظهرت أيضاً أنواع مختلفة من الحبوب. ومن الجدير بالذكر أيضاً أنه تم تأسيس المقابر النظامية بالقرب من المستوطنات في ثقافة بوتو المعادي لأول مرة. كان المتوفّون يُدفَنون في وضعية القرفصاء الجانبية، حيث لم يحظَ ببعض المرفقات في الواقع سوى نصف المدفونين تقريباً.

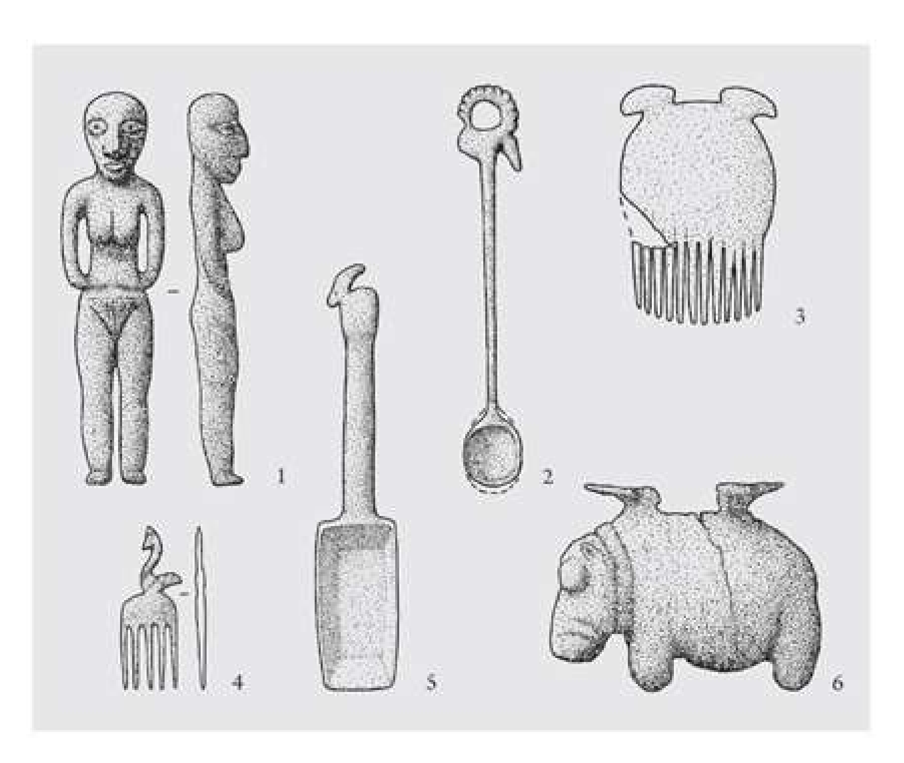
ثقافة تاسا في وسط مصر

قامت ثقافة تاسا إلى الجنوب من ثقافة بوتو المعادي، أي في وسط أو بالأحرى شمال مصر العليا. وقدْ وُجِدَت بالتزامن مع مستوطنة مِرمدة الوسطى وعلى وجه الخصوص مستوطنة مِرمدة الأحدث ويرجع تاريخها إلى أواخر الألفية الخامسة وبداية الألفية الرابعة قبل الميلاد. كانت المؤثّرات القادمة من الشمال المتطوّر مسبقاً حاسمة في نشوء العصر الحجري الحديث في مصر العليا، ومن الواضح أن المؤثّرات القادمة من منطقة مِرمدة أدت إلى نشوء ثقافة تاسا أيضاً. وتطوّرت عنها في الفترة اللاحقة ثقافة بداري أو بالأحرى ثقافة نقادة I في مصر العليا. لا نعرف سوى القليل عن نمط حياة واقتصاد أصحاب ثقافة تاسا؛ تكاد لا توجد مواقع كبيرة، ولم يستطع المرء الكشف عن القليل من بقايا الاستيطان وعن بعض القبور المتفرّقة إلّا في بعض المحطّات. الفخّار معروف جيداً ويسمح بتوصيفه بشكل موثوق، وهو يشير في النهاية إلى وجود صلات بثقافتي بداري ونقادة اللاحقتين. تشير كلّ من أوجه التشابه في الفخار والدراسات الأنثروبولوجية على الهياكل العظمية المستخرَجة من قبور تاسا إلى صلات باتجاه الشمال. من الممكن جداً أن نتصوّر أن ثمة حركات هجرة بشرية من مصر السفلى نحو الجنوب إلى وادي النيل الأوسط قد أدت إلى تشكل ثقافة تاسا.

ثقافة بداري في مصر العليا

تُعرَف أقدم ظاهرة ثقافية للعصر الحجري الحديث المكتمل في مصر العليا بثقافة بداري (الشكل 23). وقد نشأت في الربع الأخير من الألفية الخامسة قبل الميلاد، ويمكن إرجاعها إلى المؤثّرات التي امتدّت نحو الجنوب عبر ثقافة تاسا المنتشرة شمالها مباشرةً. مع بداية الألفية الرابعة قبل الميلاد تحوّلت ثقافة بداري بشكل سلس إلى ثقافة نقادة. حتى إن النقاش يدور من حين إلى آخر حول ما إذا كانت بداري عبارة عن تنويع محلّي لنقادة الأقدم. بالتالي تنتمي ثقافة بداري إلى تلك الدائرة من الظواهر الثقافية، التي انتشرت عبر وادي النيل نحو الجنوب بعد نهاية الفيوم ـ أ ومِرمدة مع مطلع الألفية الرابعة قبل الميلاد وتميّزت بتوجّه متزايد إلى الاقتصاد الإنتاجي، بالتزامن مع التخلّي التدريجي عن حياة الصيد والجمع. وهنا تعمل بداري بمعنى ما مثل رابط بين التقاليد المحلّية من الزمن السابق مع العناصر المُضافة حديثاً من الشرق الأوسط. تبدو المستوطنات في ثقافة بداري أصغر قليلاً من نظيراتها في ثقافة مِرمدة، غير أننا لا نعرف الكثير عن بنية المستوطنات وأشكال منازلها. هناك مؤشّرات على مباني القوائم الخشبية، إنما من غير الممكن إعادة بناء المساقط الأفقية.

فضلاً عن ذلك ثمة أدلّة أثرية على وجود حفر وحاويات وغيرها من مرافق التخزين، التي تم العثور عليها في ثقافتي العمري والمستوطنة الأحدث فـي مِرمدة بني سلامة أيضاً، كما ذكرنا. كانت القرى الصغيرة لثقافة بداري تقع على الشريط الصحراوي المنبسط عند أطراف وادي النيل الخصب بصفة خاصة.



الشكل 23 : قطع أثرية من قبور العصر الحجري الحديث في ثقافة بداري في مصر

زاول أصحاب هذه الثقافة الزراعة وتربية الماشية والصيد وصيد السمك. ولم يُوثَّقْ لديهم حتى الآن سوى الإيمر والشعير كنباتات مزروعة، واستمرّوا إلى جانب ذلك في جمع النباتات البرّية. فيما يخصّ الحيوانات المنزلية قاموا بتربية الأغنام والماعز بالدرجة الأولى، ولكنهم كانو يصيدون أيضاً الغزلان وأفراس النيل والتماسيح والسلاحف. واستمرّ صيد السمك بلعب دور هام. على غرار الحال قي ثقافة بوتو المعادي في مصر السفلى تم العثور على أولى المقابر عند أطراف مستوطنات بداري. كان المتوفّون يُدفَنون في وضعية القرفصاء في حفر بيضوية، حيث يُلفّون بحصائر ويُزوَّدون بمرفقات غنية تتكوّن من الأواني الفخارية في الغالب. في حين كان فخار المستوطنات أقرب إلى الخشونة في الصنع والبساطة في التصميم من حيث الشكل والزخرفة، تم العثور في القبور على أوانٍ فخارية فاخرة مصنوعة من الصلصال المصقول باللون الأحمر والبنّي.

تُعد الشرائط الهامشية السوداء، التي تم تحقيقها عن طريق تقنية حرق خاصة، نموذجيةً بالنسبة لفخار ثقافة بداري، ولا يزال يُعثَر عليها في ثقافة نقادة المبكّرة أيضاً. يُضاف إلى ذلك سطح مضلَّع تم إنتاجه عن طريق تمشيط الطبقة الصقيلة بقوة. إلى جانب المنحوتات ذات الجودة الجديرة بالإعجاب المصنوعة من العاج والعظام لا بد من ذكر الإبر واللآلئ المصنوعة من النحاس أيضاً. من هنا يمكن القول إن ثقافة بداري ليست أقدم ظاهرة ثقافية للعصر الحجري الحديث المكتمل في مصر العليا وحسب، بل إن ممثّليها بدؤوا سلفاً - على غرار أصحاب ثقافة بوتو المعادي شمالاً - بعملية تعدين النحاس أيضاً، والتي يُفترَض أنه تم استيرادها من الشرق الأوسط إلى وادي النيل، كما ذكرنا سابقاً.

العصر الحجري الحديث في الخرطوم

مع ثقافتي تاسا وبداري وصلت عناصر الحياة والاقتصاد الخاصة بالعصر الحجري الحديث إلى المناطق الواقعة جنوباً في وسط مصر ومصر العليا خلال الألفية الخامسة وأوائل الألفية الرابعة قبل الميلاد. ولكن ثمة تغييرات جذرية في نمط الحياة حدثت في أقصى الجنوب أيضاً، في النوبة العليا ووسط السودان بين مصبّ عطبرة في النيل وملتقى النيلين الأبيض والأزرق بالقرب من الخرطوم. وقد تلا العصرَالحجري الوسيط في الخرطوم، بدءاً من أوائل الألفية الخامسة قبل الميلاد، ما يُسمّى العصر الحجري الحديث في الخرطوم، الذي يمدّنا بمؤشّرات أولى على انتقال تدريجي إلى الاقتصاد الإنتاجي. بناءً على المكتشفات في مواقع مثل الشاهيناب ظهرت الفكرة التي مفادها أن الانتقال من حياة واقتصاد *العصر الحجري الوسيط* إلى حياة واقتصاد العصر الحجري الحديث حدث هنا بشكل متصل وكعملية ذاتية أصيلة. لطالما تمثّلت الحجّة الرئيسة لهذا الرأي في أن تطوّر الفخار من *العصر الحجري الوسيط* في الخرطوم إلى العصر الحجري الحديث في الخرطوم يكشف استمرارية قوية على نحو لافت، على الرغم من بعض التغييرات. على أن المرء تراجع عن هذه الفكرة في هذه الأثناء، ذلك أن تعاقب الطبقات في المواقع الأثرية كثيراً ما يبدي انقطاعاً في الاستيطان بين *العصر الحجري الوسيط* والعصر الحجري الحديث، مما يتعارض مع الاستمرارية الداخلية. أضفْ أن الفخار أيضاً يبدي عند تدقيق النظر بلا شك فوارق بين *العصر الحجري الوسيط* في الخرطوم وخطوطه المتموّجة المحفورة النموذجية في هذه المرحلة وبين العصر الحجري الحديث في الخرطوم، والذي يتميّز بالخطوط المتموّجة المنقّطة.

لذلك ثمة نظرية مفضَّلة في الأبحاث في بعض الأحيان ينطلق مؤيّدوها من هجرة مجموعات بشرية من الصحراء الشرقية إلى المنطقة الواقعة غرب النيل (كنبتة بلايا وبير قصيبة على سبيل المثال). إما أن تكون أولى الحيوانات المنزلية قد وصلت من هناك إلى المناطق المحيطة بالخرطوم أو أنها جاءت من الشمال من وادي النيل المصري. هناك أدلّة مؤكَّدة على أية حال على أن أبناء العصر الحجري الحديث في الخرطوم، الذي وُجِد في وسط السودان ابتداءً من أوائل الألفية الخامسة قبل الميلاد، قاموا بتربية الأبقار والأغنام والماعز كحيوانات منزلية. إلى جانب ذلك استمرّ الصيد وصيد السمك وفقاً لتقليد الصيادين والجامعين الجيد. ليس هناك مؤشّرات على زراعة النباتات، غير أنه يُفترَض أن جمع الأعشاب البرّية ومعالجتها لعب دوراً مركزياً في التغذية في الألفية الخامسة وأوائل الألفية الرابعة قبل الميلاد أيضاً، كما كانت الحال في *العصر الحجري الوسيط* في الخرطوم. تشير مواقع العصر الحجري الحديث في الخرطوم إلى حياة شبه مستقرّة، ذلك أنه تم العثور على أماكن مستخدَمة موسمياً وأخرى مأهولة بشكل دائم. وربما بدأت في هذا الوقت سلفاً زراعة ذرة الدخن أيضاً. وقد تم إنتاج الأواني الفخارية الآن بإتقان أكبر منه في الأزمنة السابقة، كما صُقِلَت سطوحها بشكل أكثر نعومةً، وأصبحت أساليب الزخرفة والتزيين أشد تنوّعاً. استمرّت الصناعة الصوّانية على طابعها الدقيق. وقد تم العثور إلى جانب ذلك على حراب وخطّافات صنّارات مصنوعة من العظام، مما يثبت استمرار صيد السمك والنهر في لعب دور شديد الأهمية بوصفهما مصدرين لغذاء الناس. الجديد في ذلك الوقت كانت البلطات الحجرية المصقولة، التي يُفترَض أنها استُخدِمَت في معالجة الأخشاب.

في حين لا يُعرَف سوى القليل نسبياً عن المستوطنات، تم العثور على بضعة حقول من القبور تضمّ العديد من حالات الدفن، وهي تعود إلى فترة العصر الحجري الحديث في الخرطوم. كانت تجهيزات القبور أغنى من ذي قبل، وهـي تكشف عن فوارق واضحة في المكانة الاجتماعية للمدفونين وكذلك بين الكبار والصغار. وتلفت النظر في ذلك بشكل خاص مجموعة من قبور الرجال الأغنى تجهيزاً؛ وقد تم فيها تمييز الموتى بوضوح عن باقي الأفراد بمرفقات تتكوّن من رؤوس هراوات مصنوعة من الحجر السمّاقي ومن الفخار المزخرف عالي الجودة، وقلادات مصنوعة من الأحجار النادرة. في حين حدث في وادي النيل المصري تحوّل تدريجي من ثقافة نقادة ما قبل التاريخية إلى الظروف الثقافية للأسرات المبكّرة، وذلك في الفترة اللاحقة خلال الألفية الرابعة قبل الميلاد، بقيت مناطق النوبة العليا ووسط السودان بلا مساس من قبل هذه العملية إلى حد كبير. هذا ما تثبته المقابر الكبيرة في ذلك الوقت التابعة لدنقلة أو كدادة أو كاديرو، والتي تبرز من بين

مرفقاتها تماثيل صغيرة مصنوعة من الحجر والصلصال تم تصميمها بشكل تخطيطي جداً أو بشكل واقعي سلفاً (الشكل 24).

الوحدات الاستيطانية كمجتمعات طقسية

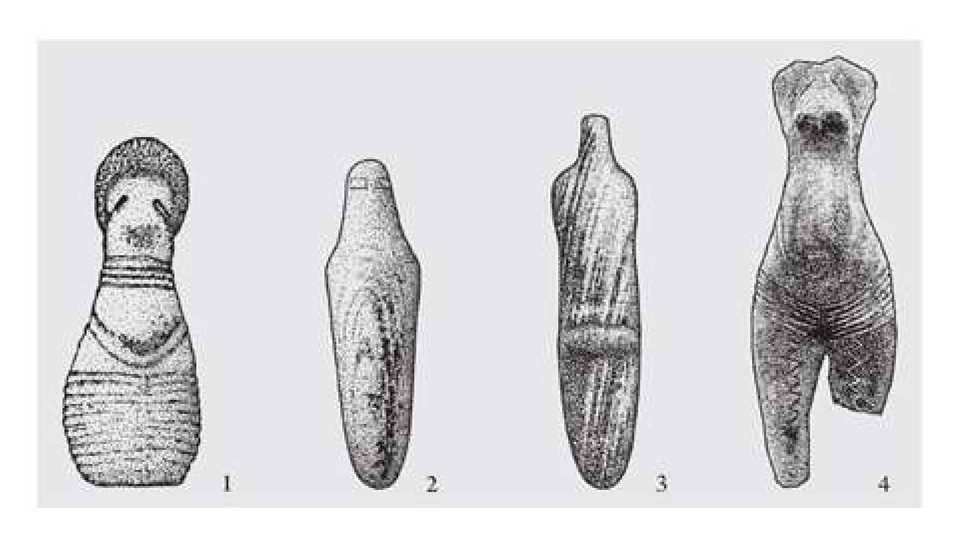
ليست حقول القبور هذه جديرة بالملاحظة لكونها تكشف عن مرتكزات أولى لتشكّل الطبقات الاجتماعية وحسب، وإنما لكونها تتيح لنا أيضاً أن نتعرّف هناك على مجموعات استيطانية لأول مرة بوصفها مجتمعات طقسية تربطها عادات الموتى وتصوّرات مشتركة عن الحياة بعد الموت.

تماثيل صغيرة من الصلصال والحجر

تتكوّن حقول القبور من حالات دفن فردية في الغالب. وقد تم دفن الموتى في وضعية القرفصاء في حفر بسيطة، ثم غُطِّيَت القبور بكتل حجرية في الغالب. وقد عُثِرَ فيها، إلى جانب المرفقات الفخارية، على أشياء للاستخدام الشخصي بالدرجة الأولى، وبخاصة قطع الحلي. كما عُثِرَ ضمن فخار قبور العصر الحجري الحديث في الخرطوم على بعض الأشكال الخاصة، منها على سبيل المثال أكواب على شكل زهرة التوليب ذات قعر دائري وجسم ضيّق وحواف عليا عريضة للغاية، لا يمكن أن يكون لها أيّ وظيفة عملية في الاستخدام المنزلي وربما كانت على صلة بالأعمال الطقسية، كتقديم مشروب القربان مثلاً. ومن المرفقات أيضاً هناك تماثيل صغيرة على شكل إنسان يمكن تقسيمها إلى مجموعات مختلفة. بعض من تلك التماثيل المصنوعة من الحجر تخطيطي جداً. أما تلك المصنوعة من الصلصال فتبدي تنوّعاً تشكيلياً أكبر بلا شك، وتُظهر أحياناً ملامح فردية في تصفيف الشعر وفي الملابس وفي معالم الوجه. وقد عُثِرَ بين هذه الأخيرة على تماثيل ذات تناسق غير طبيعي وتماثيل واقعية التصميم بشكل لافت. لا بد أن الناس في ذلك الوقت كانوا يمتلكون سلفاً مهارة مدهشة في تحويل الجسم البشري إلى أشكال ثلاثية الأبعاد. وبقدر ما أمكن تحديد الجنس فإن الأمر يتعلق بتماثيل نسائية حصراً، وهذه سمة من سمات الكثير من مجتمعات الاستيطان في العصر الحجري الحديث المبكّر في أماكن أخرى من العالم القديم أيضاً.

تشكّل الحكم في النوبة

إذا تأمّلنا في حقول القبور وتجهيزاتها، في النوبة وفي وسط السودان، أمكننا إثبات وجود فوارق هامة. فالمقابر في النوبة، والتي كانت أقرب إلى وادي النيل المصري بتطوّره المتقدّم، تشي سلفاً بمجتمعات ذات تراتبية أشد. حتى إنه يمكن أن يدور الكلام سلفاً عن بدايات مبكّرة لتشكّل الحكْم (Chiefdoms [1]). في كلّ الأحوال لم تعدْ مجتمعات المساواة قائمة هناك. والأرجح أنه برزت داخل مجموعات مربّي الماشية هذه دائرة من الأشخاص من أصحاب المنزلة الاجتماعية الأعلى. وقد يكون وضعهم الخاص مرتبط بدورهم في إنتاج الغذاء، وربما كانوا يتوافرون على مهارات تقنية خاصة أيضاً أو يسيطرون على الموارد الغذائية والمخزونات والاتصالات البعيدة، التي كانت تخدم في تبادل البضائع.



الشكل 24 : تماثيل صغيرة من قبور العصر الحجري الحديث في الخرطوم في شامل السودان

ربما نشأت عن مثل هذه المشيخات عند الأطراف الجنوبية لمصر الأسرات المبكّرة في سياق الألفية الثالثة قبل الميلاد أولى الممالك الإقليمية كمملكة كرمة. بالمقابل تثبت حقول القبور في جنوب وسط السودان تطوّراً مختلفاً. صحيح أنه يمكن التعرّف على بعض الفوارق الهامشية بين حالات الدفن هناك أيضاً، ولكن الروابط العائلية تبرز بشكل أشد.

يمكن القول باختصار: إن تربية الماشية أخذت تلعب دوراً متزايد الأهمية، وإن كان الصيد وصيد السمك لم يفقدا أهميتهما، مثلما تبيّن صلات مواقع الاستيطان بالنيل وروافده. وقد قام الناس بتربية الأبقار بالدرجة الأولى، غير أنه أمكن توثيق الأغنام والماعز أيضاً في المادة المكتشفة. في إطار البحث عن المراعي غادر السكان منطقة الأرض الخصبة على جانبي النيل خلال الألفية

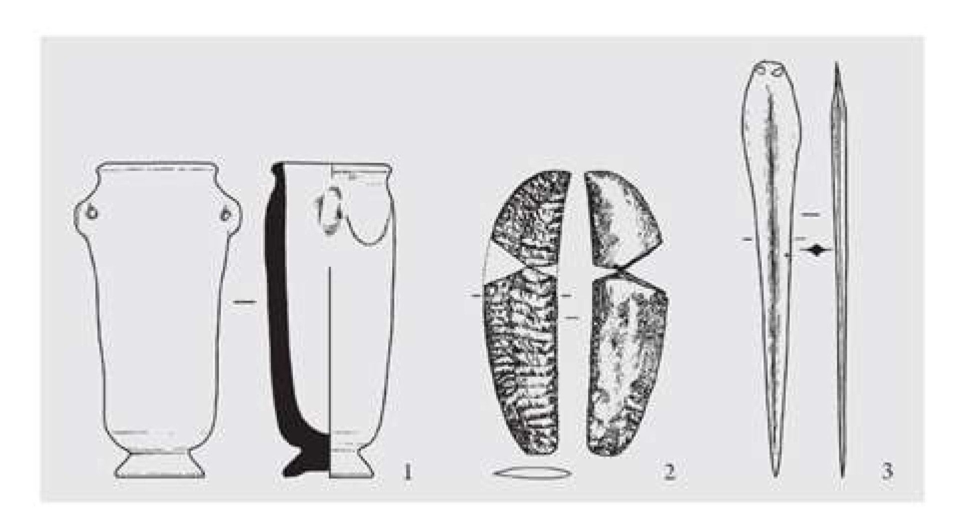
الرابعة قبل الميلاد وتقدّموا إلى مناطق جديدة بالاتجاه الشرقي والجنوبي الشرقي على وجه الخصوص. وربما نشأت عن ذلك فيما بعد حياة الرعي الجوّالة مع قطعان الأبقار على الهضبة الإثيوبية أو في أجزاء أخرى من شرق أفريقيا.

ثقافة نقادة ما قبل الأسرات

خلال وجود العصر الحجري الحديث في الخرطوم في النوبة ووسط السودان حلّت محلّ ثقافة بداري في مصر العليا ثقافة نقادة، التي مارست تأثيرها بدروها الآن انطلاقاً من مصر العليا عبر وادي النيل نحو الشمال. ومع نهاية وجودها كانت تشمل لأول مرة وادي النيل المصري بأكمله، وهكذا شكّلت أساس الإمبراطورية المصرية اللاحقة. بدأت المرحلة الأقدم نقادة I - وتُسمّى ثقافة العَمرة أيضاً نسبة إلى موقع العَمرة - مع نهاية الألفية الخامسة قبل الميلاد ودامت حتى أوائل الألفية الرابعة قبل الميلاد. كما هي الحال في الثقافات الأخرى في ذلك الوقت، كثقافة مِرمدة المتأخّرة أو ثقافة العمري أو البداري مثلاً، تم العثور في مستوطنات هذه الثقافة على تصاميم وهياكل دائرية صغيرة من الطين المدكوك كمساكن، وكانت غارقة في الأرض قليلاً واستُخدِمَت كمبانٍ للتخزين بلا شك. لا نعرف الكثير عن هيكلية المستوطنات وبنيتها الداخلية، لأن ثقافة نقادة عُرِفَت عن طريق مكتشفات القبور في الغالب. ولكن الملاحظات القليلة التي قدّمها علم النبات الأحفوري يبدو أنها تشير إلى أن كمية النباتات المزروعة في نقادة I وتنوّعها ازدادا بشكل ملحوظ مقارنةً بالثقافات السابقة. بذلك قطعت فترة نقادة I خطوة تطوّرية واضحة نحو نمط حياة واقتصاد قائم على الزراعة، حيث تم توثيق زراعة الإيمر والشعير والكتان والعدس فيه. إلى جانب ذلك استمرّ الناس في جمع النباتات البرّية مثل عشبة البندق أو ثمار نخيل الدوم. ويوثّق طيف العظام الحيوانية، التي تم العثور عليها، ازدياداً لافتاً لأول مرة في الأنواع المدجَّنة مثل الأغنام والماعز والأبقار والخنازير، وهي حدثية ثقافية ترافقت مع فقدان أهمية الصيد. إذا قارنا المستوطنات من ثقافة نقادة I مع مستوطنات ثقافة بداري السابقة، التي يغلب الظنّ أنها لم تُستخدَمْ إلّا موسمياً في الغالب، أمكننا أن نلاحظ توجّهاً واضحاً إلى الحياة المستقرّة في نقادة I. وفي حين أن زراعة النباتات وتدجين الحيوانات لم يظهرا في السابق إلّا جنباً إلى جنب مع أنماط اقتصاد الصيد والجمع، من دون إقصائها على الفور، انقلبت الظروف نحو 4000 قبل الميلاد بشكل قاطع ودائم، فضلاً عن أن الزراعة وتربية الماشية أصبحتا أساسيتين. حافظ الفخار في نقادة I، بأوانيه المصقولة باللون الأحمر أو بالأحرى البنّي ذات الحواف السوداء، على تقاليده الواضحة في ثقافة بداري. مع ذلك

سرعان ما أُضيفت زخرفة منقوشة بصورة هندسية، كما زُيِّنَت جدران الأواني بصور مشهدية أشد تعقيداً ذات موضوعات مستوحاة من عالم الحيوان في وادي النيل على سبيل المثال أو أظهرت سفناً أو مشاهد صيد وقتال وعبادة. إلى ذلك تجدر بالملاحظة تماثيل بشرية صغيرة، من بينها رجال ملتحون في المقام الأول، تم تثبيتها على عصي من العاج أو على معلّقات. كما تم العثور على تماثيل نسائية صغيرة عديدة كانت لا تزال نادرة جداً في ثقافة بداري.

في مرحلة نقادة II التالية، التي يرجع تاريخها إلى ما بين 3500 و3200 قبل الميلاد، انتشرت هذه الثقافة نحو الشمال وصولاً إلى دلتا النيل. فضلاً عن ذلك حدثت تغييرات جذرية أعلنت عن نهاية عصر ما قبل الأسرات وشكّلت أساساً للتطوّرات اللاحقة. وتطوّر الفخار في أشكاله وأساليب زخرفته بشكل مستمرّ عنه من نقادة I؛ فتم حرقه بشدة أكبر وأصبح بذلك أكثر صلاحية لتخزين الطعام طويل الأمد. عند الانتقال من نقادة I إلى نقادة II كانت هناك بضع مستوطنات صغيرة تضمّ مواقد وحفراً وأكواخاً مصنوعة من القوائم الخشبية والجدران الطينية والأساسات الحجرية، من دون أن نكون قادرين على تحديد شكل هذه المستوطنات بالضبط.



الشكل 25 : قطع من الفخار والحجر والنحاس
من قبور ثقافة نقادة II في مصر

فائض الإنتاج في نقادة

تمت تربية الأغنام والماعز والأبقار والخنازير بالدرجة الأولى كحيوانات منزلية، ولم يعد الصيد وصيد السمك وجمع النباتات البرّية تلعب سوى دور مكمّل في تغذية الناس من الآن فصاعداً. ابتداءً من مرحلة نقادة II هذه على أبعد تقدير بات إمداد السكّان في وادي النيل المصري بالغذاء

يعتمد على الاقتصاد الإنتاجي بشكل نهائي؛ وتخلّص المرء الآن من آخر قيود حياة الصيد والجمع. بموازة ذلك حدث تمايز اجتماعي مركَّب يمكننا أن ندركه بفضل القبور قبل كلّ شيء، بينما ما زلنا لا نعرف سوى القليل عن مستوطنات هذه الفترة. كما تُعدّ مرحلة نقادة II فترة نموّ سريع في المعرفة، تدلّل عليه مواصلة التطوّر في مجالات التقنية كافة. لم تعد الأواني الحجرية والفخارية تُنتَج من أجل الاحتياجات الشخصية فقط، بل أنتج المرء فائضاً منها. وأدت الحاجة إلى أعداد أكبر من القطع في النهاية إلى اختراع عجلة الخزّاف، بل حتى إلى بداية الإنتاج الواسع (الشكل 25). كما ازدادت أهمية معالجة المعادن في الوقت نفسه. إلى جانب المستوطنات القروية نشأت التجمّعات السكّانية التي انبثقت عنها لاحقاً مراكز عصر الأسرات المبكّر. تندرج في هذه الأخيرة هيراكونبوليس، حيث تم اكتشاف منازل مستطيلة مشيَّدة بأسلوب البناء بالآجرّ الطيني إلى جانب الأكواخ الدائرية التقليدية ذات الأرضية الغائرة. يبدي التقسيم الداخلي لهيراكونبوليس ملاح حضرية أولية، أي ملامح مدينية تقريباً: إلى جانب حيّ الورشات يرتسم هناك في الحقيقة نوع من مركز للحكْم والعبادة أيضاً. وقد تم دفن أفراد الطبقات الاجتماعية المختلفة في أماكن مختلفة في الغالب. لولا ظهور التفكير النخبوي ووجود طبقة قيادية اجتماعية راسخة في هذه الأثناء لما أمكن تفسير هذه الظاهرة.

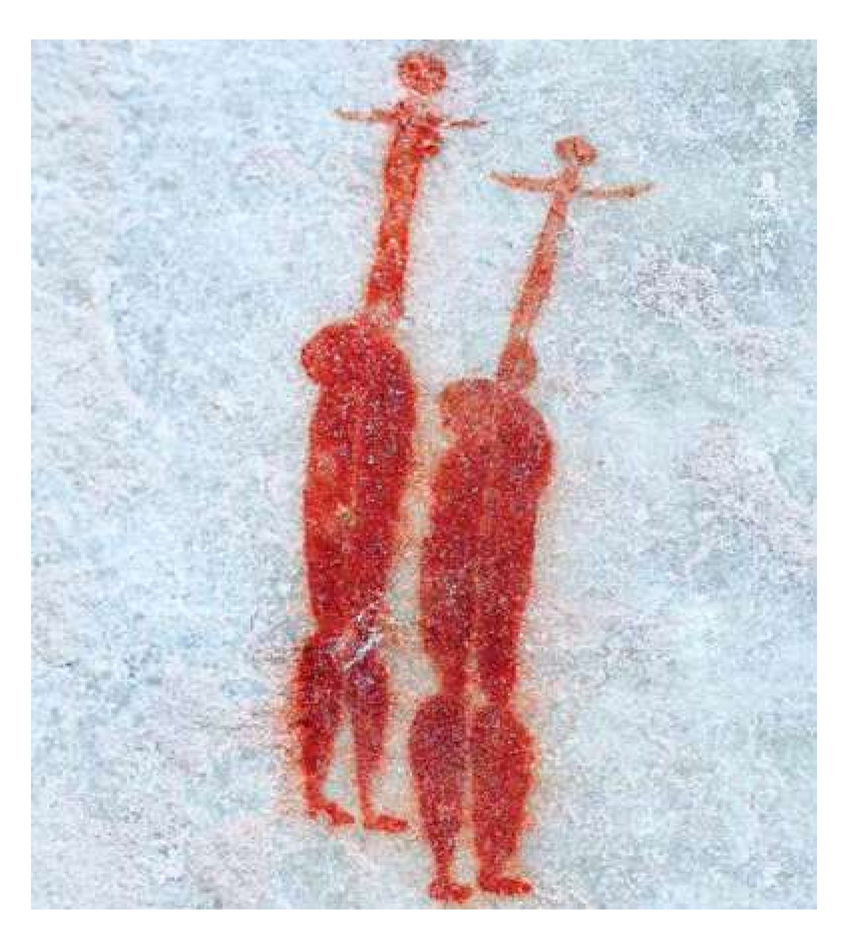
نقادة III والأسرة صفر

تُعدّ مرحلة نقادة III والأخيرة، التي بدأت نحو 3200 قبل الميلاد، بمثابة الأسرة صفر في مصر القديمة. هذا يعني أن بذرة نشأة الأمبراطورية القديمة قد وُضِعَت في ذلك الوقت سلفاً. تشير أحدث المكتشفات، التي يرجع تاريخها إلى نحو 3300 قبل الميلاد، في مقبرة يو (U) في أم القعب بالقرب من أبيدوس إلى أن الكتابة المصرية قد يكون تم تطويرها بمعزل عن الكتابة السومرية وربما حتى قبلها بفترة قصيرة. والأسرة صفر هي تلك الفترة التي تم فيها سلفاً توثيق الملوك الصغار بالنقش الكتابي لأختام أسمائهم. صحيح أنه يجوز استبعاد وجود بنية ثابتة لدولة تشمل مصر العليا ومصر السفلى خلال الأسرة صفر وكذلك لاحقاً في عهد الفراعنة، غير أن بداياتها كانت في ذلك الوقت تحديداً. وقد أدى التبادل المكثَّف بين مختلف أجزاء مصر في ذلك الوقت إلى توحيد متزايد للقيم، سواء في الثقافة الروحية أم المادية. ولم تعدْ سوى مسألة وقت قبل أن يحقّق حاكم قوي توحيد الإمبراطورية. المدهش في الأمر أنه تم إنشاء أولى أنظمة الريّ من أجل الزراعة في عهد الملك عقرب II خلال الأسرة صفر. بالتالي أدى تأسيس مراكز التجمّع الحضرية الأولية والسيطرة

على مناطق أكبر إلى إمداد مركزي بالمواد الغذائية وإلى فائض منها. حيث تم تكثيف زراعة الحبوب والخضر وتربية الماشية وتوسيع نطاقها بشكل كبير باستخدام أنظمة الريّ الاصطناعية. والحق أن إنشاء وصيانة مثل هذه المرافق لا يمكن تخيّله من دون تخطيط وتوجيه مركزيين.

استمرّت حياة الصيد والجمع في وادي النيل المصري زمناً طويلاً ولم يحلّ محلّها شكل اقتصادي إنتاجي قائم على الزراعة وتربية الماشية إلّا بالتدريج البطيء. أما الفترة الفاصلة بين التأسيس النهائي للنباتات المزروعة والحيوانات المنزلية من جهة، وبداية الاقتصاد الزراعي المركزي بالريّ الاصطناعي ومراكز الاستيطان الحضرية الأولية، من جهة أخرى، فكانت قصيرة بشكل لافت قياساً إلى ذلك. حوالي 3150 قبل الميلاد حدث التوحيد النهائي لوادي النيل بكامله تحت حكْم مصر العليا. وتُعرَف الحقبة التالية بفترة الأسرات المبكّرة أو الإمبراطورية القديمة.

٧ التطوّرات المعوِّقة في أفريقيا جنوب الصحراء



«امرأتان »، رسم صخري مما قبل التاريخ من كلانويليام، جنوب أفريقيا

1
الصيّادون والجامعون ومربّو الماشية وإدارة الغابات في غرب أفريقيا

في أعقاب فترة جفاف شديد حلّت قبل نحو 25000 سنة، وأجبرت الناس على مغادرة مناطق الغابات والسافانا المجاورة للساحل الأطلسي في غرب أفريقيا أُعيدَ استيطان هذه المناطق من قبل مجموعات نهاية العصر الحجري نحو 10000 قبل الميلاد. صحيح أنه حلّت مجدداً مرحلة جفاف قصيرة، ولكنها شديدة، في النصف الأول من الألفية الرابعة قبل الميلاد وأدت إلى تراجع الغابات المطيرة الكثيفة وإلى اتّساع السافانا في السهول، ولكن هذا بقي حدثاً عابراً قصيراً في تطوّر المناخ والطبيعة في هذه الأقاليم، التي تميّزت بتعايش الغابات الاستوائية المطيرة ومراعي السافانا المفتوحة. من الجدير بالملاحظة أنه حتى أقدم الثقافات، التي أمكن لعلم الآثار توثيقها، لم تقتصرْ حياتها على واحدة من المنطقتين المناخيتين الطبيعيتين، وإنما كانت منتشرة في مجال أكبر بمعزل عن ذلك.

صيّادو وجامعو نهاية العصر الحجري بين سيراليون والكاميرون

يمكن تقسيم مواقع نهاية العصر الحجري من سيراليون في الغرب إلى الكاميرون في الشرق إلى مرحلتين زمنيتين كبيرتين. تدوم الفترة الأولى طويلاً جداً، حيث تمتدّ من نحو 10000 إلى ما بعد 4000 قبل الميلاد بقليل. وقد عاشت في ذلك الوقت مجموعات الصيّادين وصيّادي السمك والجامعين، التي اتّسمت ثقافتها المادية في الغالب بالأدوات الحجرية الدقيقة أو غيرها من صناعة النصول في الغالب. يتمثّل القاسم المشترك بين كلّ هذه المواقع في كون الفخار لا يزال غائباً تماماً. أما الفترة الثانية من نهاية العصر الحجري فتبدأ مع أوائل الألفية الرابعة وتنتهي في مطلع الألفية

الثانية قبل الميلاد. يلفت النظر في المادة المكتشفة الموافقة أن الأدوات الحجرية الدقيقة أقلّ تمثيلاً بكثير، حيث تم العثور بدلاً منها على الكثير من الأدوات العظمية ذات الصلة بصيد السمك (حراب، خطّافات صنّارات). في هذا الوقت سلفاً يمكن ملاحظة فوارق إقليمية أشد تقتصر على مناطق مناخية وطبيعية مختلفة. هكذا يمكن توثيق تراجع واضح في الأدوات الحجرية الدقيقة لصالح المعدات الحجرية المصقولة والفخار في مواقع مناطق الغابات المطيرة، في حين تُصادَف على الساحل وفي المناطق المتاخمة له مباشرةً أكوام عديدة من الأصداف. نظراً لانعدام المكتشفات والموجودات الموافقة لا يمكن بعد توصيف إدارة موارد الرزق في نهاية العصر الحجري في غرب أفريقيا جنوب الصحراء بشكل موثوق - أي نمط الاقتصاد الذي يهدف إلى الاكتفاء الذاتي حصراً - مع ذلك يمكننا أن ننطلق من أن الناس عاشوا صيّادين وجامعين يعتمد غذاؤهم على الصيد وصيد السمك وجمع النباتات البريّة بالدرجة الأولى.

ثقافة بونبون في غانا

مع التحوّل من الألفية الثالثة إلى الثانية قبل الميلاد نشأت في وسط غانا ثقافة صيد وجمع تُعرَف باسم بونبون. دامت هذه الثقافة ما يقارب الـ 400 سنة وتم توثيقها عن طريق الترسّبات في الملاذات الصخرية بشكل أساسي. تُعدّ الأدوات الحجرية المصنوعة من الكوارتز وقطع الفخار المتفرّقة جداً والمزيَّنة بالبصمات المغطية لسطوحها من المكتشفات المميِّزة لهذه الثقافة. علاوةً على ذلك تحتوي الطبقات الموافقة على كميات كبيرة من الأصداف، التي من الواضح تماماً أنها شكّلت جزءاً من الغذاء. وإلّا كان الإمداد الغذائي في معظمه يأتي من صيد الحيوانات المنتشرة في مناطق السافانا والغابات المطيرة، والتي شملت الزواحف المختلفة إلى جانب الثدييات. كما كان نشاط الجمع يندرج ضمن عملية الحصول على الغذاء، وربما الجني الموسمي للنباتات والثمار البرّية أيضاً. وقد استُخدِم الفخار القليل، الذي تم العثور عليه، في عملية تحضير الطعام بالدرجة الأولى؛ فهو لا يكاد يكون صالحاً للتخزين.

صيّادون وجامعون مع فخار

كان أصحاب ثقافة بونبون صيّادي وجامعي نهاية العصر الحجري. يمكن قراءة حركتهم وتنقّلهم من أماكن إقامتهم في الملاذات الصخرية أو بالأحرى من معسكرات الأرض المفتوحة التي كانوا يقصدونها لفترات قصيرة بين الحين والآخر. بالمقابل لا يمكن إثبات وجود استيطان متواصل

وطويل الأمد في أماكن مفردة، حتى وإن أمكننا أن ننطلق من أن الأماكن المناسبة بصفة خاصة ـ من أجل صيد الحيوانات البرّية على سبيل المثال، والتي كانت تمرّ من هناك موسمياً فقط ـ كانت تُقصَد بشكل متكرّر. وقد تم العثور في بعض مواقع ثقافة بونبون بين الحين والآخر على بصمات حصائر ومنسوجات على قطع فخارية؛ ويسمح هذا باستنتاج أنهم كانوا يتوافرون سلفاً على تقنيات نسْج بسيطة؛ وربما استُخدِمَت المنتجات النسيجية في نقل وحفظ غنائم الصيد. أما الحلي، التي ربما ارتداها الأفراد ـ كاللآلئ على سبيل المثال ـ فلم يتم اكتشافها إلّا فيما ندر.

ثقافة كينتامبو في غرب أفريقيا جنوب الصحراء

خلال النصف الأول من الألفيـة الثانية قبـل الميلاد حلّ محلّ صيّادي وجامعـي ثقافة بونبون في نهاية العصر الحجري ثقافة كينتامبو، التي أنتجت سلفاً أشكالاً مبكّرة من الاقتصاد الزراعي. لطالما انطلق المرء حتى الآن من أن صيّادي وجامعي بونبون سبقوا مربّي الماشية ومزراعي ثقافة كينتامبو زمنياً. غير أن عمليات التأريخ باستخدام الكربون 14، والتي تزداد عدداً في هذه الأثناء، تدلّ على تعايش أطول أمداً بين كلا المجموعتين السكّانيتين. والحق أنه تم العثور بشكل متزايد على مثل هذه المواقع، التي تظهر فيها مادة بونبون وكينتامبو جنباً إلى جنب في سياق المكتشفات نفسه. إذن لا بد أنه كان هناك اتصالات وثيقة بين أصحاب ثقافة بونبون وثقافة كينتامبو يُفترَض أنها وصلت إلى حد تعايش المجموعتين، موسمياً على الأقل. أما شكل هذا التعايش في الواقع فلا يزال يتملّص من التقييم الموثوق في الوقت الحاضر. وإذا افترضنا أن أصحاب ثقافة كينتامبو لم يتطوّروا عن صيّادي وجامعي بونبون السابقين، فلا بد أنهم هاجروا من إقليم آخر إلى مناطق السافانا والغابات المطيرة في غرب أفريقيا.

أثناء البحث عن منطقتهم الأصلية المحتمَلة ينصبّ التركيز على المناطق الواقعة شمالاً في منطقة الساحل وفي جنوب الصحراء، حيث إن السكّان، الذين عاشوا هناك حتى ذلك الحين، لا بد أنهم هاجروا باتجاهات مختلفة منذ الألفية الثالثة على أبعد تقدير، بسبب الجفاف الشديد الذي أصاب مناطق واسعة. إن الحقيقة التي مفادها أن كينتامبو تتميّز بفخار مزخرف ببصمات مشطية، نعرفها في تصميم مشابه من تلك المناطق الشمالية في فترة سابقة، تشير إلى الاتجاه الذي ينبغي البحث فيه عندما يدور الموضوع حول أصل تلك المجتمعات، التي أدت هجرتها إلى نشوء ثقافة كينتامبو.

الهجرة بسبب جفاف الصحراء الأفريقية

في هذه الحالة ربما وصلت تربية الماشية أيضاً، من أبقار وأغنام أو بالأحرى ماعز، إلى المناطق الجنوبية مع روّاد ثقافة كينتامبو هؤلاء. حتى وإن كانت هذه الاعتبارات لا تزال تتطلّب المزيد من التأكيد، هناك قرائن بيّنة وموثوقة بلا شك في هذه الأثناء على فرضية الهجرة من الشمال في سياق أواخر الألفية الثالثة قبل الميلاد. يوضّح هذا مرة أخرى أيّ مفاعيل كانت للجفاف الشديد في الصحراء ومنطقة الساحل على تاريخ الاستيطان في النصف الشمالي من أفريقيا بكامله. وقد أدت هذه الانزياحات السكّانية الناجمة عن ذلك إلى استيطان مشدّد لوادي النيل في الشرق من ناحية، وإلى هجرة نحو الجنوب من ناحية أخرى، حيث تقدّم البشر عبر السافانا في منطقة الساحل وصولاً إلى أطراف الغابات المطيرة في غرب ووسط أفريقيا. ولم يصطحبوا معهم إلى المناطق المستهدفة في تلك الأثناء عناصر ثقافتهم المادية وحسب، وإنما استراتيجيات جديدة للعيش أيضاً، كتربية الماشية على سبيل المثال. وسرعان ما أثبتت هذه المكاسب الجديدة أنها متفوّقة على نمط الاقتصاد الاستحواذي عند صيّادي وجامعي بونبون المقيمين، الذين انفتحوا على ثقافة كينتامبو واندمجوا فيها بعد قرون قليلة، لا سيما أن تربية الماشية والزراعة لم يحلّا محلّ الصيد وصيد السمك والجمع بشكل فجائي، وإنما أُضيفا إليها بدايةً كعنصر مكمّل ولم يسودا إلّا في الفترة لاحقة.

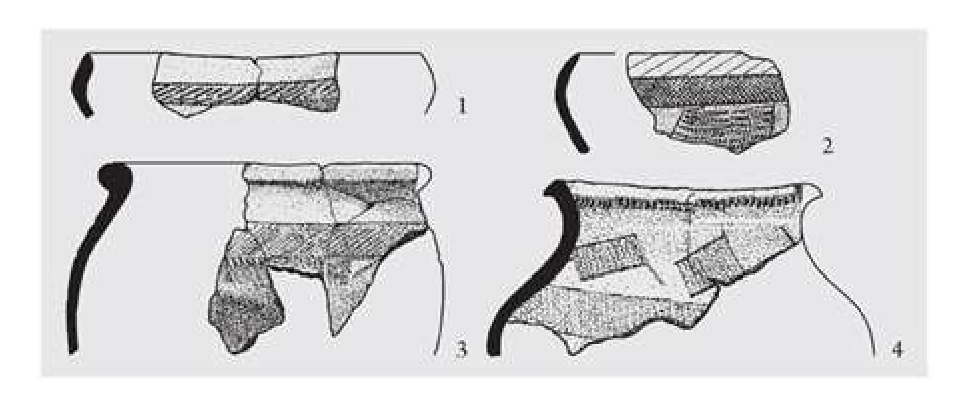
تربية الماشية وتكوين القطعان

بدأت ثقافة كينتامبو في الربع الثاني من الألفية الثانية قبل الميلاد. تتركّز مواقعها الأثرية في مراعي السافانا وأطراف الغابات المطيرة في غانا الحالية، مع أنه يمكن اكتشافها في الدول المجاورة أيضاً مثل ساحل العاج في الغرب أو نيجيريا والكاميرون في الشرق. تُضاف إلى ذلك مكتشفات مماثلة أخرى ضمن حزام عريض من غرب أفريقيا جنوب الصحراء. وقد انصبّ التغيير الأساسي، الذي اقترنت به ثقافة كينتامبو قياساً إلى الفترات السابقة، على نمط الحياة والاقتصاد. ولعبت تربية الماشية دوراً بارزاً في ذلك، حيث تمت تربية قطعان الأغنام والماعز قبل كلّ شيء منذ بداية ثقافة كينتامبو. ويجدر بالذكر أنه لم تتم إضافة الأبقار إلّا في مرحلة لاحقة، ومع تربيتها بدأت تربية الماشية الحقيقية في الشمال. ربما ارتبط هذا مع القحط المتقدّم في النصف الشمالي من أفريقيا بكامله، والذي أدى إلى انزياح حزام انتشار ذبابة تسي تسي نحو الجنوب، والذي يصعب على الأبقار عبوره. لم تستطع الأبقار أن تخترق منطقة التهديد القديمة لذبابة تسي تسي حقاً إلّا في الألفية الأولى قبل الميلاد، مما يفسّر تأخّر انتشار الأبقار المنزلية في جنوب القارة الأفريقية.

بالتزامن مع ازدياد أهمية تربية الحيوانـات المنزلية قلّ التنقّل واشتدّ الميل إلـى الاستقرار. علاوة على ذلك تم العثور فـي مواقع ثقافة كينتامبو على مؤشّرات على الزراعة، كزراعة نخيل الزيت والبطاطا الحلوة على سبيل المثال. وقد دفع هذا بعض الباحثين إلى افتراض مفاده أن تدجين كلا النباتين تم في فترة ثقافة كينتامبو. على أنه لم يثبتْ على وجه اليقين ما إذا كان الأمر في هذين النباتين لا يزال يتعلق بأشكال برّية أم بأنواع مزروعة بالفعل. ولكن حتى وإن لم يتأكّدْ تدجينها بعد على وجه اليقين في فترة ثقافة كينتامبو، من السهولة بمكان أن نتصوّر أنه تم في هذه المنطقة ذات يوم، ذلك أن الأشكال البرّية لكلّ من نخيل الزيت والبطاطا الحلوة ممثَّلة بأعداد كبيرة على نحو لافت عند الحدود بين مراعي السافانا ذات الأشجار والغابات المطيرة تحديداً. عندما أخذت كثافة الغابات المطيرة تنخفض باستمرار بسبب الجفاف المتقدّم، تحوّل الناس إلى استثمار أراضي الغابات الشبيهة بالحقول، والذي ربما لعب فيه استغلال النباتات البرّية النامية برّياً هناك، مثل نخيل الزيت والبطاطا الحلوة، دوراً بلا شك. وقد تمتّع نخيل الزيت في ذلك بالأهمية من نواحٍ عدة، ذلك أنه لم يمدّ بالزيت فقط، وإنما بالألياف ومواد البناء أيضاً.

أولى النباتات المزروعة واستثمار أراضي الغابات الشبيهة بالحقول

إلى جانـب ذلك لا يزال يُعزى للصيد أهمية كبيرة. حيث تـم التركيز فيه على الثدييات في السافانا ومناطق الغابات. كما استمرّت أهمية جمع الثمار والنباتات البرّية أيضاً. بالتالي تميّزت ثقافة كينتامبو بشكل فائق التعقيد من الاقتصاد، يتكوّن من مزيج من استغلال أراضي الغابات الشبيهة بالحقول وتربية الماشية في السافانا، وقد تم إكماله بالصيد والجمع المتخصّصين. لم تنتهِ ثقافة كينتامبو مع ما اقترن بها من استيطان مكثَّف للسافانا والغابات المطيرة في غانا والبلدان المجاورة إلّا مع ذروة مرحلة الجفاف في بداية الألفية الأولى قبل الميلاد، عندما أصبحت هذه المناطق موحشة أكثر فأكثر ومعادية للاستيطان أكثر فأكثر.



الشكل 26 : فخار ثقافة كينتامبو في غانا

يُعدّ الفخار سمة بارزة بشكل خاص لثقافة كينتامبو المادية، ويمكن العثور على شواهده بأعداد أكبر بكثير مما هي الحال في أيّ ثقافة سابقة أخرى. تشير هذه الوفرة إلى استقرار واضح عند أصحاب هذه الثقافة. استُخدِمَت الأواني الفخارية لأغراض الطهي ولحفظ المواد الغذائية في ذلك الوقت أكثر من أيّ وقت مضى. ويمكن تمييز شكلين أساسيين (الشكل 26): قدور مفتوحة وأوانٍ ذات بطون دائرية وعنق ضيّق. وقد تم تزيين الشكلين كليهما من الخارج بشرائط زخرفية تتكوّن من بصمات مشطية متوازية أو متعرّجة. وقد عزّز اشتراك أواني كينتامبو بهذه الزخرفة مع المجموعات الفخارية الأقدم في جنوب الصحراء ومنطقة الساحل الفرضية المطروحة أعلاه، والتي مفادها أن أصل ثقافة كينتامبو من الشمال.

يرى بعض الباحثين أنه لكثرة ظهور الفخار علاقة بالأهمية المتزايدة لزيت النخيل. يتطلّب استخراج المادة اللازمة للحصول على الزيت من ثماره أو بذوره عملية غليان معقّدة وطويلة جداً، لا يمكن تصوّرها من دون وجود أوانٍ فخارية موافقة. مع ذلك يبقى هذا تخميناً حتى الآن، ذلك أنه لم يتم بعد إثبات وجود أيّ رواسب أو بقايا ذات صلة على السطوح الداخلية للأواني.

كينتامبو كمجمّع ثقافي مترابط في غرب أفريقيا

إلى ذلك تضمّ مكتشفات ثقافة كينتامبو العديد من الأدوات الحجرية المصقولة، من بينها نصول ورؤوس سهام وأدوات تشبه البلطة وأخرى لتلميع وتشذيب السهام إضافة إلى أحجار طحن وفرك. وتكتمل هذه المجموعة من المعدات بأدوات حجرية دقيقة مصنوعة من الكوارتز. كما أنتج أصحاب هذه الثقافة من الحجر المصقول لآلئ وحتى أساور في بعض الأحيان. تجدر بالملاحظة بصفة خاصة تماثيلهم الصلصالية الصغيرة، التي تظهر لأول مرة في هذا الجزء من أفريقيا. مع ذلك ازدادت في فترة ثقافة كينتامبو بشكل ملحوظ نسبة المواد الخام الغريبة أيضاً، بخاصة أنواع الصخور النادرة التي لا تُصادَف حتى في المحيط الأوسع للمواقع. وهذا يشترط بالتالي علاقات تجارية واسعة النطاق وأشكالاً متطوّرة من تبادل البضائع. تتأكّد هذه الصورة بالمكتشفات العديدة من الأصداف البحرية، التي من الواضح أنها جاءت من ساحل الأطلسي لغرب أفريقيا؛ مما يعني أن الاتصالات لا بد أنها وصلت إلى هناك. وربما أسهم هذا التواصل عبر مسافات بعيدة في كون فخار كينتامبو لا يكاد يبدي فوارق وخصائص إقليمية صريحة في نطاق منطقة انتشاره الواسعة، وإنما

يبدو شديد التجانس في كلّ مكان. إلى جانب سائر التغييرات في نمط الاقتصاد والحياة تمثّل الشبكة المكثّفة لمجتمعات الاستيطان واحداً من أشد التغييرات جذريةً قياساً إلى أساليب حياة صيّادي وجامعي نهاية العصر الحجري السابقين. إذا كانت هذه الأساليب قد وُجِدَت جنباً إلى جنب ضمن المنطقة نفسها على نحو أشد عزلةً بوضوح، فقد تطوّر في فترة كينتامبو، وفي منطقة أكبر، مجمّع ثقافي مترابط حقيقي، امتدّ من مركز بارز بوضوح في غانا الحالية حتى ساحل العاج في الغرب والكاميرون في الشرق.

تتّفق مع صورة الاستقرار الواضح لسكّان كينتامبو مواقع استيطانية ذات حجم لا يُستهان به غالباً وتبدي علاوةً على ذلك آثار بناء منازل دائمة. كلما ازداد استقرار مجتمع ما واشتد ارتباطه بالمكان ازدادت صعوبة ممارسة حياة صيد وجمع فعّالة وإطعام نفسه عن طريق غلال الصيد والجمع وحدهما. ومن شأن هذا الأخير أن يشترط بلا شك مناطق تجوّل واسعة، الأمر الذي يتعارض مع الاستيطان المرتبط بالمكان. من هذه الناحية يبدو أن أنشطة الصيد والجمع في ثقافة كينتامبو كان لها طابع مكمّل فقط، في حين لعبت الزراعة وتربية الماشية دوراً متزايد الأهمية. مع ذلك لا بد من الانطلاق من أن سكّان كينتامبو لم يكونوا جميعاً دائمي الاستقرار. والأرجح أنه كان هناك مجموعات عاشت بطريقة أكثر حركةً وتنقّلاً واستمرّت في الصيد والجمع بلا شك.

مستوطنات كينتامبو وبناء المنازل

حيثما نعثر على مواقع استيطانية لثقافة كينتامبو تشهد الهندسة المعمارية للمنازل على أسلوب بناء متطوّر كان مفقوداً في الحقب السابقة. تكوّنت المباني من هياكل من القوائم الخشبية مع حواجز مضفّرة وكسوة من الأعشاب والطين. ومن الشائع نسبياً أن يتم العثور على كتل حجرية كبيرة من الواضح أن غايتها كانت تعزيز الأساسات أو مناطق قواعد المباني فيما مضى. المساقط الأفقية مستطيلة الشكل في الغالب، حتى إنه يمكن التعرّف في بعض الأحيان على ترتيبات منتظمة في المنازل إلى حد ما، على الرغم من أن الحفريات واسعة النطاق لا تزال نادرة في مستوطنات كينتامبو. إلى جانب المباني المستطيلة تم العثور على مباني تخزين وحتى أحواض مياه. يسمح توزّع المكتشفات بتوصيف مناطق وظيفية مختلفة داخل المستوطنة، كأماكن العمل على سبيل المثال، وكذلك مناطق من الواضح أن معالجة النباتات كانت تتركّز فيها، وذلك نظراً لتواجد أحجار الطحن والفرك فيها بتركيز أعلى. يشير كلّ هذا إلى أن ثقافة كينتامبو أفرزت مجتمعات استيطانية متميزة ومنظّمة على أساس من تقسيم العمل في السافانا ومناطق الغابات في غرب أفريقيا.

إذن، نحن أمام ثقافة عصر حجري مكتملة التطوّر فـي غرب أفريقيا لأول مرة، ثقافة تميّزت باستقرار واضح وعاش سكّانها من تربية الماشية وأولى النباتات المزروعة. مع ذلك فإن القطيعة مع الحقب السابقة ليست بالوضوح الذي تبدو عليه بدايةً. لم يتم التخلّي تماماً عن النمط التقليدي في الحياة والاقتصاد، الذي يقوم على الصيد وصيد السمك والجمع ومعالجة النباتات البرّية ويشترط قدْراً أعلى من الحركية والتنقّل، لصالح أسلوب حياة وإنتاج مستقرّ، وإنما استمرّ قائماً، وإن باتت أهميته ثانوية.

نهاية كينتامبو والعصر الحديدي المبكّر

حوالي 1000 قبل الميلاد انتهت أخيراً ثقافة كينتامبو، وذلك بصورة مفاجئة نسبياً. بدأ تعدين الحديد في أوائل الألفية الأولى قبل الميلاد، من دون أن نستطيع في الوقت الحاضر توصيف المرحلة الانتقالية من ثقافة كينتامبو في العصر الحجري الحديث إلى مجتمعات الاستيطان فـي العصر الحديدي المبكّر بشكل مقنِع. على أن صورتنا عن هذه الحدثيات ليست ناجمة عن انقطاع فـي تطوّر الثقافة والاستيطان بقدر ما هـي نتيجة لمستوى الأبحاث غير المتوازن. ربما أدى الجفاف المتزايد إلى التخلّي عن مواقع الاستيطان وإلى هجرة السكّان، ذلك أنه لا يمكن التأكّد من أيّ استمرارية مباشرة للاستيطان في مواقع كينتامبو. يبدو واقع الحال كما لو أنه تشكّلت في أعقاب فترة كينتامبو مستوطنات أصغر حجماً، فضّل سكّانها العيش على ضفاف الأنهار وكانوا أكثر اعتماداً على صيد السمك من جديد، ولكن من دون التخلّي التام عن تربية الماشية وزراعة النباتات المتوافرة سلفاً.

يرجع تاريخ أقدم الأدلّة على بداية معالجة الحديد في المناطق المختلفة من غرب ووسط أفريقيا، وفي منطقة الساحل المجاورة في الشمال، إلى منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد. وقد نشأت في هذا الوقت مراكز لمعالجة الحديد، كما في منطقة ثقافة نوك في وسط نيجيريا على سبيل المثال، وآخر كان في الغابون. أما التواريخ المتفرّقة الأقدم لبداية معالجة الحديد، والتي تُرجعها إلى ما قبل منتصف الألفية الأولى، فهي تواريخ غير موثوقة كثيراً. على أنه يمكن افتراض بداية العصر الحديدي في أجزاء واسعة من أفريقيا جنوب الصحراء ابتداءً من القرن الثالث قبل الميلاد، وهو تطوّر جرّ إلى تغييرات بالغة الأثر في الظروف الثقافية.

في حين أن استغلال نخيل الزيت أمر مُثبَت قبل النصف الأول من الألفية الثانية قبل الميلاد، وأن الدخن اللؤلؤي ظهر في الألفية الثانية قبل الميلاد كذلك - وإن في منطقة الساحل شمال الغابات

الاستوائية المطيرة فقط حتى الآن - لم تتم إضافة زراعة البطاطا الحلوة والذرة الرفيعة وغيرها من أشكال الدخن والأرز والبقوليات إلّا في العصر الحديدي. أما المؤشّرات المتفرّقة على وجود البقوليات في سياق ثقافة كينتامبو سلفاً فهي ضعيفة الموثوقية ولا تبيّن إلّا أن صورتنا الحالية عن تطوّر النباتات المزروعة ليست شاملة ولا تزال تبدي ثغرات كبيرة.

من ابتكارات العصر الحديدي الأساسية، إلى جانب الطيف الواسع من النباتات المزروعة، التراتبية الشديدة في المستوطنات والمجتمع ونشوء مواقع مركزية ومحصَّنة محاطة بمستوطنات قروية. كلّ هذا أدى إلى نشوء الهياكل المبكّرة للدولة في الفترة بعد الميلاد. يمكن القول باختصار إنه ابتداءً من النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد تطوّرت في أجزاء واسعة من أفريقيا ظروف ثقافية استمرّت في ملامحها الأساسية في النهاية حتى بداية استعمار القارة من قبل الأوروبيين. أما السؤال المركزي حول كيفية انبثاق ظروف العصر الحديدي الثقافية من ثقافات العصر الحجري الحديث المبكّرة تلك في غرب أفريقيا (كثقافة كينتامبو على سبيل المثال) فلا تزال الإجابة المقنِعة عنه أمراً متعذَّراً مع مستوى الأبحاث الحالي. لا يمكن مواصلة تتبّع مصير أولى ثقافات العصر الحجري الحديث المكتمل في غرب أفريقيا، وهكذا لا نعرف ما الذي حدث لمتّحدات مثل أصحاب ثقافة كينتامبو.

2
النشاط الاقتصادي الاستحواذي في الغابات الاستوائية المطيرة في وسط أفريقيا

تُعدّ منطقة الغابات المطيرة في وسط أفريقيا واحدة من أكثر المساحات الطبيعية اتّساعاً في القارة الأفريقية. فهي تمتدّ من سواحل نيجيريا والكاميرون مروراً بحوض زائير وروافده وصولاً إلى شرق أفريقيا، وتشكّل حاجزاً عابراً للقارة الأفريقية. يحدّ منطقة الغابات المطيرة هذه من الشمال والجنوب حزام من السافانا. قيّدت منطقة الغابات المطيرة المعادية للاستيطان حركة الإنسان بشدة منذ البداية وعملت بسبب امتدادها الواسع شرقاً وغرباً كعائق أمام نشوء الروابط عبر القارة بين النصف الجنوبي من أفريقيا والأجزاء الشمالية من القارة. كما أن أبحاث علم الآثار لم تصلْ إلى هذه المناطق إلّا في وقت متأخّر نسبياً، مما جعل مستوى معرفتنا الحالي غير مرضٍ على الإطلاق مقارنة بمستوى معرفتنا بالأجزاء الأخرى من أفريقيا.

حوض الكونغو زائير

يتكوّن الحيّز المركزي من منطقة الغابات المطيرة من حوض الكونغو ـ زائير، الذي يُعدّ من أكبر الأراضي المنخفضة في القارة. قلما تنتظم السهول هناك في تضاريس منبسطة، وقد تميّزت منذ القدم بالأنهار والبحيرات والمستنقعات ومناطق الغابات التي تغمرها المياه على نطاق واسع المرة تلو الأخرى. بالمقابل يندر وجود الأراضي الأعلى قليلاً، وبالتالي الجافة بشكل دائم. وقد سمحت الكميات الكبيرة من الأمطار على مدار السنة ـ مع مواسم مطرية شديدة بصفة خاصة في الربيع وفي الخريف/الشتاء ـ بنشوء غابات استوائية دائمة الخضرة. مع ذلك كانت الغابات المطيرة في وسط أفريقيا أيضاً عرضة للتغييرات في العصر الجليدي المتأخّر والعصر ما بعد الجليدي،

حيث ارتبطت بالتغيّرات المناخية العالمية. قبل 25000 إلى نحو 16000 سنة كان المناخ في حوض الكونغو ـ زائير أشد جفافاً بكثير وأدى إلى غطاء نباتي أشد انكشافاً بشكل كبير. ولكن ازدياد الهطولات بعد ذلك أدى إلى نشوء غطاء نباتي متزايد الكثافة تدريجياً. ومع أننا لا نزال نفتقد معطيات مناخية موثوقة بالنسبة للآلاف التالية من السنين، إلّا أنه يمكننا الانطلاق من أن الامتداد الحالـي للغابات المطيرة تم بلوغه تدريجياً بمرور الزمن، علماً بأنه حلّت مرحلة جفاف طويلة مرة أخرى فـي الفترة قبل الميلاد. من الثابت على أية حال أن الغابات دائمة الخضرة، كما نعرفها اليوم في هذا الإقليم، تشكّلت في أوائل العصر ما بعد الجليدي سلفاً.

كينتامبو في شمال زائير

امتدّ ذلك المجمّع الثقافي للعصر الحجري الحديث المكتمل في الألفية الثانية قبل الميلاد، والذي يتم ربطه بثقافة كينتامبو، من ساحل العاج مروراً بغانـا ونيجيريا والكاميرون وصولاً إلى تخوم الغابات المطيرة في شمال زائير. حتى وإن كان مركز هذه الثقافة يقع في غانا، إلّا أن الفخار النموذجي المزيَّن بدمغة المشط كان منتشراً حتى المناطق الشرقية المذكورة. ترافق ازدهارها فوق ذلك مع الاستقرار المتقدّم والاقتصاد الإنتاجي والاندماج في شبكة واسعة عابرة للأقاليم من الاتصالات وتبادل البضائع. وقد تم العثور على المستوطنات، التي يمكن مقارنتها بمستوطنات كينتامبو في غانا، فـي أوبوبوغو بالقرب من ياوندي فـي الكاميرون مثلاً، حيث أمكن الكشـف عن مستوطنة واسعة مع بقايا منازل وحفر وفخار وأدوات حجرية مصقولة وأحجار طحن وفرك إضافة إلى أدوات حجرية دقيقة، وكلّ هذا ينسجم جيداً مع الصورة التي يمكن رسمها لغانا بناءً على الآثار التي خلّفتها ثقافة كينتامبو. إلى الشرق، في المنطقة الانتقالية بين السافانا والغابات المطيرة في شمال زائير، تمت دراسة العديد من الملاذات الصخرية ومستوطنات الأراضـي المفتوحة بالقرب من نْغوفو، حيث عُثِرَ على فخار مشابه مزيَّن بدمغة المشط وأدوات حجرية مصقولة. من الواضح تماماً أنها كانت عبارة عن معسكرات صيّادين وجامعين عاشوا من الصيد وجمع النباتات البرّية قبل كلّ شيء. ولم يُعثَرْ على مؤشّرات على وجود حيوانات منزلية ونباتات مزروعة، مع ذلك لا يمكن استبعاد الاقتصاد الإنتاجي بشكل قاطع. يتم تأريخ هذه المجمّعات في الفترة ابتداءً من القرن الرابع قبل الميلاد، وبالتالي تندرج في فترة سادت فيها ظروف العصر الحديدي الثقافية في أفريقيا سلفاً.

الأدوات الحجرية الدقيقة في لوبمبان

في أواخر العصر الجليدي، أي قبل 40000 إلى 12000 سنة، كانت أجزاء كبيرة من وسط أفريقيا مأهولة بصيّادي وجامعي العصر الحجري القديم الأعلى أو بالأحرى نهاية العصر الحجري، الذين عاشوا من الصيد وجمع النباتات ومعالجتها بالدرجة الأولى. تنقسم مواقع ذلك الوقت إلى مركّبين مختلفين من التقاليد التقنية. يُسمّى الأول لوبمبان، وهو لا يزال أقرب إلى تقاليد العصر الحجري القديم الأعلى بشكل واضح، وتشمل أشكاله المميّزة أدوات أساسية تمت معالجتها إلى مكاشط ومحكّات ورؤوس مزدوجة ذات سطوح منمَّقة، إضافة إلى رؤوس سهام مثلّثة منمَّقة السطوح كذلك وأشكال صغيرة على هيئة شبه منحرف. أما المركّب الثاني فيتكوّن من أدوات حجرية دقيقة حصراً، أي من أدوات صغيرة وصغيرة جداً على شكل مكاشط ومحكّات ومحافر ومثاقب ورؤوس وأشكال أخرى. تبيّن معطيات الكربون 14 المتوافرة أن المركّبين وُجِدا جنباً إلى جنب بشكل متزامن، ولا يمكن إدراجهما في تعاقب زمني الواحد بعد الآخر. علاوةً على ذلك تم العثور على مواقع تقليدَيّ الأدوات الحجرية كليهما في مجالات حيوية مختلفة كلياً، أي في السافانا ذات الأشجار المتباعدة والمتفرّقة وصولاً إلى مناطق الغابات الأشد كثافةً، بما في ذلك سائر المناطق البينية والانتقالية الممكنة. يشهد هذا على قدرة ملحوظة على التكيّف مع المجال الطبيعي عند أصحاب المركّبين التقنيين كليهما. إذا صنّفنا المواقع التي تضمّ أدوات لوبمبان الحجرية وتلك التي تضمّ الأدوات الحجرية الدقيقة، وذلك في الفترة الممتدّة بين 40000 و12000 قبل الميلاد، لفت نظرنا أن تقليد لوبمبان يقتصر على غرب وشمال غرب وسط أفريقيا بصفة خاصة، بينما تُصادَف مواقع الأدوات الحجرية الدقيقة في الشرق والجنوب الشرقي في الغالب. يقع الكثير من هذه المراكز في مناطق تنتشر فيها اليوم غابات استوائية مطيرة. ولكن إذا أخذنا بالاعتبار أن امتداد الغابات الاستوائية المطيرة خلال العصر الجليدي المتأخّر الأشد جفافاً كان أصغر منه اليوم، وأنه كان متركّزاً في المناطق الوسطى من حوض الكونغو ـ زائير فقط، اتضح لنا أن مواقع التقليدين التقنيين كليهما استثنيا هذه المنطقة تحديداً كما هو واضح، هذا إذا لم يكنْ بالإمكان إرجاع غياب هذه المكتشفات في قلب وسط أفريقيا الاستوائية إلى عدم كفاية الأبحاث في هذه المناطق وحده. على أنه لا بد من التشديد على أن وسط أفريقيا مثّل في العصر الجليدي المتأخّر شديد الجفاف حيّزاً استيطانياً أكثر ملاءمةً بكثير من الناحية المناخية مما وفّرته أجزاء أخرى كثيرة من القارة الأفريقية.

ظلّ الناس يقصدون بعض المواقع التي كانت مأهولة في العصر الجليدي المتأخّر، كالكهوف والملاذت الصخرية، حتى خلال العصر ما بعد الجليدي التالي، وبذلك هي مواقع تتمتَّع بأهمية كبيرة من أجل توصيف الفترة التي أعقبت نهاية العصر الجليدي. طبيعي أن مثل هذه الموجودات متفرّقة ومتباعدة جداً ولا تزال تضعنا أمام الكثير من الأسئلة. ثمة حالة مثيرة للاهتمام يمثّلها كهف ماتوبي

في شمال شرق زائير، والذي كان مأهولاً خلال العصر الجليدي المتأخّر بكامله ويقع في محيط جاف شبيه بالسافانا. وقد تغيّرت هذه الحال مع بداية العصر ما بعد الجليدي، حينما أصبح المناخ أكثر رطوبةً وانتشرت في محيط هذا الكهف غابات استوائية مطيرة خلال مرحلة الاستيطان الأحدث بين 12000 و10000 تقريباً قبل الميلاد.

وقد تم تسجيل مشاهدات مشابهة في مواقع أخرى أيضاً. حيث تتميّز الثقافة المادية عند صيّادي وجامعي أوائل العصر ما بعد الجليدي في وسط أفريقيا الاستوائي بصناعة حجرية دقيقة. لا يسمح مستوى الأبحاث الحالي بعد بتقسيم التطوّر التاريخي- الثقافي لألفيات ما بعد 12000 قبل الميلاد إلى مراحل. كما أن واقع الحال ليس كما لو أن المساحات الطبيعية المختلفة أنتجت مركّبات تقنية مختلفة كلياً.

باكورة الفخار والأدوات الحجرية المصقولة في الغابات المطيرة

ينصّ السؤال المركزي، الذي لا تزال الإجابة عنه بشكل موثوق غير ممكنة، على ما يلي: ابتداءً من أيّ توقيت وفي ظلّ أيّ ظروف بدأ صيّادو وجامعو الغابات المطيرة في وسط أفريقيا بإنتاج الفخار والأدوات الحجرية المصقولة لأول مرة؟ يلفت النظر في ذلك أن كلاً من الفخار والأدوات الحجرية المصقولة كثيراً ما يظهران معاً في المواقع نفسها. ولا يزال ترتيبها الزمني المطلق أمراً معلقاً، ذلك أن بعض هذه المحطّات يبدي حتى آثاراً لمعالجة الحديد. يمتدّ تحديد التواريخ بالكربون 14 حتى الآن بغية جلاء السؤال المطروح آنفاً على مدى الألفية الأولى قبل الميلاد، علماً بأنه يمكن التعرّف على شيء من التراكم في نصفها الثاني. إذا انطلقنا من صحة هذه الملاحظات فإن إنتاج الفخار وصناعة الأدوات الحجرية المصقولة في الغابات المطيرة في وسط أفريقيا لم يبدأا إلّا بشكل متأخّر جداً على ما يبدو وربما في السياق التاريخي ـ الثقافي لأوائل العصر الحديدي. من غير الضروري أن يكون كلّ من الفخار والأدوات الحجرية قد نشأا ارتباطاً بإنتاج الغذاء وبالتالي بالظروف المعيشية في العصر الحجري الحديث المكتمل. والحق أنه ما من مؤشّرات واضحة من ذلك الوقت على تدجين النباتات والحيوانات، مع أنه من الممكن بلا شك تصوّر استغلال نخيل الزيت المنتشر في وسط أفريقيا أيضاً والموجود بأشكاله البرّية، على غرار الحال في منطقة كينتامبو في غرب أفريقيا. بيد أنه لا تتوافر مرتكزات ملموسة لذلك.

ثمة تصوّرات مختلفة فيما يتعلق بالانتقال من نهاية العصر الحجري إلى العصر الحديدي في وسط أفريقيا الاستوائي. هكذا يبدو من الممكن أن الناس في أحدث مواقع نهاية العصر الحجري

كانوا يتوافرون سلفاً على الفخار والأدوات الحجرية المصقولة وأنهم شرعوا بإنتاج الحديد بمرور الوقت؛ بموجب ذلك كان هناك انتقال تدريجي إلى العصر الحديدي. على أنه من الممكن أيضاً أنه كان هناك في تلك الفترة الانتقالية تحديداً تعايش بين مجموعات متفاوتة التطوّر، تمسّك بعضها بأشكال حياة واقتصاد نهاية العصر الحجري، في حين كان بعضها الآخر قد بدأ بإنتاج الحديد. لايسمح مستوى الأبحاث الحالي بالبتّ في كيفية حدوث هذا التطوّر. أيّاً كان مسار هذا التطوّر، لا يمكن أن يكون قد حدث إلّا خلال النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد، وفي أغلب الظنّ ابتداءً من القرن الرابع/الثالث قبل الميلاد.

تطوّر الفخار في حوض الكونغو زائير

يمكن جمع الفخار المبكّر في حوض الكونغو ـ زائير من النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد ومن الألفية الأولى بعد الميلاد في ثلاث مجموعات مختلفة من الأشكال، تعاقبت الواحدة بعد الأخرى إلى حد بعيد، مع بعض التراكبات. يرجع تاريخ أقدمها، والمسمّاة أفق إمبونغا، إلى النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد. ليس هناك بعد أيّ ربط صريح مع ظروف العصر الحديدي الثقافية، بل يبدو كما لو أن هذه الأواني الفخارية لا تزال على صلة بالظروف الثقافية لنهاية العصر الحجري. أما أفق باتالينو ـ مالوبا فهو أحدث قليلاً، أي خلال الانتقال من الألفية الأولى قبل الميلاد إلى الألفية الأولى بعد الميلاد، وينطبق عليه الشيء نفسه، أي عدم إمكانية توثيق أيّ تقنية حديدية بعد.

بالمقابل فإن أصحاب أحدث مجموعة من الأشكال الفخارية، وهي بيكوندا-موندا، التي تمثّل القرون الأولى بعد الميلاد، مارسوا تعدين الحديد سلفاً. إذا صحّت هذه الملاحظات فهي تعني أن العصر الحديدي في الغابات الاستوائية المطيرة في حوض الكونغو ـ زائير الداخلي بدأ متأخّراً نسبياً، أي بعد ولادة المسيح. يتناقض هذا بعض الشيء مع الموجودات في الغابون المجاورة غرباً، حيث يُفترَض أن العصر الحديدي بدأ في النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد. يمكن أن يُستنتَج من ذلك أن بداية معالجة الحديد أيضاً ربما خضعت لتدرّج زمني من الساحل الأطلسي لوسط أفريقيا باتجاه الغابات الاستوائية المطيرة الأكثر عداءً للاستيطان بكثير في داخل القارة.

لا يزال التوقيت الذي بدأ فيه نمط الاقتصاد الإنتاجي المترافق مع تدجين النباتات والحيوانات خلال عملية التطوّر هذه معلقاً إلى حد كبير. تقدّم مجموعات الفخار الثلاث جميعها مؤشّرات على استغلال نخيل الزيت، من دون أن نكون على يقين بشأن مدى زراعة هذا النوع

النباتي سلفاً. تم العثور في الكاميرون على تحجّرات نباتية (بقايا نباتية متمعدنة) للموز، يُزعَم أنها ترجع إلى نحو 500 قبل الميلاد، غير أن هذه المكتشفات لا تفيد كثيراً فيما يخصّ مسار وتوقيت أقدم ظهور للموز في غرب ووسط أفريقيا. بالتالي فإن الشهادات الموثوقة حول أول إدخال للنباتات المزروعة والحيوانات المنزلية، التي ظهرت في أجزاء واسعة من أفريقيا لأول مرة في العصر الحديدي على أبعد تقدير، غير ممكنة بالنسبة لمناطق الغابات المطيرة في وسط أفريقيا.

3
الظروف الثقافية قبل العصر الحديدي
في شرق وجنوب أفريقيا

نظراً لانعدام التكافؤ الواضح في مستوى الأبحاث لا يزال من الصعب في الوقت الحاضر رسم صورة متماسكة ومضمونة من حيث التعاقب الزمني للتطوّر، من مرحلة الصيد والجمع في أواخر العصر الحجري إلى الظروف الثقافية ذات عناصر الاقتصاد الإنتاجي في أجزاء واسعة من شرق وجنوب أفريقيا. يبدو أن إنجازات العصر الحجري الحديث مثل إنتاج الفخار وتربية الماشية ظهرت في شرق أفريقيا بين البحر الأحمر والمحيط الهندي، والذي يشمل إثيوبيا وإريتريا وكينيا وأجزاء من أوغندا وتنزانيا، في وقت أبكر بشكل واضح مما هي الحال في النصف الجنوبي من القارة، حيث لا يمكننا توثيق هذه العناصر إلّا في الفترة بعد الميلاد، مما يعني أن العصر الحجري دام فيها مدة أطول.

التطوّرات الثقافية في إثيوبيا وإريتريا

تضمّ إثيوبيا وإريتريا مناطق طبيعية متباينة أرغمت الإنسان منذ البداية على أداء تكيّفي شديد التباين. كانت المرتفعات والهضاب على وجه الخصوص صالحة جداً للزراعة، ويُفترَض أن تاريخ النباتات المزروعة في إثيوبيا معقّد جداً. لا يتوافر في الوقت الحاضر سوى القليل من المؤشّرات الموثوقة على تدجين مبكّر للنباتات، وترجع الأدلّة إلى وقت متأخّر إلى حد ما في زمن إمبراطورية أكسوم (من القرن الأول إلى القرن السابع تقريباً بعد الميلاد). على أنه يُفترَض أن هذا التأريخ، وبخلاف الحال في أيّ منطقة أخرى في أفريقيا في أغلب الظنّ، هو نتيجة لانعدام التكافؤ في مستوى الأبحاث بالدرجة الأولى.

الفخار المبكّر والصلات بالنوبة

دام *العصر الحجري المتأخّر* في إثيوبيا حتى نهاية العصر الجليدي، وسادت في أوائل العصر ما بعد الجليدي ثقافات ذات صناعة حجرية دقيقة، فضّل أصحابها أن يقصدوا الملاذات الصخرية. كما أن المناخ الأكثر رطوبةً مع منسوب البحار الأعلى جعل شواطئ البحر مناطق استيطان مفضَّلة وأدى في بعض الأحيان إلى استغلال أشد لموارد الغذاء المائية (أسماك، أصداف..إلخ). صحيح أننا لا نعرف بدقة بعد التوقيت الحقيقي لإنتاج أول فخار في هذا الجزء من العالم، غير أنه من المفترَض أن أولى الأواني الفخارية تم إنتاجها في الألفية الرابعة/الثالثة قبل الميلاد. صحيح أنه تم المرة تلو الأخرى اكتشاف نقاط استيطان تضمّ مكتشفاتها بلطات حجرية مصقولة وشظايا فخارية وحتى قطع حلي، إلى جانب الأدوات الحجرية الدقيقة، ولكن هذه المواد تعود إلى مجموعات سطحية حصراً ولا تأتي من حفريات منهجية. لذلك يصعب تحديد تاريخ المكتشفات وتتعذّر الإجابة بدقة عن السؤال عن مدى صلة بعضها ببعض. يُشار أحياناً إلى روابط معينة مع ما يُسمّى المجموعة C في النوبة، والتي يرجع تاريخها إلى أواخر الألفية الثالثة قبل الميلاد، مما قد يعطي مرتكزاً لجهة الترتيب الزمني المطلق.

لا تختلف الحال فيما يخصّ معالجة المعادن. كما في الأجزاء الأخرى من أفريقيا لم يتم استخدام المعدن في إثيوبيا على نطاق واسع إلّا ابتداءً من العصر الحديدي. غير أن استغلال النحاس والبرونز سبق تعدين الحديد في بعض الأماكن في هذه المناطق، من دون أن نعرف المزيد من التفاصيل عن سياقه الثقافي وعن توقيته. وتظلّ معرفتنا مقصورة على بضعة أشياء قليلة من سياق مكتشفات غير واضح.

أكسوم وبدايات حضارة رفيعة

تظهر أولى الأشياء الحديدية - مع البرونز بين الحين والآخر - ابتداءً من منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد في ما يُسمّى فترة ما قبل أكسوم. ومع فترة أكسوم يبدأ الزمن التاريخي في شمال إثيوبيا، والذي ارتبط بوصول المستوطنين أو حتى المستعمرين من جنوب شبه الجزيرة العربية. فحدث تطوّر في العمارة الضخمة، التي تبدي ملامح من جنوب شبه الجزيرة العربية بشكل واضح. أُضيف إلى ذلك نقوش ومنحوتات من جنوب شبه الجزيرة العربية وشواهد مشابهة على حضارة ذات طبيعة مدينية، كانت وثيقة الصلة بجنوب شبه الجزيرة العربية. ربما ترجع هذه الاتصالات مع

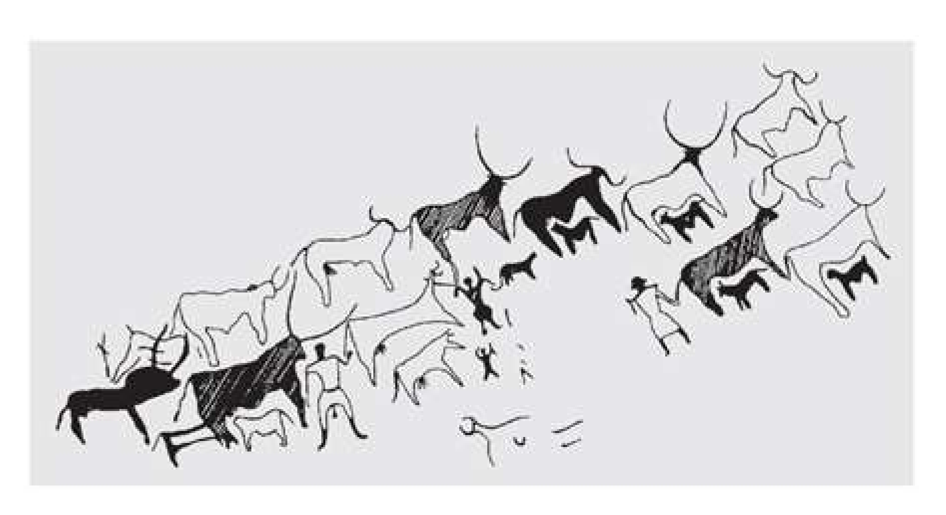
جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن) إلى أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد، غير أن التغييرات الحاسمة في ثقافة أكسوم حصلت في الفترة الممتدّة بين القرن الثامن والقرن الخامس قبل الميلاد. ووصل الأمر في تلك الأثناء إلى تراتبية شديدة في المستوطنات وإلى نشوء مواقع مركزية محصَّنة ومجهّزة بمبانٍ ضخمة شكّلت بالتأكيد مراكز دينية وسياسية هامة للأقاليم الفرعية في مناطق الهضبة والسهول الساحلية لإثيوبيا وإريتريا. ويجوز لنا أن نفترض وجود اقتصاد إنتاجي أيضاً مع زراعة وتربية ماشية في هذه الفترة. في شرق إثيوبيا باتجاه الصومال، أي باتجاه البحر الأحمر، كانت تقع ما تُسمّى أرض بونت، التي تتحدّث عنها المصادر المصرية بوصفها منشأ المواد الخام الغريبة - مثل البخور والذهب وخشب الأبنوس - منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد. تؤكّد هذه الأخبار الاتصالات مع وادي النيل الأوسط والأدنى، غير أن الأبحاث الأثرية في هذه المنطقة لا تزال في بدايتها، بحيث إنه من غير الممكن بعد تدعيم أخبار الموروث المصري بالمكتشفات والموجودات الأثرية إلى حد مقنِع.

تظلّ سائر المؤشّرات على البدء بتدجين النباتات والحيوانات غامضة وقليلة الموثوقية، ولكنها تشير بالتأكيد إلى الفترة ما قبل أكسوم. والحق أن الاتصالات، التي أصبحت وثيقة منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد على أبعد تقدير، مع وادي النيل المصري، حيث كانت الحبوب تُزرَع في وقت مبكّر جداً، تجعل من المحتمَل جداً أن القمح والشعير والأينكورن قد تمت زراعتها في أجزاء من إثيوبيا في وقت مبكّر جداً أيضاً. أما التوقيت الدقيق فيبقى معلقاً. ينطبق الشيء نفسه على نباتات مزروعة أخرى كالدخن والكتان على سبيل المثال، اللذين أمكن توثيقهما في وقت لاحق.

الرعي والرسوم الصخرية

ليس تاريخ الحيوانات المنزلية في هذا الجزء من أفريقيا بأكثر وضوحاً. لم يتم العثور على عظام هذه الأنواع في سياق المكتشفات المؤرَّخة بشكل مؤكَّد قبل فترة أكسوم. مع ذلك ينطلق المرء من أن الرعي (اقتصاد الرعي) في سهول إثيوبيا المرتفعة يرجع إلى زمن بعيد جداً. تمثّل الصور الصخرية مصدراً هاماً لذلك (الشكل 27)، بيد أنها تقترن بدورها بمشكلة تأريخية. إلى جانب الأغنام أو بالأحرى الماعز تم تصوير الأبقار قبل كلّ شيء، حتى إنه يمكن تمييز أنواع مختلفة مثل الأبقار الحدباء والأبقار ذات القرون الطويلة بصفة خاصة. كما يُعثَر بين الموضوعات على مشاهد حلْب أبقار وعلى أبقار تجرّ محراثاً، غير أن توقيت هذه الصور غير واضح. بالتالي لا يمكن القول في الوقت الحاضر سوى إنه من المحتمَل أن تكون تربية الماشية قد ظهرت في أجزاء مختلفة من

إثيوبيا في وقت مبكّر جداً في أعقاب مرحلة الصيد والجمع في نهاية العصر الحجري بوصفها استراتيجية للعيش والاكتفاء الذاتي، بل ربما ظهرت في الألفية الرابعة/الثالثة قبل الميلاد سلفاً، وذلك من دون وجود أدلّة موثوقة على ذلك ولو بشكل تقريبي. أما الزراعة فلم تنضمّ إليها إلّا بعد ذلك بكثير على أية حال.



الشكل 27 : رسوم صخرية من ديري داوا في إثيوبيا

الظروف الثقافية في كينيا وتنزانيا وأوغندا

في أجزاء شرق أفريقيا الواقعة جنوباً، أي فـي مناطق كينيا وتنزانيا وأوغندا من حول بحيرة فيكتوريا، يحاول الباحثون منذ زمن غير قصير تحديد أقدم مجموعات المكتشفات تلك، التي لم تعدْ تبدي طابع *العصر الحجري المتأخّر*، وتحتوي، إلى جانب الأدوات الحجرية الدقيقة، على قدور حجرية ومعدات حجرية مصقولة ومثقَّبة وعلى فخار مبكّر، بوصفها سمات جوهرية لعصر حجري حديث فـي شرق أفريقيا. وهم ينطلقون في ذلك من أنه قد تم إدخال تربية الحيوانات المنزلية مسبقاً، على الرغم من أن الأساس الواقعي لهذه الفرضية لا يبدو موثوقاً جداً على الدوام. هكذا يجري الحديث فيما يتعلق بهذه الأقاليم، لا سيما فيما يخصّ المواقع الواقعة غرب وجنوب بحيرة فيكتوريا، عن عصر حجري حديث رعوي يمثّل الاقتصاد الرعوي بالنسبة لأصحاب ثقافتها استراتيجية العيش الحاسمة، حينما أُضيفت فـي ذلك الوقت إلى الصيد وصيد السمك والجمع كمصدر لكسب القوت.

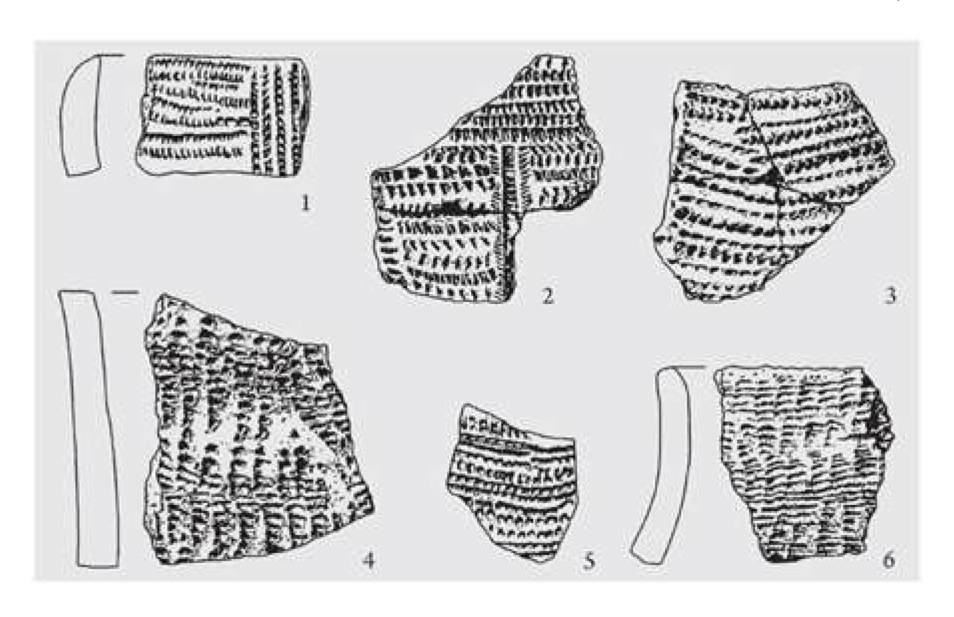
تربية الماشية تكمّل حياة الصيد والجمع

لا يمكن البتّ على وجه اليقين في الوقت الحاضر في توقيت زراعة النباتات لأول مرة، على أن هذه التقنية الثقافية تم تطويرها أو إدخالها بعد تربية الحيوانات بزمن طويل بالتأكيد. تختلف مجموعات الأشكال الفخارية في أوغندا وكينيا وتنزانيا اختلافاً شديداً؛ من هنا يتعذّر رسم صورة واضحة لمسار تطوّر هذه التقنية مثلما يتعذّر تحديد التاريخ بحسب التسلسل الزمني المطلق. بل من المرجَّح أن تظهر فسيفساء متنوّعة من مجموعات الأشكال، حيث غالباً ما يبدو أن تسلسلها الزمني النسبي فقط هو المؤكَّد إلى حد ما. تجدر بالملاحظة المشاهدات في مواقع مجتمعات العصر الحجري الحديث في الوادي المتصدّع المركزي، والتي من الواضح أن غذاءها كان يعتمد إلى حد كبير على استغلال المياه. يعيدنا هذا بالذاكرة إلى الظروف في وسط السودان شمالاً، فضلاً عن أن الشظايا المزيَّنة بالخطوط المتموّجة تشير إلى الشمال أيضاً؛ وقد تشير إلى انتقال مجموعات من وسط السودان، الذي ربما وصلت معارف الاقتصاد الإنتاجي منه إلى شرق أفريقيا شيئاً فشيئاً. لعل الملاحظة التالية تتّفق مع ذلك، وهي أن المرء شرع بتربية الأبقار والأغنام أو بالأحرى الماعز ابتداءً من الألفية الثالثة قبل الميلاد على ما يبدو. بيد أن صحة هذه التواريخ بشأن الشمال هي موضع شكّ؛ بالمقابل يبدو من المؤكَّد أن القدرة على تربية قطعان الماشية لم تصلْ إلى جنوب كينيا وشمال تنزانيا إلّا بعد ذلك بقليل. بيد أنه يمكن تسجيل ازدياد واضح في الأدلّة بالنسبة للفترة ابتداءً من أواخر الألفية الثانية أو بالأحرى ابتداءً من الألفية الأولى قبل الميلاد. كانت تربية قطعان الماشية في هذا الإقليم - إضافة إلى الصيد وصيد السمك والجمع - مجرد واحدة من استراتيجيات العيش والاكتفاء الذاتي في ذلك الوقت، مثلما نعرف هذا من أجزاء أخرى من أفريقيا أيضاً.

أقدم الفخار من كانسيور

لما كانت تفاصيل الإطار الزمني المحدَّد لا تزال بهذا الغموض يمكننا القول: إن تاريخ الاقتصاد الإنتاجي في هذه الأجزاء من شرق أفريقيا لم يُكتَبْ بعد. يتعيّن على المرء بالطبع أن يأخذ بالحسبان أول إنتاج للفخار ابتداءً من الألفية الثالثة قبل الميلاد. ولكن هذا لا يعني أن مُنتجيه قد أتقنوا سلفاً تربية الماشية كذلك. والأرجح أنهم كانوا صيّادين وجامعين أصحاب صناعة حجرية دقيقة - كما هي الحال في أجزاء أخرى من أفريقيا أيضاً - أنتجوا أولى الأواني الفخارية. تُعدّ أواني كانسيور الفخارية من أقدم الأواني الفخارية، ويُفترَض أن إنتاجها بدأ في أوائل الألفية الثالثة قبل الميلاد. وتبيّن حقيقة استمراره حتى منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد أيّ أساس متقلّب ومتأرجح

يقوم عليه التأريخ المطلق لفخار هذه المجموعات الثقافية الرائدة. ولكن من المهم أن نشير إلى أن اواني كانسيور الفخارية تبدي أوجه تشابه مع فخار العصر الحجري الحديث في وسط السودان بلا شك (الشكل 28)، مما يعطي من جديد مؤشّراً لا يُستهان به إلى الاتجاه الذي قد تكون إنجازات العصر الحجري الحديث هذه قد تسلّلت منه إلى شرق أفريقيا.



الشكل 28 : شظايا فخارية من ثقافة كانسيور
في العصر الحجري الحديث في جنوب السودان
ومنطقة بحيرة فيكتوريا.

يمكن إعادة بناء تطوّر عصر حجري حديث مماثل في جزيرة زنجبار قبالة الساحل الشرقي لتنزانيا، حيث تم العثور في المواقع الموافقة على فخار وأدوات حجرية مصقولة ومعدّات عظمية. فضلاً عن ذلك تم العثور هناك على عظام حيوانات برّية وعظام حيوانات مدجَّنة أيضاً. يرجع هذا المجمّع إلى الفترة الممتدّة بين 3000 قبل الميلاد وميلاد المسيح. توضّح هذه الفترة الزمنية مرة أخرى المجال الواسع للتأريخ وتبيّن على أيّ قاعدة غير مؤكَّدة يتحرّك الإلحاق الزمني لهذه الابتكارات الحاسمة في تغيير أشكال الاقتصاد والحياة.

صيّادون وصيّادو سمك وجامعون على ضفاف بحيرة فيكتوريا

تم إجراء أبحاث مكثَّفة في جنوب غرب كينيا، أي في تلك المنطقة الواقعة قبالة الضفاف الشرقية لبحيرة فيكتوريا مباشرةً. حيث تُعدّ أراضي نيانزا الجنوبية ومارا مجالين طبيعين مختلفين،

يتوجّه الأول بجزء من الضفة نحو بحيرة فيكتوريا، في حين أن الثاني عبارة عن سافانا دغلية وعشبية واسعة وتصلح جيداً لتربية الماشية. وقد تم العثور في نيانزا الجنوبية على ضفاف بحيرة فيكتوريا على أكوام عديدة من الأصداف. صحيح أنه لا وجود للفخار فيها بعد، ولكن الصناعة الحجرية الدقيقة الموثَّقة تشير إلى تأريخ يعود إلـى نهاية العصر الحجري. أما أصحاب هذه الثقافة فهم صيّادون وجامعون انصبّ تركيزهم على استغلال موارد الغذاء المائية بناءً على توجّههم إلى ضفاف البحيرة، مع ذلك عاشوا من الصيد والجمع إلـى جانب ذلك. أما الإمداد باللحوم فقد ضمنته الحيوانات البرّية مثل أفراس النيل والجواميس والظباء والخنازير البرّية والتماسيح والطيور كذلك. وقد تم العثور في بعض أكوام الأصداف على فخار شديد الشبه بفخار كانسيور.

هناك مواقع أبعد عن ضفاف بحيرة فيكتوريا مثل شلّالات غوغو، حيث تم العثور على مؤشّرات على تربية الأبقار أيضاً. وبموجب ذلك يبـدو أن استراتيجيات العيش الموجَّهة إلـى موارد بحيرة فيكتوريا كانت تحتل مركز الصدارة على ضفاف البحيرة، في حين لعب الرعي دوراً أكبر في المناطق المجاورة الأبعد ذات السافانا العشبية والدغلية الأكثر صلاحيةً لتربية الماشية. على أن الصيد والجمع حافظا على أهميتهما الكبيرة في ضمان الإمداد بالمواد الغذائية في كلا الحالتين.

تم العثور على أقدم الأدلّة على تربية الأبقار في شلّالات غوغو جنباً إلى جنب مع فخار أولتومي القريب لأواني كانسيور؛ على هذا الأساس يمكن تأريخ فترة النشأة في الألفية الثانية والأولى قبل الميلاد، من دون إمكانية لرسم حدود أكثر دقة لهذه الفترة. لم تمدّنا الموجودات الأحدث بعظام أبقار وحسب، وإنما ببقايا أغنام أو بالأحرى ماعز أيضاً، وذلك جنباً إلى جنب مع فخار إلمنتايتان، ويرجع تاريخ هذا الأخير إلى أواخر الألفية الأولى قبل الميلاد. لا يزال تحديد تاريخ دقيق لجهة التسلسل الزمني المطلق يمثّل المشكلة المركزية لأبحاث ما قبل التاريخ في شرق أفريقيا.

لم يتم العثور فـي أراضي السافانا في مارا الواقعة إلى الشرق سوى على مؤشّرات قليلة إلى حياة الصيد والجمع. من الواضح أن الاستيطان المكثَّف لم يبدأ هناك إلّا مع مربّي الماشية، الذين قاموا على تربية الأبقار قبل كلّ شيء، ولاحقاً الأغنام أو بالأحرى الماعز أيضاً. ينتمي فخارهم إلى تقليد أولديشي من النصف الأول وأواسط الألفية الأولى قبل الميلاد؛ وقد حلّ محله حوالي عام 400 قبل الميلاد فخار إلمنتايتان، الذي دام حتى القرون الأولى بعد الميلاد، وبذلك وصل إلى وقت بدأت فيه معالجة الحديد تفرض نفسها. وانتشرت مجموعات العصر الحديدي الثقافية اللاحقة، التي يمكن تقسيمها إلى تقاليد فخارية مختلفة، من شرق أفريقيا حتى جنوب القارة. وقد عاشت مجتمعات

العصر الحديدي الاستيطانية في شرق أفريقيا من تربية الماشية والزراعة، اللتين شهدتا ازدهاراً هاماً في الفترة بعد الميلاد.

الظروف الثقافية في ملاوي وزامبيا وموزامبيق

بالتزامن مع أفق إمبونغا الثقافي في حوض الكونغو المركزي في زائير بدأ انتشار فخار قريب لإمبونغا في أجزاء واسعة من شرق أفريقيا وجنوبها، بدءاً من المنطقة المحيطة ببحيرة فيكتوريا في الشمال (كينيا، تنزانيا) مروراً بملاوي وزامبيا وموزامبيق وصولاً إلى شرق جنوب أفريقيا. وهو يبدي شرائط مرتَّبة أفقياً تتكون من دمغات وحزوز. يمكن تقسيم هذا الفخار إلى عدة تنويعات إقليمية ويُعرَف باسم فخار تشيفومبازي. ويرجع تاريخه إلى النصف الأول من الألفية الأولى قبل الميلاد ويُفترَض أنه لم يصلْ إلى جنوب أفريقيا إلّا في الفترة بعد الميلاد. كان منتِجو فخار تشيفومبازي على ما يبدو على دراية بتربية الماشية (أبقار وأغنام أو بالأحرى ماعز، وربما دجاج أيضاً) وبالزراعة المبكّرة للنباتات (ذرة رفيعة، دخن).

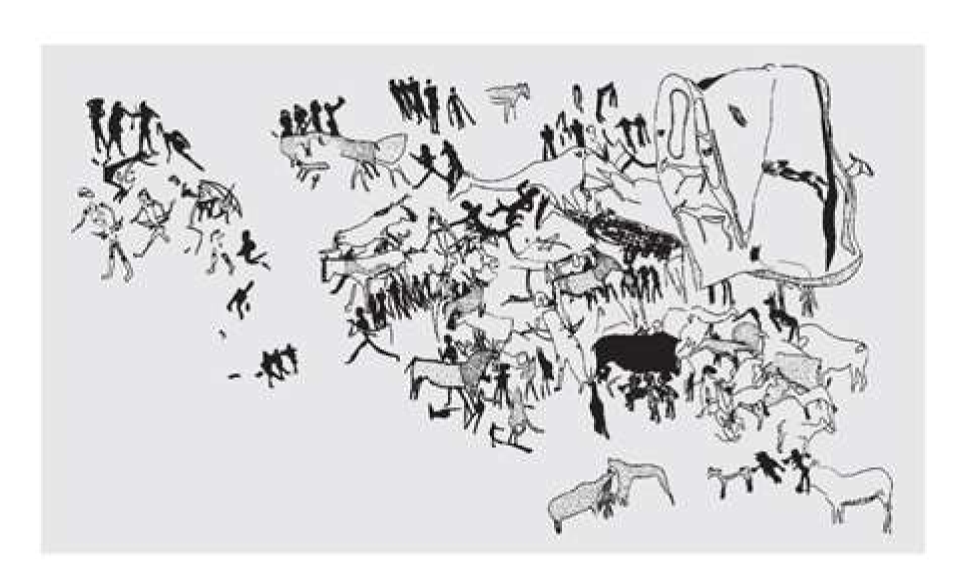
يتم المرة تلو الأخرى ربط انتشار الاقتصاد الإنتاجي الممتدّ من غرب أفريقيا عبر وسط أفريقيا وصولاً إلى جنوب القارة بهجرة قبائل بانتو في الاتجاه نفسه، والتي يُفترَضُ أنها حدثت في القرون حول الميلاد، بحسب الدراسات اللغوية.

الفنّ الصخري في شرق أفريقيا

يقع المرء في منطقة الانتشار نفسها تقريباً، أي من أوغندا وكينيا وتنزانيا مروراً بملاوي وزامبيا وموزامبيق حتى أنغولا وجنوب أفريقيا جزئياً، على فنّ صخري نوعي تماماً له طابع مخيال الصيّادين والجامعين. في شمال أفريقيا، وفي وسط تنزانيا على وجه الخصوص تُصادَف بشكل متزايد تصاوير شبه واقعية لحيوانات ولبشر أيضاً باللون الأحمر، لا يزال بالإمكان التعرّف فيها على مختلف تسريحات الشعر وقطع الملابس والرسوم الجسدية؛ أما الموضوعات الهندسية فهي نادرة. كما قام سكّان المناطق المتاخمة لهذا المجال من الجنوب بتزيين الجدران الصخرية بأشكال بشرية وحيوانية، وبألوان ضاربة للحمرة. غير أن النماذج الهندسية تسود فيها بقدْر أعلى بكثير، مثل الدوائر أو غيرها من الرموز الخطّية المنحنية والمصحوبة بنقاط أو بخطوط قصيرة. لا يزال توقيت هذه الصور معلقاً تماماً؛ ويُفترَض بشدة أنها نشأت بعد الميلاد.

تكشف منطقة الغابات الاستوائية المطيرة في وسط أفريقيا والسافانا والهضاب في شرق أفريقيا إذن عن تأخّر واضح في بدء الاقتصاد الإنتاجي بالمقارنة مع الأجزاء الشمالية من القارة الأفريقية. بل إن هذا الميل أشد وضوحاً فيما يتعلق بجنوب أفريقيا. تلعب أقدم عصور ما قبل التاريخ في ناميبيا دوراً خاصاً في ذلك، لأن البشر، على سفوح جبل براندبرغ وفي أماكن أخرى من البلاد، خلّفوا عدداً لا يُحصى من الرسوم الصخرية والنقوش الصخرية المتميّزة في بعض منها من حيث جودتها، والتي تُعدّ من الأهم في نوعها على مستوى العالم (الشكل 29). من المحطّات البارزة للصور الصخرية رسوم العصر الحجري القديم الأعلى من الفترة ما قبل 32000 إلى 20000 سنة في ما يُسمّى كهف أبولو - 11 في جنوب ناميبيا. تتمتّع هذه الرسوم الصخرية في مختلف درجات اللون الأحمر والأصفر والبنّي إضافة إلى اللون الأسود بجودة جمالية عالية.

إلى جانب جودة تنفيذ الكثير من الصور الحيوانية والبشرية يدهشنا على وجه الخصوص تنوّع الهيئات المقيَّدة في شتّى المشاهد، التي تُظهر، فيما تُظهر، طقوس وأنشطة صيد. غير أن الفترة الزمنية لولادة هذه الرسوم غير واضحة تماماً في هذه الحالة أيضاً، حتى إنه لا يمكن استبعاد توقيت متأخّر جداً.



الشكل 29 : رسوم صخرية من سنيك روك في ناميبيا

رسوم العصر ما بعد الجليدي الصخرية في ناميبيا

يُفترَض أن جلّ الفنّ الصخري في جنوب غرب أفريقيا يتوزّع على مدى الـ 6000 سنة الأخيرة، علماً بأن تسلسله الزمني الداخلي لا يزال غير مؤكَّد. إذا كان من الممكن إعادة بناء التعاقب النسبي على نحو مؤكَّد نوعاً ما، عن طريق الملاحظات الأسلوبية وتراكبات الرسوم، فإن التثبيت المطلق للمجموعات الأسلوبية المتعاقبة يظلّ مشكلة عَصِيَّة على الحلّ. يجري التطوّر من حيث المبدأ العام من التصاوير الأقرب إلى الطبيعة إلى التصاوير التخطيطية أكثر فأكثر، التي تزداد محدودية طيف موضوعاتها باستمرار. إذا وضعنا الصور الصخرية للعصر الحجري القديم الأعلى جانباً، فإن أقدم الصور المعروفة ترجع إلى العصر الحجري الناميبي المتأخر، أي المرحلة C، التي تمتدّ بين 4000 قبل الميلاد وميلاد المسيح تقريباً، علماً بأن معظمها يعود في الغالب إلى وقت متأخّر من هذه الفترة، أي إلى الألفية الأولى قبل الميلاد.

صيّادو وجامعو العصر الحجري الناميبي المتأخّر

وقد أنجز البشر في هذا الوقت صناعة حجرية دقيقة وأتقنوا معالجة العظام وخلّفوا لنا طيفاً غنياً من الأدوات يتألّف من الرؤوس والملاعق والحلي، التي كانوا يرتدونها. كما صنعوا قطع الحلي والأواني من قشور بيض النعام.

من بين العظام الحيوانية تبرز بقايا لظباء على وجه الخصوص، والتي يبدو أنها كانت حيوان الصيد المفضَّل. تبيّن أحجار الطحن أن ممثّلي هذه المرحلة الثقافية كانوا يجمعون النباتات البرّية ويعالجون بذورها. ما من مؤشّرات إلى تربية الماشية أو زراعة النباتات المدجَّنة. نحن نعرف تطوّراً مشابهاً من نصول العصر الحجري القديم الأعلى إلى مجموعات الأدوات الحجرية الدقيقة، التي يمكن إلحاقها بالعصر ما بعد الجليدي، من أجزاء واسعة من النصف الجنوبي من أفريقيا.

إذن، فقد كان أصحاب مرحلة C هذه من العصر الحجر الناميبي المتأخر صيّادين وجامعين حصراً، عاشوا من الصيد والجمع. وقد توزّعت مواقعهم على مناطق بيئية مختلفة. كما نصادفهم في الغرب أيضاً، في المناطق المجاورة للساحل وفي ما يُسمّى صحراء ناميب وكذلك في مناطق السهوب والسافانا. ويمكن إثبات وجود فوارق في تجهيزات هذه المواقع؛ نتيجة للاستغلال المتفاوت للمجالات الحيوية المعنية. هكذا ترجح كفّة الأدوات الحجرية الدقيقة الهندسية المستخدَمة كرؤوس

سهام في المناطق الغربية من الصحراء، التي لعب فيها الصيد دوراً هاماً، في حين تكثر مصادفة أحجار الطحن والفرك في السهوب والسافانا في الشرق، وذلك لتوافر بذور الأعشاب هنا بأعداد أكبر. يزداد تنوّع المكتشفات - من حيث المبدأ - من الغرب نحو الشرق. يرتبط هذا بكون الغطاء النباتي في السهوب والسافانا يقدِّم إمكانات غذائية أكبر من المساحات الصحراوية في غرب ناميبيا. تميّزت ناميبيا إذن، حتى فترة ولادة المسيح، باستراتيجيات غذائية مختلفة جداً بحسب الإقليم.

أولى الحيوانات المنزلية والفخار المبكّر

بدأت بعد ذلك المرحلة D من العصر الحجري الناميبي المتأخّر، والتي امتدّت على مدى الألفية الأولى بعد الميلاد بكاملها. تعود إلى هذه الفترة الرسوم الصخرية التي أخذ طابعها التخطيطي يزداد تدريجياً، والتي لم يعدْ فنّانوها يتناولون سوى مجموعة محدودة من الموضوعات. ظلّ الصيد والجمع يهيمنان على نمط الحياة والاقتصاد حتى في ذلك الوقت المتأخّر، غير أنه أُضيف الآن الفخار المبكّر وأولى الحيوانات المنزلية بشكل متفرّق؛ ومن الواضح أن هذه الأخيرة تمت تربيتها في قطعان صغيرة فقط. وكانت عبارة عن الأغنام، التي تُصادَف في الفنّ الصخري أيضاً؛ وهي ما تُسمّى الأغنام ذات الذيل الدهني، التي تظهر في الصور مع رعيانها كما هو واضح.

استمرار حياة الصيد والجمع

على أن الحاسم في الأمر هو استمرار هيمنة ثقافة الصيّادين والجامعين في جنوب أفريقيا وناميبيا، لا سيما بالمقارنة مع نشوء رعي الأغنام في الصحراء الأفريقية في النصف الشمالي من القارة. فهم لم يغيّروا نمط حياتهم واقتصادهم بشكل جوهري، وإنما اكتفوا بتبنّي عناصر مفردة من تربية الماشية ليس إلّا. كانت الظروف البيئية مستقرّة في إقليمهم في ذلك الوقت وكانت كثافة اتصالاتهم مع الأقاليم الأخرى محدودة للغاية نظراً للموقع المعزول جداً في الغالب. وقد نتج عن الأمرين كليهما عدم وجود أيّ ضغط مناخي - بيئي ولا ثقافي لتغيير الحياة والاقتصاد بشكل جذري.

جنوب القارة الأفريقية قبل إدخال الحديد

لا شك في أن مسار التطوّر بالطريقة التي تم توصيفه بها في ناميبيا يمكن نقله إلى جميع أنحاء جنوب أفريقيا على وجه التقريب، حتى وإن ظلّت ناميبيا فريدة من نوعها نظراً لفنّها

الصخري المتميّز. تستعرض صورتنا الجزء الجنوبي من القارة، الذي ساده الصيّادون والجامعون طوال فترة قبل الميلاد، وكانوا يمارسون الصيد وصيد السمك ويجمعون النباتات البرّية ويعالجونها، وذلك وفقاً لما يوفّره المجال الحيوي المعني. ولم يأخذوا من الخارج بأسباب القدرة على تربية الحيوانات المنزلية وإنتاج باكورة الفخار إلّا في الفترة بعد ميلاد المسيح. وسرعان ما أعقب إدخالَ الفخار وأولى الحيوانات المنزلية وإنتاجَ باكورة الفخار معالجةُ الحديد في كلّ من ناميبيا وجنوب أفريقيا وبوتسوانا وملاوي وموزامبيق وغيرها من البلدان في جنوب القارة الأفريقية. إذن، في حين استمرّ العصر الحجري في جنوب أفريقيا زمناً طويلاً جداً، حدث الانتقال إلى العصر الحديدي في النصف الأول من الألفية الأولى بعد الميلاد بسرعة شديدة. غير أنه حتى وإن نشأت في الفترة اللاحقة مستوطنات قروية، وظهرت تراتبية أشد في المستوطنات مع نشأة المواقع المركزية، واتّسع الاقتصاد الزراعي ليشمل زراعة النباتات المدجَّنة، وأُضيفَت الاتصالات البعيدة، إلّا أنه لا يمكن تسجيل انقطاع فجائي بين المراحل الثقافية. بل يتعلق الأمر بتطوّر جارٍ بشكل متصل، بحيث ألقى طابع العصر الحجري لحياة الصيد والجمع بظلاله على الفترات اللاحقة.

المراجع

I. تطوّر الدماغ البشري وتبعاته الثقافية

B. Adams/B. B. Blades (Hrsg.), Lithic Materials and Paleolithic Societies (Oxford 2009).
S. H. Ambrose, Paleolithic Technology and Human Evolution. Science 291, 2001, 1748–1753.
J. L. Arsuga, Der Schmuck des Neandertalers. Auf der Suche nach den Ursprüngen des menschlichen Bewusstseins (Hamburg, Wien 2003).
N. M. Ashton, The Clactonian Question: On the Interpretation of Core-and-Flake-Assemblages in the British Lower Paleolithic. Journal of World Prehistory 14, 2000, 1–63.
A. D. Barnosky/P. L. Koch/R. S. Feranec/S. L. Wing/A. B. Shabel, Assessing the Causes of Pleistocene Extinctions on Continents. Science 306, 2004, 68–75.
G. Baryshnikov/J. Hoffecker, Mousterian Hunters of the NW Caucasus: Preliminary Results of Recent Investigations. Journal of Field Archaeology 21, 1994, 1–14.
J. M. Bermúdez de Castro/M. E. Nicolás, Palaeodemography of the Atapuerca-SH Middle Pleistocene Hominid Sample. Journal of Human Evolution 33 (2/3), 1997, 333–355.
A. Bick, Steinzeit (Stuttgart 2006).
L. Binford/J.-P. Rigaud (Hrsg.), L'Homme de Neandertal. La Technique (Lüttich 1988).
J.-P. Bocquet-Appel/A. Degioanni, Neanderthal Demographic Estimates. Current Anthropology 54, 2013, 202–213.
J.-P. Bocquet-Appel/A. Tuffreau, Technological Responses of Neanderthals to Macroclimatic Variations (240,000–40,000 BP). Human Biology 81, 2009, 287–307.
F. Bordes, The Old Stone Age (London 1968).
F. Bordes, Typologie du Paléolithique Ancien et Moyen. Mémoires de l'Institut Préhistoriques de l'Université de Bordeaux 1 (Bordeaux 2002).
G. Bosinski, Urgeschichte am Rhein (Tübingen 2008).
L. Bourguignon, Le Moustérien de type Quina: Nouvelle définition d'une entité technique (Paris 1997).
F. H. Brown/J. Harris/R. E. F. Leakey, Early Homo erectus Skeleton from West Lake Turkana, Kenya. Nature 316, 1985, 788–792.
J. D. Clark, The Acheulian Industrial Complex in Africa and Elsewhere. In: R. S. Corrucini/R. L. Ciochon (Hrsg.), Integrative Pathways to the Past (Cliffs, NJ 1994) 451–470.
N. Conard (Hrsg.), Settlement Dynamics of the Middle Palaeolithic and Middle Stone Age (Tübingen 2001).
N. Conard/D. S. Adler, Lithic Reduction and Hominid Behavior in the Middle Paleolithic of Rhineland. Journal of Anthropological Research 53, 1997, 147–175.
I. de la Torre/R. Mora/M. Dominguez-Rodrigo/L. de Luque/L. Alcala, The Oldowan Industry of Peninj and its Bearing on the Reconstruction of the Technological Skills of Lower Pleistocene Hominids. Journal of Human Evolution 44, 2003, 203–224.
A. Debénath/H. L. Dibble, Handbook of Paleolithic Typology 1. Lower and Middle Paleolithic of Europe (Philadelphia 1994).
A. Delagnes/W. Rendu, Shifts in Neandertal Mobility, Technology and Subsistence Strategies in Western France. Journal of Archaeological Science 38, 2011, 1771–1783.
R. W. Dennell, Early Hominin Landscapes in Northern Pakistan: Investigations in the Pabbi Hills. BAR International Series 1265 (Oxford 2004).

H. L. Dibble/O. Bar-Yosef (Hrsg.), The Definition and Interpretation of Levallois Technology. Monographs in World Archaeology 23 (Madison 1995).
M. Domínguez-Rodrigo, Is the «Savanna Hypothesis» a Dead Concept for Explaining the Emergence of the Earliest Hominins? Current Anthropology 55, 2014, 59–81.
M. Dominguez-Rodrigo/I. de la Torre/L. Luque/L. Alcala/R. Mora/J. Serrallonga/V. Medina, The ST Site Complex at Peninj, West Lake Natron, Tanzania: Implications for Early Hominid Behavioural Models. Journal of Archaeological Science 29, 2002, 639–665.
F. Facchini, Die Ursprünge der Menschheit (Stuttgart 2006).
J.-P. Faivre, L'industrie moustérienne du niveau Ks (locus 1) des Fieux (Miers, Lot): Mobilité humaine et diversité des compétences techniques. Bulletin de la Société Préhistorique Française 103, 2006, 16–32.
C. Farizy (Hrsg.), Paléolithique moyen récent et Paléolithique supérieur ancien en Europe 3. Mémoires du Musée de Préhistoire d'Ile-de-France (Paris 1990).
J. Féblot-Augustins, Exploitation des matières premières dans l'Acheuléen d'Afrique: Perspectives comportementales. Paléo 2, 1990, 27–42.
J. Féblot-Augustins, Mobility Strategies in the Late Middle Palaeolithic of Central Europe and Western Europe: Elements of Stability and Variability. Journal of Anthropological Archaeology 12, 1993, 211–265.
J. Féblot-Augustins, Anciens hominidés d'Afrique et premiers témoignages de circulation des matières premières. Archéo Nil 7, 1997, 17–45.
J. Féblot-Augustins, La circulation des matières premières au Paléolithique. Synthèse des données. Perspectives comportementales 75 (Lüttich 1997).
J. Féblot-Augustins, Middle and Upper Palaeolithic Raw Material Transfers in Western and Central Europe: Assessing the Pace of Change. Journal of Middle Atlantic Archaeology 13, 1997, 57–90.
K. E. Fleagle/J. G. Leakey (Hrsg.), The Palaeobiology of Australopithecus (Dordrecht 2013).
H. Forestier, Le Clactonien: mise en application d'une nouvelle méthode de débitage s'inscrivant dans la variabilité des systèmes de production lithique du Paléolithique ancien. Paléo 5, 1993, 53–82.
M. Gabori, Les civilisations de paléolithique moyen entre les Alpes et L'Oural (Budapest 1976).
C. Gaillard, Processing Sequences in the Indian Lower Palaeolithic: Examples from the Acheulian and the Soanian. Indo-Pacific Prehistory Association Bulletin 14, 1996, 57–67.
C. Gamble, The Earliest Occupation of Europe: The Environmental Background. In: W. Roebroeks/T. van Kolksholten (Hrsg.), The Earliest Occupation of Europe (Leiden 1995) 279–295.
C. Gamble/M. Poor, The Hominid Individual in Context: Archaeological Investigations of Lower and Middle Palaeolithic Landscapes, Locales and Artefacts (London 2005).
A. Gardeison, Middle Palaeolithic Subsistence in the West Cave of «Le Portel» (Pyrénées, France). Journal of Archaeological Research 26, 1999, 1145–1158.
J.-M. Geneste, Analyse lithique d'industries moustériennes du Périgord: une approach technologique du comportement des groupes humains au Paléolithique moyen (Bordeaux 1985).
J.-M. Geneste/H. Plisson, Production et utilisation de l'outillage lithique dans le Moustérien du sud-ouest de la France: Les Tares, à Sourzac, Vallée de l'Isle, Dordogne. Quaternaria Nova 6, 1996, 343–68.

J. Gonzáles Echegaray/L. G. Freeman, Le Paléolithique inférieur et moyen en Espagne. Préhistoire d'Europe. Collection l'homme des origines 6 (Grenoble 1998).
D. Gordon, Mousterian Tool Selection, Reduction and Discard at Ghar, Israel. Journal of Field Archaeology 20, 1993, 205–218.
N. Goren, An Upper Acheulian Industry From the Golan Heights. Quartär 29/30, 1979, 105–121.
N. Goren-Inbar/G. Sharon (Hrsg.), Axe Age. Acheulian Too-Making from Quarry to Discard (London 2006).
J. Gowlett/C. Gamble/R. Dunbar, Human Evolution and the Archaeology of the Social Brain. Current Anthropology 53, 2012, 693–722.
R. E. Green/J. Krause/A. W. Briggs/T. Maricic/U. Stenzel/M. Kircher/M. Patterson, A Draft Sequence of the Neandertal Genome. Science 328, 2010, 710–722.
R. E. Green/J. Krause/S. E. Ptak, Analysis of one Million Base Pairs of Neanderthal DNA. Nature 444, 2006, 330–336.
J. Hahn, Aurignacian and Gravettian Settlement Patterns in Central Europe. In: O. Soffer (Hrsg.), The Pleistocene Old World, Regional Perspectives (New York 1987) 251–262.
B. L. Hardy, Neanderthal Behaviour and Stone Tool Function at the Middle Palaeolithic Site of La Quina, France. Antiquity 78 (301), 2004, 547–565.
S. Harmand, Matières premières lithiques et comportements techno-économiques des homininés plio-pléistocènes du Turkana occidental, Kenya (Paris 2005).
K. Harvati/T. Harrison (Hrsg.), Neanderthals Revisited: New Approaches and Perspectives (Dordrecht 2007) 113–133.
R. Hay, Geology of the Olduvai Gorge (Berkeley 1976).
B. Hayden, Neandertal Social Structure? Oxford Journal of Archaeology 31 (1), 2012, 1–26.
R. A. Holloway, Evolution of the Human Brain. In: A. Lock/C. R. Peters (Hrsg.), Handbook of Symbolic Evolution (Oxford 1996) 74–125.
G. L. Isaac, The Diet of Early Man: Aspects of Archaeological Evidence from Lower and Middle Pleistocene Sites in Africa. World Archaeology 2, 1971, 278–289.
G. L. Isaac, The Food Sharing Behavior of Proto-Human Hominids. Scientific American 238, 1978, 90–108.
J. Jacobson, Acheulian Surface Sites in Central India. In: V. N. Misra/P. Bellwood (Hrsg.), Recent Advances in Indo-Pacific Prehistory (Delhi 1985) 49–57.
J. Jaubert/M. Lorblanchet/H. Laville/R. Slott-Moller/A. Turq/J.-P. Brugal, Les Chasseurs d'Aurochs de La Borde (Paris 1990).
V. Jayaswal, Chopper-Chopping Component of Palaeolithic India (Delhi 1982).
I. Karavanič/F. H. Smith, More on the Neanderthal Problem: The Vindija Case. Current Anthropology 41, 2000, 838–840.
B. S. Karir, Geomorphology and Stone Age Culture of Northwestern India (Delhi 1985).
Y. Kimura, Tool-Using Strategies by Early Hominids at Bed II, Olduvai Gorge, Tanzania. Journal of Human Evolution 37, 1999, 807–831.
M. Krings/C. Capelli/F. Tschentscher/H. Geisert/S. Meyer/A. von Haeseler/K. Grossschmidt/G. Possnert/M. Paunovic/S. Pääbo, A View of Neandertal Genetic Diversity. Nature Genetics 26, 2000, 144–146.
S. Kuhn, On Planning and Curated Technologies in the Middle Paleolithic. Journal of Anthropological Research 48, 1992, 185–213.
S. Kuhn, Mousterian Lithic Technology. An Ecological Perspective (Princeton 1995).

S. L. Kuhn, Roots of the Middle Paleolithic in Eurasia. Current Anthropology 54, 2013, 255–268.
S. L. Kuhn/M. C. Stiner, What's a Mother to Do? A Hypothesis About the Division of Labor Among Neandertals and Modern Humans in Eurasia. Current Anthropology 47 (6), 2006, 53–980.
M. D. Leakey, Olduvai Gorge: Excavations in Beds I and II, 1960–1963 (Cambridge 1971).
M. D. Leakey, Cultural Patterns in the Olduvai Sequence. In: K. W. Butzer/G. L. Isaac (Hrsg.), After the Australopithecines (Mouton 1975) 477–493.
M. D. Leakey, Olduvai Gorge: Excavations in Beds III, IV and the Masek Beds, 1968–1971 (Cambridge 1994).
M. D. Leakey/R. E. Leakey (Hrsg.), Koobi Fora Research Project. The Fossil Hominids and an Introduction to their Context, 1968–1974 (Oxford 1978).
C. R. Magill/G. M. Ashley/K. H. Freeman, Ecosystem Variability and Early Human Habits in Eastern Africa. Proceedings of the National Academy of Sciences USA 110, 2013, 1167–1174.
D. Mania, Auf den Spuren des Urmenschen: Die Funde von Bilzingsleben (Stuttgart 1990).
D. Mania, Die Jagd als ein treibender Impuls zur Evolution des Menschen und seiner Kultur. In: H. Meller (Hrsg.), Elefantenreich. Eine Fossilwelt in Europa. Ausstellungskatalog Halle (Halle/Saale 2010) 578–587.
A. Marks/V. Chabai, Constructing Middle Paleolithic Settlement Systems in Crimea: Potentials and Limitations. In: N. Conard (Hrsg.), Settlement Dynamics of the Middle Paleolithic and Middle Stone Age (Tübingen 2001) 179–204.
J. Martinez-Moreno/R. Mora Torcal/I. de la Torre, Oldowan, Rather More Than Smashing Stones: An Introduction to the Technology of First Humans. In: J. M. Moreno/R. M. Torcal/I. T. Sainz (Hrsg.), Oldowan: Rather More Than Smashing Stones (Bellaterra 2003) 11–35.
M. Maslin/B. Christensen, Tectonics, Orbital Forcing, Global Climate Change, and Human Evolution in Africa: Introduction to the African Paleoclimate. Journal of Human Evolution 53, 2007, 443–464.
S. McBrearty, The Middle Pleistocene of East Africa. In: L. Barham/K. Robson-Brown (Hrsg.), Human Roots: Africa and Asia in the Middle Pleistocene (Bristol 2001).
L. Meignen/O. Bar-Yosef/J. Speth/M. Stiner, Changes in Settlement Patterns During the Near Eastern Middle Paleolithic. In: E. Hovers/S. Kuhn (Hrsg.), Transitions Before the Transition: Evolution and Stability in the Middle Paleolithic and Middle Stone Age (New York 2005) 149–170.
P.-A. Mellars, Chronologie du Moustérien du sudouest de la France: actualisation du débat. L'Anthropologie 94, 1989, 1–18.
P. A. Mellars, The Neanderthal Legacy: An Archaeological Perspective from Western Europe (Princeton 1996).
H. Meller (Hrsg.), Paläolithikum und Mesolithikum. Kataloge zur Dauerausstellung im Landesmuseum für Vorgeschichte Halle 1 (Halle/Saale 2004).
H. Meller (Hrsg.), Elefantenreich. Eine Fossilwelt in Europa. Ausstellungskatalog Halle (Halle/Saale 2010).
S. Mishra, The South Asian Lower Palaeolithic. Man and Environment 19(1–2), 1994, 57–72.
V. N. Misra, Middle Pleistocene Adaptations in India. In: O. Soffer (Hrsg.), The Pleistocene Old World. Regional Perspectives (New York 1987) 99–119.

J. M. Moreno/R. M. Torcal/I. T. Sainz (Hrsg.), Oldowan: Rather More than Smashing Stones (Bellaterra 2003).
M. Otte (Hrsg.), L'Homme de Néandertal 6: La subsistence. Études et Recherches Archéologiques de l'Université de Liège (Lüttich 1989).
K. Paddayya, The Acheulian Culture of the Hunsgi Valley (Peninsular India): A Settlement System Perspective (Pune 1982).
R. S. Pappu, Acheulian Culture in Peninsular India (New Delhi 2001).
O. M. Pearson, Hominin Evolution in the Middle-Late Pleistocene Fossils, Adaptive Scenarios, and Alternatives. Current Anthropology 54, 2013, 221–233.
M. E. Peresani, Advancements and Implications in the Study of the Discoid Technology. BAR International Series 1120 (Oxford 2003).
M. Pitts/M. Roberts, Fairweather Eden: Life in Britain Half a Million Years Ago as Revealed by the Excavations at Boxgrove (London 1997).
T. Plummer, Flaked Stones and Old Bones: Biological and Cultural Evolution at the Dawn of Technology. Yearbook of Physical Anthropology, Wiley Interscience 47, 2004, 118–64.
T. Plummer/L. C. Bishop/P. Ditchfield/J. Hicks, Research on Late Pliocene Oldowan Sites at Kanjera South, Kenya. Journal of Human Evolution 36, 1999, 151–170.
R. Potts, Early Hominid Activities at Olduvai (New York 1988).
R. Potts, Why the Oldowan? Plio-Pleistocene Toolmaking and the Transport of Resources. Journal of Anthropological Research 47, 1992, 153–176.
J. Reader, Missing Links: The Hunt for Earliest Man (Harmondsworth 1988).
K. E. Reed, Paleoecological Patterns at the Hadar Hominin Site, Afar Regional State, Ethiopia. Journal of Human Evolution 54, 2008, 743–768.
H. M. Rendell/R. W. Dennell/M. A. Halim, Pleistocene and Palaeolithic Investigations in the Soan Valley, Northern Pakistan. BAR International Series 544 (Oxford 1989).
S. Revillion/A. Tuffreau, Les industries laminaires au Paléolithique moyen. Dossier de Documentation Archéologique 18 (Paris 1994).
H. Roche/A. Delagnes/J.-P. Brugal/C. S. Feibel/M. Kibunjia/V. Mourre/P.-J. Texier, Early Hominid Stone Tool Production and Knapping Skill 2.34 Myr Ago in West Turkana. Nature 399, 1999, 57–60.
H. Roche/M. Kibunjia, Contribution of the West Turkana Plio-Pleistocene Sites to the Archaeology of the Lower Omo/Turkana Basin. Kaupia 6, 1996, 27–30.
M. J. Rogers/J. W. K. Harris/C. S. Feibel, Changing Patterns of Land Use by Plio-Pleistocene Hominids in the Lake Turkana Basis. Journal of Human Evolution 27, 1994, 139–158.
E. J. Rohling/K. M. Grant/A. P. Roberts/J.-C. Larrasoaña, Paleoclimate Variability in the Mediterranean and Red Sea Regions During the Last 500,000 Years. Implications for Hominin Migrations. Current Anthropology 54, 2013, 183–201.
N. Rolland/H. L. Dibble, A New Synthesis of Middle Paleolithic Assemblage Variability. American Antiquity 55, 1990, 480–499.
L. Rose/F. Marshall, Meat Eating, Hominid Sociality, and Home Bases Revisited. Current Anthropology 37, 1996, 307–338.
K. Schick, Modelling the Formation of Early Stone Age Artifact Concentrations. Journal of Human Evolution 16, 1987, 789–808.
K. D. Schick/N. Toth, Making Silent Stones Speak: Human Evolution and the Dawn of Technology (New York 1993).
S. Semaw, The World's Oldest Stone Artifacts from Gona, Ethiopia: Their Implications for Understanding Stone Technology and Patterns of Human Evolution Bet-

ween 2.6–1.5 Million Years Ago. Journal of Archaeological Science 27, 2000, 1197–1214.
S. Semaw/M. J. Rogers/J. Quade/P. R. Renne/R. F. Butler/M. Dominguez-Rodrigo/D. Stout/W. S. Hart/T. Pickering/S. W. Simpson, 2.6-Million-Year-Old Stone Tools and Associated Bones from OGS-6 and OGS-7, Gona, Afar, Ethiopia. Journal of Human Evolution 45, 2003, 169–177.
E. A. Smith/M. Wishnie, Conservation and Subsistence in Small Scale Societies. Annual Review of Anthropology 29, 2000, 493–524.
B. Sørensen, Demography and the Extinction of European Neanderthals. Journal of Anthropological Archaeology 30, 2011, 17–29.
D. Stiles, Early Acheulean and Developed Oldowan. Current Anthropology 20, 1979, 126–129.
D. Stout/J. Quade/S. Semaw/M. J. Rogers/N. E. Levin, Raw Material Selectivity of the Earliest Stone Toolmakers at Gona, Afar, Ethiopia. Journal of Human Evolution 48, 2005, 365–380.
C. B. Stringer/C. Gamble, In Search of the Neanderthals: Solving the Puzzle of Human Origins (London 1993).
A. Takeru/K. Aoki/O Bar-Yosef (Hrsg.), Neandertals and Modern Humans in Western Asia (New York 1998).
I. Tattersall/J. H. Schwartz, Hominids and Hybrids: The Place of Neanderthals in Human Evolution. Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America 96, 1999, 7117–7119.
P. V. Tobias, The Brain of Homo habilis: A New Level of Organisation in Cerebral Evolution. Journal of Human Evolution 16, 1987, 741–761.
M. Tomasello/J. Call, Primate Cognition (Oxford 1997).
N. Toth, The Oldowan Reassessed: A Close Look at Early Stone Artifacts. Journal of Archaeological Science 12, 1985, 101–120.
N. Toth, Behavioral Inferences From Early Stone Artifact Assemblages: An Experimental Model. Journal of Human Evolution 16, 1987, 763–787.
A. Turq, Paléolithique inférieur et moyen entre Dordogne et Lot. Paléo 2, 2000, 1–456.
C. A. Tryon/J. Tyler Faith, Variability in the Middle Stone Age of Eastern Africa. Current Anthropology 54, 2013, 234–254.
P. M. Vermeersch (Hrsg.), Palaeolithic Quarrying Sites in Upper and Middle Egypt. Egyptian Prehistory Monographs 4 (Löwen 2002).
P. Villa, Terra Amata and the Middle Pleistocene Archaeological Record of Southern France (Berkeley 1983).
G. A. Wagner/H. Rieder/L. Zöller/E. Mick (Hrsg.), Homo heidelbergensis. Schlüsselfund der Menschheitsgeschichte (Stuttgart 2007).
A. Walker/R. E. F. Leakey/J. Harris, 2.5 Myr Australopithecus Boisei From West of Lake Turkana, Kenya. Nature 322, 1986, 517–522.
M. J. White/N. M. Ashton, Lower Palaeolithic Core Technology and the Origins of the Levallois Method in NW Europe. Current Anthropology 44 (4), 2003, 598–609.
J. Wymer, The Palaeolithic Age (New York 1982).
T. Wynn, Two Developments in the Mind of Early Homo. Journal of Anthropological Archaeology 12, 1993, 299–322.

II . القفزة الكبيرة إلى الحداثة الثقافية

K. Absolon/B. Klima, Předmostí. Ein Mammutjägerplatz in Mähren (Brünn 1977).

B. Adams, The Middle to Upper Paleolithic Transition in Central Europe: The Record from the Bükk Mountain Region. BAR International Series 693 (Oxford 1998).

B. Adams/B. B. Blades (Hrsg.), Lithic Materials and Paleolithic Societies (Oxford 2009).

B. Adams/A. Ringer, New C14 Dates for the Hungarian Early Upper Palaeolithic. Current Anthropology 45 (4), 2004, 541–551.

D. Amick, Regional Patterns of Folsom Mobility and Land Use in the American Southwest. World Archaeology 27, 1996, 411–426.

D. Anderson, The Evolution of Tribal Social Organization in the Southeastern United States. In: W. Parkinson (Hrsg.), The Archaeology of Tribal Societies, Archaeological Series 15, International Monographs in Prehistory (Ann Arbor 2002) 246–277.

D. Anderson/K. Sassaman (Hrsg.), The Paleoindian and Early Archaic Southeast (Tuscaloosa 1996).

V. Attenbrow, Habitation and Land Use Patterns in the Upper Mangrove Creek Catchment, New South Wales Central Coast, Australia. Australian Archaeology 57, 2003, 20–32.

D. B. Bamforth, High-Tech Foragers? Folsom and Later Paleoindian Technology on the Great Plains. Journal of World Prehistory 16, 2002, 55–98.

J. M. Beaton, Colonizing Continents: Some Problems for Australia and the Americas. In: T. D. Dillehay/D. J. Meltzer (Hrsg.), The First Americans: Search and Research (Boca Raton 1991) 209–230.

C. Beck/G. T. Jones, Late Pleistocene/Early Holocene Occupation in Butte Valley, Eastern Nevada: Three Seasons Work. Journal of California and Great Basin Anthropology 12, 1990, 231–261.

C. Beck/G. T. Jones, The Terminal Pleistocene/Early Holocene Archaeology of the Great Basin. Journal of World Prehistory 11 (2), 1997, 161–236.

R. G. Bednarik, Pleistocene Palaeoart of Asia. Arts 2, 2013, 46–76.

A. Belfer-Cohen/E. Hovers, Modernity, Enhanced Working Memory, and the Middle to Upper Paleolithic Record in the Levant. Current Anthropology 51, 2010, 167–175.

R. L. Bettinger/R. Malhi/H. McCarthy, Central Place Models of Acorn and Mussel Processing. Journal of Archaeological Science 24, 1997, 888–899.

K. T. Biró, Distribution of Obsidian from the Carpathian Sources on Central European Palaeolithic and Mesolithic Sites. Acta Archaeologica Carpathica 23, 1984, 5–42.

B. Blades, Aurignacian Lithic Economy and Early Modern Mobility: New Perspectives from Classic Sites in the Vézère Valley of France. Journal of Human Evolution 37, 1999, 91–120.

B. Blades, Aurignacian Lithic Economy: Ecological Perspectives from Southwestern France (New York 2001).

B. Blades, End Scraper Reduction and Hunter-Gatherer Mobility. American Antiquity 68, 2003, 141–156.

F. Bon, L'Aurignacien entre Mer et Océan: Réflexion sur l'unité des phases anciennes de l'Aurignacien dans le sud de la France. Mémoires de la Société Préhistorique Française 29 (Paris 2002).

J.-G. Bordes/F. Bon/F. Le Brun-Ricalens, Le transport des matières premières lithiques à l'Aurignacien entre le Nord et le Sud de l'Aquitaine: Faits attendus, faits nouveaux.

In: J. Jaubert/M. Barbaza (Hrsg.), Territoires, déplacements, mobilité, échanges durant la Préhistoire (Paris 2005) 185–198.
G. Bosinski, Urgeschichte am Rhein (Tübingen 2008).
J.-P. Bracco, Du site au territoire: L'occupation du sol dans les hautes vallées de la Loire et de l'Allier au Paléolithique supérieur (Massif central). Gallia Préhistoire 38, 1996, 43–67.
C. Clarkson, Explaining Point Variability in the Eastern Victoria River Region, Northern Territory. Archaeology in Oceania 41, 2006, 97–106.
C. Clarkson/L. Lamb (Hrsg.), Lithics «Down Under»: Australian Perspectives on Stone Artefact Reduction, Use and Classification. BAR International Series 1408 (Oxford 2005).
N. J. Conard/S. Kölbl/W. Schürrle (Hrsg.), Vom Neandertaler zum modernen Menschen (Ostfildern 2005).
J. Cook, Characterization and Distribution of Obsidian in Alaska. Arctic Anthropology 32 (1), 1995, 92–100.
I. R. Daniel, Stone Raw Material Availability and Early Archaic Settlement in the Southeastern United States. American Antiquity 66, 2001, 237–266.
A. P. Derevyanko/D. B. Shimkin/W. R. Powers (Hrsg.), The Paleolithic of Siberia: New Discoveries and Interpretations (Illinois 1998).
P. Demars/P. Laurent, Types d'outils lithiques du paléolithique supérieur en Europe (Paris 1989).
B. Demarsin/M. Otto (Hrsg.), Neanderthals in Europe (Lüttich, Tongeren 2006).
M. Digan, Le gisement gravettien de La Vigne-Brun (Loire, France): Étude de l'industrie lithique de l'unité KL19. BAR International Series 1473 (Oxford 2006).
N. Dikov, The Paleolithic of Northeastern Asia and its Relations with the Paleolithic of America. Inter-Nord 17, 1985, 173–177.
F. Djindjan/J. Kozłowski/M Otte, Le paléolithique supérieur en Europe (Paris 1999).
P. M. Dolukhanov/A. M. Shukurov/P. E. Tarasov/G. I. Zaitseva, Colonization of Northern Eurasia by Modern Humans: Radiocarbon Chronology and Environment. Journal of Archaeological Sciences 29, 2002, 593–606.
Eiszeit. Kunst und Kultur. Austellungskatalog Stuttgart (Stuttgart 2010).
J. Enloe, Subsistence Organization in the Early Upper Paleolithic: Reindeer Hunters of the Abri du Flageolet, Couche V. In: H. Knecht/A. Pike-Tay/R. White (Hrsg.), Before Lascaux: The Complex Record of the Early Upper Paleolithic (Boca Raton 1993) 101–115.
C. Farizy (Hrsg.) Paléolithique moyen récent et Paléolithique supérieur ancien en Europe 3 (Nemours 1990).
J. Féblot-Augustins, Middle and Upper Palaeolithic Raw Material Transfers in Western and Central Europe: Assessing the Pace of Change. Journal of Middle Atlantic Archaeology 13, 1997, 57–90.
L. E. Fisher, Blades and Microliths: Changing Contexts of Tool Production from Magdalenian to Early Mesolithic in Southern Germany. Journal of Anthropological Archaeology 25, 2006, 26–38.
H. Floss, Rohmaterialversorgung im Paläolithikum des Mittelrheingebietes (Bonn 1994).
H. Floss/N. Rouquerol/L. Barbot (Hrsg.), Les chemins de l'art aurignacien en Europe. Colloque international Aurignac 2005 (Aurignac 2007).
L. Fontana, Chasseurs magdaléniens et rennes en bassin de l'Aude: Analyse préliminaire. Anthropozoologica 21, 1995, 147–156.
L. Fontana, La chasse au renne au Paléolithique supérieur dans le sud-ouest de la France: Nouvelles hypothèses de travail. Paléo 12, 2000, 141–164.

L. Fontana, Stratégies de subsistance au Badegoulien et au Magdalénien en Auvergne: Nouvelles données. In: Le Paléolithique supérieur récent: Nouvelles données sur le peuplement et l'environnement. Mémoires de la Société Préhistorique Française 28 (Paris 2000) 59–65.

G. Frison, The Clovis Cultural Complex: New Data from Caches of Flaked Stone and Worked Bone Artifacts. In: A. Montet-White/S. Holen (Hrsg.), Raw Material Economies Among Prehistoric Hunter-Gatherers (Lawrence 1991) 321–333.

C. Gamble, The Palaeolithic Societies of Europe (Cambridge 1999).

T. Goebel, Siberian Middle Upper Paleolithic. In: P. Peregrine/M. Ember (Hrsg.), Encyclopedia of Prehistory (New York 2000) 192–196.

T. Goebel, The Early Upper Paleolithic of Siberia. In: P. J. Brantingham/S. L. Kuhn/K. W. Kerry (Hrsg.), The Early Upper Paleolithic Beyond Western Europe (Los Angeles 2004) 162–195.

T. Goebel/I. Buvit (Hrsg.), From the Yenisei to the Yukon: Interpreting Lithic Assemblage Variability in Late Pleistocene/Early Holocene Beringia (College Station 2011).

T. Goebel/W. R. Powers/N. Bigelow, The Nenana Complex of Alaska and Clovis Origins. In: R. Bonnichsen/K. Turnmire (Hrsg.), Clovis Origins and Adaptations (Corvallis 1991) 49–79.

T. Goebel/S. B. Slobodin, The Colonization of Western Beringia: Technology, Ecology, and Adaptations. In: R. Bonnichsen/K. Turnmire (Hrsg.), Ice Age People of North America (Corvallis 1999) 104–154.

T. Goebel/S. B. Slobodin/M. R. Waters, New Dates from Ushki-1, Kamchatka, Confirm 13,000 cal BP Age for Earliest Paleolithic Occupation. Journal of Archaeological Science 37, 2010, 2640–2649.

T. Goebel/M. Waters/M. Dikova, The Archaeology of Ushki Lake, Kamchatka, and the Pleistocene Peopling of the Americas. Science 301, 2003, 501–505.

T. Goebel/M. Waters/M. Meshcherin, Masterov' Kliuch and the Early Upper Paleolithic of the Transbaikal, Siberia. Asian Perspectives 74, 2001, 47–70.

J. Gonzáles Echegaray/L. G. Freeman, Le Paléolithique inférieur et moyen en Espagne. Préhistoire d'Europe. Collection l'homme des origines 6 (Grenoble 1998).

B. Gordon, Of Men and Reindeer Herds in French Magdalenian Prehistory. BAR International Series 390 (Oxford 1988).

J. Hahn, Die Geissenklösterle-Höhle im Achtal bei Blaubeuren. Forschungen und Berichte zur Vor- und Frühgeschichte in Baden-Württemburg 26 (Stuttgart 1988).

T. Hamilton/T. Goebel, Late Pleistocene Peopling of Alaska. In: R. Bonnichsen/K. Turnmire (Hrsg.), Ice Age People of North America (Corvallis 1999) 156–199.

P. Hiscock, Technological Responses to Risk in Holocene Australia. Journal of World Prehistory 8 (3), 1994, 267–292.

P. Hiscock, Mobility and Technology in the Kakadu Coastal Wetlands. Bulletin of the Indo-Pacific Prehistory Association 15, 1996, 151–157.

P. Hiscock, Holocene Coastal Occupation of Western Arnhem Land. In: J. Hall/I. McNiven (Hrsg.), Australian Coastal Archaeology (Canberra 1999) 91–110.

P. Hiscock, Blunt and to the Point: Changing Technological Strategies in Holocene Australia. In: I. Lilley (Hrsg.) Archaeology of Oceania: Australia and the Pacific Islands (Oxford 2006) 69–95.

P. Hiscock, The Archaeology of Ancient Australia (London 2008).

P. Hiscock/H. Allen, Assemblage Variability in the Willandra Lakes. Archaeology in Oceania 35, 2000, 97–103.

P. Hiscock/V. Attenbrow, Australia's Eastern Regional Sequence Revisited: Technology and Change at Capertee 3. BAR International Series 1397 (Oxford 2005).
P. Hiscock/P. Veth, Change in the Australian Desert Culture: A Reanalysis of Tulas from Puntutjarpa. World Archaeology 22, 1991, 332–345.
P. Hiscock/F. Mowat/D. Guse, Settlement Patterns in the Kakadu Wetlands: Initial Data on Site Size and Shape. Australian Aboriginal Studies 2, 1992, 69–74.
J. Hoffecker, Late Pleistocene and Early Holocene Sites in the Nenana River Valley, Central Alaska. Arctic Anthropology 38 (2), 2001, 139–153.
J. Hoffecker/S. A. Elias, Human Ecology of Beringia (New York 2007).
J. Hoffecker/W. R. Powers/N. Bigelow, Dry Creek. In: F. West (Hrsg.), American Beginnings: The Prehistory and Paleoecology of Beringia (Chicago 1996) 343–352.
J. Hoffecker/W. R. Powers/T. Goebel, The Colonization of Beringia and the Peopling of the New World. Science 259, 1993, 46–53.
J. Hofman, Paleoindian Aggregations on the Great Plains. Journal of Anthropological Archaeology 13, 1994, 341–370.
L. Jackson/P. Thacker (Hrsg.), Caribou and Reindeer Hunters of the Northern Hemisphere (Avebury 1997).
G. T. Jones/C. Beck/E. E. Jones/R. E. Hughes, Lithic Source Use and Paleoarchaic Foraging Territories in the Great Basin. American Antiquity 68, 2003, 5–38.
L. H. Keeley, Hunter-Gatherer Economic Complexity and «Population Pressure»: A Cross-Cultural Analysis. Journal of Anthropological Archaeology 7, 1988, 373–411.
R. L. Kelly, Hunter-Gatherer Mobility Strategies. Journal of Archaeological Research 39, 1983, 277–306.
R. L. Kelly, The Foraging Spectrum: Diversity in Hunter-Gatherer Lifeways (Washington 1995).
R. L. Kelly/L. C. Todd, Coming into the Country: Early Paleoindian Hunting and Mobility. American Antiquity 53, 1988, 231–244.
R. G. Klein, Anatomy, Behavior, and Modern Human Origins. Journal of World Prehistory 9, 1995, 167–198.
R. G. Klein, Archeology and the Evolution of Human Behavior. Evolutionary Anthropology 9, 2000, 17–36.
J. K. Kozłowski, Le paléolithique supérieur en Pologne. L'Anthropologie 87, 1983, 49–82.
J. K. Kozłowski (Hrsg.), «Northern» (Erratic and Jurassic) Flint of South Polish Origin in the Upper Palaeolithic of Central Europe (Krakau 1989).
J. K. Kozłowski, The Danubian Gravettian as Seen from the Northern Perspective. In: J. Svoboda (Hrsg.), Paleolithic in the Middle Danube Region (Brünn 1996) 11–22.
J. Krebs/N. Davies, Behavioral Ecology: An Evolutionary Approach (Oxford 1978).
M. Kunz/R. Reanier, Paleoindians in Beringia: Evidence from Arctic Alaska. Science 263, 1994, 660–662.
P. Lieberman, Uniquely Human: The Evolution of Speech, Thought, and Selfless Behaviour (Cambridge 1991).
J. M. Lindly/G. A. Clark, Symbolism and Modern Human Origins. Current Anthropology 31, 1990, 233–261.
B. Marwick, Pleistocene Exchange Networks as Evidence for the Evolution of Language. Cambridge Archaeological Journal 13, 2003, 67–81.
R. Mason, The Paleo-Indian Tradition. The Wisconsin Archaeologist 78, 1997, 78–110.
S. McBrearty/A. S. Brooks, The Revolution that Wasn't: A New Interpretation of the

Origin of Modern Human Behavior. Journal of Human Evolution 39, 2000, 453–563.
P. A. Mellars/C. Stringer (Hrsg.), The Human Revolution: Behavioral and Biological Perspectives in the Origins of Modern Humans (Edinburgh 1989).
H. Meller (Hrsg.), Paläolithikum und Mesolithikum. Kataloge zur Dauerausstellung im Landesmuseum für Vorgeschichte Halle 1 (Halle/Saale 2004).
D. J. Meltzer, Late Pleistocene Human Adaptations in Eastern North America. Journal of World Prehistory 2, 1988, 1–52.
D. J. Meltzer, Modeling the Initial Colonization of the Americas: Issues of Scale, Demography, and Landscape Learning. In: C. M. Barton/G. Clark/D. Yesner/ G. Pearson (Hrsg.), The Settlement of the American Continents (Tucson 2004) 123–137.
D. Morse, Sloan: A Paleoindian Dalton Cemetery in Arkansas (Washington 1997).
R. Müssig, Sie schufen die ersten Götter. Eine Kulturgeschichte der Eiszeit (Karlsruhe 2010).
M. P. Neeley/C. M. Barton, A New Approach to Interpreting Late Pleistocene Microlith Industries in Southwest Asia. Antiquity 68, 1994, 275–288.
W. Noble/I. Davidson, Human Evolution, Language and Mind: A Psychological and Archaeological Enquiry (Cambridge 1996).
M. Oliva, A Gravettian Site with Mammoth-Bone Dwelling in Milovice (Southern Moravia). Anthropologia 26 (2), 1988, 5–12.
A. F. Pawlik, Behavioural Complexity and Modern Traits in the Philippine Upper Palaeolithic. Asian Perspectives 51 (1), 2013, 22–46.
M. D. Petraglia/M. Haslam/D. Q. Fuller/N. Boivin/C. Clarkson, Out of Africa: New Hypotheses and Evidence for the Dispersal of *Homo Sapiens* Along the Indian Ocean Rim. Annals of Human Biology 37 (3), 2010, 288–311.
P. B. Pettitt, Disappearing from the World: An Archaeological Perspective on Neanderthal Extinction. Oxford Journal of Archaeology 18, 1999, 217–241.
P. B. Pettitt, The Palaeolithic Origins of Human Burial (London, New York 2011).
J. Pfieffer, The Emergence of Modern Humans. Mosaic 21 (1), 1990, 15–23.
A. Pike-Tay, Red Deer Hunting in the Upper Paleolithic of Southwestern France: A Study in Seasonality. BAR International Series 569 (Oxford 1991).
W. R. Powers/T. Hamilton, Dry Creek: A Late Pleistocene Human Occupation in Central Alaska. In: A. Bryan (Hrsg.) Early Man in America from a Circum-Pacific Perspective (Edmonton 1978) 72–77.
E. Pozzi, Les Magdaléniens – Art, civilisation, modes de vie, environnement (Grenoble 2004).
M. Rockman/J. Steele (Hrsg.), Colonization of Unfamiliar Landscapes: The Archaeology of Adaptation (London, New York 2003).
J. Sackett, The Archaeology of Solvieux. An Upper Paleolithic Open Air Site in France (Los Angeles 1999).
C. Schrire, The Alligator Rivers: Prehistory and Ecology in Western Arnhem Land. Terra Australia 7 (Canberra 1982).
O. Soffer, Patterns of Intensification as Seen From the Upper Paleolithic of the Central Russian Plain. In: T. Price/J. Brown (Hrsg.), Prehistoric Hunter-Gatherers (New York 1985) 235–270.
O. Soffer, Lithics and Lifeways – the Diversity in Raw Material Procurement and Settlement Systems on the Upper Paleolithic East European Plain. In: A. Montet-White/ S. Holen (Hrsg.), Raw Material Economies Among Prehistoric Hunter-Gatherers. University of Kansas Publications in Anthropology 19 (Lawrence 1991) 221–234.

O. Soffer, Ancestral Lifeways in Eurasia – the Middle and Upper Paleolithic Records. In: M. H. Nitecki/D. V. Nitecki (Hrsg.), Origins of Anatomically Modern Humans (New York 1994) 101–119.

A. Spiess, Reindeer and Caribou Hunters: An Archaeological Study (New York 1979).

M. Street/T. Terberger, The Last Pleniglacial and the Human Settlement of Central Europe: New Information from the Rhineland Site of Wiesbaden-Igstadt. Antiquity 73, 2000, 259–272.

F. Surmely, Le peuplement magdalénien de l'Auvergne. In: Le Paléolithique supérieur récent: Nouvelles données sur le peuplement et l'environnement. Mémoires de la Société Préhistorique Française 28 (Paris 2000) 165–175.

J. Svoboda/V. Ložek/E. Vlček, Hunters Between East and West (New York, London 1996).

Y. Taborin, La parue en coquillage au Paléolithique. Gallia Préhistoire, Supplement 29 (Paris 1993).

Y. Taborin, Shells of the French Aurignacian and Périgordian. In: H. Knecht/A. Pike-Tay/R. White (Hrsg.), Before Lascaux: The Complex Record of the Early Upper Paleolithic (Boca Raton 1993) 211–227.

K. Tankersley, In Search of Ice Age Americans (Salt Lake City 2002).

T. Terberger/B. V. Eriksen (Hrsg.), Hunters in a Changing World. Environment and Archaeology of the Pleistocene–Holocene Transition (ca. 11 000–9000 B. C.) in Northern Central Europe (Rahden 2004).

C. Tolan-Smith, The Social Context of Landscape Learning and the Lateglacial-Early Postglacial Recolonizations of the British Isles. In: M. Rockman/J. Steele (Hrsg.), Colonization of Unfamiliar Landscapes: The Archaeology of Adaptation (London, New York 2003) 116–129.

E. Trinkaus (Hrsg.), The Emergence of Modern Humans: Biocultural Adaptations in the Later Pleistocene (Cambridge 1989) 18–41.

A. Turq, Paléolithique inférieur et moyen entre Dordogne et Lot. Paléo 2, 2000, 1–456.

P. Valde-Nowak/A. Nadachowski/M. Wolsan, Upper Palaeolithic Boomerang Made of a Mammoth Tusk in Southern Poland. Nature 329, 1987, 436–438.

K. Valoch, Le paléolithique en Tchéquie et en Slovaquie (Grenoble 1996).

H. van Tan, The Hoabinhian and Before. Bulletin of the Indo-Pacific Prehistory Association 16, 1997, 35–41.

S. Vencl, Hostim. Magdalenian in Bohemia (Prag 1995).

J. Walthall, Rockshelters and Hunter-Gatherer Adaptation to the Pleistocene/Holocene Transition. American Antiquity 63, 1998, 223–228.

F. West, The Archaeology of Beringia (New York 1981).

R. White, Upper Paleolithic Land Use in the Périgord: A Topographic Approach to Subsistence and Settlement. BAR International Series 253 (Oxford 1985).

J. Zilhão/F. d'Errico, The Chronology and Taphonomy of the Earliest Aurignacian and its Implications for the Understanding of Neandertal Extinction. Journal of World Prehistory 13, 1999, 1–68.

III . من المعسكر إلى المدينة المبكّرة في الشرق الأوسط

P. M. M. G. Akkermans, Villages in the Steppe: Late Neolithic Settlement and Subsistence in the Balikh Valley, Northern Syria (Ann Arbor 1993).

P. M. M. G. Akkermans, Northern Syria in the Late Neolithic, ca. 6800–5300 BC. In: W. Orthmann/P. Matthiae/M. al-Maqdissi, Archéologie et Histoire de la Syrie I. La

Syrie de l'époque néolithique à l'âge du fer. Schriften zur Vorderasiatischen Archäologie 1,1 (Wiesbaden 2013) 17–31.

P. M. M. G. Akkermans / R. Cappers / C. Cavallo / O. Nieuwenhuyse / B. Nilhamn / I. N. Otte, Investigating the Early Pottery Neolithic of Northern Syria: New Evidence from Tell Sabi Abyad. American Journal of Archaeology 110, 2006, 123–156.

R. G. Allaby / T. A. Brown, AFLP Data and the Origins of Domesticated Crops. Genome 46, 2003, 448–453.

E. Asouti / D. Q. Fuller, From Foraging to Farming in the Southern Levant: The Development of Epipalaeolithic and Pre-Pottery Neolithic Plant Management Strategies. Vegetation History and Archaeobotany 21, 2012, 149–162.

E. Asouti / D. Q. Fuller, A Contextual Approach to the Emergence of Agriculture in Southwest Asia. Reconstructing Early Neolithic Plant-Food Production. Current Anthropology 54, 2013, 299–345.

O. Aurenche, La tradition architecturale à l'est de la Mésopotamie (Iran–Turkménistan) de 10e au 4e millénaires. In: L'Archéologie de la Bactriane Ancienne. Actes du Colloque franco-soviétique Dushanbe 1982 (Paris 1985) 235–239.

D. Baird, Pınarbaşı. Anatolian Archaeology 11, 2005, 12–13.

E. B. Banning / M. Chazan (Hrsg.), Domesticating Space: Construction, Community, and Cosmology in the Late Prehistoric Near East (Berlin 2006).

O. Bar-Yosef, The PPNA in the Levant – an Overview. Paléorient 15 (1), 1989, 57–63.

O. Bar-Yosef, The Natufian Culture in the Levant. Threshold to the Origins of Agriculture. Evolutionary Anthropology 6, 1999, 159–177.

K. Bartl, Vorratshaltung. Die spätepipaläolithische und frühneolithische Entwicklung im westlichen Vorderasien (Berlin 2004).

M. Benz, Die Neolithisierung im Vorderen Orient. Theorien, archäologische Daten und ein ethnologisches Modell. Studies in Early Near Eastern Production, Subsistence and Environment 7 (Berlin 2008^2).

R. Bernbeck, Die Auflösung der häuslichen Produktionsweise. Das Beispiel Mesopotamien (Berlin 1994).

P. F. Biehl, Rapid Change Versus Long-Term Social Change During the Neolithic-Chalcolithic Transition in Central Anatolia. Interdisciplinaria Archaeologica. Natural Sciences in Archaeology 3 (1), 2012, 75–83.

N. Boivin, Life Rhythms and Floor Sequences: Excavating Time in Rural Rajasthan and Neolithic Çatalhöyük. World Archaeology 31, 2000, 367–388.

D. Bolger / L. C. Maguire (Hrsg.), The Development of Pre-State Communities in the Ancient Near East. Studies in Honour of Edgar Peltenburg. Themes from the Ancient Near East BANEA Publication Series 2 (Oxford 2010).

R. J. Braidwood / B. Howe, Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan. Studies in Ancient Oriental Civilization 31 (Chicago 1960).

C. Breniquet, La disparition de la culture de Halaf: Les origines de la culture d'Obeid dans le nord de la Mésopotamie (Paris 1996).

S. Campbell / D. Baird, Excavations at Ginnig, the Aceramic to Early Ceramic Neolithic Sequence in North Iraq. Paléorient 16 (2), 1990, 65–78.

R. T. J. Cappers / S. Bottema (Hrsg.), The Dawn of Farming in the Near East. Studies in Near Eastern Production, Subsistence and Environment 6 (Berlin 2002).

R. A. Carter / G. Philip (Hrsg.), Beyond the Ubaid. Transformation and Integration in the Late Prehistoric Societies of the Middle East. Studies in Ancient Oriental Civilization 63 (Chicago 2010).

«Çatalhöyük», in: Wikipedia, Die freie Enzyklopädie. https://de.wikipedia.org/wiki/%C3%87atalh%C3%B6y%C3%Bck

J. Cauvin, Naissance des divinités – Naissance de l'agriculture. La Révolution des symboles au Néolithique (Paris 1994).

J. Cauvin, The Birth of the Gods and the Origins of Agriculture (Cambridge 2000).

J. Cauvin, The Symbolic Foundations of the Neolithic Revolution in the Near East. In: I. Kuijt (Hrsg.), Life in Neolithic Farming Communities. Social Organization, Identity, and Differentiation (New York, Boston, Dordrecht, London, Moskau 2000) 235–252.

S. Colledge / J. Conolly (Hrsg.), The Origins and Spread of Domestic Plants in Southwest Asia and Europe (Walnut Creek 2007).

E. Coqueugniot, Dja'de, Syrie: un village à la veille de la domestication (seconde moitié du IXe millénaire av. J.-C.). In: J. Guilaine (Hrsg.), Premiers paysans du monde. Naissances des agricultures (Paris 2000) 61–79.

E. DeMarrais / C. Gosden / C. Renfrew (Hrsg.) Rethinking Materiality: The Engagement of Mind with the Material World (Cambridge 2004).

B. S. Düring, The Prehistory of Asia Minor. From Complex Hunter-Gatherers to Early Urban Societes (Cambridge, Mass. 2011).

M. Frangipane, Fourth Millenium Arslantepe: The Development of a Centralised Society Without Urbanisation. Origini 34, 2012, 19–40.

A. Garrard, Charting the Emergence of Cereal and Pulse Domestication in South-West Asia. Environmental Archaeology 4, 1999, 67–86.

H.-G. Gebel, There was no Centre: The Polycentric Evolution of the Near Eastern Neolithic. Neo-Lithics 1 (4), 2004, 28–32.

H.-G. Gebel, Commodification and the Formation of Early Neolithic Social Identity. The Issues as Seen from the Southern Jordanian Highlands. In: M. Benz (Hrsg.), The Principle of Sharing. Segregation and Construction of Social Identities at the Transition from Foraging to Farming. Studies in Early Near Eastern Production, Subsistence, and Environment 14 (Berlin 2010) 35–80.

A. N. Goring-Morris / A. Belfer-Cohen, Neolithization Processes in the Levant. The Outer Envelope. Current Anthropology 52, 2011, 195–208.

A. Goring-Morris / A. Nigel / L. K. Horwitz, Funerals and Feasts in the Near Eastern Pre-Pottery Neolithic B. Antiquity 81, 2007, 902–919.

L. Grosman, Preserving Cultural Traditions in a Period of Instability: The Late Natufian of the Hilly Mediterranean Zone. Current Anthropology 44, 2003, 571–580.

T. Hardy-Smith / Ph. C. Edwards, The Garbage Crisis in Prehistory: Artefact Discard Patterns at the Early Natufian Site of Wadi Hammeh 27 and the Origins of Household Refuse Disposal Strategies. Journal of Anthropological Archaeology 23, 2004, 253–289.

H. Hauptmann / K. Schmidt, Anatolien vor 12 000 Jahren: die Skulpturen des Frühneolithikums. In: C. Lichter (Hrsg.), Vor 12 000 Jahren in Anatolien. Die ältesten Monumente der Menschheit. Austellungskatalog Karlsruhe (Stuttgart 2007) 67–82.

D. O. Henry, Prehistoric Cultural Ecology and Evolution. Insights from Southern Jordan (New York, London 1995).

D. O. Henry (Hrsg.), The Prehistoric Archaeology of Jordan. BAR International Series 705 (Oxford 1998).

G. C. Hillman / R. Hedges / A. Moore / S. Colledge / P. Pettit, New Evidence for Late Glacial Cereal Cultivation at Abu Hureyra on the Euphrates. The Holocene 11, 2001, 383–393.

I. Hodder / C. Cessford, Daily Practice and Social Memory at Çatalhöyük. American Antiquity 69, 2004, 17–40.

I. Hodder, Socialization and Feasting at Çatalhöyük. American Antiquity 70, 2005, 189–191.
I. Hodder, Çatalhöyük: The Leopards Tale: Revealing the Mysteries of Turkey's Ancient ‹Town› (London 2006).
I. Hodder/C. Cessford, Daily Practice and Social Memory at Çatalhöyük. American Antiquity 69, 2004, 17–40.
J. L. Huot, Les premiers villageois de Mésopotamie: du village à la ville (Paris 1994).
M. Kislev, Origin of Annual Crops by Agro-Evolution. Israel Journal of Plant Sciences 50, 2002, 85–88.
S. K. Kozłowski/H. G. K. Gebel (Hrsg.), Neolithic Chipped Stone Industries of the Fertile Crescent, and Their Contemporaries in Adjacent Regions. Studies in Early Near Eastern Production, Subsistence, and Environment 3 (Berlin 1996).
I. Kuijt (Hrsg.), Life in Neolithic Farming Communities. Social Organization, Identity, and Differentiation (New York, Boston, Dordrecht, London, Moskau 2000).
I. Kuijt, Keeping the Peace: Ritual, Skull Caching, and Community Integration in the Levantine Neolithic. In: I. Kuijt (Hrsg.), Life in Neolithic Farming Communities. Social Organization, Identity, and Differentiation (New York, Boston, Dordrecht, London, Moskau 2000) 137–162.
I. Kuijt/B. Finlayson, Evidence for Food Storage and Predomestication Granaries 11,000 Years Ago in the Jordan Valley. Proceedings of the National Academy of Sciences 106 (27), 2009, 1066.
C. Lichter (Hrsg.), How Did Farming Reach Europe? Anatolian-European Relations From the Second Half of the 7th Through the First Half of the 6th Millennium cal BC. Proceedings of the International Workshop Istanbul 20–22 May 2004. Byzas 2 (Istanbul 2005).
C. Lichter (Hrsg.), Vor 12.000 Jahren in Anatolien. Die ältesten Monumente der Menschheit. Austellungskatalog Karlsruhe (Stuttgart 2007).
S. Love, Architecture as Material Culture: Building Form and Materiality in the Pre-Pottery Neolithic of Anatolia and Levant. Journal of Anthropological Archaeology 32, 2013, 746–758.
R. Matthews, The Early Prehistory of Mesopotamia. 50,000–4,500 BC (Turnhout 2000).
J. Mellaart, Çatal Hüyük. Stadt aus der Steinzeit (Bergisch Gladbach 1967).
J. Mellaart, The Neolithic of the Near East (London 1975).
S. Mithen, After the Ice: A Global Human History, 20,000–5000 BC (Cambridge, Mass. 2006).
Y. Miyake, Archaeological Survey at Salat Cami Yanı. A Pottery Neolithic Site in the Tigris Valley, South-East Turkey. Anatolica 31, 2005, 1–18.
A. M. T. Moore/G. C. Hillman, The Pleistocene to Holocene Transition and Human Economy in Southwest Asia: The Impact of the Younger Dryas. American Antiquity 57, 1992, 482–494.
A. M. T. Moore/G. C. Hillman/A. J. Legge (Hrsg.), Village on the Euphrates. From Foraging to Farming at Aby Hureyra (New York, Oxford 2000).
P. R. S. Moorey, Ancient Mesopotamian Materials and Industries. The Archaeological Evidence (Oxford 1994).
D. de Moulins, Agricultural Changes at Euphrates and Steppe Sites in the Mid-8th to the 6th Millenium B. C. BAR International Series 683 (Oxford 1997).
N. D. Munro, Zooarchaeological Measures of Hunting Pressure and Occupation Intensity in the Natufian. Implications for Agricultural Origins. Current Anthropology, Supplement 45 (Chicago 2004).

M. Nesbitt, When and Where Did Domesticated Cereals First Occur in Southwest Asia? In: R. T. J. Cappers/S. Bottema (Hrsg.), The Dawn of Farming in the Near East. Studies in Near Eastern Production, Subsistence and Environment 6 (Berlin 2002) 23–45.

O. P. Nieuwenhuyse, Plain and Painted Pottery: The Rise of Neolithic Ceramic Styles on the Syrian and Northern Mesopotamian Plains (Turnhout 2007).

O. P. Nieuwenhuyse/P. M. M. G. Akkermans/J. van der Plicht, Not so Coarse, not Always Plain – the Earliest Pottery of Syria. Antiquity 84, 2010, 71–85.

Y. Nishiaki, Lithic Technology of Neolithic Syria. BAR International Series 840 (Oxford 2000).

Y. Nishiaki/M. Lemière, The Oldest Pottery Neolithic of Upper Mesopotamia: New Evidence from Tell Seker al-Aheimar, the Khabur, Northeast Syria. Paléorient 31 (2) 2005, 55–68.

W. Orthmann/P. Matthiae/M. al-Maqdissi, Archéologie et Histoire de la Syrie I. La Syrie de l'époque néolithique à l'âge du fer. Schriften zur Vorderasiatischen Archäologie 1,1 (Wiesbaden 2013).

M. Özsait, Nouveaux sites contemporains de Hacılar en Pisidie Occidentale. De Anatolia Antiqua 1, 1991, 59–118.

A. Özdoğan, Çayönü. In: M. Özdoğan/N. Başgelen (Hrsg.), Neolithic in Turkey. The Cradle of Civilization. New Discoveries (Istanbul 1999) 35–63.

M. Özdoğan, Mezraa Teleilat. Un site néolithique en bordure de l'Euphrate. Dossiers d'Archéologie 281, 2003, 36–41.

M. Özdoğan/N. Başgelen/P. Kuniholm (Hrsg.), The Neolithic in Turkey. New Excavations and New Research. 1: The Tigris Basin (Istanbul 2011).

M. Özdoğan/N. Başgelen/P. Kuniholm (Hrsg.), The Neolithic in Turkey. New Excavations and New Research. 2: The Euphrates Basin (Istanbul 2011).

M. Özdoğan/N. Başgelen/P. Kuniholm (Hrsg.), The Neolithic in Turkey. New Excavations and New Research. 3: Central Turkey (Istanbul 2012).

M. Özdoğan/N. Başgelen/P. Kuniholm (Hrsg.), The Neolithic in Turkey. New Excavations and New Research. 4: Western Turkey (Istanbul 2012).

M. Özdoğan/N. Başgelen/P. Kuniholm (Hrsg.), The Neolithic in Turkey. New Excavations and New Research. 5: Northwestern Turkey and Istanbul (Istanbul 2013).

M. Özdoğan/Y. Miyake/N. Özbaşaran-Dede, An Interim Report on the Excavations at Yarımburgaz and Toptepe in Eastern Thrace. Anatolica 17, 1991, 59–121.

C. Palmer, The Role of Fodder in the Farming System: A Case Study from Northern Jordan. Environmental Archaeology 1, 1998, 1–10.

E. Peltenburg, Social Space in Early Sedentary Communities of Southwest Asia and Cyprus. In: E. Peltenburg/A. Wasse (Hrsg.), Neolithic Revolution: New Perspectives on Southwest Asia in Light of Recent Discoveries on Cyprus (Oxford 2004) 71–89.

J. Perrot, Le gisement natoufien de Mallaha (Eynan), Israel. L'Anthropologie 70, 1966, 437–83.

J. Peters/A. von den Driesch/D. Helmer, The Upper Euphrates-Tigris Basin: Cradle of Agro-Pastoralism? In: J.-D. Vigne/J. Peters/D. Helmer (Hrsg.), The First Steps of Animal Domestication: New Archaeozoological Approaches (Oxford 2005) 96–124.

J. Peters/D. Helmer/A. von den Driesch/M. Saña, Early Animal Husbandry in the Northern Levant. Paléorient 25 (2), 1999, 27–48.

D. R. Piperno/E. Weiss/I. Holst/D. Nadel, Processing of Wild Cereal Grains in the Upper Palaeolithic Revealed by Starch Grain Analysis. Nature 430, 2004, 670–673.

E. Porada/D. P. Hansen/S. Dunham/S. H. Babcock, Mesopotamia. In: R. W. Ehrich (Hrsg.), Chronologies in Old World Archaeology 1 (Chicago, London 1992) 77–121.

N. Roberts/A. Rosen, Diversity and Complexity in Early Farming Communities of Southwest Asia: New Insights into the Economic and Environmental Basis of Neolithic Çatalhöyük. Current Anthropology 50 (3), 2009, 393–394.

O. Röhrer-Ertl, Über Habitatsgrenzen der Population vom Tell es Sultan/Jericho im Mesolithikum und Präkeramischen Neolithikum anhand paläoökologischer Einzelbefunde. Ethnographisch-Archäologische Zeitschrift 37, 1996, 503–515.

G. O. Rollefson, Ritual and Social Structure at Neolithic 'Ain Ghazal. In: I. Kuijt (Hrsg.), Life in Neolithic Farming Communities. Social Organization, Identity, and Differentiation (New York, Boston, Dordrecht, London, Moskau 2000) 163–190.

D. Rosenberg, Serving Meals Making a Home: The PPNA Limestone Vessel Industry of the Southern Levant and its Importance to the Neolithic Revolution. Paléorient 34 (1), 2008, 23–32.

M. Rosenberg/R. W. Redding, Hallan Çemi and Early Village Organization in Eastern Anatolia. In: I. Kuijt (Hrsg.), Life in Neolithic Farming Communities. Social Organization, Identity, and Differentiation (New York, Boston, Dordrecht, London, Moskau 2000) 39–62.

N. Russell/L. Martin/H. Buitenhuis, Cattle Domestication at Çatalhöyük Revisited. Current Anthropology 46, 2005, 101–108.

W. Schirmer, Some Aspects of the Building in the ‹Aceramic Neolithic› Settlement at Çayönü Tepesi. World Archaeology 21 (3), 1990, 363–387.

K. Schmidt, Frühneolithische Tempel. Ein Forschungsbericht zum präkeramischen Neolithikum Obermesopotamiens. Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft 130, 1998, 17–49.

K. Schmidt, Göbekli Tepe, Southeastern Turkey. A Preliminary Report on the 1995–1999 Excavations. Paléorient 26, 2001, 1, 45–54.

K. Schmidt, «Ritual Centers» and the Neolithisation of Upper Mesopotamia. Neo-Lithics 2 (5), 2005, 13–21.

K. Schmidt, Sie bauten die ersten Tempel. Das rätselhafte Heiligtum der Steinzeitjäger (München 2006).

J. Searle, The Construction of Social Reality (London 1995).

A. Sherratt, Die Anfänge der Landwirtschaft im Vorderen Orient und in Europa. In: A. Sherratt (Hrsg.), Die Cambridge Enzyklopädie der Archäologie (München 1980) 102–111.

A. H. Simmons, Villages on the Edge: Regional Settlement Change and the End of the Levantine Pre-Pottery Neolithic. In: I. Kuijt (Hrsg.), Life in Neolithic Farming Communities. Social Organization, Identity, and Differentiation (New York, Boston, Dordrecht, London, Moskau 2000) 211–234.

A. H. Simmons, The Neolithic Revolution in the Near East: Transforming the Human Landscape (Tucson 2007).

H. Todorova, The Neolithic, Eneolithic and Transitional Period in Bulgarian Prehistory. In: D. W. Bailey/O. Panajotov (Hrsg.), Prehistoric Bulgaria. Monographs in World Archaeology 22 (Madison 1995) 79–98.

H. Todorova, Neue Angaben zur Neolithisierung der Balkanhalbinsel. In: E. Jerem/P. Raczky (Hrsg.), Morgenrot der Kulturen. Frühe Etappen der Menschheitsgeschichte in Mittel- und Südosteuropa. Festschrift für Nándor Kalicz zum 75. Geburtstag (Budapest 2003) 83–88.

T. van Andel, Coastal Migrants in a Changing World? An Essay on the Mesolithic in the Eastern Mediterranean. Journal of the Israel Prehistoric Society 35, 2005, 381–396.
N. I. Vavilov, Centers of Origin of Cultivated Plants. In: V. F. Dorofeyev (Hrsg.), Origin and Geography of Cultivated Plants (Cambridge 1992) 22–143.
M. Verhoeven, Beyond Boundaries: Nature, Culture and a Holistic Approach to Domestication in the Levant. Journal of World Prehistory 18, 2004, 179–282.
M. Verhoeven/P. M. M. G. Akkermans (Hrsg.), Tell Sabi Abyad II, the Pre-Pottery Neolithic B Settlement. Report on the Excavations of the National Museum of Antiquities Leiden in the Balikh Valley, Syria (Istanbul 2000).
J.-D. Vigne/I. Carrère/F. Briois/J. Guilaine, The Early Process of Mammal Domestication in the Near East. New Evidence from the Pre-Neolithic and Pre-Pottery Neolithic in Cyprus. Current Anthropology 52, 2011, 255–271.
M. M. Voigt, Çatal Höyük in Context: Ritual at Early Neolithic Sites in Central and Eastern Turkey. In: I. Kuijt (Hrsg.), Life in Neolithic Farming Communities. Social Organization, Identity, and Differentiation (New York, Boston, Dordrecht, London, Moskau 2000) 253–294.
A. Wasse, The Wild Goats of Lebanon: Evidence for Early Domestication? Levant 33, 2001, 21–33.
T. Watkins, New Light on Neolithic Revolution in South-West Asia. Antiquity 84, 2010, 621–634.
G. Willcox, Geographical Variation in Major Cereal Components and Evidence for Independent Domestication Events in Western Asia. In: R. T. J. Cappers/S. Bottema (Hrsg.), The Dawn of Farming in the Near East. Studies in Near Eastern Production, Subsistence and Environment 6 (Berlin 2002) 64–78.
G. Willcox, Measuring Grain Size and Identifying Near Eastern Cereal Domestication: Evidence from the Euphrates Valley. Journal of Archaeological Science 31, 2004, 145–150.
G. Willcox, Agrarian Change and the Beginnings of Cultivation in the Near East. Evidence from Wild Progenitors, Experimental Cultivation and Archaeological Data. In: R. Denham/P. White (Hrsg.), The Emergence of Agriculture. A Global View (London, New York 2007) 217–241.
G. Willcox, The Adoption of Farming and the Beginnings of the Neolithic in the Euphrates Valley: Cereal Exploitation Between the 12th and 8th Millenia BC. In: S. Colledge/J. Conolly (Hrsg.), The Origins and Spread of Domestic Plants in Southwest Asia and Europe (Walnut Creek 2007) 21–36.
G. Willcox/S. Fornite/L. Herveux, Early Holocene Cultivation Before Domestication in Northern Syria. Vegetation History and Archaeobotany 17, 2008, 313–325.
N. Yoffee/J. J. Clark (Hrsg.), Early Stages in the Evolution of Mesopotamian Civilization. Soviet Excavations in Northern Iraq (Tucson, London 1993).
M. A. Zeder, The Origins of Agriculture in the Near East. Current Anthropology 52, 2011, 221–235.
W. van Zeist, Evidence for Agricultural Change in the Balikh Basin, Northern Syria. In: C. Gosden/J. Hather (Hrsg.), The Prehistory of Food. Appetites for Change (London, New York 1999) 350–373.
D. Zohary, The Mode of Domestication of the Founder Crops of Southwest Asian Agriculture. In: D. R. Harris (Hrsg.), The Origins and Spread of Agriculture and Pastoralism in Eurasia (London 1996) 126–138.
D. Zohary, Domestication of the Southwest Asian Neolithic Crop Assemblage of Cereals, Pulses, and Flax. In: R. Denham/P. White (Hrsg.), The Emergence of Agriculture. A Global View (London, New York 2007) 197–216.

D. Zohary/M. Hopf, Domestication of Plants in the Old World. The Origin and Spread of Cultivated Plants in West Asia, Europe, and the Nile Valley (Oxford 2000[3]).

IV . وادي النيل قبل الحضارة المصرية القديمة

A. Abdel-Magid, Plant Domestication in the Middle Nile Basin: An Archaeobotanical Case Study. Cambridge Monographs in African Achaeology 35. BAR International Series 523 (Oxford 1989).

N. Anfinset, Metal, Nomads and Culture Contact. The Middle East and North Africa (London 2010).

A. J. Arkell, Early Khartoum (Oxford 1949).

K. A. Bard, From Farmers to Pharaohs (Sheffield 1994).

K. A. Bard (Hrsg.), Encyclopedia of the Archaeology of Ancient Egypt (London 1999).

B. E. Barich, People, Water and Grain. The Beginnings of Domestication in the Sahara and the Nile Valley. Studia Archaeologica 98 (Rom 1998).

B. E. Barich, Antica Africa. Alle Origini delle Società (Rom 2010).

G. Barker, The Agricultural Revolution in Prehistory. Why Did Foragers Become Farmers? (Oxford 2006).

P. Bellwood, First Farmers. The Origins of Agricultural Societies (Hongkong 2005).

D. Brewer, Fishermen, Hunters, and Herders: Zooarchaeology in the Fayum, Egypt (ca. 8200–500). BAR International Series 478 (Oxford 1989).

O. Bubenzer/A. Bolten/F. Darius (Hrsg.), Atlas of Cultural and Environmental Change in Arid Africa. Africa Praehistorica 21 (Köln 2007).

O. Bubenzer/H. Riemer, Holocene Climatic Change and Human Settlement Between the Central Sahara and the Nile Valley: Archaeological and Geomorphological Results. Geoarchaeology 22, 2007, 607–620.

I. Caneva (Hrsg.), The History of a Middle Nile Environment 7000 B. C. – A. D. 1500. BAR International Series 424 (Oxford 1988).

I. Chenal-Velarde, Les premières traces de bœuf domestique en Afrique du Nord: état de la recherché centré sur les données archéozoologiques. Archaeozoologia 9, 1997, 11–40.

K. M. Ciałowicz, La naissance d'un royaume. L'Egypte dès la période prédynastique à la fin de la Ière dynastie (Krakau 2001).

A. E. Close, Few and Far Between: Early Ceramics in North Africa. In: W. K. Barnett/ J. W. Hoopes (Hrsg.), The Emergence of Pottery. Technology and Innovation in Ancient Societies (Washington, London 1995) 23–37.

A. E. Close, Sinai, Sahara, Sahel: The Introduction of Domestic Caprines to Africa. In: Tides of the Desert – Gezeiten der Wüste. Beiträge zu Archäologie und Umweltgeschichte Afrikas zu Ehren von Rudolph Kuper. Africa Praehistorica 14 (Köln 2002) 459–469.

A. von den Driesch/J. Boessneck, Die Tierknochenfunde aus der neolithischen Siedlung von Merimde-Benisalame am westlichen Nildelta (München 1985).

J. Eiwanger, Merimde-Benisalame 1: Die Funde der Urschicht (Mainz 1984).

J. Eiwanger, Merimde-Benisalame 2: Die Funde der mittleren Merimdekultur (Mainz 1988).

J. Eiwanger, Merimde-Benisalame 3: Die Funde der jüngeren Merimdekultur (Mainz 1992).

E. Garcea, Cultural Dynamics in the Saharo-Sudanese Prehistory (Rom 1993).

B. Ginter/J. K. Kozłowski, Kulturelle und paläoklimatische Sequenz in der Fayum-Depression. Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts, Abteilung Kairo 42, 1986, 9–23.

R. Haaland, Socio-Economic Differentiation in the Neolithic Sudan. BAR International Series 350 (Oxford 1981).

R. Haaland, Specialized Pastoralism and the Use of Secondary Products in Prehistoric Central Sudan. Archéologie du Nil Moyen 5, 1991, 149–155.

R. Haaland, Fish, Pots and Grains: Early and Mid-Holocene Adaptations in the Central Sudan. African Archaeological Review 10, 1992, 43–64.

R. Haaland/A.-M. Anwar (Hrsg.), Aqualithic Sites along the Rivers Nile and Atbara, Sudan (Bergen 1995).

T. Hägg (Hrsg.), Nubian Culture: Past and Present (Stockholm 1987).

F. A. Hassan, Desert Environment and Origins of Agriculture in Egypt. Norwegian Archaeological Review 19, 1986, 63–76.

F. A. Hassan, The Predynastic of Egypt. Journal of World Prehistory 2 (2), 1988, 135–185.

F. A. Hassan (Hrsg.), Droughts, Food and Culture. Ecological Change and Food Security in Africa's Later Prehistory (New York 2002).

S. Hendrickx, Predynastic. In: E. Hornung/R. Kraus/D. A. Warburton (Hrsg.), Ancient Egyptian Chronology (Leiden, Boston 2006) 68–87.

S. Hendrickx/R. F. Friedman/R. M. Cialowicz/M. Chlodnicki (Hrsg.), Egypt at Its Origins: Studies in Memory of Barbara Adams. Orientalia Lovaniensia Analecta 138 (Löwen 2004).

S. Hendrickx/P. Vermeersch, Prehistory: From the Paleolithic to the Badarian Culture (700 000–4000 BC). In: I. Shaw (Hrsg.), The Oxford History of Ancient Egypt (Oxford 2003) 16–40.

T. Hikade, Silex-Pfeilspitzen in Ägypten. Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts, Abteilung Kairo 57, 2001, 109–125.

M. A. Hoffmann, Egypt Before the Pharaohs: The Prehistoric Foundations of Egyptian Civilization (London 1980).

W. Kaiser, Zur Südausdehnung der vorgeschichtlichen Deltakulturen und zur frühen Entwicklung Oberägyptens. Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts, Abteilung Kairo 41, 1985, 61–87.

L. Krzyzaniak, Early Farming in the Middle Nile Basin: Recent Discoveries at Kadero (Central Sudan). Antiquity 65 (248), 1991, 515–532.

L. Krzyzaniak/M. Kobusiewicz (Hrsg.), Late Prehistory of the Nile Basin and the Sahara. Studies in African Archaeology 2 (Posen 1989).

L. Krzyzaniak/M. Kobusiewicz/J. Alexander (Hrsg.), Environmental Change and Human Culture in the Nile Basin and the Northern Africa until the Second Millenium B. C. Studies in African Archaeology 4 (Posen 1993).

T. Madeyska, The Distribution of Human Settlement in the Extra-Tropical Old World: 24 000–15 000 BP. In: C. Gamble/O. Soffer (Hrsg.), The World at 18,000 BP 1: High Latitudes (Boston, Sydney, Wellington 1990) 24–40.

A. E. Marks/A. Mohammed-Ali (Hrsg.), The Late Prehistory of the Eastern Sahel: The Mesolithic and Neolithic of Shaqadud, Sudan (Dallas 1991).

F. Marshall/E. Hildebrand, Cattle Before Crops: The Beginnings of Food Production in Africa. Journal of World Prehistory 16, 2002, 99–143.

P. Mitchell, African Connections. An Archaeological Perspective on Africa and the Wider World (New York, Oxford, Toronto 2005).

A. S. Mohammed-Ali, Sorourab I: A Neolithic Site in Khartoum Province, Sudan Current Anthropology 25, 1984, 117–119.

J. Reinold, Néolithique soudanais: les coutumes funéraires. In: V. Davies (Hrsg.), Egypt & Africa: Nubia from Prehistory to Islam (London 1991) 16–29.

J. Reinold, Le Néolithique de Haute Nubie – Traditions funéraires et structures sociales. Bulletin de la Société Française d'Egyptologie 143, 1998, 19–40.
J. Reinold, Archéologie au Soudan – Les civilisations de Nubie (Paris 2000).
J. Reinold, Néolithique du Soudan central et de Haute Nubie – données sur le matérial céramique. In: Tides of the Desert – Gezeiten der Wüste. Beiträge zu Archäologie und Umweltgeschichte Afrikas zu Ehren von Rudolph Kuper. Africa Praehistorica 14 (Köln 2002) 203–218.
K. Sadr, The Development of Nomadism in Ancient Northeast Africa (Pennsylvania 1991).
J. Seeher, Maadi, eine prädynastische Kulturgruppe zwischen Oberägypten und Palästina. Prähistorische Zeitschrift 65, 1980, 123–156.
J. Seeher, Ma'adi und Wadi Digla. In: K. A. Bard (Hrsg.), Encyclopedia of the Archaeology of Ancient Egypt (London 1999) 455–458.
P. M. Vermeersch, The Egyptian Nile Valley during the Early Holocene. In: Tides of the Desert – Gezeiten der Wüste. Beiträge zu Archäologie und Umweltgeschichte Afrikas zu Ehren von Rudolph Kuper. Africa Praehistorica 14 (Köln 2002) 27–40.
J. O. Vogel/J. Vogel (Hrsg.), Encyclopedia of Precolonial Africa. Archaeology, History, Languages, Cultures, and Environments (London, New-Delhi 1997).
D. A. Welsby, Life on the Desert Edge – Seven Thousand Years of Settlement in the Northern Dongola Reach, Sudan. BAR International Series 980 (Oxford 2001).
F. Wendorf (Hrsg.), The Prehistory of Nubia (Dallas 1968).
F. Wendorf/R. Schild/N. El Hadidi/A. Close/M. Kobusiewicz/H. Wieczowska/B. Issawi/H. Haas, Use of Barley in the Egyptian Late Paleolithic. Science 205, 1979, 1341–1347.
D. Wengrow, The Archaeology of Early Egypt. Social Transformations in North-East Africa, 10,000 to 2650 BC (Cambridge 2006).
R. J. Wenke/J. E. Long/P. E. Buck, Epi-Paleolithic and Neolithic Subsistence and Settlement in the Fayum Oasis of Egypt. Journal of Field Archaeology 15, 1988, 29–51.
W. Wetterstrom, Foraging and Farming in Egypt: the Transition from Hunting and Gathering to Horticulture in the Nile Valley. In: T. Shaw/P. Sinclair/B. Andah/A. Okpoko (Hrsg.), The Archaeology of Africa. Food, Metals and Towns (London, New York 1993) 165–226.
M. A. J. Williams/H. Faure (Hrsg.), The Sahara and the Nile (Rotterdam 1980).
D. Zohary/M. Hopf, Domestication of Plants in the Old World. The Origin and Spread of Cultivated Plants in West Asia, Europe, and the Nile Valley (Oxford 1993).

٧. التطوّرات المعوِّقة في أفريقيا جنوب الصحراء

S. F. Ambrose, Chronology of the Later Stone Age and Food Production in East Africa. Journal of Archaeological Science 25, 1998, 377–392.

E. Anati, The Rock Art of Tanzania and the East African Sequence. Bollettino del Centro Camuno di Studi Preistorici 23, 1986, 15–68.

J. Anquandah, The Kintampo Complex: A Case Study of Early Sedentism and Food Production in Sub-Sahelian West Africa. In: T. Shaw/P. Sinclair/B. Andah/A. Okpoko (Hrsg.), The Archaeology of Africa. Food, Metals and Towns (London, New York 1993) 255–260.

R. C. Bailey/G. Head/M. Jenike/B. Owen/R. Rechtman/E. Zechenter, Hunting and Gathering in Tropical Rain Forest: Is it Possible? American Anthropologist 91, 1989, 59–82.

L. Barham/P. Mitchell, The First Africans. African Archaeology from the Earliest Tool Makers to Most Recent Foragers (Cambridge 2008).

B. E. Barich, Antica Africa. Alle Origini delle Società (Rom 2010).

G. Barker, The Agricultural Revolution in Prehistory. Why Did Foragers Become Farmers? (Oxford 2006).

T. Barnett, The Emergence of Food Production in Ethiopia. BAR International Series 763 (Oxford 1999).

J. Barthelme, Fisher-Hunters and Neolithic Pastoralists in East Turkana, Kenya. Cambridge Monographs in African Archaeology 13. BAR International Series 254 (Oxford 1985).

P. Bellwood, First Farmers. The Origins of Agricultural Societies (Hongkong 2005).

R. M. Blench/K. C. MacDonald (Hrsg.), The Origins and Development of African Livestock. Archaeology, Genetics, Linguistics and Ethnography (London 2000).

J. Bower, The Pastoral Neolithic of East Africa. Journal of World Prehistory 5, 1991, 49–82.

A. S. Brooks/P. Robertshaw, The Glacial Maximum in Tropical Africa: 22 000–12 000 BP. In: C. Gamble/O. Soffer (Hrsg.), The World at 18,000 BP 2: Low Latitudes (Boston, Sydney, Wellington 1990) 121–169.

O. Bubenzer/A. Bolten/F. Darius (Hrsg.), Atlas of Cultural and Environmental Change in Arid Africa. Africa Praehistorica 21 (Köln 2007).

P. L. Carter/C. Flight, A Report on the Fauna from the Sites of Ntereso and Kintampo Rock Shelter Six in Ghana with Evidence for the Practice of Animal Husbandry During the Second Millennium B. C., Man 7, 1972, 277–282.

J. Casey, The Kintampo Complex. The Late Holocene on the Gambaga Escarpment, Northern Ghana. British Archaeological Reports (Oxford 2000).

J. Casey, Holocene Occupations of the Forest and Savanna. In: A. B. Stahl (Hrsg.), African Archaeology. A Critical Introduction (Oxford 2005) 225–248.

F. Chami, The Unity of African Ancient History: 3000 BC to AD 500 (Dar es Salaam 2006).

R. Chenorkian, Ivory Coast Prehistory: Recent Developments. African Archaeological Review 1, 1983, 127–142.
J. D. Clark, Prehistoric Cultures of the Horn of Africa (Cambridge 1954).
J. D. Clark, The Prehistory of Southern Africa (Berkeley 1959).
J. D. Clark/S. A. Brandt (Hrsg.), From Hunters to Farmers: The Causes and Consequences of Food Production in Africa (Berkeley 1984).
B. Clist, Gabon: 100 000 ans d'histoire (Libreville 1995).
J. Clutton-Brock (Hrsg.), The Walking Larder: Patterns of Domestication, Pastoralism and Predation (London 1989).
G. Connah, Forgotten Africa. An Introduction to its Archaeology (London, New York 2004).
C. K. Cooke, Rock Art of Southern Africa (Kapstadt 1969).
E. Cornelissen, Human Responses to Changing Environments in Central Africa Between 40,000 and 12,000 B. P. Journal of World Prehistory 16, 2002, 197–235.
A. C. D'Andrea/M. Klee/J. Casey, Archaeobotanical Evidence for Pearl Millet (*Pennisetum glaucum*) in Sub-Saharan West Africa. Antiquity 75, 2001, 341–348.
O. Davies, The Origins of Agriculture in West Africa. Current Anthropology 9, 1968, 479–482.
J. Deacon, Later Stone Age of Southernmost Africa. Cambridge Monographs in African Archaeology 12. BAR International Series 213 (Oxford 1984).
J. Deacon, Changes in the Archaeological Record in South Africa at 18 000 BP. In: C. Gamble/O. Soffer (Hrsg.), The World at 18,000 BP 2: Low Latitudes (Boston, Sydney, Wellington 1990) 170–188.
T. Dowson, Rock Engravings of Southern Africa (Johannesburg 1992).
T. Dowson/D. Lewis-Williams (Hrsg.), Contested Images: Diversity in Southern African Rock Art Research (Johannesburg 1994).
M. K. H. Eggert, Central Africa and the Archaeology of the Equatorial Rainforest: Reflections on Some Major Topics. In: T. Shaw/P. Sinclair/B. Andah/A. Okpoko (Hrsg.), The Archaeology of Africa. Food, Metals and Towns (London, New York 1993) 289–329.
C. Flight, The Kintampo Culture and its Place in the Economic Prehistory of West Africa. In: B. K. Swartz/R. E. Dumett (Hrsg.), West African Culture Dynamics: Archaeological and Historical Perspectives (Den Haag, Paris, New York 1980) 91–100.
P. Garlake, The Painted Caves: An Introduction to the Prehistoric Art of Zimbabwe (Harare 1987).
P. Garlake, The Hunter's Vision: The Prehistoric Art of Zimbabwe (Harare 1995).
F. Gasse, Hydrological Changes in the African Tropics since the Last Glacial Maximum. Quarternary Science Review 19, 2000, 189–211.
D. Gifford-Gonzalez, Early Pastoralists in East Africa: Ecological and Social Dimensions. Journal of Anthropological Archaeology 17, 1998, 166–200.
D. Gronenborn/F. Bon/F. Fauvelle-Aymar/K. Sadr, Hirtennomaden zwischen Steinzeit und Neuzeit. Archäologie in Deutschland 2006 (5), 14–19.
J. R. Harlan, Indigenous Agriculture. In: C. W. Cowan/P. J. Watson (Hrsg.), The Origins of Agriculture. An International Perspective (Washington, London 1992) 59–70.
J. R. Harlan/A. B. L. Stemler, The Races of Sorghum in Africa. In: J. R. Harlan/J. M. J. de Wet/A. B. L. Stemler (Hrsg.), Origins of African Plant Domestication (Den Haag 1976) 465–478.
E. A. Hildebrand, Motives and Opportunities for Domestication: An Ethnoarchaeological Study in Southwest Ethiopia. Journal of Anthropological Archaeology 22, 2003, 358–375.

A. F. C. Holl, Houlouf I. Archéologie des sociétés protohistoriques du Nord-Cameroun. BAR International Series 456 (Oxford 1988).

A. Holl, Transition from Late Stone Age to Iron Age in the Sudano-Sahelian Zone: A Case Study from the Perichadian Plain. In: T. Shaw/P. Sinclair/B. Andah/A. Okpoko (Hrsg.), The Archaeology of Africa. Food, Metals and Towns (London, New York 1993) 330–343.

E. Huysecom, Die archäologische Forschung in Westafrika. AVA-Materialien 33 (Bonn 1987).

A. Jerardino, Large Shell Middens in Lamberts Bay, South Africa: A Case of Hunter-Gatherer Resource Intensification. Journal of Archaeological Science 37, 2010, 2291–2304.

Karega-Munene, Holocene Foragers, Fishers and Herders of Western Kenya. BAR International Series 1037 (Oxford 2002).

Karega-Munene, The East African Neolithic: A Historical Perspective. In: C. M. Kusimba/S. B. Kusimba, East African Archaeology. Foragers, Potters, Smiths, and Traders (Philadelphia 2003) 17–32.

B. Keding/R. Vogelsang, Vom Jäger-Sammler zum Hirten. Wirtschaftswandel im nordöstlichen und südwestlichen Afrika. In: B. Gehlen/M. Heinen/A. Tillmann (Hrsg.), Zeit-Räume. Gedenkschrift für Wolfgang Taute 1. Archäologische Berichte 14 (Bonn 2001) 257–282.

J. Kinahan, The Rise and Fall of Nomadic Pastoralism in the Central Namib Desert. In: T. Shaw/P. Sinclair/B. Andah/A. Okpoko (Hrsg.), The Archaeology of Africa. Food, Metals and Towns (London, New York 1993) 372–385.

S. B. Kusimba, Hunter-Gatherer Land Use Patterns in Later Stone Age East Africa. Journal of Anthropological Archaeology 18, 1999, 165–200.

S. B. Kusimba, African Foragers. Environment, Technology, Interactions (Oxford 2003).

C. M. Kusimba/S. B. Kusimba, East African Archaeology. Foragers, Potters, Smiths, and Traders (Philadelphia 2003).

R. Lanfranchi/B. Clist, Aux origines de l'Afrique centrale (Libreville 1991).

M. D. Leakey, Africa's Vanishing Art: The Rock Art Paintings of Tanzania (London 1983).

J. Maley, Vegetation Dynamics, Palaeo-Environments and Climatic Changes in the Forests of Western Cameroon During the last 28 000 Years B. P. Review of Palaeobotany and Palynology 99, 1998, 157–187.

C. W. Marean, Hunter-Gatherer Foraging Strategies in Tropical Grasslands: Model Building and Testing in the East African Middle and Later Stone Age. Journal of Anthropological Archaeology 16, 1997, 189–225.

A. Marliac, De la préhistoire à l'histoire au Cameroun septentrional (Paris 1991).

F. Marshall, Origins of Specialized Pastoralism in East Africa. American Anthropologist 92, 1990, 873–894.

F. Marshall, Archaeological Perspectives on East African Pastoralism. In: R. M. Blech/K.-C. MacDonald (Hrsg.), The Origins and Development of African Lifestock (London 2000) 34–54.

F. Marshall/E. Hildebrand, Cattle Before Crops: The Beginnings of Food Production in Africa. Journal of World Prehistory 16, 2002, 99–143.

S. K. McIntosh, West African Neolithic. In: P. N. Peregrine/M. Ember (Hrsg.), Encyclopedia of Prehistory 1: Africa (New York 2001) 323–338.

S. K. McIntosh/R. J. McIntosh, From Stone to Metal: New Perspectives on the Later Prehistory of West Africa. Journal of World Prehistory 2 (1), 1988, 89–133.

J. Mercader/A. Brooks, Across Forests and Savannas: Later Stone Age Assemblages

from Ituri and Semliki, Democratic Republic of Congo. Journal of Anthropological Research 57, 2001, 197–217.
P. Mitchell, A Palaeoecological Model for Archaeological Site Distribution in Southern Africa During the Upper Pleniglacial and Late Glacial. In: C. Gamble/O. Soffer (Hrsg.), The World at 18,000 BP 2: Low Latitudes (Boston, Sydney, Wellington 1990) 189–205.
P. Mitchell, African Connections. An Archaeological Perspective on Africa and the Wider World (New York, Oxford, Toronto 2005).
P. Mitchell, Modeling Later Stone Age Societies in Southern Africa. In: A. B. Stahl (Hrsg.), African Archaeology. A Critical Introduction (Oxford 2005) 150–173.
A. Muzzolini, A Reappraisal of the «Neolithic» of Tichitt (Mauritania). Journal of Arid Environments 16, 1989, 101–105.
J. Parkington, A View from the South: Southern Africa Before, During, and After the Last Glacial Maximum. In: C. Gamble/O. Soffer (Hrsg.), The World at 18,000 BP 2: Low Latitudes (Boston, Sydney, Wellington 1990) 214–230.
D. W. Phillipson, The Prehistory of Eastern Zambia. British Institute in Eastern Africa Memoir 6 (Nairobi 1976).
D. W. Phillipson, The Antiquity of Cultivation and Herding in Ethiopia. In: T. Shaw/P. Sinclair/B. Andah/A. Okpoko (Hrsg.), The Archaeology of Africa. Food, Metals and Towns (London, New York 1993) 344–357.
J. Richter, The Giraffe People: Namibia's Prehistoric Artists. In: Tides of the Desert – Gezeiten der Wüste. Beiträge zu Archäologie und Umweltgeschichte Afrikas zu Ehren von Rudolph Kuper. Africa Praehistorica 14 (Köln 2002) 523–534.
P. Robertshaw, Gogo Falls: A Complex Site East of Lake Victoria. Azania 26, 1991, 63–195.
P. Robertshaw, The Beginnings of Food Production in Southwestern Kenya. In: T. Shaw/P. Sinclair/B. Andah/A. Okpoko (Hrsg.), The Archaeology of Africa. Food, Metals and Towns (London, New York 1993) 358–371.
P. Robertshaw, Archaeology of African Hunters and Gatherers. In: R. B. Lee/R. Daly (Hrsg.), The Cambridge Encyclopedia of Hunters and Gatherers (Cambridge 1999) 185–189.
P. Robertshaw, The Beginnings of Food Production in Southwestern Kenya. In: T. Denham/P. White (Hrsg.), The Emergence of Agriculture. A Global View (London, New York 2007) 242–262.
K. Sadr, Ancient Pastoralists in the Sudan and in South Africa. In: Tides of the Desert – Gezeiten der Wüste. Beiträge zu Archäologie und Umweltgeschichte Afrikas zu Ehren von Rudolph Kuper. Africa Praehistorica 14 (Köln 2002) 471–484.
C. G. Sampson, Chronology and Dynamics of Later Stone Age Herders in the Upper Seacow River Valley, South Africa. Journal of Arid Environments 74, 2010, 842–848.
J. Sealy/R. Yates, The Chronology of the Introduction of Pastoralism to the Cape, South Africa. Antiquity 68, 1994, 58–67.
T. Shaw, Nigeria: Its Archaeology and Early History (London 1978).
A. Simons, Sugenya: A Pastoral Neolithic Site in South-Western Kenya. Azania 38, 2003, 169–173.
A. B. Stahl, Early Food Production in West Africa: Rethinking the Role of the Kintampo Culture. Current Anthropology 27 (5), 1986, 532–536.
A. B. Stahl, Intensification in the West African Late Stone Age: A View from Central Ghana. In: T. Shaw/P. Sinclair/B. Andah/A. Okpoko (Hrsg.), The Archaeology of Africa. Food, Metals and Towns (London, New York 1993) 261–273.

M. van der Veen (Hrsg.), The Exploitation of Plant Resources in Ancient Africa (New York 1999).
J. O. Vogel/J. Vogel (Hrsg.), Encyclopedia of Precolonial Africa. Archaeology, History, Languages, Cultures, and Environments (London, Neu-Delhi 1997).
N. J. Walker, Zimbabwe at 18,000 BP. In: C. Gamble/O. Soffer (Hrsg.), The World at 18,000 BP 2: Low Latitudes (Boston, Sydney, Wellington 1990) 206–213.
N. J. Walker, Later Pleistocene and Holocene Hunter-Gatherers of the Mapotos. Studies in African Archaeology 10 (Uppsala 1995).
D. Watson, Hunter-Gatherers and the First Farmers of Prehistoric Ghana: The Kintampo Archaeological Research Project. In: R. Mitchell/A. Haour/J. Hobart (Hrsg.), Researching Africas's Past. New Contributions from British Archaeologists. Oxford University School of Archaeology Monograph 57 (Oxford 2003) 61–68.
W. Wetterstrom, The Origins of Agriculture in Africa: With Particular Reference to Sorghum and Pearl Millet. Review of Archaeology 19, 1998, 30–46.

Notes

[1←]

مشيخات - المترجم.